جواهر الأدب

في

أدبيات وإنشاء لغة العرب

تأليف
المرحوم السيد أحمد الهاشمي

طبعة جديدة محققة ومنقحة

اشرفت على تحقيقه وتصحيحه
لجنة من الجامعيين

الجزء الاول

منشورات
مؤسسة المعارف
بيروت

مقدمة

كان أبرز الأهداف المنشودة من «تأسيس الدار» أن تكرس جهودها لخدمة اللغة العربية، لغة القرآن، ما استطاعت الى ذلك سبيلا. فوقفت طاقتها على تحقيق كنوز التراث العربي القديم ونشر ذخائره، كلما أمكنتها الفرص، وساعفتها الظروف. بيد ان مهمة التحقيق بانت عسيرة أول الأمر، لولا أن ذللتها عقول نيّرة، وإرادات خيّرة، وتضحيات كبيرة قام بها رجال أبوا إلا التواضع، فلم يشاؤوا حق التنويه بخدماتهم الجليلة، أو الإشارة بجهودهم المشكورة.

وقد وقعنا في الطبعة الأولى من كتاب «جواهر الأدب» على أخطاء لغوية ننزّه مصنّف الكتاب الجليل عن الوقوع في مثلها، وعلى أخرى مطبعية لا يجوز أن ترد في كتاب قيّم له مثل هذا المقام الرفيع بين أمهات المنتخبات ومراجع الأدب. وحزّ في نفسنا أن تظل الطبعة المتداولة من هذا السِّفْر يشينها عدم الضبط في العديد من المواضع، وتحفل بالعواقب المترتبة على عَجَلة منضد الحروف في المطبعة، فاستخرنا الله، وقررنا الاضطلاع بدفع الكتاب الى لجنة من المحققين الذين حرصوا، بقدر ما يحرص إنسان، على الدقة في تحري النصّ، والتدقيق في إخراجه مطبوعاً في حلة زاهية.

والحق، اننا شعرنا بالحرج من عبء المهمة أول الأمر، لكن اعتزازنا بالكتاب والنصوص الثمينة التي يحويها بين دفتيه، واعتبارنا الأدب العربي مِلكاً قمين بالاعتراف منه كل ناطق بالضاد، وما آليناه على انفسنا من خيرة الله في عدم التفريط بتراثنا الغالي — كل ذلك دفعنا الى مواجهة المشكلة عاملين ما استطعنا على أن نتحاشى الأخطاء التي وقع فيها السابقون، ومعترفين مع ذلك بأن النقص مجبول عليه الانسان، فالكمال لله وحده.

الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أحلى ما سجعتْ بهِ بلابلُ الأقلام ، وأغلى ما انتظمتْ فيه عقودُ البلاغةِ والانْسِجام ، وأشهى ما ينعت بهِ (جَواهر الأدب) حمدُ مولانا الذي شرَّف لغة العرب ، وأرسل لنا نبيّاً عربَيّاً منزهاً عن جميع الرِّيَبِ ، سيدنا محمداً ﷺ وعلى آله ومَنْ صَحب .

(أمَّا بَعْدُ) فهذا كتابٌ سَمَّيتُهُ « جَواهرَ الأدب ، في أدبيَّات لُغة العرَب » أودَعتُه ما وقع عليه اختياري ، لا مِن نثري وأشعاري ، فليس لي في تأليفه مِن الافتخار ، أكثرُ من الاختيار ، واختيارُ المرء قِطعْةٌ من عقله ، تدلّ على تخلُّقهِ وفضله ، وفضيلةُ هذا التأليف هي في جمع ما افترق ، ممــا تَناسَبَ واتَّسَق ، واختيــار عيون ، وترتيب فُنون ، مِن أحاديثَ نبوية ، ومكاتبات أدبيَّة ، وحِكَم باهِرةٍ ، وأبياتٍ نادرة ، وأمثال شاردة ، وأخبار واردةٍ ، ووَصايا نافعة ، ومَواعظَ جامعة ، ومُناظرات مُستظرفة ، ومَقامات مُستطرفة ، وأوصافٍ عَليَّةٍ ، وخُطَبٍ اجتماعية ، لينتفــعَ به مُقتنيهِ ، ويستغني عن غيره الرَّاغبُ فيه ؛ إذْ كان أحسَنَ من الزهر والرياض ، والحدائق والغياض ، والزبرجد والمرجان ، والدُّر والعقيان ، والأكاليلِ والتِّيجــان ، والنزه والبُسْتان ، إن دُعي أسرع ، وإن تحَدَّثَ أمتع ، وإن سُئل أجاب ، وإن حــكم أصــاب ، جليس لصاحبه في الحضر ، وأنيس له في السفر ، نديم ظريف ، وسَمير حصيف ، بالغتُ في تهذيبه ، وبذلت مجهوداً في حسن ترتيبه ، وأجزلت التُّحفة ، وانتقيت الطرفة ، وبالله نستعين ، وَهُوَ حسبنا ونعم الوَكيل .

المؤلف

السيد أحمد الهاشمي

تقريظ

وتقدير العلماء والعظماء لكتاب جواهر الأدب

١ — كتب إليَّ صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوي ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم ،علَّم الإنسان ما لم يعلم ،والصلاة والسلام على أفصح العرب ،وعلى آله وصحبهِ الذين انتهجوا منهج الأدب «أما بعد» فقد اطلعت على الكتاب المسمَّى «بجواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب» لمؤلفه الألمعي ولدنا الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمي ، فألفيَته مشتملاً على فن الإنشاء والأمثال وافياً بالمقصود واسع المجال ، صحيح العبارة واضح الإشارة ، نافعاً في بابه ، مفيداً لمطالعيه وطلابه . نفع الله بهِ وبمؤلفه ومحبيه ، بجاه نبيه وآله وصحبه وتابعيه .

كتبه حسونه النواوي

٢ — وكتب إليَّ أُستاذي الإمام الحكيم فيلسوف الشرق المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ،وعلى آله وصحبهِ ومن اتبعه فوالاه « وبعد » فقد اطَّلعت على مجموع كتاب (جواهر الأدب) المنتخب من حدائق العرب ، فإذا هو مجموعة لا بأس بها ، وافياً بمـا تريده الطلبة من الكتابة ووسائلها :

كما أزهرت روضات حسن وأثمرت   فأضحت وعُجْم الطيّر فيها تغرّد

فقد جمع لهم من عيون الكلام وروائع اللفظ ما يحتذون حذوه ، وينسجون على منواله ، حتى لا تستعصي عليهم الكتابة بل يسلس لهم قيادها ، وبُعَيدَ أن يصل من يحاول (صناعة الإنشاء) إلى ما يرضى منه بدون أن يرد الطرف في كثير من كلام الفصحاء ، ويرد من مناهله كل عذب صاف ، ويحيط بشيء عظيم من أساليب الكتاب حتى يتشبّع من كلامهم ، وتنطبع فيه صورة عن مجموع صورهم ،

ولم يكن فيما بين أيديهم من الكتب ما يفي لهم بهذا الغرض ، حتى وفق حضرة ولدنا الأستاذ (الهاشمي) لسدّ هذه الثّلمة بما كابده من التعليم زمناً كبيراً — ولا بدع فخير الأطباء من عرف حقيقة الداء ،فيصف له أنجع الدواء. ولقد عرف هذا الأستاذ العصامي حاجة العصر وناشئته إلى كتاب موضوع على أسلوب عصري يلائم أذواق بني العصر من معلّمين ومتعلمين ، فإذا حاول أهل العلم والتعليم أن يشكروا له صنيعهُ فقد حاولوا عظيما وطلبوا خطيراً ، وحسب العامل أن يقوم بشكره عمله ، فالعمل أعرف شيء بجميل عامله ، وفقنا الله وإياه ، لما يحبّهُ ويرضاه ، وأسأله أن ينفع بهِ الطلاب ، ويجزل فيه الثواب . محمد عبده

٣ - وكتب شيخ الاسلام صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر المرحوم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنشأ العالم على أبدع مثال، ونظم أحواله بمعارف أرباب العلوم حتى بلغ حدّ الكمال ، ونثر عجائب المعارف في أرجائه ، وغرائب العوارف في أنحائه ،والصلاة والسلام على ينبوع العلم و«جواهر الأدب» سيدنا ونبينا محمد أشرف مخلوق في العجم والعرب،وعلى آله وصحبه ذوي المناصب والرُّتب «أما بعد» فقد تناولت كتاب « جواهر الأدب في لغة العرب » كما يتناول الكتاب المرقوم ، وفضضتُهُ كما يفض الرحيق المختوم ، واطّلعت عليه فوجدتُهُ حوى من المباني أدقها، ومن المعاني أرقها ، ومن النثر أعلاه ، ومن النظم أحلاه ؛ ارتحت لعيانه ، واهتززت لعنوانه ؛ إذ قد جمع فيه الأجناس ومما لا يستحيل الانعكاس ما أدهش قاطبة الناس ،فلو شامهُ (البهائي) قبل تأليف (مخلاته وكشكوله) لاعترف لهذا المؤلف وارعوى من فضوله ، وهو حضرة العالم الهمام اللوذعي ، الإمام ولدنا السيد أحمد الهاشمي — أكثر الله من أمثاله بجاه النبي وآله . كتبه سليم البشري

٤ — وكتب إليّ فضيلة أستاذي المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول بوزارة المعارف العمومية ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

أي بنيّ الجهبذ النحرير والفذّ العبقري (السيد أحمد الهاشمي) قد تصفّحت مجموعتك المختارة التي أسميتها (جواهر الادب في أدبيات وإنشاء لغة العرب) فإذا هي دائرة معارف كبرى لا يستغني عنها أديب، كلها صحاح وعلم صراح:

وما عسى أن يقال في وصف صحاح الجوهري

إي وربّي إنه لكتاب صرّح على المحض زبده، وأسفر عن الأدب، فلم تتلفّع بفضل مئزرها دعد، وانفردت سطوره عن فضل اختيار، وتعرى ليل عن بياض نهار، جلاه الفرناس، على صفحات القرطاس.

اختار في كتابهِ هذا من منتخبات الكتاب والشعراء ما يشفي الغلة، ويروي الصّدى، ولقد أتى فيما انتقاه لكتابه الثمين بيوت الكلام من أبوابها، وميز أبكارها من أترابها، وأهدى إلى هؤلاء الشادين كلاماً يلطف كالهواء رقة، ويسيل كالماء عذوبة، يمتزج بالنفوس لنفاسته، ويشرب بالقلوب لسلاسته:

أحاديث لو صيغت لألهت بحسنها عن الوشي أو شمّت لأغنت عن المسك

«وبعد» فإن سنن مؤلفك العظيم القويم، ما مني بشين، فخشيت عليه العين. وما أطيب الخزامى في قول بعض القدامى:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

كيف لا، وقد عرفنا هذا المؤلف النابغة كاتباً مجيداً يفلّ الحز، ويطبق المفصل، له حلى من البلاغة يتقلّدها، فيكاد السحر يحسدها، يدل عليه بيانهُ، كما يدلّ على الجواد عنانه فمن عرفهُ فقد اكتفى — ومن قصر فلينشد:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

فما أجدر كتابه أن يختص بسرعة المجال في المجالس، وخفة المدار في المدارس بل إن (هذا الكتاب يهدى للتي هي أقوم) جزى الله مؤلفهُ خير الجزاء وأثابه أحسن المثوبة، وأكثر في الأمة من أمثاله، لتبلغ من حسن القول والفعل غاية الكمال.

كتبه الفقير إليه جل شأنه في ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١٨ هـ حمزة فتح الله.

٥ — وكتب إليّ صديقي المرحوم حسن افندي توفيق العدل المدرس بكلية (كمبردج) .

عزيزي حضرة الاستاذ الفاضل السيد احمد الهاشمي

تشرفت بكتابك المسمى (جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب) فوجدت بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبعك السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال الصديق الحميم . فما أنفس فرائده ، وأثمن فوائده ، وأفصح مقاله ، وأفسح مجاله . صدر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ونفس صادق ، وروية ٍ ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ، فأكرم بهِ من كتاب (جواهر) تكونت من ألفاظ عذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ،فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب ،إذا تدبّره الأديب أغنته تلك الأفانين ،عن نغمات القوانين وإذا تأمله الأريب نزّه طرفهُ رياض البساتين ، قد سوّر على كل فنّ من البديع باب ، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللباب ؛ والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب .

حسن توفيق العدل

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية بنظارة المعارف العمومية

وقال صاحب الدولة المرحوم سعد باشا زغلول مخاطباً مؤلف هذا الكتاب :

كتابك هذا يا أستاذ « فضل ونعمة » .

« ذلك فضل الله يؤتيهِ من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وإنه لدائرة معارف أدبية كبرى ، وأنفس كتاب أُلف في اللغة العربية وتاريخ آدابها ، صدر عن تجربة وحكمة .

« ومن يُؤْتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

كتبه : سعد زغلول

إليكم معشر الكتاب

أمّا بعد ــ حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإن الله عزّ وجلّ جعل الناسَ بعدَ الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد المُلوك المُكرّمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواءً، وصرّفهم في صُنوف الصناعات وضُروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم. فجعلكم معشرَ الكُتّاب في أشرف الجهات أهلَ الأدب والمروءة والعلم والرّواية. بكم تَنتظم للخلافة محاسِنها، وتستقيمُ أمورُها، وبنصائحكم يُصلح الله للخلق سلطانهم، ويَعمُرُ بُلدانَهم. لا يستغني الملكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلاّ منكم. فموقعُكم من الملوك موقعُ أسماعهم التي بها يَسمعون، وأبصارهم التي بها يُبصِرون، وألسنتِهم التي بها يَنطِقون، وأيديهم التي بها يَبطِشون [١]، فأمتعكم [٢] الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه [٣] منَ النعمة عليكم، وليس أحدٌ من أهل الصّناعات كلّها أحوَجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودَة وخِصال الفضل المذكورة المعدُودَة منكم.

أيُّها الكُتّاب: إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صِفتكم، فإن الكاتبَ يحتاجُ من نفسه ويحتاج مِنهُ صاحبهُ الذي يثقُ به في مُهِمّات أُموره أن يكون حليماً في مَوضع الحِلم فهيماً في موضع الحُكْم، مِقداماً في مَوْضع الإقدام، محجاماً في موضع الإحجام [٤]، مؤْثِراً [٥] للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيّاً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النّوازل، يضعُ الأمور

---

(١) يدافعون (٢) أبقاكم (٣) أفاضه
(٤) التأخر (٥) مختاراً له

مَواضِعها ، والطَّوارقَ أماكِنها قد نظر في كلّ فنّ من فنون العلم فأحكمه فإنْ لم يحكِمهُ أخذَ منهُ بمقدارما يكتفي بهِ ،يعرِف بغريزة عقله وحُسن أدبه وفضل تجربَتِهِ ما يَردُ عليه قبلَ وُرُودِه ،وعاقبةَ مايصدُر عنه قبل صدوره ، فيُعدُّ لكلِ أمر عُدّتَــهُ [1] وعتاده ، ويهَيّىءُ لكلّ وجه هيئته وعادته . فتنافسوا يا معشر الكتاب صُنوف الآداب،وتفقّهوا في الدّين وابدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف [2] ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطّ فإنه حلية كُتُبكم ، وارْوُوا الأشعارَ واعْرفوا غريبها ومَعانيها وأيامَ العَرب والعجَم وأحاديثها وسيرها ، فإنّ ذلك مُعين لكم ما تسمو إليــه هِمَمكم ، ولا تضَيّعوا النظر في الحساب فإنه قوامُ [4] كُتّاب الخراج ، وارْغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنيّها [5] ودَنيها ، وسَفساف [6] الأمور ومحاقرها فإنها مزلّة للرّقاب مَفسدةٌ للكتّاب، ونزّهوا صناعتكم عن الدّناءة وَاربأوا [7] بأنفسكم عن السّعاية والنّميمة وما فيه أهلُ الجهالات . وإياكم والكِبْرَ والصّلفَ والعَظَمة فإنهــا عَدَاوةٌ مُجتلَبةٌ من غير إحْنة [8] وتحابّوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم وتواصَوا عليها بالذي هو أليَق بأهل الفضل والعدل والنُّبل [9] من سَلفكم ، وإن نبا [10] الزّمان برجل منكم فاعْطفوا عليه وَوَاسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويثوبَ [11] إليه أمره ، وإن أقعدَ أحداً منكم الكِبَر عن مكسَبهِ ولقاءِ إخوانه فزُوروه وعظّموهُ وشاورُوه واستظهروا بفضل تجربَتهِ وقديم مَعرفتــهِ ، وليكن الرّجلُ منكم على مَن اصطنَعه واستظهرَ بهِ ليوم حاجته إليهِ أحفَظُ منهُ على ولده وأخيه ، فإن عرَضتْ في الشُّغل محْمدةٌ فلا يصرفها إلا إلى صاحبهِ ،وإن عرَضت مذمةٌ فيحمْلها هو مِن دونه ، وليحذر السّقطة والزّلة والمللَ عنــد

(١) ما أعددته لحوادث الدهر (٢) العدة (٣) تعديلها (٤) نظام
(٥) رفيعها (٦) الرديء من كل شيء (٧) أعرضوا وفروا
(٨) إضمار حقد (٩) الرفعة والسمو (١٠) قصر ونفر (١١) يرجع

تغيّر الحال فإنّ الغيبَ إليكم معشرَ الكُتّاب أسرعُ منهُ إلى الفِراء [١] وهو لكم أفسدُ منه لها ، فقد علمتم أنّ الرّجلَ منكم إذا صَحبهُ الرجلُ يبذُلُ لهُ من نفسِه ما يجب له عليه من حقّه فواجبٌ عليهِ أن يعتقد لهُ من وفائه وشُكره، واحتماله وخيرهْ ونصيحته وكِتمان سِرّه وتدبير أمره ما هو جزاءٌ لحقه ، ويُصدقْ ذلك فِعله له عندَ الحاجة اليه والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعرُوا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالتي الرّخاء والشّدة والحرمان والمواساة والإحسان والسرّاء والضرّاء ، فنِعْمت الشيمة هذه لِمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، وإذا وَلِيَ الرّجل منكم أو صُيّرَ اليه من أمر خلق الله أمرٌ فليرقب الله عزّ وجلّ وليؤثر طاعته وليكنْ على الضعيف رَفيقاً ، وللمظلومِ مُنصفاً فإنّ الخلق عيالُ الله ، وأحبُّهم اليه أرفقُهُم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً وللأشراف مُكرماً وللفيْءِ [٢] موَفّراً وللبلاد عامراً ، وللرعيّة متألفاً، وعن أذاهم مُتخلّفاً . وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلات خراجه واستقصاء حُقوقه دقيقاً ، وإذا صَحِبَ من أحدكم رجلاً فليختَبر خلائقَه ، فاذا عَرَفَ حسَنَها وقبيحَها أعانه على ما يوافقه الحَسَن، واحتالَ على صرْفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وَسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمسَ معرفةَ أخلاقِها ، فإن كانت رَموحاً لم يهجْها إذا ركبها وإن كانت شَبوباً اتّقاها من بين يديها وإن خاف منها شُروداً توقّاها من ناحيةِ رأسها وإن كانت حروناً قمع هواها بِرِفقٍ في طريقها [٣] فان استمرّت عطفَها يسيراً فيُساسُ [٤] له قيادُها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملَهم وجرّبهم وداخلَهم .

والكاتب بفضل أدبه وشريف صَنعته ولطيف حِيلته ومعاملته لِمن يحاول من الناس ويناظره ويفهَم عنهُ أو يخاف سطوته اولى بالرّفق بصاحبه ، ومداراته

---

(١) الجلد ، لأنه سريع العطب (٢) الغنيمة والخراج

(٣) في مرة من المرات (٤) وفي نسخة يسلس اي ينقاد ويسهل

وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تفقهُ جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدرما يُصيّرها إليه صاحبها الرّاكب عليها ؛ ألا فأمعِنوا رَحمكم الله في النظرِ ، واعملوا فيه ما أمكنَكم من الرّوية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتُموه النَّبْوة ١ والاستثقال والجَفوَة ويصير منكم إلى الموافقة وتَصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقَة إن شاء الله — ولا يجاوِزَنّ الرّجل منكم في هيئة مجلِسه ومَلبَسِه ومَركبِه ومَطعَمِه ومَشْرَبِه وخدمه وغيرِ ذلك من فنُون أمره قدْر حقه ، فإنكم مع ما فضّلكم به اللهُ من شرف صنْعتكم خدَمَةٌ لا تُحمَّلون في خدمتكم على التقصير وحَفظةٌ لا تحْتملُ منكم أفعال التّضييع والتّبذير — واستعينوا على افعالكم بالقصد في كلّ ما ذكرتهُ لكم وقصَصْته عليكم واحذروا متالفَ السّرف وسوءَ عاقبة الترف ٢ فإنهما يُعقبان الفقر ويذلان الرّقابَ ويفضحان اهلَهما ولا سيّما الكتّاب وأرباب الآداب، وللأمور أشباهٌ وبعضُها دليلٌ على بعض فاستدلوا على مُؤتَنَف ٣ أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضَحَها محَجّةً وأصدقَها حُجّةً وأحمدها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفةً مُتلفةً وهو الوصف الشّاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورُؤيتِه ، فليقْصدْ الرّجلُ في مجلسه قصدَ الكافي من مَنطقه ، وليُوجزْ في ابتدائه وجوابِه وليأخذ بمجامع حُججه فإن ذلك مصلحةٌ لفعله ومدْفعة للشّاغل من إكثاره .

وليضرعْ إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضرّ ببدنه وعقله وأدبه فإنه إن ظنّ منكم ظانٌ او قال قائلٌ إن الذي برَزَ من جميل صنعته وقوّة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنّه او مقالته إلى ان يكله الله عزّ وجلّ إلى نفسه فيصيرُ منها إلى غير كاف وذلك على من تأمّلهُ غيرُ خاف .

---

(١) القبح (٢) التنعم (٣) مبدأ

ولا يقلْ أحدٌ منكم إنه أبصرُ بالأمور ، وأحملُ لِعبءِ التدْبير من مرافقهِ في صناعتهِ ومُصاحبه في خدمته ، فإنّ أعقل الرجلين عند ذوي الألباب مَن رَمى بالعُجْبِ وراء ظهرهِ ، ورأى أنّ صاحبَه أعقلُ منه وأجمل في طريقته.

وعلى كلّ واحد من الفريقين أن يَعرف فضلَ نعم الله عليه جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولاتزكيةٍ لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره . وحمدُ الله واجبٌ على الجميع ، وذلك بالتواضُع لعَظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدُّث بنعمته .

وأنا أقول في كِتابي هذا ما سبق به المثلُ (مَن تلزَمهُ النّصيحة يلزمهُ العَمَل) وهو (جَواهر) هذا الكتاب وغُرّة كلامه بعد الذي فيه منذكر الله عزّ وجلّ . فلذلك جعلتهُ آخره وتممتهُ به ؛ تولانا الله وإياكم يا معشر الكتَبة بما يتولى به مَن سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك اليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتهُ .

عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ[1]

---

(١) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين — قتله السفاح ١٣٢ هـ .

تمهيد في مبادىء علم الأدب

الأدب عبارةٌ عن معرفة ما يُحترَز به من جميع أنواع الخطأ وهو قسمان: طبعيٌ وكسبيٌ — فالطبعي ما فُطرَ عليه الإنسانُ من الأخلاق الحسنة والصفات المحمودة كالكرَم والحلم — والكسبيُ ما اكتسبهُ بالدّرس والحفظ والنظر وهو المقصود لنا في هذا الكتاب فحينئذ يعرّف بأنهُ عِلمٌ صناعيٌ تُعرف به أساليبُ الكلام البليغ في كلّ حال من أحواله، وهو المدعو (بعلم الأدب) .

وموضوعه الكلام المنظوم والمنثور من حيثُ فصاحتُه وبلاغتُه .

وغايته الإجادةُ في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب، وتهذيبُ العقل، وتذكية الجنان .

وفائدتهُ أنهُ يعصم صاحبهُ من زلةِ الجهل، وأنه يُروّض الأخلاق ويليّن الطبائع وأنه يعين على المَروءة، وينهض بالهِمَم إلى طلب المعالي والأمور الشريفة .

(وأركانه أربعة) الأوّل : قوى العقل الغَريزيّة، وهي خمسةٌ : الذكاء [١]، والخيال [٢]، والحافظة [٣]، والحِسّ [٤]، والذّوق [٥] .

الثاني : معرفة الأصول وهي مجموع قوانين الكتابة، وفيها تبيان طُرق حُسْن التأليف وضروب الإنشاء وفنُون الخطابة .

---

(١) الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر وفي كتب اللغة الذكاء عبارة عن حدة الفؤاد وسرعة الفطنة (٢) قوة باطنة تحفظ صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة وهو من أكبر اسباب النجاح في فن الكتابة (٣) قوة من شأنها حفظ ما يدركه العقل من المعاني فتذكره عند الحاجة ولذلك سميت ذاكرة (٤) قوة يتأثر بها الإنسان من صور المدركات كاللذة والألم وهو من شروط الكتابة إذ يعين الكاتب مما يحدث فيه من التأثير على رسم صور المحسوسات رسماً محكماً فيقتدر إذ ذاك على تحريك العواطف واستمالة القلوب، ألا ترى ان الكلام العذب إذا حل في القلب أحدث فيه حركة وهزة ا (٥) قوة غريزية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية وتحصل بالمثابرة على الدرس وبالممارسة لكلام البلغاء وتكراره على السمع والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه وبتنزيه العقل والقلب عما يفسد الأخلاق والآداب .

وتنقسم هذه الأصول إلى قسمين: عامّة وخاصّة ,فالعامة) كالتآليف الأدبية من مَنظوم ومنثور في أغراض شتى (والخاصة) كالتآليف المُفردة بالرسائل أو بالأمثال .

الثالث – مُطالعة تصانيف البُلغاء بالتأني والتّبصر فيها ، ليدّخر الكاتبُ كلّ لفظٍ مؤنق شريف وكلّ معنى بديع بحيثُ يتصرّف بهما عند الضرورة.

وشروطها ثلاثة (الأول) أن يَستقلّ المطالع بعض علماء اللغة وأئمة الأدب فيقتصر على درسهم حتى يَنسجَ على منوالهم. (الثاني) أن يُطيل النظر في هذه المطالعة ويُردّدَ مِراراً ما استحسنه من تصانيفهم كي يروض الذهن في حَلبة [1] سباقهم فيَقِفَ على غريب أسلوبهم وعجيب تراكيبهم (الثالث) أن ينتقيَ منها شيئاً مما استجاده[2] من اللفظ الحرّ والتراكيب الصحيحة والمعاني البليغة ذُخراً لذاكرته ومِهمازاً [3] لقريحته

الرابع – الارْتياضُ وهو التّدَرّب بوجوه الإنشاء بأن تتوسّع في شَرح بعض المعاني فتبينَه بأوْجُه شتى وتُنَمقه بأشكال البديع وبأن تجتهد في وضع بعض مواضيع وجيزة فتصوغ تارةً وصفَ مدينة أو مدحاً أو تهنئةً ،وأخرى تسردُ مثلاًأو تسبك روايةً إلى غير ذلك – وأن تحذُوَ حذو المتقدمين في أوضاعهم باستعمال ألفاظهم ومعانيهم وبأن تُحلّ النّظم فتأتيَ به نثراً أنيقاً[4] تعقدَ النثر فتصوغه صوغاً رشيقاً [5]

مقدمة في علم الإنشاء

الإنشاء لغة : الشروع والإيجادُ والوضع،تقول: أنشأ الغلامُ يمشي إذا شَرَعَ في المشي ، وأنشأ الله العالم : أوجدهمُ ، وأنشأ فلانٌ الحديثَ : وَضَعه .

واصطلاحاً علم يُعرفُ به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها

---

(١) الميدان (٢)وجده جيداً (٣)حديدة تكون في مؤخر خف الرائدللمهر
(٤) معجباً (٥) حسناً

بلفظ لائق بالمقام وهوَ مستمدٌ من جميع العلوم. وذلك لأنّ الكاتب لا يستثني صنفاً من الكتابة فيخوضُ في كل المباحث ويتعمّد الإنشاء في كل المعارف البشرية.

وينحصر المقصود منهُ في ثلاثة أبواب وخاتمة ومُلحق.

الباب الأول: في أصول الإنشاء

وهي أربعةٌ: مَوادّهُ وخواصّه وطبقاتهُ ومحاسنُهُ.

أما مَوادهُ فثلاثٌ: الأولى الألفاظُ الفصيحة[١] الصريحة[٢]، الثانية المعاني[٣]، الثالثة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، ومرجعُها إلى الفصاحة وعلمي المعاني والبيان

(١) الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها.

(٢) الألفاظ التي تدل على نفس المطلوب بحيث تكون كقالب لمعناها ويتوصل إلى ذلك بمعرفة المترادفات والصفات والأبدال.

(٣) بحيث يكون المعنى واضحاً، أي سهل المأخذ خالياً من اللبس والإشكال كقول الأخطل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وأن يكون المعنى سديداً أي أن يكون القول مطابقاً للواقع كقول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كقول أبي العتاهية:

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

ولهذا قال أبو الفتح البستي:

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد

فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

والمراد بمقتضى الحال الامر الذي يقتضيه الداعي الى المتكلم على وجه مخصوص الناشيء عن مراعاة أحوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام — والمعنى اما أن يكون مبتكراً أي مخترعاً كقول ابن النبيه:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وكقول آخر في وصف الشتاء:

والنار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتياً فليصطل

. . . .

= أو دقيقاً فهو ما لطف مأخذه وبعد مرامه ودل على توقد فهم قائله كقول ابن عنين في فخر الدين الرازي وكانت قد دخلت إلى مجلسه حمامة خلفها صقر يريد صيدها فاستجارت بحجرته :

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلمح في جناحي خاطف
من أنبأ الورقاء أن محلكم حرم ، وأنك ملجأ للخاطف

أو فطرياً وهو ما أورده الطبع السليم بلا تصنع ولا إعمال روية ودل على بعض السذاجة في قائله ، كقول أحدهم وقد سئل هلا تسافر بحراً فأنشد :

لا أركب البحر أخشى عليّ منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء ، والطين في الماء ذائب

وكقول الصياد :

سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكه

أو ليناً وهو ما كان لطيف التعبير سلس الألفاظ دالاً على أشياء تطرب المسامع وتبهج القلب كقوله :

إن السماء إذا لم تبك مقلتها لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

أو نافذاً وهو ما وصل إلى الفهم بسرعة البرق وأخذ لحدته ومضائه بمجامع القلب كقول عنترة :

وما دانيت شخص الموت إلا كما يدنو الشجاع من الجبان

أو جامعاً وهو ما أفاد باللفظ القليل المعنى الكثير كقول أبي تمام في المعتصم :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
تعود بسط الكف حتى لو انه أراد انقباضاً لم تطعه أنامله

وكقول المتنبي :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها وشرف الناس إذ سوّاك إنسانا

أو متيناً وهو ما اتسم بالضبط والحزم وتمكن من ذهن سامعه كقول أبي العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

والموغل والإيغال هو ما فتن بسموه القلب وسبى العقل وبلغ الغاية القصوى من البلاغة ، كما قال قائل على لسان ربه : =

وأما خوَاصّه فَهي محاسنهُ السبعة ، وهي ؛ أولاً : الوُضُوح[١] بأنْ يختارَ المفرَدَات البيّنة الدالة على المقصود أن يَعدلَ عن كثرة العَوَامل[٢] في الجملة الواحدة ، وأن يتحاشى الالتباس في استعمال الضمائر ، وأن يَسْبك الجملَ سبكا جلياً بدون تعقيد والتباس ، وأن يتحاشى كثرة الجُمل الاعتراضية .

وثانياً : الصَّرَاحة بأن يكونَ الإنشاءُ سالماً من ضعف التأليف وغرَابة التَّعبير بحيث يكون الكلام حُرّاً مهذّباً تناسبُ ألفاظهُ المَعاني المقصودة كما قيل:

تَزِينُ مَعَانيه ألفاظَهُ وألفاظُه زائِنَاتُ المعاني

ويكون الكلامُ صريحاً بانتقاء الألفاظ الفصيحة والمُفردَات الحُرَّة الكريمة وكَذا بإصابة المعاني وتَنقيح العبَارات مع جودة مقاطع الكلام وحسن صوغه وتأليفه . وكَذَا بمرَاعَاة الفصل والوَصل وهو العلم بموَاضع العطف والاستئناف والاهتداء إلى كَيفية إيقاف حروف العطف في مَوَاقعها .

وثالثاً : الضبط وهو حذف فُضُول الكلام وإسقاطُ مشتركات الألفاظ كقول قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١٢ م :

= سألت عبدي وأنت في كنفي وكل ما قلت قد سمعناه
سلني بلا خشية ولا رهب ولا تخف ، إني أنا الله

واعلم أنه ليس لهذه المعاني مصدر خاص ، وإنما يحصل عليها الأديب من مطالعة كتب البلغاء وإعمال الفكرة الطويلة والتبصر في الموضوع الذي يقصد وصفه ليستخرج منه المعاني اللائقة به ، وإنما يلتجيء إلى هذه المعاني عند مسيس الحاجة وذلك يختلف باختلاف أحوال المتكلم ، ومقام المخاطب ، ومواقع الكلام .

(١) كقوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذي قدمات والده بل اليتيم يتيم العلم والحسب

(٢) كقول بعضهم :

* أقسم لا أعود أقوم أخطب فيكم *

أرَى المَوْتَ لا يَرْعى على ذي قرابةٍ وإن كانَ في الدنيا عزيزاً بمقْعَدِ
لَعَمرُكَ ما الأيام إلاَّ مُعَارَة فما استطعْتَ من معرُوفها فتزَوَّدِ

ورابعاً : الطبَعيَّة بأن يَخْلو الكلامُ من التكلُّف والتَّصنُّع كما قال في رِثاء ابنِهِ أبو العتاهيةِ المتوفى سنة ٢١١ هـ :

بكيتك يا بُنَيّ بدمع عَيْني فلم يُغْنِ البكاء عليك شيا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا

وذلك لأنَّ مَن تطبَّع بغير طبعه نزَعَتْهُ العادة حتى تردّه إلى طبعه كما أن الماء إذا أسخنته وتركته عاد إلى طبعه من البرودة وحينئذ فالطبع أملك .

وخامساً : السهولة بأن يَخلُصَ الكلام من التعسف في السبك وأن يختارَ ما لان منها كما قال في الأشواق بَهاءُ الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ :

شَوْقي إليك شديدٌ كما علمْتَ وأزيدْ
فكيف تنكرُ حبّاً بهِ ضميرُك يشهدْ

وأن تُهذَّبَ الجُمل وأن يأتلفَ اللفظ مع مُرَاعاة النَّظير كما قال الشاعر في الودَاعِ :

في كنف الله ظاعنٌ ظَعَنَا أودَع قلبي ودَاعَه حزَنَا
لا أبصرتْ مُقلتي مَحاسنه إن كنتُ أبصرْتُ بعده حَسنَا

قال بعض البُلَغاء : أحذّركم من التقعير والتَّعَمُّق في القول وعليكم بمحاسن الألفاظ والمعاني المُستخفَة المُستملحة فإن المعنى المليح إذا كُسِيَ لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً كان في قلب السّامع أحلى ولصدره أملأ — قال البُستي :

إذا انقادَ الكلامُ فقدْهُ عفواً إلى ما تشتهيه من المعاني
ولا تُكرِه بَيانَك إنْ تأبّى فلا إكراهَ في دين البيان

وسادساً : الاتساق بأنْ تتناسب المعاني كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ :

وَما زلت حتى قادني الشوقُ نحوَه يُسايرني في كلّ ركبٍ له ذكْرُ[١]
وأستكبرُ الأخبارَ قبلَ لِقائه فلما التقَيْنا صغَّرَ الخبرَ الخُبرُ

وسابعاً : الجزالة وهي إبرازُ المعاني الشريفة في معارضَ من الألفاظ الأنيقة[٢] اللّطيفة كقول الصَّابىء المتوفى سنة ٣٨٤ هـ :

لكَ في المحافل منطقٌ يشْفي الجوَى[٣] ويسوغُ في أذُن الأديب سُلافُه[٤]
فكأنَّ لفظكَ لؤْلؤٌ متنَخّلٌ[٥] وكأنَّما آذاننا أصدافُه

وأما عيُوبه فسبعة . الهُجنة بأن يكون اللفظُ سخيفاً والمعنى مُستقبحاً كقوله ،

وإذا أدنيتَ منه بَصلاً غَلَبَ المسْكُ على ريح البَصل

والوحشية كونُ الكلام تمجُّه الأسماعُ وتنفرُ منه الطباع كقوله :

وَما أرْضى لِمُقْلته بحُلم إذا انْتَبَهَتْ توَهَّمَهُ ابْتشاكا[٦]

وَالرّكاكة أي ضعف التأليف وسخافة العبارة كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٦هـ :

إنْ كان مِثلكَ كان أوْ هُو كائنٌ فبرئْتُ حينئذ من الإسلام

والسَهوُ عبارة عن ضعف البَصر بموَاقع الكلام كقول المتنبّي يُشبّه ممدوحه بالله تعالى (وهو كفرٌ) :

تتقاصر الأفهام عن إدْراكه مِثلُ الّذي الأفلاكُ مِنهُ والدّنى[٧]

والإسهاب أي الإطالة الزّائدة المُمِلة في شرح المادة والعُدول إلى الحشو كقوله :

وأعني فتَىً لم تذر الشمس طالعةً يَوْماً من الدّهر إلا ضرَّ أو نفعا

(١ خبر زلت يسايرني ،والركب جماعة الراكبين ، أي ما زلت أسمع ذكره في كل ركب صحبته حتى قادني الشوق إلى زيارته ،والمتنبي يمدح علياً الأنطاكي ؛ ومعنى البيت الثاني : إني ما زلت أستعظم ما يذكر لي من أخباره حتى لقيته فصغرت عندي تلك الأخبار بالنسبة إليه لأني وجدته أعظم مما وصفوا . (٢) المعجبة . (٣) الحرقة . (٤) الخمرة . (٥) مصطفى ومختار . (٦) يقول : وإن حدثه حلم في نومه عن شكري له فلا أرضى به لعله يتوهمه كذباً . (٧) الدنيا .

والجفاف والإيجاز والاختصار المخل كقول الحارث بن حلزة المتوفى سنة ٢٣٢هـ:

والعيش خير في ظلال النوك ^١ ممن عاش كدا ^٢

ووحدة السياق التزام أسلوب واحد من التعبير وطريقة واحدة من التركيب بحيث تكون للأذهان كلالاً ^٣ وللقلوب ملالاً ^٤ .

وللكلام عيوب كثيرة منها اللحن ومخالفة القياس الصرفي وضعف التأليف والتعقيد اللفظي والمعنوي والتكرار وتتابع الإضافات إلى غير ذلك من الأشياء التي تكون ثقيلة على اللسان مخالفة للذوق والعرف غريبة على السمع ^٥ .

وأما طبقاته فثلاث (الأولى الطبقة السفلى) ومرجعها إلى الإنشاء الساذج وهو ما عري عن رقة المعاني وجزالة الألفاظ والتأنق في التعبير فهو بالكلام العادي أشبه لسهولة مأخذه وقرب مورده ، ويستعمل في المحافل العمومية ليقرب منال المعاني على جمهور السامعين وفي المقالات والتآليف العلمية لينصرف الذهن إلى أخذ المعنى وليس دونه حائل من جهة العبارة ، وفي المكاتبات الأهلية والرحلات والأسفار والأخبار وما شابه ذلك (الثانية الطبقة العليا) ومرجعها إلى الإنشاء العالي ، وهو ما شحن بغرر الألفاظ ، وتعلق بأهداب المجاز ولطائف التخيلات وبدائع التشابيه فيفتن ببراعته العقول ويسحر الألباب ويصلح في الترسل بين بلغاء الكتاب وفي المجالس الأدبية وديباجة بعض التصانيف إلى غير ذلك من المواضع التي من شأنها الزجر وتحريك العواطف والحماسة .

(١) بفتح النون وضمها الحمق. (٢) تعبا. (٣) سيئة. (٤) سآمة.

(٥) حكي عن الصفي الحلي أن بعض الفضلاء بلغه أنه اطلع على ديوانه وقال: لا عيب فيه سوى أنه خال من الألفاظ الغريبة فأجابه الصفي :

إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشي منها ويترك المأنوس
إن خير الألفاظ ما طرب السامع منه وطاب فيه الجليس
ولذيذ الألفاظ مغناطيس

(الثالثة الطبقةُ الوسطى) ومَرجعها إلى الإنشاء الأنيق [١] وهو ما توسط بين الإنشاء العالي والساذج فيأخذ من الأول رَوْنَقَه ورَشاقتَه ومن الثاني جلاءه وسلاسته - ويَصْلُحُ في مُراسلات ذَوي المراتب وفي الروايات المُنمقة والأوصاف المُسْهَبة ، وفي خُطب المحافل وما أشبه ذلك[٢] .

وأما محاسنه فهي أساليب وطرائق معلومة وُضعت لتَزْيين الكلام وتَنميقه لغرَض أن يتمكَّن البليغُ من ذهن السامع بما يورده من أساليب الكلام المُستحسنة فيحرك أهواء النفس ويُثير كامنَ حركاتها ، والغرض أن يكونَ قوله أشد اتصالاً بالعقل وأقربَ للادراك بتصرفه في فنون البلاغة .

كيفية الشروع في عمل مواضيع الإنشاء

إذا عنّ [٣] لك أو اقترحَ عليك إنشاء موضوع فأنت مَنوط [٤] إذاً بأمرين : التفكر أولاً ، والكتابة ثانياً . فإذا أنعمْتَ الفكر مليّاً [٥] في أجزاء الموضوع بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك ، وقلّبتَها على جميع الأوجُه الممكنة فيها تولد في خيالك لكل جزء عدةُ صُور [٦] تتفاوت في تأديته كتفاوت صُوَر المنظوم في الحسن والقبح ، فبعضها يستميل النفوسَ بتأثيره في الحواس، وبعضُها

(١) المحب .

(٢) الذي اشتهر بالإنشاء الساذج السيوطي والماوردي والغزالي وأبو الفرج الأصبهاني وابن الأثير وأبو الفداء . والذي اشتهر بالإنشاء الأنيق الثعالبي وابن خلكان وابن خلدون والطبري والفخري وابن المعتز والبهاء زهير وابن المقفع والمسعودي . والذي اشتهر بالإنشاء العالي الحريري والهمذاني والمعري والأخطل وجرير وأبو تمام والبحتري والمتنبي وابن خاقان والعتبي والفارضي . واعلم أن طبقات الإنشاء كثيراً ما تختلط ببعضها فيصعب تعيين طبقتها فربما جاء في القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث لا يميزها إلا المنتقد البصير .

(٣) عرض . (٤) ملزم (٥) ساعة طويلة . (٦) أما إذا تساوت في حسن تأدية الغرض أخذ إحداها فقط ولا يحسن جمعها .

يُوجب نفورَها، بَيْن بين، وإذا تشَخّصَتِ الصُّوَرُ في الخيال يتخيّر العقل منها ما له المكانة الرفيعة في حُسن تأدية الغرض المناسب للمقام ، فإن كان المقامُ للتّحريض على القتال مثلاً انتخبَ الصورة المهيِّجة للاحساس (١)، المشَجّعة للنفس على اقتحام الأخطار وإن كان المقامُ مقامَ فرحٍ وسُرُورٍ انتخب مايشرح الصُّدورَ.

وبعد تشخص الصُّوَر وتخير المُناسب منها تعتن ـ أيها المنشىءُ ـ بحُسن تأليف وترتيب ماتخيرته بأن تجمَع الصور المناسبةَ التي يرتبطُ بعضُها ببعض بدون تكلفٍ بحيث يكون منسجماً يمضي وَحده مع النّفس دون علاج وتعب في فَهم الغرض منه وحينئذ يُمكنك إظهارُ هذه الصورة المعقولة في صورة محسوسةٍ بواسطة القلم.

أركان الكتابة

اعلم أنّ للكتابةِ أرْكاناً لا بُدّ من إيداعِها في كل كتاب بلاغيّ ذي شأن ؛ أولها : أنْ يكون مَطلعُ الكتابِ عليه جِدّة (٢) ورَشاقة ، فإنّ الكاتب مَن أجاد المطلعَ والمقطع ، أو يكون مبنيّاً على مقصدِ الكتاب . الثاني أن يكون خروجُ الكاتب من معنى إلى معنى برابطةٍ لتكونَ رقابُ المعاني آخذة بعضها

(١) الأحزان .

تنبيه: يراعى حال المخاطب ومنزلته فإن ما يحسن عند الذكي لايحسن عند الغبي، وما يناسب ذا الجد لايناسب الهزلي، وما يصلح للرئيس لايصلح للمرءوس فخاطب كلاً على قدر أبهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته ونباهته، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها إذا سنحت فكلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان أسهل ولوجاً في الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب وأخف على الأفواه ، ولاسيما إذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مؤنق شريف ومعايراً بكلام عذب بدون تكلف ولا تعقيد، فالمعنى الخفي أشبه بالروح الخفي واللفظ الظاهر أشبه بالجثمان الظاهر ، وإلاتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاءل الحسناء في الأطمار الرثة .

(٢) صار جديداً مبتكراً ، وهو نقيض الخلق الذائب .

ببعض ولا تكون مقتضبة. الثالث أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيب فاحش بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس ، وهي مما في أيدي الناس ، وهناك مُعْتَرك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها والأقلام شجاعتها. وهذا الموضع بعيد المنال كثير الإشكال يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ،وليس كل خاطر بَرّاق إلى هذه الدرجة (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العَظِيمِ) ومع هذا فلا تظن – أيها الناظر في كتابي – أني أردت بهذا القول إهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله . والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسماً لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها. ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السُوقة أرباب الحرف والصنائع ، ومـــا منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوّج بين لفظتين . فالعبارة عن المعاني هي التي بها تخلب العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني ، فإنـــه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة .

واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء لا بتعلُّم العلم .

فاذا استكملت معرفة هذه الأركان وأتيت بها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمّي نفسك كاتباً .

(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية نظم الكلام

إذا أردتَ أن تصنع كلاماً فأخطِر معانيه ببالكَ، وتنقَّ له كرائمَ اللفظ، واجعلْها على ذِكرٍ منكَ ليقرُبَ عليكَ تناوُلُها ولا يُتعبك تطلُّبُها، واعمله ما دُمْتَ في شبابِ نشاطك، فإذا غشيكَ الفتورُ وتخوَّنكَ الملالُ فأمسكْ، فإن الكثيرَ مع الملالِ قليلٌ، والنفيسَ مع الضجَرِ خسيسٌ، والخواطر كالينابيع يُسْقَى منها شيءٌ بعد شيءٍ، فتجد حاجتكَ من الرِّيِّ، وتنالُ أربكَ من المنفعة فإذا أكثرت عليها نضبَ ماؤُها وقلَّ عنكَ غَنَاؤُها. واعلمْ أنَّ ذلك أجدى عليك مما يُعْطيكَ يومكَ الأطولُ بالكدِّ والمطالبةِ والمجاهدةِ والتكلُّف والمعاودة. وإيَّاكَ والتوعُّرَ، فإن التوعرَ يسلمكَ إلى التعقيدِ والتعقيدُ هو الذي يَسْتهلك معانيكَ ويشينُ ألفاظكَ.

ومَنْ أرادَ مَعنىً كريماً فليلتمسْ له لفظاً كريماً، فإنَّ مِنْ حقِّ المعنى الشريفِ اللفْظَ الشريفَ.

فإذا لم تجدِ اللفظةَ واقعةً موقعها صائرةً إلى مستقرِّها حالةً في مركزِها متَّصلة بسلكها، بل وجدتها قلقةً في مَوْضِعها نافرةً عَنْ مكانها فلا تُكرِهْهَا على اغتصاب الأماكنِ والنزول في غيرِ أوْطانها، فإنَّكَ إنْ لم تتعاط قريضَ الشِّعْرِ المنظومِ ولمْ تتكلفِ اختيار الكلام المنثورِ، لم يَعِبْك بذلك أحَدٌ.

وإن تكلَّفْتَهُ ولم تكنْ حاذقاً مطبوعاً ولا مُحكماً لشأنك بصيراً، عابكَ من أنتَ أقل عيباً منه، وزرى[1] عليكَ مَنْ هو دونك.

فإن لم تسمَح لك الطَّبيعة بنظم الكلام في أوّلِ وَهْلةٍ، وتعصَّى عليكَ بعد إجالةِ الفكرةِ، فلا تعجل، ودعْه سحابةَ يَوْمِكَ ولا تضجر، وأمهلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِك وعاودهُ عندَ نشاطكَ، فإنكَ لا تعدَمُ الإجابة والمؤَاتاةَ، فإن تمنَّعَ عليك بعد ذلك — مع ترْويحِ الخاطرِ وطولِ الإمهال — فتحول

(١) زرى : عاب .

منْ هذه الصناعة إلى أشهى الصّناعات إليكَ وأخفها عليكَ : فإنكَ لم تشتهها إلا وَبينكما نسبٌ .

وَالشيءُ لا يحنُّ إلا إلى ما شاكلَـهُ .

ويَنبغي أنْ تعرفَ أقدارَ المعاني ، فتُوازِنَ بينها وبينَ أوزانِ المستمعينَ وبين أقدَارِ الحالات ، فتجعلَ لِكـُلٍّ طبقةٍ كلاماً ، ولكلِّ حالٍ مقاماً،حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدَار المستمعينَ على أقدارِ الحالاتِ .

(من « كتاب الصناعتين » باختصار)

الطريق إلى تعلم الكتابة

إنّ الطريق إلى تعلـّمِ الكتابة على ثلاثِ شُعَبٍ :

الأولى : أنْ يَتصفـّح الكاتبُ كتابةَ المتقدمينَ ، ويطـّلعَ على أوْضاعهم في استعمالِ الألفاظ والمعاني ، ثمّ يحذوَ حذْوَهم : وهذه أدنى الطبقاتِ عندي .

والثانيةُ : أنْ يمزجَ كتابة المتقدمينَ بما يَستجيدهُ لنفسه من زيادة حسنة ، إمّا في تحسينِ ألفاظ ، أو في تحسين معانٍ ، وهذه هي الطبقه الوُسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

والثالثة :أنلايتصفـّحَ كتابةَ المتقدمينَ ،ولا يطـّلعَ علىشيء منها،بليصرف همّه إلى حفظ القرآنِ الكريمِ وعِدّةٍ من دواوينِ فحُولِ الشعراءِ ممّنغلبَعلى شعرِهِ الإجادةفيالمعاني والألفاظِ.ثم يأخذَ في الاقتباس،فيقوم ويقعُويخطىءُ ويصيبُ ويضلُّ ويهتديحتى يستقيمَ على طريقة يفتتحهُا لنفسه، وأخْلِقْ بتلك الطريقِ أن تكونَ مبتدَعةً غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهـذه الطريقُهيطريقالاجتهادِ وصاحبهُايُعَدُّ إماماًفيفنّالكتابةِ ،إلاأنهامُستوْعرةٌ جدّاً.ولا يَستطيعهُا إلا مَنْ رَزَقَهُ اللهُ لساناً هجاماً وخاطراً رقاماً.ولا أريدُ بهذه الطريق أن يكونَ الكاتبُ مرْتـَبطاً في كتابتهِ بما يستخرجه منَ القرآنِ

الكريمِ والشّعر ، بحيثُ إنّه لا يُنشىءُ كتاباً إلاّ مِنْ ذلك ، بل أُريدُ أنّه إذا حَفِظَ القُرآنَ وأكثر من حفظ الأشعارِ ثمّ نقّب عن ذلك تنقيبَ مُطّلع على معانيه مفتّشٍ عنْ دفائنه وقلبهُ ظهْراً لبطن عرفَ حينئذ مِن أين تؤْكل الكَتفُ فيما يُنشئه مِنْ ذاتِ نفسه ، واستعانَ بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية .

(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية تهذيب الكلام وأوقات تأليفه

تهذيبُ الكلامِ : عبارة عن تردّادِ النظرِ فيه بعد عمله – نظماً كان أوْ نثراً – وتغيير ما يجبُ تغييرهُ ، وحذف ما ينبغي حذفهُ وإصلاحِ ما يتعينُ إصلاحهُ ، وتحرير ما يدقُّ مِنْ معانيه ، واطّراح ما يتجافى عن مضاجع الرّقة من غليظ ألفاظه ، لتشرِق شموسُ التهذيب في سماءِ بلاغته ، وترشُفَ الأسماعُ على الطرب رَقيق سُلافته ، فإن الكلامَ إذا كانَ مَوْصُوفاً بالمهذّب ، منعوتاً بالمنقّح ، علتْ رُتبتُهُ وإن كانت معانيه غيرَ مبتكرة ، وكلُّ كلامٍ قيل فيه : لو كان موْضع هذه الكلمة غيرُها ، ولوْ تقدّمَ هذا المتأخّرُ وتأخّر هذا المتقدّم أو لو تمّمَ هذا النقص بكذا ، أو لو حذفتْ هذه اللفظة ، أو لو اتضح هـــذا المقْصد وسهُل هذا المطلبُ لكان الكلام أحسن والمعنى أبين – كان ذلك الكلام غير منتظمٍ في نوع التهذيبِ .

وكان زُهيْر بن أبي سُلمى معروفاً بالتّنقيح والتهْذيبِ ، وله قصائدُ تعرفُ بالحوْليّاتِ – قيل : إنه كان ينظِم القصيدة في أرْبعةِ أشهُرٍ ، ويُهذبُها وينقّحُها في أربعة أشهرٍ ، ويعرضها على عُلماء قبيلته أربعة أشهرٍ ، ولهذا كان الخليفة عُمرُ بن الخطاب – مع جلالته في العلمِ ، وتقدمِه في النقد – يقدّمه على سائرَ الفُحُولِ من طبقته .

وما أحسن ما أشار أبو تمام إلى التهذيب بقوله :

خُذْها ابنةَ الفكْرِ المهذّبِ في الدُّجى والليْل أسْودُ رقْعةِ الجلبـــاب

فإنهُ خصَّ تهذيبَ الفكرِ بالدُّجى لكون الليلِ تهدأُ فيه الأصوات وتسكنُ الحركات ، فيكونُ الفكرُ فيهِ مجتمعاً ومرآة التهذيبِ فيهِ صقيلة ، لخلوِّ الخاطرِ وصفاء القريحةِ ، لاسيما وسط الليل .

قالَ أبو عُبادةَ البُحتريُّ : كنتُ في حداثتي أروي الشِّعْرَ ، وكنت أرجع فيه إلى طبعٍ سليم ، ولم أكنْ وقفت له على تسهيل مأخذٍ ووُجُوهِ اقتضاب حتى قصدت أبا تمّامٍ وانقطعتُ إليهِ واتّكلتُ في تعريفه عليهِ ، فكان أوّلَ ما قال لي : يا أبا عُبادةَ ، تخيَّرِ الأوقاتَ وأنتَ قليلُ الهُمومِ ، صِفرٌ منَ الغُمومِ .

واعلم أن العادةَ في الأوقاتِ إذا قصدَ الإنسانُ تأليفَ شيءٍ أو حفظَهُ أن يختار وقتَ السحرِ — وذلك أن النفسَ تكونُ قد أخذت حظَّها منَ الرّاحةِ وقسطَها منَ النومِ وخفَّ عليها ثِقَل الغذاء؛ واحذَرِ المجهول من المعاني وإيّاك أن تشينَ شِعْرَك بالألفاظ الوحشيةِ وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، وكُنْ كأنكَ خياطٌ تُقدِّرُ الثيابَ على مقاديرِ الأجسام ، وإذا عارَضَكَ الضَّجرُ فأرِحْ نفسكَ ولا تعملْ إلا وأنتَ فارغ القلبِ ولا تنظمْ إلا بشهوةٍ ، فإن الشهوةَ نعمَ المعين على حُسنِ النّظم ، وجملةُ الحال : أن تعتبرَ شعرَكَ بما سلف من أشعارِ الماضينَ فما استحسَنَ العلماءُ فاقصدْه وما استقبحُوهُ فاجتنبْه .

(عن « خزانة الأدب — وزهر الآداب » باختصار)

محاسن الإنشاء ومعايبه

إنَّ للنثر محاسنَ ومعايبَ ، يجبُ على المنشيء أنْ يفرّق بينهما مُحترزاً استعمالِ الألفاظِ الغريبة ، وما يخلُّ بفهم المرادِ ويوجبُ صعوبتَه — ولا بدَّ من أنْ يجعلَ الألفاظ تابعةً للمعاني دون العكسِ ، لأنَّ المعاني إذا تركت على سَجيّتها

طلبتْ لأنفسها ألفاظاً تليقُ بها فيحسنُ اللفظُ والمعنى جميعاً ، وأمــا جعلُ الألفاظِ متكافئة والمعاني تابعةً لها ، فهو شأن من لهـم شغفٌ بإيراد شيءٍ من المحسّنات اللفظية فيصرفون العناية اليها ، ويجعلون الكلام كأنـه غير مسوقٍ لإفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى .

ومن أعظم ما يليق بمن يتعاطى الإنشاء أن يكتب مـا يُراد لا ما يُريد ، كما قيل في الصّاحب والصّابىءِ : ان الصابىء يكتب مــا يُراد ، والصاحبَ يكتبُ ما يُريد .

(عن « آداب المنشىء » ببعض تصرف)

فصاحة الألفاظ ومطابقتها للمعاني

فصاحة الألفاظ تكون بثلاثة أوجه :

الأول: مجانبةُ الغريب الوحشيّ حتى لا يمجّه سمعٌ ، ولا ينفر منهُ طبعٌ .

والثاني : تنكبُ اللّفظ المبتذلِ ، والبعد عن الكـلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصيٌّ ، ولا ينبو عنهُ فهمُ عاميّ ، كما قال الجاحظ في كتابِ البيانِ : أما أنا فلم أرَ قوماً أمثلَ طريقة في البلاغةِ من الكتّابِ : وذلك أنهم قد التمسوا منَ الألفاظ ما لمْ يكنْ مُتوعّراً وحشيّاً ، ولا ساقطاً عاميّاً .

والثالثُ : أن يكونَ بينَ الألفاظِ ومعانيها مُناسبةٌ ومُطابقةٌ .

أما المطابقةُ : فهي أنْ تكونَ الألفاظ كالقوالب لمعانيهـــا فلا تَزيد عليها ولا تنقصُ عنها .

وأمّا المناسبةُ : فهي أنْ يكونَ المعنى يليقُ ببعض الألفاظِ — إما لعُرفٍ مستعمل ، أو لاتّفاقٍ مستحسنٍ — حتى إذا ذُكرَت تلك المعاني بغير تلـك

الألفاظِ كانتْ نافرةً عنها،وإن كانتْ أفصحَ وأوضحَ لاعتياد ما سواها .

(عن « أدب الدين والدنيا » باختصار)

حقيقة الفصاحة

اعلم أنّ هذا موضوع متعذّرٌ على الوالجِ ، ومسلكٌ متوعّرٌ على الناهجِ ، ولم تزل العلماءُ من قديمِ الوقتوحديثه يكثرون القَوْلَ فيهِ والبحثَ عنهُ، ولم أجِدْ من ذلك ما يعوّل عليهِ إلا القليلَ ، وغاية ما يقالُ في هذا البابِ : إنّ الفصاحةَ هي الظهورُ والبيان في أصلِ الوضعِ اللغويّ — يقال : أفصح الصبح اذا ظهرَ ،ثم إنهم يَقِفون عند ذلك ولا يكشِفون عن السِّرّ فيه ،وبهذاالقَوْل لا تتبيّنُ حقيقة الفصاحةِ ، لأنه يُعترضُ عليهِ بوجوهٍ منَ الاعتراضاتِ :

أحدها : إذا لم يَكنْ اللفظَ ظاهراً بَيّناً لم يكنْ فصيحاً ثم إذا ظهرَ وتبيّن صارَ فصيحاً .

الوجه الثاني ، أنه اذا كانَ اللفْظُ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صارَ ذلك بالنِّسَبِ والإضافات الى الأشخاص ؛ فإنّ اللفظَ قد يكون ظاهراً لزيْدٍ ولا يكون ظاهراً لِعَمْرٍ ، فهو اذاً فصيحٌ عند هذا ،وغير فصيحٍ عند ذاك ؛ وليس كذلك بل الفصيح هو فصيحٌ عند الجميع لا خلاف فيه بحالٍ من الأحوالِ ولأنه اذا تحقّق حدُّ الفصاحة وعُرف ما هي،لم يبق في اللفظ الذي يختصُّ به خلافٌ .

الوجهُ الثالث : أنه اذا جيءَ بلفظٍ قبيح ينْبو عنه السّمْعُ وهو مع ذلك ظاهر بَيّنٌ ينبغي أن يكون فصيحاً،وليس كذلك لأنّالفصاحةَ وصفحسْنٍ للفظ لا وصفُ قبح .

ولما وقفتُ على أقوال النّاسِ في هذا الباب ملكتْني الحيرة فيهـــا ،

ولم يثبُتْ عندي منها ما أُعَوِّلُ عليه ، ولكثرةِ مُلابستي هذا الفنَّ ومُعاركتي إيّاهُ ، انكشفَ لِيَ السِّرُّ فيه — وسأوضّحُهُ في كتابي هذا وأُحقّقُ القولَ فيه فأقولُ :

انّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البيّن ، وأعني بالظاهر البيّن : أن تكونَ ألفاظهُ مفهومةً لا يُحتاجُ في فهمها الى استخراجِ لُغةٍ .

وانما كانتْ بهذه الصفةِ لأنها تكونُ مألوفةَ الاستعمال بين أربابِ النظم والنثر دائرةً في كلامهم ، وانما كانتْ مألوفةَ الاستعمالِ دائرةً في الكلام دون غيرها من الألفاظِ لمكان حُسْنِها ، وذلك أنّ أربابَ النظمِ والنثر غربَلُوا اللغةَ باعتبارِ ألفاظها ، وسبَرُوا وقَسّموا ، فاختارُوا الحسنَ من الألفاظِ حتى استعملوهُ وعلموا القبيحَ منها فلم يستعملوه ، فحسنُ الاستعمال سببُ استعمالِها دُونَ غيرها ، واستعمالها دُونَ غيرها — سبَبُ ظُهورها وبيانها ؛ فالفَصيحُ اذاً مِنَ الألفاظ هو الحسنُ .

فإنْ قيلَ : مِنْ أيّ وجْه عَلِمَ أرباب النّظم والنّثر الحسن مِنَ الألفاظِ حتى استعملوهُ ، وعلموا القبيحَ منها حتى نَفَوْهُ ، ولم يستعملوهُ ؟ قلتُ في الجواب : انّ هذا من الأمور المحسُوسة التي شاهدُوها من نفسِها ؛ لأنّ الألفاظ داخلةٌ في حيّز الأصوات ، فالذي يستلذّه السّمعُ منها ويميلُ اليه هو الحسَنُ والذي يكرهُهُ وينفِرُ عنهُ هو القبيحُ . ألا ترى أنّ السّمع يستلذّ صَوْت البُلْبُلِ من الطيرِ وصَوْت الشحْرورِ ويميلُ اليهما ، ويكرهُ صوْتَ الغرابِ وينفِرُ عنهُ ؟ وكذلك يكرَهُ نهيق الحِمار ، ولا يجدُ ذلك في صهيل الفَرس ؟ والألفاظ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنهُ لا خلاف في أنّ لفظَةَ المُزنة والدّيمة حسنةٌ يستلذّها السّمع ، وأنّ لفظَةَ البُعَاق قبيحة يكرهُها السمعُ ، وهذه اللفَظات من صفة المطر ، وهي تدلُّ على

معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتي المزْنةِ والدّيمة وما جرى مجْراهُما مألوفتي الاستعمال — وترى لفظ َالبعاقِ ،وما جرى مجراه متروكاًلا يُسْتعْمل ، وان اسْتُعمل فإنما يَسْتَعمله جاهِلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو مَنْ ذَوْقُــه غيرُ ذوْقٍ سليم .

ولا جرَم أنه ذُمّ وُقدح فيه ولم يُلتفت اليه وكان عربيّاً محضاً من الجاهلية الأقدمين ؛ فإنّ حقيقة الشيء اذا عُلِمَتُ وجب الوقوفُ عندها ولم يُعَرّج على ما خرج عنها .

(عن « ابن الأثير » باختصار)

الانسجامُ

الانسجامُ لغة : جريان الماء ، وعند أهل البلاغة هو أن يأتي النــاظمُ أو الناثر بكلامٍ خالٍ من التـّعقيد اللفظي والتّعقيد المعنوي بسيطاً مفهوماً دقيقَ الألفاظِ جليلَ المعنى ، لا تكلّفَ ولا تعَسّفَ فيه ،يتحدّرُ كتحدرِ المــاء المنسَجِمِ ، فيكادُ لسهولة تركيبه ، وعذوبةِ ألفاظهِ ، أن يسيل رِقةً .

ولا يكونُ ذلك إلا في منْ هو مطبوعٌ على سلامة الذّوْقِ ، وتوقــدَ الفكرة وبراعة الإنشاء وحُسْن الأساليبِ .

وإنّ فحولهذا الميدانِ ما أثقلوا كاهلسُهُولته بنَوْعٍ من أنواعِ البديـعِ ، اللهُمّ إلا أن يأتي عفواً من غير قصد .

وعلى هذا أجمعَ علماءُ البديع في حدّ هذا النوع ، فإنهــم قرروا أن يكون بعيداً عن التصنع ، خالياً من الأنواعِ البديعيّة الا أن يأتي في ضمْنِ السّهولةمنّ غير قصدِ ،فإنْ كان الانسجامُ في النثر تكونُ أغلبُ فقراتهِ موزونةً مِن غير

قصدٍ ، وإنْ كان في النّظم فتكادُ الأبياتُ أن تسيلَ رِقةً وعذوبةً وربما دخلت في المُطرِب المرقص .

(عن « بديعة العميان وبديعة الحموي »)

حلُّ الشعر

حلُّ الأبيات الشّعريّة إلى ثلاثة أقسامٍ :

الأوّلُ منها وهو أدناها مَرتبةً أن يأخذَ الناثر بيتاً من الشعرِ فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيبٌ فاحشٌ . ومثالُه كمنْ أخذ عِقداً قد أتقنَ نظمه وأحسنَ تأليفهُ فأوهاهُ وبَدّدَهُ ، وكانَ يقوم عذرُهُ في ذلك أنْ لوْ نقلَه عن كونه عقداً إلى صورة أُخرى مثله أو أحسنَ منهُ ، وأيضاً فإنهُ إذا نُثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السَّرِقة ، فيقال هذا شعرُ فلان بعينهِ : لكون ألفاظه باقيةً لم يتغيرْ منها شيءٌ . وقد سلكَ هذا المسلكَ بعض العراقيين فجاء مُستهجناً ، كقوله في بعض أبيات الحماسة :

وألدَّ ذي حَنقٍ عليَّ كأنما تَغلي عداوة صدرِهِ في مِرْجَلِ
أزجيْتُه عنّي فأبصر قصدَهُ وكويتُه فوْقَ النواظر منْ عَلِ

فقال في نثر هذين البيتين : « فكم لقي ألدّ ذا حَنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عَل ، وتغلي عداوةُ صدره في مرْجل ، فكواهُ فوق ناظريْه وأكبه لفمه ويديه » . فلم يزدْ هذا الناثرُ على أن أزال روْنق الوزن وطلاوة النظمِ لا غيرُ .

ومن هذا القسمِ ضربٌ محمودٌ لا عيبَ فيه : وهو أن يكون البيتُ من الشعر قد تضمّن شيئاً لا يُمكن تغييرُ لفظه فحينئذٍ يُعذرُ ناثرهُ إذا أتى بذلك اللفظ وكذلكَ الأمثالَ السائرةَ فإنه لا بدَّ من ذكرِها على ما جاءت في الشعر .

وأما القسمُ الثاني – وهو وسَطٌ بينَ الأوّلِ والثالث في المرتبة – فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبّر عن البعضِ بألفاظٍ أخر – وهناك تظهر الصنعة في المماثَلةِ والمشابهةِ ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المُرتجلة. فإنهُ إذا أخذَ لفظاً لشاعرٍ مجيدٍ ، قد نقّحهُ وصحّحهُ فقرَنهُ بما لا يلائمهُ ، كان كمن جمعَ بين لؤلؤةٍ وحصاة ، ولا خفاءَ بما في ذلك من الانتصابِ للقدْح والاستهدافِ للطّعن . والطريقُ المسلوك إلى هذا القسم : أنْ تأخذَ بعضَ بيت من الأبياتِ الشعريّة هو أحسنُ ما فيهِ ثمّ تماثلهُ .

وسأوردُ ههنا مثالاً واحداً – ليكون قدوة للمتعلم – فأقولُ : قدْ وردَ هذا البيت من شعر أبي تمامٍ في وصف قصيدة لهُ :

حذّاء تملأ كلّ أُذْنٍ حكمةً وبلاغةً وتُدرُّ كلّ وَريد

فقوله (تملأ كلّ أُذْنٍ حكمةً) من الكلام الحسَن ، وهو أحسَنُ ما في البيت فإذا أردْتَ أن تنثر هذا المعنى فلا بُدّ من استعمال لفظه بعينه ، لأنهُ في الغاية القصْوَى منَ الفصاحة والبلاغة . فعليكَ حينئذٍ أنْ تؤاخيهُ بمثلِهِ .

وهذا عَسِرٌ جداً ، وهو عندي أصعبُ منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ،لأنه مسلكٌ ضيّقٌ لما فيه من التعرُّض لمماثلةِ ما هوَ في غايةِ الحسن والجودةِ . وأمّا نثر الشعر بغير لفظهِ فذلك يتصرّفُ فيهِ ناثرُهُ على حسب ما يراهُ ، ولايكون مقيّداً فيهِ بمثال يضطرُّ إلى مؤاخاتهِ . وقد نثرْتُ هذه الكلماتِ المشارَ إليها وأتيتُ بها في جملة كتابٍ فقلْتُ : وكلامي قدْ عُرفَ بينَ النـاسِ واشتهرَ ، وفاقَ مسيرَ الشّمسِ والقمر ، وإذا عُرف الكلام صارَتِ المعرفـة لهُ علامةً وأمِنَ مِنْ سرقتهِ إذ لوْ سُرِقَ لدلّتْ عليه الوسامةُ – ومن خصائصِ صفاته أن يملأ كل أذنٍ حكمةً ، ويجعلَ فصاحـة كلّ لسانٍ عجمـةً . وإذا جرَتْ نفثاتهُ في الأفهامِ ، قالتْ : أهذهِ بنت فكرَةٍ أمْ بنت كرمةٍ ؟

فانظرْ كيفَ فعلتُ في هذا الموْضعِ، فإني [حين] أخذْتُ تلكَ الكلماتِ من البيت الشّعريّ التزمت بأن أؤاخيَها بما هُو مِثلُها أو أحسَن منها، فجئت بهذا الفصل كما تراهُ، وكذلك ينبغي أنْ يُفعلَ في ما هذا سبيله.

وأما القسم الثالثُ — وهو أعْلى من القسمين الأوّلينِ — فهو أن يأخذ المعنى فيصاغَ بألفاظٍ غير ألفاظِهِ. ومن ثمّ يتبينُ حذقُ الصائغِ في صياغته ويعلمُ مقدارُ تصرّفِهِ في صناعته، فإنِ استطاع الزيادةَ على المعنى فتلك الدرَجة العالية، وإلاّ أحسَنَ التصرفَ وأتقن التأليفَ ليكونَ أوْلى بذلك المعنى منْ صاحبه الأول.

واعلم أنّ من أبْيات الشعر ما يتسعُ المجال لناثره فيُوردِهُ بضروب من العباراتِ، وذلك عندي شبيهٌ بالمسائلِ السّيالةِ في الحسابِ التي يُجاوِب عنها بعدّة من الأجوبة. ومن الأبيات ما يضيقُ فيهِ المجالُ حتى يكادَ الماهرُ في هذه الصناعة أن لايخرُجَ من ذلكَ اللفظ، وإنما يكونُ هذا لعدم النظير. فأمّا ما يتّسعُ المجالُ في نثرِه فكقول أبي الطيب المتنبي:

لا تعذل المشتاق في أشوَاقه　　حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد نثرتْ هذا المعنى، فمنْ ذلك قولي: لا تعذُل المحبّ في ما يهواه حتى تطْوي القلبَ على ما طواه. ومن ذلك وجهٌ آخر، وهو: إذا اختلفت العينان في النظر فالعذّلُ ضرب من الهذر، وأما ما يضيقُ فيهِ المجال فيعسُرُ على الناثر تبديلُ ألفاظه — كقول أبي تمامٍ:

تردّي ثياب الموتِ حمراً فما أتى　　لها الليلُ إلاوهي من سندس خضر

قصد أبو تمام: المؤاخاة في ذكر لوني الثّياب من الأحمر والأخضر، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أرادهُ من لون ثياب القتل، وثياب الجنّة، وهذا البيتُ لا يمكنُ تبديل ألفاظه — وهو وأمثالُهُ ممّا يجبُ على النّاثر أنْ يحسن

الصنعة في فكّ نظامه لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه، فإن كان عنده قوّة تصرفٍ، وبسْطة عبارةٍ، فإنه يأتي به حسناً رائقاً.

وقد قلت في نثره: لم تكنْسه المنايا نَسْجَ شفَارهـــا حتى كستهُ الجنّة نسجَ شعارها فبُدّل أحمرُ ثوبه بأخضره، وكأسُ حمامه بكأس كوثرِه.

وإذا انتهى بنا الكلامُ إلى ههنا في التنبيه على نثر الشعر، وكيفيّة نثره، وذكر ما يسهلُ منه، وما يَعْسُرُ، فلنتْبع ذلك بقولٍ كُلّيٍّ في هذا الباب فنقول:

من أحبّ أن يكون كاتبـــاً أو كانَ عندهُ طبعٌ مجيبٌ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنعُ بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته.

وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد فينثرُه بيتاً بيتاً على التوالي.

ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشّعر بألفاظه أو بأكثرها فإنـــه لا يستطيع إلا ذلك.

وإذا مرنتْ نفسه، وتدرّب خاطره، ارتفع عن هذه الدرجة، وصـــار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده، ثم يرتفعُ عن ذلك فيكسوه ضروباً من العبارات المختلفة، وحينئذ يحصُل لخاطره بمباشرة المعاني لِقاحٌ فيستنتجُ منها معاني غير تلك المعاني.

وسبيله: أن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً، ولا يزال على ذلك مدّة طويلة حتى تصير له ملكةٌ؛ فإذا كتب كتاباً أو خطب خطبةً تدفّقت المعاني في أثناء كلامه وجاءت ألفاظه معسولةً، وكان عليها جِدّة حتى تكاد ترقصُ رقصاً — وهذا شيء خبرتهُ بالتّجربة، ولا ينبئُكَ مثل خبير.

(عن « المثل السائر » باختصار)

التخلص والاقتضاب في مواضيع الإنشاء

التخلص : هو أن يأخذَ مؤلف الكلام في معنىً من المعاني ، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكونُ بعضُه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطعَ كلامهُ ، ويستأنف كلاماً آخرَ ، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدلُّ على حذق الشاعر وقوّة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ،ويكون متّبعاً للوزْن والقافية ، تُؤاتيه الألفاظ على حسب إرادته .

وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء ، فلذلك يشقُّ التخلُّصُ على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر ، ومما جاء من التخلصات الحسنة قول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

خَليليَّ إنّي لا أرى غير شاعرٍ فَلِمْ منهم الدعوى ومني القصائدُ
فلا تعجبا ؛ إن السيوف كثيرة ، ولكنَّ سيْفَ الدولة اليوم واحدُ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى أن الخروج إلى مدح الممدوح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحدٍ ؟

والاقتضاب : أن يقطع الشاعر كلامهُ الذي هو فيه ، ويستأنف كلاماً آخر غيرَه من مديح أو هجاءٍ أو غير ذلك ، ولا يكون للثاني علاقة بالأول : كقول أبي نواس – المتوفى سنة ١٩٨ هـ – في قصيدته النُّونية التي لم يكمِّل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ؛ فبينما هو يصف الخمرَ ويقول :

فاسقني كأساً على عذلٍ كرِهتْ مسموعَه أذني
منْ كُمَيتِ اللّون صافية خير ما سَلستَ في بدني
ما استقرّت في فؤاد فتىً فَدَرى ما لوعة الحزن

حتى قال :

تَضحكُ الدُّنيا إلى مَلِكٍ   قــامَ بالآثارِ والسُّنَنِ
سَنَّ للنّاسِ النّدى فندَوْا   فكأنّ البُخلَ لم يكُنِ

وإذا لم يحسُن التخلصُ ، بأن كان قبيحاً ممسوخاً فالاقتضابُ أوْلى منه .
فينبغي لسالك هذه الطريقة أن ينظرَ إلى ما يَصوغُهُ ، فإن أتاهُ التخلّصُ حَسناً كما ينبغي ، وإلا فليدعه ولا يستكرهْه ، حتى يكونَ مثلَ هذا .

واعلم أنّ التخلّص غيرُ ممكن في كل الأحوال ، وهو من مُستصعبات علم البيان فليتدبر الشاعر ذلك .

(عن « المثل السائر » بتصرف)

كيفية افتتاح مواضيع الانشاء وختامها

الافتتاحُ أن تجعلَ مَطلع الكلام من الشّعر أو الرّسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام : إن كان فتحاً ففتحاً ، وإن كان هناءً فهناءً ، أو كان عزاءً فعزاءً وهكذا ، وفائدته أن يُعرَفَ من مبدإ الكلام ما المراد منه ، فإذا نظمَ الشاعرُ قصيدة — فإن كانت مَديحاً صِرفاً لا يختصّ بحادثة من الحوادث ، فهو مخيرٌ بين أن يفتتحها بغزَل ، وبينَ أن يرتجلَ المديح ارتجالاً من أوّلها — كقول القائل :

إن حارتِ الألبابُ كيف تقولُ   في ذا المقامِ فعُذرُهــا مَقبولُ
سامِحْ بفَضْلكَ مادِحيكَ فمالهم   أبداً إلى مــا تستحق سبيــل
إن كانَ لا يُرضيكَ إلا مُحسنٌ   فالمحسنونَ إذَنْ لدَيك قليـــل

وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادثِ كفتح مُقفلٍ ،أو هزيمةِ جيشٍ أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يُبدأ فيه بغزَل ؛ ومن أدب هذا النوع أن لا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدة المديح ما يُتطير منه ، أو يُستقبحُ لاسيا إذا كانَ في التهاني ،

فإنه يكون أشد قبحاً، وإنما يُستعمَل في الخطوب النازلة، والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلامُ في المديح مفتتحاً بشيءٍ من ذلك، تَطيّر منه سامعه، وإنما خُصّت الابتداءات بالاختيار لأنها أوّل ما يَطرُق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعدَه توفرت الدواعي على استعماله، والختامُ : أن يكون الكلامُ مؤْذناً بتمامه، بحيث يكونُ واقعاً على آخر المعنى، فلا ينتظرُ السامع شيئاً بعدَه ؛ فعلى الشاعر والناثر أن يتأنّقا فيه غاية التأنّق، ويُجوّدا فيه ما استطاعا لأنه آخر ما ينتهي إلى السمع، ويتردّدُ صداهُ في الأذن، ويعلَقُ بحواشي الذّكر فهوَ كمَقطع الشراب، يكون آخرَ ما يمرُّ بالفَمِ، ويُعرَضُ على الذّوْقِ، فيَشعُرُ منه بما لا يشعُر من سِواه؛ ولذلك ينبغي أن يكون الختام مُميّزاً عن سائر الكلام قبلَه بنكتةٍ لطيفةٍ أو أُسلوبٍ رشيقٍ أو معنىً بليغ، ويُختار له من اللفظ الرّقيقُ الحاشيةِ، الخفيف المحمل على السمع والسهل الورودِ على الطّبع، ويتجافى بهِ عن الإسهاب والتعقيد والتّقل، وغير ذلك، وحُكم الختام كما سبق أن يكون مُؤْذناً بتمام الكلام بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى فلا ينتظر السامع شيئاً بعده، وإذا لم يكن المعنى دالًّا بنفسه على الختام حَسُنَ أن يُدَلّ عليه بكلام آخرَ، يُذكر عَقِبَ الفراغ من سياقه الأغراض السابقة، وحكمه أن يكون منتزعاً ممـــا سبقه فيُقفّى به تقريراً لشيء من الأغراض أو إجمالاً لِمفَصّلها، مُورداً على وجه من وجُوه البلاغة، أو الكلام الجامع، أو مخرَج المثل، أو الحكمةِ، أو ما شاكل ذلك، مما تُعلقُه الخواطر وتُقيده الأذهان، كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

وما أَخُصُّكَ في بُرْءٍ بتَهْنِئَـةٍ إذا سَلِمْتَ فكلُّ الناس قدْ سَلِموا

وكقول الزّمخشري المتوفى سنة ٥٢٨هـ في ختام إحدى مقالاته : «إن الطيشَ في الكلام يُترجِم عن خِفةِ الأحلام، وما دخلَ الرّفق شيئاً إلا زانه، ومـا زان المتكلم إلا الرّزانةُ» .

وأما في غير ذلك، فالأكثرُ فيه أن يُضَمَّنَ غرضاً آخر من الدعاء، أو عَرض النفسِ على خدمة المكتوب اليه، أو توقُّع الجوابِ منه، أو غير ذلك ممّا تحتَمِله مقامات الكلام، وتقتضيه دواعي الحال.

وأكثر ما يختمونها في النثر بعد الأغراض المذكورة بقولهم: «إن شاء الله» أو «بمنّ الله وفضله» وما أشبه ذلك.

وكثيراً ما يختِمُ الناثر بقوله: «والسلام» أو «بلا حولَ ولا قوّة إلا بالله» أو بقوله: «والله المستعان» أو بقوله: «والحمدُ لله أولاً وآخراً، باطناً وظاهراً» أو بقوله: «والله أعلم» أو غير ذلك.

وربما خُتِم بِتَمثّلٍ، كختِام الخوارزْميّ المتوفى سنة ٣٨٣ هـ رسالته بقوله: «ولقد سلك الأمير منَ الكَرَمِ طريقاً يستوحش فيها لقِلّة سالكها، ويتيه في قفارها لدروس آثارها، وانهدام منازِلها، أعانه الله على صعوبة الطريق، وقِلّة الرفيق، وألهمَهُ صبراً يُهوّن عليه احتمالَ المغارمِ، ويقرّب عليه مسافة المكارم.

فبالصبر تنالُ العُلا، وعند الصّباح يُحْمَدُ السُّرَى».

ومن أمثلَته في الشعر قولُ ابن الوَرْدي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ:

سلامٌ عليكم ما أحبّ وِصالكم وغايَةُ مجهودِ المُقِلّ سَلام

تقسيم الإنشاء إلى فني النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم يدور على فنين: فن الشعر المنظوم، وهو الكلام المُقفّى الموزون بأوزان مخصوصةٍ، وفن النثر، وهو الكلام غير الموزون، فأما الشعر فمنه المدح والهجاء، والرثاء، وأما النثر فمنه ما يؤتى به قِطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافيةٌ واحدة، ويسمى سَجْعاً، وهو ثلاثة أقسام: القسم الأول: أن يكون

الفصلان مُتَسَاوِيَين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ؛ كقوله تعالى : « فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ » وهو أشرف السجْعِ منزلةً للاعتدال الذي فيه ، والقسمُ الثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا طولاً يَخرج بهعن الاعتدال خروجاً كثيراً ، فإنّه يَقْبُح عند ذلك ، ويُستكره ، ويعدّ عيباً . فممّا جاءَ من ذلك قوله تعالى : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بالسّاعَةِ سَعِيراً . إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً . وَإذا أُلْقُوا مِنْهَا مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوا هُنَالِكَ ثُبُوراً »[١] ، فالفصل الأول ثمان لَفظات ، والثاني والثالث تسعٌ تسع . ويستثنى من هذا القسم : ما كان من السّجع على ثلاث فِقر ؛ فإن الفِقْرَتَين الأوليَين تحسبان في عدّةٍ واحدة ، ثم تأتي الثالثة ، فينبغي أن تكون طويلةً طولاً يزيد عليهما ، وقد تكون الثلاث متساويات ، كقوله تعالى : « فِي سِدْرٍ[٢] مَخْضُودٍ[٣] وَطَلْحٍ[٤] مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ[٥] » . والقسم الثالث أن يكون الفصلُ الآخر أقصرَ من الأوّلِ وهو عيبٌ فاحشٌ[٦] . وأما النثر المرسلُ ، فهو ما يؤتى به قطعاً من غير تقيّد بقافية ولا غيرها ، وهو الذي يُطْلَقُ فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يُقَطَّعُ أجزاءً ، بل يُرْسَلُ إرسالاً من غير تقيّد بقافية .

(من « المثل السائر » باختصار)

---

(١) ويلا . (٢) شجر النبق .

(٣) مقطوع شوكه . (٤) الموز .

(٥) متراكم بعضه فوق بعض .

(٦) للسجع أربعة شروط : اختيار المفردات الفصيحة واختيار التأليف الفصيح وكون اللفظ تابعاً للمعنى لا عكسه — وكون كل واحدة من الفقرتين أو الفقر دالة على معنى لئلا يصبح الكلام طويلاً معيباً .

كيفية عمل الشعر

اعلم أنّ لعمل الشعر وإحكامِ صناعته شُروطاً :

أوّلها : الحفْظُ [١] من جنسه — أي من جنس شعر العَرَب — حتى تنشأ في النّفس مَلَكة يُنسج على منوالها ، ويُتَخيَّرُ المحفوظُ من الحرّ النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المختارُ أقلُّ مايكفي فيه شعرُ شاعرٍ من فحول الإسلام، مثل : ابن أبي رَبيعَة ، وكثيِّر ، وذي الرُّمة ، وجرير ، وأبي نُواس ، وأبي تمام ، والبُحتري ، والشريف الرّضي ، وأبي فراس ، وأكثرهُ شعرُه كتاب الأغاني ، لأنه جمعَ شعرَ أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية .

ثم لا بُدّ لهُ من الخلوة واستجادَة المكان المنظوم فيه ، باشتماله على مثل المياه والأزهار ، وكذا استجادةُ المسموع ، لاستنارَة القريحة باستجماعها ، وتنشيطها بملاذّ السُّرور . ثم مع هذا كله ، فشرطُهُ أن يكون على جمام [٢] ، ونشاط ، فذلك أجمع له وأنشطُ للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي يساعد في حفظه ، قالوا : وخيرُ الأوقات لذلك أوقات البُكَرِ [٣] عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاطِ الفكر ، وربما يكون من بَواعثه العشق

---

(١) ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء — ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال، يقبل على النظم وبالإكثار منه تستحكم الملكة وترسخ. وربما يقال: إن من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها . فإذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ في النسيج عليه بمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

(٢) الراحة . (٣) جمع بكرة وهو الصباح ووزانه غرفة وغرف

والانتشاء. قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله، فليتركه إلى وقت آخر، ولا يُكرِهْ نفسه عليه، وليكن بناءُ البيت على القافية من أول صوغه ونسجه، يَضَعُهَا ويبني الكلام عليها إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صَعُبَ وَضْعُهَا في محلّها، فربما تجيءُ نافرة قلقة. وإذا سَمَحَ الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده، فليتركْهُ إلى موضعه الأليَقِ به، فإن كلَّ بيت مُستقلٌ بنفسه، ولم تبقَ إلا المناسبةُ، فليتخيَّر فيها كما يشاءُ، وليُراجعْ شعره بعد الخلاص منه، بالتَّنْقيح[1] والنَّقْدِ، ولا يَضِنّ[2] به على التَّرْكِ إذا لم يبلغ الإجادة، فإنّ الإنسان مفتونٌ بشِعْرِه، إذ هو بناتُ فكره، واختراع قريحته، ولا يستعملُ فيه الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضّرورات اللّسانيّة فَلْيَهْجُرْهَا فإنها تنزلُ بالكلام عن طبقة البلاغة، وقد حظّر أئمة اللّسان على المولَّدِ[3] ارتكابَ الضرورة، إذ هو في سَعَةٍ منها بالعدول عنها إلى الطريقة المُثلى من الملكة، ويجتنبُ أيضاً المُعَقّد من التراكيب جَهْدَهُ، بحيث تكون ألفاظه على طِبْقِ معانيه تسابق ألفاظُهُ إلى الفهم، ويجتنب أيضاً الحواشي من الألفاظ، والمقَصّرَ، وكذلك السُّوقيّ المبتذل، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً، فيصيرُ مُبْتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة، وفي هذا القدْرِ كفايةٌ لمُتَعَاطي صِنَاعة الإنشاء.

(عن « ابن خلدون » باختصار)

---

(١) بالتهذيب.

(٢) بفتح الضاد وكسرها لا يبخل.

(٣) هو من وجد بعد اختلاط العجم بالعرب كالعباس بن الأحنف ومن بعده.

فنون الإنشاء

فُنون الإنشاء سبعةٌ وهي: المُكاتباتُ، والمُناظراتُ، والأمثالُ والأوصافُ، والمقاماتُ، والرّواياتُ، والتاريخُ

الفن الأول

في المكاتبات والمراسلات

المكاتبة، وتُعرفُ أيضاً بالمراسلة، هي مخاطبةُ الغائبِ بلسان القلم. وفائدتها أوْسَع من أنْ تُحْصر من حيثُ أنها تَرْجمانُ الجنان، ونائب الغائب في قضاء أوْطاره [١]، ورباطُ الوداد مع تباعد البلاد. وطريقة المكاتبة هي طريقةُ المخاطبة البليغة مع مُراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنّسبة بينهما [٢]، وخواصُّها خمسٌ: السّذاجة، والجلاءُ، والإيجازُ، والملاءَمَةُ، والطّلاوةُ [٣]. فالسّذاجة: تجعلُ الكلامَ فِطريّاً سليماً من شَوائبِ التكلّف، مُنزّهاً عن زخرف [٤] القول، بعيداً عن بهرَجة [٥] الكلام. والجلاء: هو العدولُ عن الكلام المُغلَق، والتّشابيه المُستبعدة، والتراكيبِ الملتبسةِ إلى الكلام المهذب الصريحِ. والإيجازُ: تنقيحُ الرسالةِ من حشو الكلام، وتطويل الجمل، فيبرزها وافيةَ الدلالة على المقصود، مقتصرةً على المحسّناتِ القريبة

(١) الحاجات. (٢) قال ابراهيم بن محمد الشيباني: إذا احتجت إلى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته. ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك. فلا تكتب لمن أصيب في ماله أو في عياله كما تكتب لمن فرغ باله ووفر ماله. وقال آخر: ان بلاغة الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين بالنسبة إلى المتكلم – واعلم أن لكل مقام مقالاً.

(٣) بتثليث الطاء. (٤) مزوره. (٥) العدول عن الجادة المقصودة.

المنال[١]. والملاءمة، تنزّلُ الألفاظَ والمعاني على قدرِ الكاتب والمكتوب إليه، فلا تُعطي خسيسَ الناسِ رفيعَ الكلام، ولا رفيعَ النّاس خسيسَ الكلام، على أنها تجعلُ الرّسالةَ وتعابيرَها مستعذبةَ الأوضاعِ، حسنةَ الارتباط، يأخذُ بعضُها بأزمّة بعضٍ. والطلاوة: تكسُو الكلامَ رَوْنقاً وإشراقاً بجودةِ العبارة، وسلامة المعاني، وسلاسةِ الألفاظ[٢]، وتجعلُه بذلك أحسنَ موقعاً عند سامعه.

أبواب الرسائل

تنقسمُ الرسائلُ باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أقسام: الأوّلُ الرّسائلُ الأهلية والثاني الرّسائلُ المتداولةُ، والثالث الرسائلُ العلميّة

الكلام على الرسائل الأهلية

الرسائلُ الأهليّةُ — وتُعرفُ برسائل الأشواق — هي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء، وأسفرت[٣] عن مكنون[٤] الوداد، وسرائر الفؤاد، ولا حرَجَ على الكاتب إذا بسط فيها الكلامَ على أحواله، وأخفى السؤالَ في أحوال أصحابه. وتتَفردُ هذه الرسائلُ بأن يُطلقَ الكاتبُ فيها العِنان للأقلام، ويتجافى عن الكلفة، ويعدلَ عن الانقباض. وقد قيل: «الأنسُ يُذْهبُ المهابة، والانقباضُ يضيّع المودّة». هذا، ولا بدّ منْ مراعاة مُقتضَى الحال، والاعتصام بركْن الفطنه أخذاً بقول أبي الأسودِ الدّؤلي:

لا تُرسلَنَّ رسالةً مَشهورةً   لا تستَطيعُ إذا مَضَتْ إدراكها

---

(١) ولا يعد مناقضاً للايجاز ما يستدعيه المقام من البسط في الموضوع: إما تعزيزاً للمعنى وإما حذراً من الإبهام، أو دلالة على عواطف القلب، أو رغبة في تفكيه الخواطر، قال الأقدمون: «خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل».

(٢) سهولتها. (٣) كشف. (٤) مستور.

وإلى هذا الباب ترجع مكاتبات الشوق ، والتَّعَارفُ قبل اللّقاء، والهدايا ، والاستعطاف ، والاعتذار وغيرُ ذلك ولنذكرْ شذراتٍ من أقوال الكتّاب[1] .

الفصل الأول في الشوق

كتب أبو مَنصور الثّعالبي النّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

شوْقي إليكَ رهينُ قلبي ، وقرِين صَدْري ، والزعيم[2] بتعليق فكري ، وتفريقِ صبري ، وسَميرُ ذكري ،ونديمُ فكري ،زادِي في سَفري ، وعِتَادي[3] في حَضري ، لا يستقلُّ به صدري ولا يقوَى عليه صَبري ، يكادُ يكون لِزَاماً ويعدُّ غراماً لا يرْحل مقيمُه ، ولا يُصرف غريمُه ، استخفّ نفسي واستفزّها ، وحرّك جوانحي وهزّها . شوْقي أخذ بِسَمْع خاطري وبصَره ، وحال بين موْرد[4] قلبه ومصدره[5] شوقٌ قد استنفد جَلَدي[6] وملكَ خَلدي[7] ، شوق براني بَرْيَ الخلال[8] ، ومحقني مَحْق الهلال ، شَوْقٌ تركني حَرَضاً[9] ، وأوْسعني مضضاً[10] أراني الصبر حسْرَة ، والوجد يمنة ويُسرة ، شوق يزيدُ الأُيَام[11] توقداً وتأجُجاً ، وتضرّماً وتوهجاً ، نار الشّوق حشو ضلوعي ، وماء الصّبابة ملء جُفوني ، أنا من لواعج الشّوق بين غمائم ؛ لا تمطر إلا صواعقَ وسمائم[12] ، قد قدَحتْ كبدي من الحُرْقة بهذه الفرقة ، ما يفوت أيسرُه حدّ الشكايَةِ ، ويجوز أضعفُه كُنْه الكتابة ، شوقُ الروض الماحل[13] إلى الغيث الهاطل .

---

(١) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتاباً خاصاً أسميناه (إنشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية) وطبعناه عدة طبعات متوالية ، فارجع إليه إذا شئت ولهذا نختصر في هذا الكتاب أبواب الرسائل ونذكر ماتمس إليه الحاجه فقط (٢) الرئيس
(٣) ما أعددته لحوادث الدهر (٤) موضع الورود (٥) الرجوع (٦) القوة
(٧) القلب (٨) الضعف (٩) مريضاً (١٠) وجعا
(١١) بضم الهمزة وكسرها الدخان (١٢) الرياح الحارة (١٣) المجدب

وكتب في تشبيه الشوق :

ما الأعرابية حنَّتْ إلى نجد ، وأنَّتْ من وجد ، بأشدَّ مني كلفاً [١] ، وأتم مِنِّي شغفاً ، أنا في شدة الشوق إليك كالعطشان كُشِفَ له عن ماءٍ عَذْبٍ ، ومُنِع منه بمانع صَعْب ، شوق لو فُرِّق على القلوب الخالية لاشتغلتْ ، ولو قُسِّم على الأكباد الباردة لاشتعلتْ ، أنا أشتاقُكَ مع كلِّ صباحٍ طالع ، وضياء شارق ونجم طارِق [٢] .

وكتب في أثر الفراق :

وَجدٌ يتكرر على كرِّ الجديدين [٣] ، ويستغرق ساعات الملوَين [٤] ، قد تحمَّلت مع يسير الفُرْقَةِ ، عظيم الحرْقة ، ومع قليل البُعْد ، كثير الوَجد ، قد انثنيتُ بجسم ناحِل ، وصِرْتُ من صَبري على مراحل ، فأرقَتْني [٥] وفرقتَ جميعَ صبري واستصحبتَ فريقاً من قلبي ، فرقت بين عيني والرُّقاد [٦] وجنبي والمهاد [٧] ، ما أعوِّلُ إلا على العَويل [٨] لو كان يُغني ، ولا أستنصِر غير الوجد لو كان يُجدِي [٩] ، يَدِي لا تُساعِدني ، وخطِّي لا يُشْبه في الدِّقةِ إلا بَدَني ، لولا حصانة [١٠] الأجل ، لخرجتْ روحي على عجل ؛ فارَقْتني فتفرقَ عني شملُ أنس مُنتظم : وتمكن مني بَرَحُ شوق مُضطرِم ؛ فارقتني ففرَّقتَ بين الرُّوح والبدن ، وتركتني والنزاع في قرن [١١] ، قد صِرْتُ حليف وحشة وإن كنتَ ثاويًا [١٢] في وطن ، وقرين كرْبة وإن كنت بين جيرةٍ وسكن .

عَسى الدهْر يُدْنينا ويدني دَيارَكُمْ ... ويجمع ما بيني وبينكمُو الشملا

(١) كلفاً مصدر كلف من باب فرح : التغير (٢) الآتي ليلاً (٣) الليل والنهار
(٤) الليل والنهار أيضاً (٥) أسهرتني (٦) النوم (٧) مكان النوم
(٨) رفع الصوت بالبكاء (٩) ينفع (١٠) حفظ وهو مصدر
(١١) قرن وقرن من باب فرح التقى (١٢) مقيما .

فأشكو تباريحَ الغرام إليكمُو وحرّ جوى يُبلي عظامي وما يَبلى

وكتب البسطامي المتوفى سنة ٣٣٢ هـ.

قلبي بنار الهوى مُعذّبْ شوقاً إلى حضرة المهذّبْ

شوقاً إلى ماجدٍ كريمٍ يخطُرُ لي ذكرُهُ فأطرَبْ

وبعدُ فالعبدُ ينهى من لواقح[1] شوقه، ولوافح[2] توقه[3]، إلى شهود ذاتكم الجميلة، ومشاهدة صفاتكم الجليلة، لينشق عَرْفكم[4] الفائح، وبخورَ عُرْفكم[5] الفاتح، مد الله سبحانه وتعالى ظلكم، وأدرّ وبلكم[6] وطلّكم[7].

أُحِبُّ الوَعْدَ منكَ وإن تمادى وأقنعُ بالخيالِ إذا ألمّا

عسى الأيام تسمحُ لي بوصل وتأخذُ لي من الهجرانِ سِلْمَا

والجنابُ منذ طوى عنّا أبوابَ مُلاقاته، وزوى منّا أطايبَ أوقاته، قبض العبدُ عنانَ مقاله وخفض لسانَ حاله:

شكوت وما الشكوى بمثلي عادةٌ ولكن تفيض العين عند امتلائها

فجلس الفِراقُ بعظيم حجابه، وأليم عذابه، على ذروة[8] عرشه، وافترس بقوّة بطشه، وصار للسرّ جاراً، وأوقد للحرب ناراً جهاراً:

طوعاً لقاضٍ أتى في حكمه عجباً أفتى بسفكِ دمي في الحلّ والحرم

وهذه حالتُه، المفصح عنها مقالتُه:

إنّ الأمورَ إذا التوتْ وتعقّدت جاء القضاء من الكريم فحلّها

---

(١) الرياح (٢) الرياح الحارة (٣) الشوق الطيب

(٤) الريح الطيبة (٥) نبت يقال له النام طيب الرائحة

(٦) المطر الكثير (٧) الندى (٨) بضم الذال وكسرها أعلاه.

فلعلَّ يُسراً بَعد عُسْرٍ علّها ولعلَّ مَن عَقَدَ العقودَ يحلّها

فلعلَّ غروس التّمني قد أثمرَتْ ، وليالى الحظِّ قد أقمرتْ .

سألتُ أحبّتي ما كان ذَنبي أجابوني وأحشائي تَذُوبُ
إذا كان المُحِبُّ قليل حظٍّ فما حَسَناتُه إلاّ ذُنوبُ

فرَعى اللهُ أياماً لاحت [١] فيها أقْمارُ [٢] غرُوزهـا وفاحت فيها أطراز طروزها ، من بهاء سمائها ، على منار ضيائها ، من ذات جلالها ، وصفات دلالها ، في جنّات عواطفها وحنّاتِ تعاطفها .

فإن كنتُ لا أطْرُقُ [٣] رَحْبَ [٤] فِنائكم [٥] ، فقد أطرُقُ بابَ ثنائكم :

لئن غيبتني عن ذُرَاكَ حوادثٌ فليس ثَنائي عن فِناك بغائبِ

وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ هـ :

كتبت — أعزّك الله — عن ضمير انْدَمَج [٦] على سِرِّ اعتقادك دُرُّه ، وتبلجَ [٧] في أفق ودّادك بَدْرُه ، وسالَ عَلى صَفحات ثنائك مسكهُ ، وصار في رَاحتيْ سَنائك [٨] ملكهُ . ولما ظفرت بفلان حمّلته من تحيتي زهراً جنيـاً ، يوافيك عَرْفهُ ذكياً ، ويُواليكَ أُنسه نجيّاً [٩] ، ويَقضي من حقّكَ فرضاً مأتياً [١٠] . على أن شخص جلالك لي ماثلٌ [١١] ، وبين ضلوعي نازلٌ ، لا يملّه خاطر ولا يمَسّه عرض دائر [١٢] ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

وكتب أبو الفضل بن العَميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

قد قَرُبَ (أيدكَ الله) مَحَلُّكَ على تراخيه ، وتَصاقَب [١٣] مُسْتَقَرُّكَ على

(١) ظهرت (٢) مراده ما تخرجه الأغصان من النوار (٣) آتي ليلاً
(٤) المتسع (٥) بكسر الفاء متسع البيت (٦) خفي واستتر (٧) أضاء
(٨) رفعتك (٩) مناجيا (١٠) آتياً (١١) متمثل (١٢) هالك.
(١٣) حاذى وجاور .

تنائيه ، لأنّ الشّوقَ يُمثلك ، والذكرَ يُخيِّلك، فنحنُ في الظّاهر على افتراق، وفي الباطن على تـلاق ، وفي النّسبة مُتباينون ، وفي المعنى متواصلون ، ولئن تفارَقتِ الأشباحُ لقد تعانقتِ الأرواحُ .

وكتب بديع الزّمان الهمذَاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

يَعِزُّ عليَّ – أطال الله بقاءَ مولاي – أن يَنُوبَ في خدمته قَلَمي عن قدَمي ، ويَسعدَ برؤيته رسولي دُون وصُولي ، ويَرِدَ مَشرعةَ الأنس بـه كتابي : قبل ركابي ولكِنْ ، ما الحيلة والعوائق جمة !!

* وعليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراكُ النجاح *

وقد حضرتُ دارَه ، وقبَّلتُ جِدارَه ، وما بي حُبُّ الحيطان ، ولكن شغفاً بالقُطّان ،ولا عِشقُ الجدران ولكن شوقاً إلى السكان :

أمرُّ على الدّيار ديار سلمى   أقبّلُ ذا الجدارَ وذا الجدَارا
ومـا حُبُّ الديار شَغفن قلبي   ولكن حُبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وحينَ عدت العَوَادي عنه ، أمليتُ ضمير الشّوق على لسانِ القلمِ ، معتذراً إلى مَوْلاي على الحقيقة عن تقصير وقع ، وفتُور في الخدمة عَرَضَ ، ولكني أقولُ :

إن يكن تركي لقصدك ذنبـاً   فكفـى أن لا أراك عقـابَا

وكتب أبو محمد عبد الله البَطَلْيَوسيُّ المتوفى سنة ٦٢٧ هـ :

يا سيدي الأعلى ، وعمادي الأسنى ، وحَسَنَةَ الدّهر الحسنى ، الذي جلّ قدرهُ وسار مسيرَ الشمس ذكره ، ومَن أطال الله بقاءه ، لفضل يُعلي مَنارَه ، وعِلْمٍ يُحيي آثاره – نحنُ (أعزّك الله) نَتَدانى إخلاصاً ، وإن تناءينـا أشخاصاً ، ويجمعنا الأدبُ، وإن فرّقنا النّسَب، فالأشكال أقاربُ ، والآداب مناسِب ، وليس يَضرّ تنائي الأشباح ، إذا تقارَبَتِ الأرواح :

نسيبيَ في رأيي وعلمي ومذْهبي   وإنباعدَتنا في الأصولِ المناسبُ

وكتب بديع الزّمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

أراني أذكرُ « مولاي » إذا طلعت الشمس ، أو هبّت الرّيح ، أو نجمَ النّجم أو لمع البرقُ ، أو عرَضَ الغيث ، أو ذُكِرَ اللّيثُ ، أو ضحكَ الرّوضُ ، وأنّى [1] للشمس مُحياه [2] وللريح ريّاه [3] ، وللنجم حُلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤُه [4] وسناه [5] وللغيث نِدَاه [6] ونَدَاه [7] ، وفي كل صالحةٍ ذكراه ، وفي كلّ حادثة أراه ، فمتى أنساه ؟ واشِدَّة شوقاه ، عسى الله أن يجمعني وإيّاه .

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ :

ما زلتُ أُدافعُ النفسَ عمّا تتقاضاني من شكوى أشواقها ، وفي الشّكوى شِفاءٌ ، واستنزال أثرٍ من لدنك تتعللُ به مسافةُ البين [8] ، إلى أن يمُنّ الله باللّقاء ، ومن دون إجابتها مشادِهُ [9] قد شغلت الذرع [10] ، وشواغلُ قد أفرغ من دونها الوسعُ ، إلى أن غلبَ جيش الوجد على معاقل الصّبر ، وزَاحمَ مناكب العَدْواء حتى ضرَب أطنابَه [11] بين الحجاب [12] والصّدر ، فاتخذتُ هذه الرّقعة أُزجيها [13] إليك ، وفيها من وقرِ [14] الشّوق ما ينوءُ [15] برسولها ، ومن رِقّة الصّبابة ما يكاد يطيرُ بها ، أو يخلُفها فيصافحُ الأعتابَ قبل وصولها ، راجياً لها أن تتلَقّى بما عُهِدَ في سيدي من الطلاقة والبِشْر ، وأن لا يَضنّ [16] عليها بما عوّدني من تمهيد العذر ، ويَصِلَني من بعدها بأنبائه [17] الطيّبة ، عائدة عنه بما يكون للناظر قرّة ، وللخاطر مَسَرّة ، إن شاء الله تعالى بمنّه وكرمه .

---

(١) أي من أين (٢) وجهه (٣) رائحة طيبة (٤) الرفعة
(٥) بالقصر الضوء (٦) بضم النون وكسرها أشهر الصوت (٧) العطاء
(٨) البعد (٩) مشاغل (١٠) بسط اليد (١١) الحبل يشد به سرادق البيت
(١٢) لحمة رقيقة بين الجنبين (١٣) ارفعها (١٤) بكسر الواو الحمل الثقيل
(١٥) يثقل به (١٦) أي لا يبخل (١٧) أخباره .

وكتب أيضاً :

وافاني كتابُك العزيز – فأهلاً بأكرم رسول : جاء ببيِّنات الإخلاص والوفاء ، مصدّقاً لما بين يديه من ذِمّة الوداد والإخاء ، يتلو عليّ من حديث الشّوق ، ما شهد بصحته سقمي ، وهتف مؤذّنه في كل مِفصَل من جسمي ، ويذكّرني من عهدك ، ما طالما أذكرنيه البرقُ إذا لمعَ ، والبدرُ إذا طلعَ ، والقُمري[١] إذا سجع ، وإنما عداني عنك : ما أنا فيه من مُجاذبة الشواغل ، ومساورة[٢] البلابل[٣] :

وفي القلب ما في القلب من شَجَن الهوى تبَدّلت الحالاتُ وهو مُقيمُ

وأنا – (على ما بي من غلّ البنان[٤] ، وشُغل الجَنان[٥]) – ما زالت أنباؤك[٦] عندي ، لا يخطئني بريدها ، ولا يَنْقَطعُ عنّي وُرودها ، أهنىءُ النّفسَ منها بما تتمنّى لك من سلامة لا يرِثّ[٧] لها شعارٌ ، وإقبال لا يعترضه بإذن الله إدبارٌ .

وقُصارى المأمول في كرمك : أن تُعاملني بما سبق لك من جميل الصّلة ، إلى أن يمنّ الله بالاجتماع ، ويُغني بالعيان عن السماع ، وما ذلك على اللهِ بعزيز .

وكتب أبو العباس الغسّاني المتوفى سنة ٤٩٨ هـ :

سِرْ إلى مجلسٍ يكادُ يسيرُ شوقاً ، ويطيرُ بأجنحةٍ مِنْ جواهُ حتى يحلّ بين يديك ، فللهِ درُّه[٨] كالهالة : إنْ طلعتَ بدراً بأعلاه ، وجماله : إن ظهرتَ غُرّةً بمُحيّاه ؛ فهو أفُقٌ قد حوى نجوماً تَتَشوّقُ إلى طُلوع بدُورِها ، وقطرٌ قد اشتمل على أنهارٍ تَتَشَوّقُ إلى بحرِها ، لنستمِدّ منها – إن مننتَ بالحضور ، وإلا فيا خيبة السرور .

---

(١) طير من جنس الحمام يقال لأنثاه قمرية ، وللذكر ساق أحمر .
(٢) ملابسة (٣) الأحزان (٤) الأصابع (٥) القلب
(٦) أخبارك (٧) لا يبلى (٨) كلمة تعجب

وكتب الصاحب إسماعيل بن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ ه :

مجلسُنا يا سيدي مُفتقرٌ إليكَ ، مُعوّلٌ في شوقه عليك ، ولقد تورّدت خُدود بَنَفسجه ، وتفتقت فأرة[1] نارنجه[2] ، وانطلقت ألسُنُ الأوتار ، وقامت خطباءُ الأطيار ، وهبتْ رياحُ الأقداح ، ونفقتْ[3] سُوق الأنس والأفراح . وقد أبتْ راحتُه أن تصفوَ إلا أن تتناوَلها بمنـاك ، وأقسم غناؤُه لا طيبَ حتى تَعيَهُ أُذُناك ، ووجنات أترُجّه قد احمرّت خجلاً لإبطائـك ، وعيُونُ نرْجسِه قد حدّقتْ[4] تأميـلاً للقائك ، ونحن لغيبتك كعقد ذَهبتْ واسطتُه[5] ، وشباب قد أُخذتْ جِدّته[6] ، وإذا غابت شمسُ السماء عنّا ، فلا أن تدنُـو شمسُ الأرض منّا . فإن رأيتَ أنْ تحضر لتتصل الواسطة بالعقدِ ، ونحصُلَ بك في جنّة الخُلْد. فكن إلينا أسرعَ من السّهم في ممرّه ، والماء إلى مقرّه ، لئلا يخبث منْ يومي ما طابَ ، ويعود من نومي ما طار .

وكتب أبو بكر الخُوارزمي — المتوفى سنة ٣٨٣ ه :

كتابي : وأنا بما يبلُغني من صالح أخبار (السيد) مُغتبطٌ مسرورٌ ، وبما يعرفُه الزمانُ وأهله من اعتضادي[7] به مَصون موفور ، والله على الأولى محمودٌ ، وعلى الأخرى مشكور ؛ التّطفل وإن كان محظوراً في غـير مَواطنه ؛ فإنـه مباحٌ في أماكنه . وهو وإن كان في بعض الأحوال يجمع عاراً ووَزراً ، فإنه في بعضها يجمع فخراً وذخراً ، وربّ فعلٍ يصاب به وقته فيكونُ سُنّةً ، وهو في غير وقته بدعةٌ ، وقد تطفّلت على « السيد » بهذه الأحرف ، أخطب بها مودّته إليه ، وأعرض فيها مودّتي عليه وأسـأله أنْ يرسم لي في لساني وقلبي رَسماً ، ويختم عليهما ختْماً ، فقد جعلتُها باسمه وقصرتُها على حكمه ، وسأضعها

(١) فجآت المسك (٢) ثمر ، معرب باربك (٣) راجت
(٤) تاقت (٥) الجوهرة التي في وسطه وهي أجوده
(٦) الطريقة (٧) استعانتي .

تحت ختمه ، وبرئت إليه منها ، وصرتُ وكيله فيها ، فهما على غيره حمى[١] لا يُقرَب ، و بحيرة[٢] لا تحلبُ ، ولا تركب . ولما نظرتُ إلى آثار السيد على الأحرار ، ونشرتْ طراز محاسنه من أيدي القاصدين والزوّار ، ورأيتُ نفسي غفلا[٣] من سمة[٤] مودته ، وعطلا[٥] من جمال عشرته حميتها من أن يحمي عليها ورد موورود ، ويحسر[٦] عنها ظل على الجميع ممدود ، وعجبتُ من :

سحاب خطاني جوده[٧] وهو صيّب[٨] وبحر عداني سيله وهو مفعم[٩]
وبدر أضاء الأرض شرقاً وغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم

كتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

مولاي: أمّا الشوقُ إلى رؤيتك فشديد ، وسلْ فؤادك عن صديق حميم[١٠] وودّ صميم[١١] ، وخلة لا يزيدها تعاقبُ الملوّين[١٢] وتألق[١٣] النيرين[١٤] إلا وثوقاً في العرى ، وإحكاماً في البناء ، ونماءً في الغيراس وتشييداً في الدعائم[١٥] ولا يظننّ سيدي أن عدم ازدياري[١٦] ساحته الشريفة واجتلائي طلعته المنيفة لتقاعس[١٧] أو تقصير ، فإنّ لي في ذلك معذرة اقتضت التأخير ، والسيد (أطال الله بقاءه) أجدر[١٨] من قبل معذرة صديقه وأغضى عن ريث[١٩] استدعته الضرورةُ .

(وبعدُ) فرجائي من مقامكم السامي أن لا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي فلكم منّنا طوقتمونيها ، ولكم فيها فضلُ البداءة ، وعليّ دوامُ الشكران . والسلام .

---

(١) محظور (٢) الشاة التي إذا نتجت عشرة أبطن شقوا أذنها فكانت حراما لحمها ولبنها وركوبها (٣) من لا علامة عليه (٤) العلامة (٥) من لا حلى عليها (٦) يكشف (٧) المطر الشديد (٨) ذو المطر (٩) الممتلىء
(١٠) القريب الذي يهتم لأمره (١١) الخالص (١٢) الليل والنهار
(١٣) اللمعان (١٤) الشمس والقمر (١٥) الأركان (١٦) زيارتي
(١٧) التأخير (١٨) أحق (١٩) البطء .

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ :

كتابي إليك : وقد طال بيَ الانتظار ، وشوقي يجلُّ عن الكيف والانحصار فشخصُكَ دائمَ المثول ١ أمام إنساني ٢ ، وعن سواك من الأخلاَّءِ ألهاني وأنساني. فلله أيامٌ قضيناها ، وليالٍ من الدهر اختلسناها ٣ ، كان السرور فيها ضارباً خيامَه ، والأنس ناشراً أعلامَه — طُوي بساطُها ، وكأنَّ الأمر ما كان غيرَ أنها زَرَعَتْ بفؤادي شجرةَ الأشجان ٤ ، لكن عودَها حليفُ أوْبتك ٥ وتجدُّدَها رَهينُ إشارتك . فمتى يقربُ المزارُ ، وتنجلي سُحبُ الأكدار؟فاضربْ لعَوْدكَ أجلا،فالعودُ لاشك أحمدُ،واكتُبْ بقُربك وصلاً فالوَصلُ أضمنُ للعهد، وعهدي من خُلقك الوَفاءُ ، وحُسنُ الوَلاءِ ، فلا تجعل صَفْقَةَ ٦ شوقي إليك خُسراً بل هَبني بعد العسر يسراً .

وكتب وفاء أفندي محمد المتوفى سنة ١٣١٩ هـ :

أما بعدَ سلامي عليك ، فهذا كتابي اليكَ ، يُنبئُك ٧ عنّي وعن شوقي وعن وُدّي ٨ ولا أزيدك علماً أني ما كتبتهُ من دواةٍ ، ولا أجريتُ عليه قلماً ، ولكنها دُموعٌ وشوقٌ سالت على القرطاس ، وجرَتْ على حركات الخواطر والأنفاس وَهَبَتْ عليه حرارة كبدي بالأشواقِ ،وَوجدي بالفراق ، فبينما هي عقيقةٌ حمراءُ، إذْ صارتْ فحمةٌ سوداء! ألا وإنّ كتابي هو قلبي ولساني. أمَا تراهُ على رقّته، ولُطفِ عبارَته ، وصدْق طويّته، بين يديك مُقبلاً عليكَ ؟ ينشرُهُ الشوقُ ويطويه ، لا يُخفي عليك أمراً ولا يَكتمُ عنكَ سراً ، وتلك صفاتُ لساني وقلبي معك. فما الذي أبتغيته بعدُ؟ !وقد بعثت اليك بالأصغرَين!٩ وما أنا إلاّ بهذين! نعم أرجو بقاك ، ممتعاً بنعماك ، لأكونَ على الدّوام محلُّ

---

(١)القيام منتصبا(٢)إنسان عيني وهو ما يرى في السواد(٣) انتهزنا فرصتها
(٤) الأحزان (٥) رجوعك (٦) أصلها لعقد البيع
(٧) يخبرك (٨) بتثليث فائه (٩) القلب واللسان .

نظرك والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

كتابي لديك ، يصفُ شوقي إليك، ولا يَخفى عليك،فمُذ فارقتني فرّقت بينَ أنسي ونفسي ، بلْ بين رُوحي وجسمي . ولا تعجَب إذا كنتُ أغدُو وأرُوح فالطيرُ يمشي منَ الألم وهو مذبوح،وإنّي أشكو إليكَ من ألم الوحشةِ غراماً لا يشعُر به إلا من ذاقَ أُنسك وعرَفَ مِقدارَ نفسكَ وشاهدَ جمالَ لُطفِك ، ورأى كمالَ أدبك وظَرْفك . ولقد أوْدع الله في شخصك نوراً لعيني ، وفي حديثك سُروراً لفؤادي ، وفي صفاتك ترويحاً لرُوحي ، وفي كرم خُلُقِك تفريحاً لنفسي :

وإذا وَصف الناسُ أشواقهمُ فشوقي لوجهك لا يوصفُ

فعندي لك منَ المحبةِ والشَّوق ، والتَّلهُّفِ والتوق ، ما لا يَصفه الواصفون ولا يُعبّر عن حقيقتهِ العارفون :

الشوق فوق الذي أشكو إليك وهلْ تَخفى عليكَ صبَاباتي وأشواقي ؟!

فيا شوْقي إلى لُقْياك ! ووَالهفي على جَمال مُحيَّاك ! قيَّدْتَ أملي عن سواك وبهرْتَ ناظري بنظرَة سَناك وكسرْتَ جيش قراري ؛ وتركتني لا أُفرّق بين ليلي ونهاري :

فؤادي والهوَى سِلمٌ وحرب وسُلواني أقامَ على الحِيادَه
وشوقي كامِلٌ ما فيه نقصٌ فلَستُ عليْهِ أطمع في الزيادَه

فليت شِعري ، ماذا أصنع في شوْقٍ أنا مدفوعٌ إليه من صادقِ حبي ، بعواملَ صادفَتْ منّي قلباً خاليًا ، فتمكّنت بالتّعارف، ولم تدَع للسلوَان سبيلا ؟

عرَفت هواه قَبل أنْ أعرِفَ الهوى فصادَفَ قلبــاً خاليــاً فتمكّنا

إي وربي ، إن شوقي إليك شوقُ الظمآن إلى بردِ الشراب ، وحنيني لك حنينُ الشيخ إلى زمن الشباب ، فما الإبلُ وقد حنَّت إلى أعطانها ، والغرباءُ وقد أنّت إلى أوطانها ، بأعظمَ منّي حنيناً ، ولا أكثر أنيناً

ولكنَّ التفرُّق طـال حتى تَوقَّدَ في الضلوع لهُ حريق

فكلّما تخطرُ ببالي ، في أي وقتٍ من الأوقات ، يتمثّلُ لي التذكرُ منك منك محاسنَ ولطائفَ ، تجذبني مَيلاً إليك ، وتُطربني شغفاً بـك واغتباطاً بإخائك ، فلا عجب أن كان شوقي لرُؤيتك عظيماً ، لأنه كما قيل « من كَرَمِ الرَّجل حنينُه إلى أوطانه ، وشوقهُ إلى إخوانه » :

يا خلاصَ الأسير يا صِحَّةَ المُد نف يازَوْرَةً على غـيرِ وعـدِ
يا نَجاةَ الغَريقِ يا فرحةَ الأو بَةِ يا قفْلَةَ أتتْ بعد بُعـد
إرْض عنّى فَدَتْكَ نفسيَ إني لك عبدٌ أذلُّ من كلِّ عبـد

ناشدتُك الله أن ترفُقَ بحالي ، وتعيدَ وصالي ؛ وارْعِ الودَّ القديم ، وأبدلْ شقاء محبّك بالنعيم ؛ وأغمد سيف ظُلمات القطيعة المسلولَ ، وأوْف بالعَهْدِ إن العهد كان مسئولا .

الفصل الثاني في التعارف قبل اللقاء

كتب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

نحن في الظّاهر على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، نحـن نتناجى بالضمائر ونتخاطبُ بالسرائر ، إذا حَصلَ القُرْبُ بالإخلاص ، لم يضُر البُعد بالأشخاص ، أنا أُناجيكَ بخواطرِ قلبي ، وإن كان قد غاب شخصُك عنّي ، إن أخطأتكَ يدي بالمكاتبة ، ناجاك سرِّي بالمواصلة ، رُبَّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ

بخلوص نفسه . إن تراخى اللقاء ، فإننا نتلاقى على البعاد ، ونتلافى [١] نظر العين بالفؤاد .

وكتب أيضاً :

أنا أشتاقك كما تشتاق الجنان ، وإن لم تتقدم لها العينان ، أنا وإن كنت ممن لا يسعد بلقائك ، فقد اشتمل عليّ الأنس ببقائك ، والشوق إلى محاسنك التي سارت أخبارها ، ولاحت آثارها ، لا زالت الأيام تكشف لي من فضلك ، والأخبار تعرض عليّ من عقلك ، ما يشوقني إليك ، وإن لم أرك ويزيدني رغبة في ودك وقد سمعت خبرك .

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

كما أن شغف [٢] الجنان [٣] بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار ، في محيا الكمال ، ومجتلى الجمال ، فترى العين من تلك الغرة ، ما يملؤها قرة ، فكذلك السماع يستدعي هذا الشغف ؛ فيتأثر الفؤاد بما يستنشف [٤] الأذن ، مما تهديه إليه طرائف [٥] الأخبار ، حتى كأن حاستي السمع والبصر في ذلك صنوان [٦] ، بل أخوان في هيكل هذا الجثمان [٧] .

وقد يعلم السيد (أطال الله بقاءه وأدام ارتقاءه) أن ذلك الأمر (أي الشغف بالسماع) ليس بالحديث العهد ، ولا القريب الجدة [٨] ، بل هو أمر عرف قديماً أن يهدي السماع إلى سويداء القلب لاعج [٩] الحب سعره [١٠] من الأنباء [١١] عرف [١٢] شميم [١٣] فتهيم [١٤] بمجرد استنشاق ذلك الشميم [١٥] حتى يقول الشاعر العربي :

* والأذن تعشق قبل العين أحياناً *

---

(١) نتدارك (٢) دخول الحب في غلاف القلب (٣) القلب

(٤) يزين (٥) المستملحة (٦) هما فرعا النخلة (٧) بالثاء والسين والجسم

(٨) الخطوة (٩) المتردد (١٠) أوقده (١١) الأخبار

(١٢) الريح الطيبة (١٣) مشموم (١٤) تذهب (١٥) المرتفع .

أَجلْ[١] ! والقُدْرة في هذا المعنى ، والأس[٢] لذلك المبْنى ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إني لأشمُّ نفسَ[٣] الرّحمن منْ قِبَل اليَمن » لمــا أمْلتَه العناية الرّبّانيّة ، والملكُ الرّوحاني ، على قلبه الشّريف من نبأ[٤] القرني[٥] أويس[٦] ، ولم يكن رآه بعدُ .

ألا وإن محاسن السّيد الأجل ، لمّا سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كلّ لسان ، ما بين أخلاق أبهى من الرّوض النّضير[٧] ، وأعراق أشهى من عذَيب النمير[٨] قد احتلت من فؤادي ، لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصيباً ، بل منزلة شماء[٩] ، ودارةً[١٠] علياء ، وأوجاً[١١] بطوالعها السّعيدة يُسْعد ، ويلوح بها من ذكراه كلّ حين فرْقد[١٢] فلم أنْشَبْ[١٣] أن قدّمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللّقاءِ علّه أن يسمحَ بهِ الزّمانُ ، وتُسْفر[١٤] عنه الليالي والأيام ليُتاح[١٥] لي رِيّ الفؤاد بما أرْويه من حديث زيد الخيل ، الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : « ما وُصِفَ لي أحد فرأيتهُ إلا وجدتهُ دونَ ما وصف لي سِواكَ ، وإن فيك خَصْلتين يُحبّهما الله : الحلم ، والأناة » . مقتدياً بالإمام (محمود جارِ الله) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشدهُ إياه (الشريفُ بن الشّجريّ) أوّل ما لقيه ، وكانا قد تحابّا بالسّماع :

كانت مُسَاءَلَةُ الرُّكبان تخبرنا   عن جابر بن رَبَاحٍ أطيبَ الخبَرِ
حتى اجْتَمعْنا فلَا والله ما سَمِعَت   أذُني بأحسنَ مما قد رأى بَصَري

---

(١) حرف جواب مثل نعم (٢) الأصل (٣) كناية عن الوحي

(٤) الخبر (٥) نسبة إلى قرن وهي قبيلة (٦) هو سيد التابعين أويس بن عامر قتل في واقعة صفين مع علي كرم الله وجهه وخبره قوله صلى الله عليه وسلم يأتيكم أويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرىء منه إلا موضع درهم وله والدة هو بها بار ولو أقسم على الله لأبره (٧) الحسن (٨) الماء الزاكي (٩) مرتفعة (١٠) دارا (١١) علوا (١٢) النجم (١٣) لم تزل (١٤) تكشف (١٥) يعطي .

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م :

يعلم الله ما عندي من الشوق إلى لقاء السيد ، وإن لم يَرَه البصَر ، والشوق إلى شهوده ، وإن لم يكتحل بإثمِدِ [١] محاسنه النظر ، والشغفُ بسماع الحديث منه ، كما سمعته عنه ، فقد سَبقَتْ ذكرى محاسنه إلى السمع ، ووصل خبرُ لَطائفه إلى النفس (وما المرءُ إلا ذِكرهُ ومآثرهُ) وتَحسَّدَت العينُ عليه الأذُنَ وَوَدّتْ لو أنها السابقة إلى اجتلاءِ رقائقه ، وشهود حقائقه

* فللعَيْنِ عشقٌ مثلُ ما يعشَقُ السمعُ *

لا جَرَمَ أن ما تعارَفَ من الأرواح ائتلَف ، وما تناكَر منها ، كما قيل ، اختلَف ، ونحن — وإن بَعُدتْ بيننا الشقةُ [٢] ، ولم يَسبق لنا باللقاءِ عهدٌ — فلُحْمَةُ [٣] الأدب تجمعُنا ، ووحدة الوجهة تضمُّنا ، ولُحْمة الأدب أقوى مِن لُحْمة النسب ، وجامعة الوجهة فوق اجتماع الوُجوه ؛ وقد رأيت أن أزْدَلف [٤] إليك بالمكاتبة ، وأتوسّل إلى شَرَف التعرف بالمراسلة ، حتى لمْ يبق في الصبْرِ على الافتراق مسكةٌ [٥] ، ولبى الجسم دَعوَةَ الرّوح ، فاندفعَ إلى طلب الاجتماع ، أكونُ قد مَهّدْتُ له سبيلا ، ووطأت [٦] لهُ طريقاً ، فلا تبهرُني [٧] فرحةُ اللقيا ، ولا يغرُّني [٨] طَرَب الظفر « فمِن فرَح النفس ما يقتلُ ، ومنْ نشوَةِ [٩] الرّاح [١٠] ما يُزْهِقُ الأرواحَ » .

فإن رأى السيدُ أن يُكاتبَ عبدَهُ ، ويعتقه من رقّ الفرقة ، عجل بجواب هذا الكتاب ، ليعلم العبد أن نميقتَه صادفَتْ [١١] قبولا ، وأن وسيلَته

(١) كحل بالحجاز (٢) بالضم والكسر الناحية (٣) قرابته (٤) أتقرب (٥) قوة أو عقد (٦) بالتخفيف والتشديد هيأت (٧) لا تغلبني (٨) لا يعلوني (٩) بفتح النون وكسرها السكر (١٠) الخمر (١١) وجدت

اتخذتْ إلى سيدِه سبيلا ، قرّب اللهُ زمنَ اللّقاء وقصّرَ أمد النّوى [١] ، حتى أنشِد في الختام :

تطابقَ الخُبْرُ في عليـــاك والخَبَرُ   وصدّقَ السمعَ في أوصافِكَ البَصَرُ

وكتب أحمد أفندي سمير المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

يعلم سيّدي أنّ المودةَ لا تُباع ولا تشرى ، وإنمـــا هي نتيجة الاجتماع والتّعارُف ، وقـــد خُلِقَ الإنسان مضطرًّا إليهما ، لأن انتظام العُمران عليهما موقوفٌ ، ولهذا شهد العيان بأنّ المنفردَ بأعماله المستبدّ بآرائه ، عرضة للخطأ ، مَظنةٌ لعدم الثقة ، بخلاف مـــا إذا كان الاشتراك في الفكر قاعدةً للعمل فلا بدّ أن الصواب يتمحّضُ منه ، لضعف التفرُّد وقوة الاجتماع ، إذ لا جَرَمَ أن المرءَ كما قيلَ : « قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه » .

وقد سمعتُ عن السّيد ، وقرأت من آثاره المأثورة ما حبّبهُ إليّ ، وشاقني للتعرُّف به ، لنَشْتركَ في مَنفعَة تبادُل الأفكار ، فإني لا أكتفي بمجرد السماع ولا أقول : « أن الأذُنَ تَعشق قبل العين » فإنما هي جارحة صغيرة — ولكن كلي ميالٌ إليه ، محبٌ لاستجلاء مَرآه ، عالمٌ أني إذا دخلتُ إلى مَوَدتِه من باب التلاقي ، لا أجد دهري

يقرب مِنـّي كل شخصٍ كرهته   ويبعد عني مَن إليْه أميـــلُ

فإن لم يتيسر أن يَراني أو أراهُ . فليسعدني ببضعة أسطُرٍ تضمنُ لي رضاه عن هذه المعرفة الترسُّلية . لنتراءى بأعيُن الطروس [٢] ، قبل أعيُن الرؤُوس ، ونتجاذبَ أحاديثَ المراسلة ، إن عَزّت المقابَلة ، وقد وقفت عليه خالص وُدّي ، واختَرْتُهُ من بين رجال العصر ، سعياً لكسب المعالي بمعرفته . فكلٌ

---

(١) البعد   (٢) الصحائف

أمرىء بما كَسَبَ رَهين [١] ، وأن لَيْسَ للانسانِ إلاّ ما سعَى

عن المرء لا تسألْ وَسَلْ عن قَرينه فكل قرينٍ بالمُقارن يقتَدي

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

لم أكن فيما أكتبه لك إلا سارياً في ليل التعارف على ضياء خِلالك [٢] ، التي أملاها عليّ لسانُ المدح ، الذي شرّق وغرّب ، وطبقَ الأرضَ صيته ، وإني وإن لم أكن أسعِدْتُ من قبل باجتلاء طلعتك الزّاهرةِ ، واجتناءِ مُثماكهتِك الغضّةِ [٣] ، فقد دلّني على الليث زئيرهُ [٤] وعلى البحر خَريره [٥] ، وعلى العقل أثره ، وعلى السيف أثره. [٦] ولئن لم تجمعنا لُحمةُ [٧] النسب ، فقد جمعتنا حرفَةُ الأدب ، أو لم يضمنا قبلُ مصيفٌ ومُرْتبعٌ ، فالطيور على أشكالها تقع ، وشبه الشيء مُنجذِبٌ إليه ، وأخو الفضائلِ هو المُعَوّل عليه .

وهذه الرُّقعة وإن وصفَت لك بَعْضَ ما أنا مَطويٌّ عليه من التهافُتِ على رؤيتك ، والمَيل إلى صداقتك ، فقَلما تَنوب عن المشافهة ، أو تقضي حاجات في النَفس طالما تردّد صداها. وفي ظنّي أن (سيّدي) يوَدُّ ما أوَدُّهُ . وعما قليل يُسفر صبحُ اللقاء ، ونتجاذَبُ أهداب المعرفةِ ، وأرى من (سيّدي) فوْق ما توسمته وسمعته ، ويرى مني ما يرضيه والسلام .

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥ هـ :

أيها (السيد) العزيز الجناب ، الغزير الآداب :

قد علمت – ولا أزيدك علماً ، زادك الله ولا نقصك – أن الإنسان كما اشتق اسمهُ من الأنس ، كذلك جُبل عليه مسماه ، وأن المجتمع الإنساني عقد يتحلى

---

(١) مرهون (٢) مصادقتك وإخائك (٣) اللينة (٤) صوته
(٥) صوته أيضاً (٦) جوهره (٧) القرابة .

به صدر الزمان ، نظامه متآلف ، ووساطته [1] التعارف ، فهذان الأمران هما قطب المدار في هذه الدار ، لهذا العالم ، من لدن آدم ، وليس إلا بهما يحسُنُ الحال وينعم البال ، وتدرّ ضروع المنافع ، وتتفجّرُ عيون الفوائد ، ومن ثم كان أوفر الناس حظاً من مغنم الإنسانية ، من يَألف ويُؤْلف ، ولا خير فيمن لا ... ولا ، وناهيك بخلق امتن الله به على عباده ، إذ قال عز من قائل : « وَجَعلناكُمْ شُعوباً وَقَبَائلَ لِتَعَارفوا » .

ذلك – (أيها السيد) هو الذي بعثني أن أكتب إليك ، أستفتح باب مودتك بمفتاح الترسل واستصبح في سبيل صحبتك بمصباح التوسُّل ، لا أبالي بما ينسب إلي ويُنْتَقمُ علَيّ ، ممن عسى أن يقول : مالك ولهذا الفضول ! وكيف تتطفل على مأدبة أدبية لم تدع إليها !! وهل هذا منك ألا أشبه بالتبرج [2] لغير خاطب ؟

أيها المنتقد : هون عليك ما تجد ، فلو علمت أن ظل الآداب شامل ، ودعوة المودة الجفلى [3] لا يذاد [4] عنها واغِلٌ [5] : لأسرعت معي الى الوغول [6] ، ولم تر في التودد إلى أهل الفضل من فضول . وأي عيب على النكرة في التحلي بحلية المعرفة ؟ ومصاحبه الأعلام ؟! أما سمعت قول القائل :

بصُحْبتك الكرام تعدُّ منهم وتأمن من مُلمّات الزمان !

وكيف أضع نفسي بحيث يقول الأول :

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها [7] واقعد فإنك أنت الطّاعم الكاسي !

وشتان ما بين الرجلين : رجل يهوى المكارم وبغيها ، ويبتغي المناقب

---

(١) الجوهرة التي في وسط العقد وهي أجوده (٢) إظهار المرأة زينتها للرجال (٣) العامة للجماعة (٤) لا يطرد (٥) المتطفل
(٦) التطفل (٧) بكسر الباء الطلب وبضمها الحاجة .

وذَويها ، ويَقِفُ نفسهُ على مسألة يعلمها، وفضيلة يتحلى بها، وآخر يبذل وجهه المصون ، في ملء الحقائب [١] والبطون !

هذا : وقد رجوت أن أكون الرجل الأول بصحبتك « أيها السيد » فكم رُوِي لنا من أحاديث فضائلك الصحاح، وتلي علينا من آيات فضائلك الحسان، ما [٢] أشخص إليك القلوب قبل قوالبها وأوفد عليك الأرواح قبل أشباحها ، وأعجلني أن أكتب إليك بهذا الرقيم ، التمس بالتعرف إلى جنابك الكريم ، ما التمس الكليم من صحبة ذي الوجه النضر [٣] ، أبي العباس الخضر . وإني وإن كنت والحمد لله ممن آمنوا بالغيب ، وليس عندي في صدق هذه الآيات مرية [٤] ولا ريب، بَيْدَ [٥] أن للصحبة فضلاً لا ينكر ، وللمؤاخاة مزية لا يتمارى [٦] فيها اثنان :

فإذا ورد على السيد كتابي هذا : وانشرح صدره — شرح الله صدره — إلى إجابة سؤلي ، وارتاحت نفسه إلى اصطناعي كتب إلى عبده بما يكون آية جلية على ارتياحه ، لتحقيق هذه الأمنية

حتى أقولَ لوجه آمالي ابتهجْ لأوَلِّيَنَّكَ قبلةً تَرْضاها

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر المتوفى سنة ١٩٣٠ م :

إنسانَ العينْ ، وعينْ الإنسان :

المودة — وصل الله بأجفان الأشواق أهدابها ، وفتح لنا أبوابها — أمر عزيزُ المرتقى ، على من يصطفي صديقه ، ويرعى حقوقه ، وإني اصطفيتك على الناس برسالتي هذه ، وعهدي بكرم سجاياك أن تصافحها براحة القبول ، وتتخذها فاتحة ود طارت به إليك رياح فضلك ، بعدما تمثلت آياته لك في القلوب معنى ظهرت في مرآة الأعين صورته .

---

(١) الزكائب (٢) ما : فاعل روى (٣) الحسن
(٤) شك (٥) غير (٦) لا يختلف

فإنْ أَبَيْتَ وِدادي غيرَ مكترثٍ فمنْكَ ما دُمتُ حيّاً لا أرى بدلا

وحاشاكَ عن مثل ذلك الإباء، ونحن وإن لم تحظَ أشباحنا باللّقاء، فأرْواحنا من قبل جُنود، وأعيننا شُهود، فإن أنت منَحتني ولاءً خالصاً، وإخاءً صادقاً، (وإلا فهَبْني أمرءاً هالكاً) ولا إخالُكَ ترْضاه، وإن كنتُ المتطفلَ على مائدة موَدّتك، فلي نفسُ أديب لا ترى العزّ إلا في الترامي على ذرى الكمال، لا زلتَ على مَرْقى الجلال، والسلام.

وكتب الفاضل السيد محمد الببلاوي:

سيّدي: إنّ مكارمَ الأخلاقِ ومعاليَ الهِمَم مما تسترقُّ القلوب، وتسرقُ العقول، وتمتلك الأرواح، وإن لمْ تتلاقَ الأشباحُ، فإني مُذْ سرَى إليّ النسيم بأخلاقكم الغرّاء، وابتَسم لي ثغرُ هذا العَصْر عن آثاركم الزّهرَاء، وتوَاترتِ الأخبار بحبكم للفضل وأهلِهِ، وارتياحِكمْ للعلم وذويه، وأنا مشغوفُ الفؤاد بالتعرُّف بسيادتكم، مشغولُ البال بالتوَسُّل إلى رياض مودّتكم. ولِعلمي أن للصّداقة حقوقاً، وللمُصاحبة شرُوطاً، ربما صعُبت على من حولها، وعزّت على من أراد الوفاء بها، كنت أرى الوَحدة لي أوْلى، والانفرادَ بي أسلمَ، ولكن ما زالت تَنْمي [1] إليّ أحاسنُ شمائلكم المشرّفة، وتتواردُ على مسامعي محاسنُ سيركم المطهرة؛ فيَنمو الوجد ويزْدَاد التشوّق «والأذن تعشقُ قبل العين أحياناً»، وما كنت أجدُ سبيلاً للتعرُّف ولا سبباً للتوَدُّد، ولا تجسر نفسي على المرَاسَلة ابتداءً: إلى أن رأيتُ سيّدي قد اهتم للأدب فأعلى مَنارَه، ونظرَ للإنشاء فرفع مقدارَه: ونصر دوْلته وأحيا صَوْلته، وأعاد شبابهُ، وفتح لأدباء هذا العصر بابه فعلمت أنّ الدّهرَ قد سَاعَدني، والفرصةَ قد امكنتني من مُصافحةِ ماأمّلتُ ومُصافاةِ ماأردت، من اجتناء ثمار مودّة سيدي، والتعرُّف به

(١) تزيد.

والتمسُّكِ بأهداب فضائله والتزوُّد من آدابه ، فإن الأدب أحسنُ ما يُستَصبح بأنواره[١] ، وأشرف ما يُتسابقُ لاقتطاف أثماره[٢] ويُحْمَدُ التطفُّلُ على موائده ، ويُمدح التنافس في التِقاط فوائده ، فجعلت طلب الانتظامِ في سلك أرباب الأقلام وسيلةً لوُرودِ عذْب وِداده ، ونمير[٣] التعرُّف به ، فإن رأى سيدي أن يَعُدّ نفسَ حُرّ في عِداد معارفه ، ويُقابل رسالتَهُ بما اشتهر من لطائِفِه حتى تتمتع بالرؤية الأبصار ، كما تمتعت المسامعُ بطيب الأخبار ، كنتُ مُديمَ الشكر لأفضالِه ، مُستمرَّ الثناء على كماله .

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

أما بعد — فهذه رسالة أكتُبُها إلى من لم تكُنْ لي به جامعة جسمية ، ولم تضمني وإياهُ حفلةُ تعارف شخصية ، وهي وإن كانت في عُرْفِ غيري تعدُّ هُجُوماً ، أو تُحسّ فُضولاً ، إلا أني أعتقِد أنها أوفِدَتْ على كريم يُكرم وفادتها ويتقبَّلُ ما تهديه إليه من زعيم تحية وجليل إجلال ، ويجتلي من خِلالها إرادةَ ودّ ، ورجاءَ ولاءٍ وبُغْية فضل ورغبة في إخاء ، فيُحلها منه محلَّ القبولِ ويدرَأ[٤] عنها وصمة[٥] الفُضول . إنّ لسيدي آثاراً شاهدناها ، فاستفدناها ، ومآثر سمعناها ، فرَويناها أو تناقلناها ، ولا مِرْية[٦] في أنّ ما غابَ عنّا منها ، أكثر مما وعينا ، وأوفى مما سمعنا ، ونحن — والله يعلم — طلّابُ كمالٍ ، ومنتجعو أفضالٍ[٧] ، وروّاد[٨] ما خصب من فيحاءِ العلوم . وقد توسّمْنا[٩] في السيد — أطال اللهُ بقاءه — طِلبتَنَا ، ووجدنا لديه ضالتنا ، فحثثنا إلى رِحابه مطيّة المكاتبة ، ولنا أملٌ كبيرٌ في نوال المأمول لعلّه يجنَح[١٠] إلى مُقابلة المثل بالمِثْلِ فيكتب

---

(١) أضوائه . (٢) أزهاره . (٣) الزاكي . (٤) يدفع .
(٥) العار . (٦) بضم الميم وكسرها الشك . (٨) طالبو معروف
(٨) طالبون له . (٩) تفرسنا . (١٠) بتثليث النون : يميل .

لأخيه بعضَ كُلَيْمَاتٍ ، يعرف منها أنه قَبِلَ الإخاء ، ومال إلى مقتضى طبعهِ من الوفاء ، ولا أظن ذلك إلا وقد كان أقرب ما يكون من الزمان ، فإنَّ الأرواح ما تعارَف منها ائتلف، كما برهنه الأصحاب في معاشراتهم خلفاً عن خلف.

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

لقد سَمِعْنَا بأوصافٍ لكم كَمُلَتْ   فَسَرَّنَا ما سَمِعْنَاه وأحيانا
من قبل رُؤْيَتِكم نِلْنَا محبَّتكم   والأذْنُ تعشَقُ قبل العين أحياناً

سيدي ومولاي :

لقد بلغني عنك في وفائك وفضلك ، ما يدعوني لخطب ودك ؛ ويُرغّبني في إخائك ، ويحببني في التوسل إلى معرفة جنابك ، وإن لم تجمعنا جامعة شخصية ، ولم تضمَّنَّا حفلة تعارف ذاتية ، إلا أن أحاديث فضائلك الصحاح ، أوْفدت عليك الأرواح قبل الأشباح ، والولاء والإخلاص ، قبل الأجسام والأشخاص ، ولا غَرابة في ذلك ، فإن من سنة الله في خلقه : أن يُؤلِّف بينَ الأرواح وأمثالها ، وإنَّ لله ملائكة ، يسوقونَ الأشكال إلى أشكالها ، وشِبْه الشيء مُنجذبٌ إليه ، وأخو الفضائل هو المعوَّل عليه .

إنَّ القلوب لأجناد مُجنَّدَةٌ   لله في الأرض بالأهواء تعترفُ
فما تعارفَ منها فهو مُؤتلفٌ   وما تناكر منها فهو مُختَلفُ

فلذا اصطفيتك لنفسي ، واخترتك لمودّتي وأنسي ، نتناجى بالضمائر ونتخاطب بالسرائر ، وإن بَعُدْنا في الظاهر فرُبَّ غائبٍ بنفسه ، حاضرٌ بخلوص نفسه .

فإن أبَيْتَ ودادي غيرَ مكترثٍ   فعنكَ ما دُمْت حيّاً لا أرَى بَدَلا

وحاشاك عن مثل هذا الإباء ، والهجرِ والجفاءِ .

لكلّ امرئٍ شكلٌ من الناسِ وكلُّ امرئٍ يَهْوَى إلى من يشاكله

ناشدتك الله أن تقبلَ مِنّي الإخاءَ ، وتضمنَ لي الوفاء ، وأنا أرْضى بك من الدنيا نصيباً ، وأختارك من العالمين حبيباً .

الفصل الثالث في رسائل الهدايا

وكتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥ هـ يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان :

أيها الشريف :

عِشْتَ أطولَ الأعمار بزيادة مِنَ العمر، مَوْصُولةٍ بفرائضها مِنَ الشكر ، لا ينقضي حقُّ نِعْمَةٍ حتى يجدّدَ لك أُخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مُقصّراً عمّا بعده ، موفياً عمّا قبله .

إني تصفحت أحوال الأتباعِ الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة ، والتمست التأسّي بهم في الإهداء وإن قصّرَتْ بي الحال عن الواجب — فوجدت أني إن أهديت نفسي فهي مِلْكٌ لك ، لا حظّ فيها لغيرك ، ورميت بطَرْفي إلى كرائم مالي ، فوجدتُها منك ، فإن كُنْتُ أهديتُ منها شيئاً ، فإني لَمُهْدٍ مالك إليك ، ونزعتُ إلى مَوَدّتي ، فوجدتها خالصةً لك قديمةً غير مُستحدثَةٍ ، فرأيت إن جعلتُها هديّتي ، أني لم أجدّد لهذا اليوم الجديد برّاً ولا لطفاً ، ولم أُمَيِّزْ منزلة من شكري بمنزلةٍ من نعمتك ، إلا كان الشكر مُقَصّراً عن الحقّ ، والنعمة زائدة على ما تبلُغُه الطاقة ، فجعلتُ الاعترافَ بالتقصير عن حقّك ، هديةً إليك ، والإقرار بالتقصير عمّا يجبُ لك ، برّاً أتوَسّلُ به إليك ، وقُلْتُ في ذلك :

إن أهد مالاً فهو واهِبُهُ وهوَ الحقيقُ عليه بالشكْرِ
أو أهْدِ شكري فهو مُرتَهَنٌ بجميلِ فعلكَ آخرَ الدهرِ

والشمس تستغني إذا طلعت   أنْ تستضيءَ بِسُنَّة[١] الدهر

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م :

الهديَّةُ في نظر الأصفياء جليلةٌ ، وإن كانت في نفسها قليلةً ، ومكانتها خطيرةٌ وإن كانت يسيرةً ، وسنَّةٌ حسَنَةٌ اجتَمعت على فَضلها الألسنة

مضَتِ الدُّهورُ وأمرُها مُستحسَنٌ   وتعاقبتْ بمديحها الأيام

اللّهم إلا إنْ لَبِست جلْباب[٢] الرياء ، ووَلَجتْ[٣] أبواب الارتشاء ، ولا مِرَاءَ[٤] إنَّ الأوِدَّاءَ من ذلك براءٌ .

وما زالت الهديَّةُ شِعارَ الأصدقاءِ ، وعُنوان تدكار الوَلاءِ ، وكم جدّدتْ بين الأصحاب عهودَ التَّحَاب

وتعهدت وُدّاً فعادَ شَتِيتهُ   ولشَمْلِهِ بعد البَداد[٥] نِظامُ

قد وصلتني يدُ العصا فحبَّذا الإهداء ، وأهلاً بتلكَ اليدِ البيضاء ، وليست هذه أوّلَ أياديك عليَّ ، ولا أكبرَ عارفةٍ جاءَت من ناديك إليَّ ، أمِنْت بها النّوبَ[٦] واعتضدْت بها[٧] على تفريق شمل الكُرَب .

فإذا طغا[٨] بحرُ الهموم ضربتُهُ   بعصايَ فـاجتازت[٩] به الأقدام

تنفلق بها الأيام صخُورٌ ، فتنبجسُ[١٠] منها عيونُ السُّرُورِ ، وتَلقفُ ما يصنعَ الأعداء ، فتذهبُ بسحر البَغضَاءِ ، وإذا اشتدَّ هَجِير[١١] الوحشةِ ، نشرَتْ ظلال أنسها ، أوْ عصى فِرعَونُ الدّهْرَ ، راعته[١٢] ببأسها[١٣] .

---

(١) الوجه (٢) القميص (٣) دخلت (٤) جدال (٥) التفريق
(٦) جمع نائبة : مصيبة (٧) استعنت (٨) علا (٩) سلكت
(١٠) تنفجر (١١) حرها (١٢) أزعجته (١٣) بشدتها

فكأنما أوصى الكليم[١] لنا بها حتى يرى آياتـــه الأقوامُ

وقد فكرتُ ماذا أقابلُ به طرفتك[٢]، وأتلقّى به تحفتك، إلى أن هداني الله، أنّ يد المنعم إنما تقابلُ بالأفواه ليُمزز القبولُ بالقُبَل، ويؤدى الرّسم باللثم. فأرسلت لك فم سيجارة، وجعلته لهذا المعنى إشارةً، وقلت:

مولاي كم فاضت يمينُك بالندى[٣] حتى غدوتُ غريقَ بحرِ الأنعُمِ
والشكرُ أوجب أن أقبّل راحها فكنيت عن هذا بإهداء الفمِ

وقد علمت أن المنظرَ البهيج، يتمّ بالتدبيج[٤]، فاخترتُ أن يكون مبدأهُ كالليل إذا عسعسَ[٥]، ومنتهاه كالصبح إذا تنفس[٦]، إيذاناً[٧] بزوال الشرور بالسرور، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر:

يا أيها المولى الذي عمت أياديه الجميلهْ
إقبَلْ هدية مَن يرى في حقك الدنيا قليله

غرّةَ وجه السعود وقرة عين الوجود — الأمير الجليل.

يا جليلَ الفضائل — إليك توجه الآمال، ويا جميلَ الشمائل بساحتك تحط الرّحال، تلك هي الساحة الفيحاء[٨]، والشّيمة[٩] الحسناء، والهمّة العلياء، واليد البيضاء، والأعمال التي تُضرب بها الأمثال، كم من نعم أسديتها[١٠]، ومكارمَ أوليتها وعلومٍ أحييتها، فأنت المصدرُ والموْردُ، والمقصدُ والموْعِدُ، إليك أقدّمُ تلك الهديةَ المرضية، وأرفعُ ذلك الكتابَ المستطابَ، مشفّعاً في قبوله كرَمَ سجاياك، وعِظَمَ مزاياك وإن كنتُ أعلم أنّ مقامك العليّ يجلّ عن أن يرفعَ إليه مثله، فقد عرفناك، متواضعاً في علاكَ، قريباً مع اعتلاك.

(١) سيدنا موسى عليه السلام (٢) إحسانك (٣) العطاء (٤) التزين
(٥) أقبل بظلامه (٦) أضاء (٧) إعلاما (٨) الواسعة (٩) الخلق (١٠) أعطيتها.

دَنوْتَ تواضعاً وعلوْت مَجْداً فشأناك انخفاضٌ وارتفاعُ
كذاك للشمس يَبْعُد أن تُسامى [١] ويدنو الضَّوْءُ منها والشُّعاع

وحاشاك أن أُهديَ للقمَر نوراً ، أو للشمس ضياءً ، أو أبعثَ ببُنيَّة القطْر [٢] إلى ذلك البحر ، ولكني أحبَبْت أن يحظى بلثْم بنانِك [٣] ، وينال من كرمكَ وإحسانك ، وقد عَهِدْناك تهتزُّ للمكارم اهتزاز الصّارم [٤] وترتاح لإسداء الجميل ، كما يرتاح للكرم النزيلُ ، وللشفاء العليل ، وما هو إلا من نور فكرك مقتبس [٥] فعساه يحظى بالقبول ، فأبلغ غاية المأمول والسلام .

وكتب الأستاذ عبدالله بك الأنصاري المتوفى سنة ١٩٣٢ م :

المولى — أدام الله وجوده ممتّعاً بهدايا الأيام، وتحف الأعوام — طالما أوْفدَ [٦] من الرّفد [٧] إليّ ، ووجّه من الخيرات ما أفعَم [٨] يديّ ، حتى أصبحت — وله الفضل والمنّة — أجُرُّ ذيولَ النّعماء [٩] على غبراء [١٠] البأساء [١١] وأجتَلي [١٢] معارفَ السّراء بعَوارفه البيضاء ، التي لا يوازيها ثناءٌ وحمدٌ ، ولا يوازنها عطاءٌ ورِفد ، ولا يطاولها سماءٌ وبحر ، ولا يغالبها بؤسٌ وفقر ، وإن لي من آلاء [١٣] السيد — حفظه الله وأدام علاه — ما أينعَ وأزْهرَ ، وأوْرقَ وأثمرَ ، حدائقَ قامتْ لشكره عيدانُها ، وسجدت لفضله أغصانُها ، وترنمت طرباً ، وتمايلت عجباً بنفحات هي عَرْفُه [١٤] ، وبركات هي عُرْفُه ، ولي أملٌ في جنابه — وأنا سليل [١٥] نعمتهِ — وعهدي بأخلاقه — وأنا ابن مودّته أن يمنّ بقبول ما أهديته ، وهو من مال نفسه ، وثمرة غَرْسه ، (باكورة تفّاحٍ) يرفعها إجلالٌ وإعظام ، وتصحَبُها تحية وسلام .

---

(١) تفاخر (٢) المطر (٣) الأصابع (٤) السيف القاطع
(٥) مأخوذ (٦) أرسل (٧) العطاء والصلة (٨) ملأها
(٩) بالفتح النعمة (١٠) الأرض (١١) الداهية (١٢) أنظر اليها بجلوة
(١٣) نعم (١٤) بالفتح الريح الطيبة (١٥) ابن نعمته .

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

الهدية – عمرك الله بالمعروف – تَبسطُ يد المودّة، وتَدرُّ بها أخلافَ[1] القرب وتغرس بين المُتحابّين من الائتلاف، بقدر ما تقطع بينهما من شجر الخلاف، وما أنا فيما أهديه إليك إلا كمستبْضع[2] تمراً الى أرض خيبر[3]، أو كالواهب الماءَ للبحر، والضوء للبدر، والمُلْكَ لسليمان[4]، والمالَ لقارون[5]، والحلم لأحنف[6]، والذكاء لإياس[7]، والتفسير لابن عباس[8]، وما ذاك إلا كتابٌ كما تراه ضَرَبَ في الإحكام بسهمٍ، ووعى من الأحكام، ما خلت منه مفْعمات[9] الأسفار[10]، وموجزات الرسائل، فهو كما قيل : « كل الصيد في جوف الفرا »[11]

تزينُ معانيهِ ألفاظَهُ وألفاظهُ زائنات المعاني

على أني وإن تطفلتُ عليك، وسقت لك هذا الكتاب مُزْدلفاً[12] إلى جنابك الرّحب، ومقامك الأسنى، فقد أصبتُ كبدَ الصّواب، ووضعته حيث يعرفه اهلوهُ، ويتقبله من باذله عالموه، علماً بأنك عماد العلوم، وأساس الفضائل، لا تغادِرُ[13] شاردة إلا وعيتَها، ولا نادرةً إلا رويتها، ولا .

(١) جمع خلف بالكسر الضرع (٢) جاعله بضاعة (٣) موضع بالحجاز (٤) ابن داود النبي عليهما الصلاة والسلام (٥) من قوم موسى عليه السلام أعطاه الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره (٦) هو ابو بحر صخر بن قيس تابعي كبير يضرب به المثل في الحلم توفي سنة ٦٧ هـ (٧) هو ابو وائلة بن معاوية بن مرة المزني يضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢٢ هـ (٨) هو ابو العباس عبدالله بن عباس ابن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ صحابي جليل يلقب ترجمان القرآن توفي سنة ٩٨ هـ (٩) مملوآت (١٠) الكتب (١١) حمار الوحش، ومعناه – كل ما عداه دونه . قاله النبي عليه الصلاة والسلام تطميناً لرجل خرج يصطاد مع اصحابه فلم يصب غير الحمار الوحشي (١٢) متقربا (١٣) لا تترك .

لو كان يُهدى على قدري وقدركمُ لكنتُ أُهدي لك الدُّنيا وما فيها

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده :

سيدي ومولاي – أطال الله بقاءك ، ورفع في الدّارين عُلاك – الهديَّة مفتاح بابِ المودة ، وعنوانُ تذكار المحبة ، يتسابق إليها كرامُ السَّجايا [١] ، ويتسارع الى إحيــاء شعائرها عُشاق المزايا حرصاً على حفظ عهودِ الوِداد والتآلف ، وإذهاباً لوحشةِ التقاطع والتَّخالف :

هدايا الناس بعضهمُ لبعضٍ تُولِّدُ في قلوبهمُ الوِصالا
وتزرع في القلوب هوًى ووِدّاً وتكسوكَ المهابةَ والجلالا

ولقد وجدتك إماماً حكيماً ، وفيلسوفاً عليماً ، تقدِّر الأعمال حق قدرها ، وتضع الأشياء في مواضعها ، سبّاقاً إلى نشر العلوم والمعارفِ ، في المشارق والمغارب :

يبقى الثَّنــاءُ وتنفَد الأموال *لكلِّ دَهْرٍ دَولةٌ ورِجــال
ما نالَ محمدَةَ الرِّجالِ وشُكرَهُم إلا الصَّبور عليهــم المفضــال

فلذا أهديك كتابي (جواهر الأدب ، في أدبيات لغة العرب) جمع فأوْعى من الآداب والحِكم ، ما خلت منه الأسفارُ [٢] ، فهو بلا شكٍ ولا مِرَا ، كلُّ الصيدِ في جوف الفرَا :

تزين معانيهِ ألفاظُه وألفاظُه زائنات المعاني

(١) الأخلاق .
(٢) الكتب الكبيرة .

* والأصح من « لكل دهرٍ .. » ولكلّ دهرٍ ..

على أني – وإن تطفّلت عليك ، ووضعت كتابي هذا بين يديك – فقد ولجت الأمورَ من الأبواب وأصبت كبدَ الصواب ، حيث يعرف الفضل من الناس ذووه ، ويتقبله بقَبولٍ حسنٍ عالموه :

شكراً وحمداً إنْ قبلْتَ هديتي وجعلت لي فضــلاً على أقْراني

فتنازلك بقبوله يكون الإقبال عليه جليلا ، ويعجز لساني على أن اشكرك شكراً جزيلا ، والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم (سعد باشا زغلول) يُهديه كتابه « جواهر الأدب » في أدبيات وإنشاء لغة العرب » :

موْلاي ،أطالَ الله بقاءك في أهنإ عيشةٍ وأرْغَدِها ،وأتم نعمة وأسعَدِها ، وأعمّ عافيةٍ وأزيدِهـا ، وأولاك من الآلاء بأمدّها مزيداً ، ومن السلامةِ بأسْبلِها سِتراً ، ومِنَ السرور بأوفَره حظّاً ، ومِنَ العزّ بأشدهِ ركناً ، والعمرِ بأبْعدِهِ مدّى ،تولاك الموْلى بحفظهِ وحياطته ، وحَرَسَكَ تحت جناح السلامةِ بكلائتهِ ورِعايتهِ .

إن الله تعالى قد خصك بالعزّ المنيع ، والشرف الرفيع ، والخُلقِ السنيّ ، والفخرِ البَهيّ ، والرّأي والحزمِ ، والبلاغةِ والفَهْـمِ ، والبراعةِ والكمالِ ، والبذلِ والنّوال ، والجود والإفضـال ، والحمد والثناء ، والكرم والوفـاء ، والمذهب الجميل ، والقدْرِ الجليل .

فأنت – أدام الله كَرامتك ، وأكرمَ حياطتك – معدن الفضائل وزَين المحافل غياث اللاجىء إليـك ، وسند المعوّل عليك ، لا يُجْحد فضلك ولا يُنسى ذِكرك ، عَرْفُك شائع ، وجودك واسع ، ومعروفك ذائع ، وفَضْلك شامل ، ونُبلك كامل ، سِلمٌ لأوْليائك ، وحَرْبٌ لأعدائك ، سَحائبُ كفّيْك

تُمْطِر دِيَمَ الإنعام ، وشآبيبُ يَديك تفوق افعال الكرام ، زَادَكَ اللهُ ايُّها الرئيسُ عقلاً إلى عقلك ، وفخراً إلى فخرِك ، وفضلاً إلى فضلك ، وطَولاً إلى طَولِك ، وسُؤدَداً إلى سُؤددك ، إنه لطيف كريم .

لمّا رأيتُك – أدام الله عُلوّكَ ، وأجزل من كلّ خيرٍ حظك وقسمك – تغني عن التوسّل إليك بكريم أخلاقك ، وشريف أعراقك ، جعلتُ كرمك ذريعتي إليك ، لِما دلني من فضلك عليك ، وكفى بهِ عن اللبيبِ شاهداً ، وإلى الكريم قائداً ، فأطمعني فيك ما رأيتُ من جودِك وسماحتك ، وحُسن بِشْرِك وطلاقتك ، ولئن أمّلتك عند الشدائد ، ودفعتُ بك صَولَةَ النوائب ورَجوتك لكشف الملمّات ، والحوادث الطّارقات ، واستغثتُ بِسَيبك وجدواك على غير شافع ، أطمعُ في شفاعته إليك ، أو مُتوسل في ما لديك ، فإني أقول كما قال الشاعر :

من غير ما سبب يُدْني كفى سبباً للحُرّ أن يجتدي حُرّاً بلا سببِ

ولما كانت الوسيلة إلى السادات ، وأهل الأخطار والمروءات ، إنما هي وكيد حُرْمة أو قديم خدمة : وكنتُ صفراً من ذلك كُلّه ، غير داخل في جملة أهله توسلتُ بكتابي « جواهر الادب » في أدبيّات وإنشاء لُغة العرب » ، إذ كان المتوسّل بها على ثقة ممن عَرف قدرها، لأن الآداب عند ذوي الكرم ، أعطفُ من صلة الرّحم ، وهو سببٌ بين الكرام موصول ينزعون إليه ، وحق يتعاطفون عليه ، وفيه قال الشاعر :

أدبٌ بيننا تولّد منه نسب والأديبُ صِنْوُ الأديب

وقال الآخر :

حقُّ الأديب وإنْ لَمْ يُدْنِهِ نسبٌ فَرْضٌ على كلّ مَنْ أَمسى له أدبُ

وقد ضمنتُ كتابي هذا من الآداب أظرفها ، ومِنَ الأشعار أفضلها وأجملها

وجعلتُه سبباً أمُتُّ به إليك ، وهدية أضَعُها بين يدَيك . فتنازلُ دولتكم بشرف القبول ، يكون غاية مطلوبي ، ونهايةَ المأمول .

الفصل الرابع في رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أبو منصور الثعالبي النّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الكريم إذا قَدَر غفرَ ، وإذا أوثقَ أطلق ، وإذا أسرَ أعتق، قد هربت منك إليك ، واستعنتُ بعفوكَ عليك ، فأذِقني حلاوة رضاك عني ، كما أذقتني مرارة انتقامك مني ، الحرُّ كريم الظّفر ، إذا نالَ أقال [١] ، واللئيمُ إذا نال استطال [٢] قد هابك من استتر ، ولم يُذنب من اعتذَر ، تكلفُ الاعتذار بلا زَلة [٣] ، كتكلف الدواءِ بلا علة ، مولاي يوجبُ الصفحَ عند الزلّة [٤] كما يلتزم البذلَ عند الخلة [٥] مولاي يوليني صفيحة [٦] صفحه ، ويؤْتيني العفوَ من عفوه ، زَللت وقد يزلُّ العالمُ الذي لا أساويه ، وعثرتُ وقد يعثر الجوادُ الذي لا أجاريه ، لا تضيقن عني سعة خلقُك، ولا تكدرن عليّ صفوَ ودك ، مالي ذنبٌ يضيقُ عنه عفوُك ، ولا جُرمٌ يتجافى تجاوُزك وصفحك . والسلام .

وكتب عبدالله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤ هـ إلى أبي مسلم :

من الأسيرِ في يديه ، بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . (أما بعد) فقد آتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرَّعية ، وألهَمَك عدْل القضية فإنك مُستودع الوَدائع ، وموْلى الصنائع ، فاحفظ ودائعك ، بحسن صنائعك ، فالوَدائع عارية ، والصنائع مرعيّة ، وما النّعمِ عليك وعلينا فيك بنزُورِ نداها ، ولا ببلوغ مداها . فنبه للتفكير قلبك ، واتّق الله ربك وأعط من

---

(١) ترك (٢) تملك وتمسك (٣) بالفتح السقطة (٤) بالفتح الغلطة
(٥) بفتح الخاء الحاجة والفقر (٦) صفيحة — عريضة. أي عظيم صفحه .

نفسك من هو تحتك ، ما تحب أن يعطيك من فوقك – من العدل والرّأفة ، والأمنُ مِن المخافة ، فقد أنعمَ الله عليك ، بأن فوّض أمرنا إليك . فاعرفْ لنا لِينَ شكرِ المودّةِ ، واغتفار مسّ الشدة ، والرّضا بما رضيتَ والقناعة بما هويت ، فإن علينا من سمكِ الحديد وثقله أذًى شديداً ، مع معالجة الأغلال ، وقلة رحمة العمال ، الذين تسهيلهم الغلظة ، وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ، زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الإياسة ! فإليك – بعد الله – نرفعُ كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فمتى تَملْ إلينا طرفاً ، وتولِنا منك عطفاً تجد عندنا نصحاً صريحاً وودّاً صحيحاً ، لا يضيّع مثلك مثله ، ولا ينفي مثلك أهله ، فارع حرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلجت بحجته [١] فإن الناس من حوضك رِواءٌ ، ونحن منه ظِماء ، يمشون في الأبراد ، ونحن نحجل في الأقياد ، بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة ؛ والله المستعان ، وعليه التكلان .

وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٩٩ ه :

رفقاً بمن ملك الوجدُ قياده ، وعطفاً على من أذاب الشوق فؤاده ، متيّمٌ [٢] أقلقه فرط صدودك ، ومغرمٌ أغراه بحبك قول حسودك ، وسقيم لا شفاء له دون مزارك ، ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك : إلامَ هذا التنائي [٣] والنفور ؟! وعلام يادا القد العادل تجور ؟! لقد تضاعف الأسف والأسى ، وتطاول التعلل بلعل ، وعسى

هبني تخطّيتُ إلى زَلّة وَلَم أكُن أذنبتُ فيما مضى
أليسَ لي من بعدها حرمةٌ ؟ تُوجب لي منك جميل الرّضا !

ولست ألوذ إلا بباب نعَمك ، ولا أعتمد في محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك ، وما جلّ [٤] ذنب يضاف إلى صفحك ولا عظم جُرمٌ [٥] يسند إلى

(١) فلج بحجته – أثبتها (٢) مستعبد ذليل
(٣) التباعد (٤) ما عظم (٥) ذنب .

عفوك . ومثلك من يقيل العثرات ، ويتجاوز عن الهفوات :

وكنت أظن أن جبال رضوى[1] تزول وأن ودك لا يزول
ولكن القلوب لها انقلاب وحالات ابن آدم تستحيل

طالما آنستني بقربك ، ودنوت مني مفار قاً ظباء سربك ، وأنجزت وعودي وأطلعت نجوم سعودي :

وكنت إذا ما جئت أدنيت مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت مرة الي بها في سالف الدهر تنظر

قيدت أملي عن سواك ، وبهرت ناظري بنظرة سناك[2] ، وكسرت جيش قراري ، وتركتني لا أفرق بين ليلي ونهاري ، أحوم حول الديار ، وأعوم في بحر الأفكار ، وأتمسك بمعطف عطفك ، وأتعلق بأذيال مكارمك ولطفك ، أما علمت أن الكريم اذا قدر غفر ؟ وإذا صدرت من عبده زلة أسبل عليها رداء العفو وستر ؟ وأن شفيع المذنب إقراره ؟ ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره ؟

ومن كان ذا عذر لديك وحجة فعذري إقراري بأن ليس لي عذر

لهفي على عيش بسلاف[3] حديثك سلف ! وأوقات حلت ، ثم خلت وأورثت التلف ! وآهاً لأيام بطيب أنسك مضت ! وبروق ليال لولا قربك ما أومضت[4]

قد كنت أعرف في الهوى مقدارها رحلت وبالأسف المبرح عوضت
كيف السبيل إلى إعادة مثلها وهي التي بالبعد قلبي أمرضت

فجد بالتداني ، واسمح بنيل الأماني ، وألن قلبك القاسي ، وعد عن التنائي

---

(١) جبل بالمدينة (٢) ضوئك (٣) الخمر (٤) ما لمعت .

والتّناسي ، وارعَ الود القديم ، وأبدلْ شقاءَ مُحبّك بالنّعيم ولا تعْدِلْ عن منهاج المعدّلة ، وسلّم فقد أخذَتْ حقها المسألة ، وأغمدْ سيفَ حيفٍ[1] صيّرته مسلولا وأوْفِ بالعَهْد إن العهد كانَ مَسْئولاً .

وكتب أبو عثمان عمرو بن الجاحظ المتوفى بالبصره سنة ٢٥٥ هـ :

ليسَ عندي - أعزّك الله - سببٌ ولا أقدرُ على شفيعٍ ، إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتَاجِ حُسْن الظّن ، وإثبات الفضل بحال المأمُول ، وأرجو أن أكونَ منَ الشاكرين ، فتكون خير مُعتب[2] ، وأكونَ أفضل شاكر ، ولعلّ الله يجعلُ هذا الأمرَ سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم ، والكون تحت أجنحتكم[3] ، فيكونَ لا أعظم بركةً ولا أنمى بقيةً من ذنبٍ أصبحت فيه ، وبمثلكَ (جُعلتُ فداك) عاد الذّنبُ وسيلةً والسّيئةُ حسنةً ، ومثلك من انقلبَ به الشر خيراً ، والغُرم غنماً[5] .

من عاقب فقد أخذ حظّه وإنما الأجر في الآخرة ، وطيب الذّكر في الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرّع المرائر . وأرجو أن لا أضيع (وأهلكَ) فيما بين كرمك وعقلك ، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة ، وإن كان العفو العظيم مستطرفاً[6] من غيركم فهو تلاد[7] فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس الى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون[8] ، ولا على سالف إحسانكم تندمون ، ولا مثلكم الا كمثل عيسى بن مريم ؛ حين كان لا يمر بملأ من بني اسرائيل إلا أسمعوه شرّاً ، وأسمعهم خيراً ؛ فقال له (شمعون الصفا)[9] : ما رأيت كاليوم !

---

(١) الجور (٢) مسر بعد إساءة (٣) حمايتكم (٤) ما يلزم أداؤه
(٥) الغنيمة (٦) مستحدثا (٧) المال القديم (٨) ترجعوا
(٩) شمعون الصفا : هو أحد حواريي عيسى عليه السلام .

كلما أسمعوك شرا ، أسمعتهم خيراً ؟! فقال : « كلُّ امرىء يُنفق مما عنده » وليس عندكم إلا الخيرُ ، ولا في أوعيتكم إلا الرَّحمة ، وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح .

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء :

نَبَتْ [١] بي غرَّةُ الحداثة ،فردتني إليك التَّجربة ،وأفادتني الضرورة ،ثقةً بإسراعك َإليَّ ،وإنْ أبطأت عنك ، وقبولك لعذري وإن قصّرت عن واجبك . وإن كانت ذنوبي سدّت عليّ مسالك الصفحِ عني ، فراجعْ فيَّ مجدك وسؤْدَدَك [٢] ، وإني لا أعرفُ موقفاً أذل من موقفي ، لو لا أنَّ المخاطبة فيه لك ، ولا خطةً أدنأ مِنْ خطتي ، لولا أنها في طلب رضاك — والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٧٤٠ هـ :

لو بغير المـــاء حلقي شرق كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

كيف يقدر (يقي الله السيد) على الدوام ، من لا يهتدي إلى أوجه الداء ، وكيف يداري أعداءه ؟ من لا يعرف الأصدقاء من الأعداء ! وكيف يعالج علة القرحة العمياء؟ أم كيف يسري بلا دليل في الظلماء؟ أم كيف يخرج الهارب من الأرضِ والسماء ؟! الكريم إذا قدر غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسرَ أعتق ، ولقد هربت من السيد إليه ، وتسلحت [٣] بعفوه عليه ، وألقيت ربقة [٤] حياتي ومماتي بيديه ، فليذقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتَلُحْ [٥] على حالي غرةُ عفوه ؛ كما لاحت عليها مواسمُ [٦] غضبه وسطوته ؛ وليعلم أنَّ الحر كريم الظفر ، إذا نال أقال ؛ وأن اللئيمَ لئيمُ الظفر اذا نال استطال ، وليغنم التجاورَ عن

(١) أبعدتني (٢) السيادة (٣) استعنت

(٤) العروة التي يربط بها والمراد بها الزمام (٥) تظهر (٦) العلامات

عثراتِ الأحرار ، وليَنْتهِز (١) فرصَ الاقتدار ، ولْيحْمد اللهَ الذي أقامهُ مقامَ من يُرتجى ويخشى ، وركّبَ نصابه في رُتبةٍ شابَ الزمانُ ومجدُها فتيٌّ ، وأخلقَ العالمَ وذِكرُها طريٌّ ، وليعتقد أنه قد هابَهُ من استتر ، ولم يذنب إليهِ من اعتذرْ ، وأن من رُدّ عليه عذْرُه ، فقد أُخرجَ إلى الشّجاعة بعد الجبن وأُخرجَ ذنبهُ إلى صحن اليقين من سُترة الظنّ . وفقَ اللهُ السيد لما يحفظ عليه قلوبَ أوْليائه ، وعصَمه ممّا يزيد في عددَ جماجم أعدائه .

وكتب بعضهم إلى رئيسه :

وجدْتُ استصغارَكَ لعظيم ذنبي أعظمَ بقدر تجاوُزك عني ، ولعمري ! ما جل ذنبٌ يُقاسُ إلى فضلك ، ولا عظُمَ جُرْمٌ يضاف إلى صفحك ، ويعوَّلُ فيهِ على كرَم عفوك ، وإن كان قد وسعه حلمك فأصبح جليلهُ عندك محتقراً ، وعظيمه لديك مستصغراً ، إنه عندي لفي أقبح سور الذنوب ، وأعلى رُتب العيوب . غير أنه لوْلا بوادر (٢) السُّفهاء ، لم تعرَفْ فضائلُ الحلماءِ ، ولوْلا ظهور نقص بعض الأتباع ، لم يَبن جمال الرُّؤساء ، ولولا إلمام الملمّين بالذنب ، لبطل تطوُّل المتطوّلين(٣) بالصّفح . وإني لأرجو أن يمنحكَ الله السلامة بطلبك لها ، ويُقيلك العثراتِ بإقالتك أهلها ، وما علمت أني وقفتُ منك على نِعمة أتدَبّرْها ، إلا وجدتها تشتمل على فائدة فضل ، تتبعها عائدة عقل .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٠٦ ه :

بمَ يعتذرُ إليك من لا يَرى لنفسهِ عذْراً ؟! وكيف يَستتر مِنْ عتبك مَن لا يستطيعُ لذَنبه سَتراً ؟! بل كفاني من العَتب : تعنيف نَفسي على ما ألقيت عليها من تبعَةِ تقصيري ،وما حُلتُ بهِ منَ التفريط بينها وبين معاذيري ، واللهُ

---

(١) لبغتنم (٢) جمع بادرة : وهي الحدة عند الغضب .
(٣) تطوّل المتطولين : فضلُهم .

يعلم ما كان تقصيري شيئاً أردته وكان تفريطي أمراً قصدته ، ولكنها الأيام ! إن صاحبتها لم تصحب ، وإن عاتبتها لم تعتب فلقد عبرت بي هذه البرهة كلها ، وأنا بين شواغل لا يشغلها عني شاغل ، وبلابيل[1] قد اختلط حابلها بالنابل ، فتنازعتها هذه النهزة[2] اليسيرة ، أجدد فيها التذكرة ، إلى أن يمن الله بصلة الحبل واجتماع الشمل ، وأستنزل أحرفاً من خطك يكتحل بها الناظر ، ويأنس إليها الخاطر ، متوقعاً بعد ذلك أن أبقى بين يدي مودتك مذكوراً ، وألا يكون عجزي لديك شيئاً منظوراً ، وأن تجري بي على عادة حلمك ، إلى أن يجمع الله الشتيتين ويغني العين[3] عن الأثر بالعين[4] إن شاء الله تعالى - والسلام.

وكتب أيضاً :

وافاني كتابك العزيز ، والنفس نازعة[5] إلى ما يزيل نفارها ، والقريحة[6] تائقة[7] إلى ما يشحذ[8] غرارها[9] ، فكان روضة باسمة[10] الكمائم[11] فاتحة النسائم ، وقد ردت على النفس انبساطها وأحيت البادرة فاستأنفت نشاطها فأنا منه ما بين وشي[12] يخجل طراز العبقرية[13] وزخرف[14] دونه نضرة[15] السابرية[16] تناجيني منه رشاقة[17] ألفاظ تفضح قدود[18] الحسان ، وغضاضة[19] أنفاس يغار منها ورد الجنان ، ورقة خطاب يشف[20]

(١) هموم ، والحابل : قيل ناصب الحبالة للصيد ، وقيل : سدى الثوب والنابل: صاحب النبال ، وقيل: لحمة الثوب ولفظ المثل « اختلط الحابل بالنابل» وهو مثل يضرب في ارتباك الأمر (٢) بضم النون الفرصة (٣) الباصرة (٤) الذات (٥) مشتاقة (٦) الملكة التي يقتدر بها على استنباط العلم بجدة الطبع (٧) مشتاقة (٨) يحد ، وأصله السكين (٩) بكسر الغين والمراد أن الملكة مشتاقة إلى ما يجعلها قوية مصيبة (١٠) ضاحكة (١١) الزهر (١٢) نقش الثوب (١٣) ثياب تبلغ الغاية في الحسن (١٤) كمال الحسن (١٥) الحسن (١٦) ثياب رقيقة جيدة وأصلها للدروع السابرية نسبة إلى سابور كورة بفارس بينها وبين شيراز ستة عشر فرسخاً (١٧) لطافة (١٨) جمع قد وهو القامة الرشيقة (١٩) الحسن (٢٠) يحكي .

عن ودّ صفيٍّ ، ولطف خفيٍّ [1] ، وكرمٍ وفيٍّ ، وعتبٍ أعذبَ من الماء القراح [2] وأرقّ من نسماتِ الصبا في الصبّاح ، حتى لقد حبّب إليّ تقصيري ، وشفعَ عند نفسي في قبول معاذيري ؛ على أن ما عندي من الوَلاءِ لا يعتريه — معاذ الله — وهن [3] ، ولا يُخلقه [4] تمادي زَمن ، أو ترامي وطن. ولكنّ صُرُوفَ الأحداث [5] قد قصّرت الجهد [6] وصرفت جواد العزيمة عن القصد ، والله يعلم أني لو نزلت على حكم نوازل الدّهر ، ولم أدافع طلائعها بما بقي من ساقة [7] الصبر ، لما كان في همّتي إلا كسر اليراع [8] وهجرُ المحابرِ والرّقاع [9] ، وحسبي من العذر ما أعرفه من حلمك المألوف ، وما ألفتهُ من كَرَمِكَ المعروف .

والله أسأل أن يبقيك لي من الدّهر نصيباً ، ويمتعني بلقائك قريباً ، بمنه وكرمه .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

أما بعدُ : فنعمَ البديلُ من الزلة والاعتذار ، وبئسَ العوَضُ منَ التوبة الإصرارُ ، فإنه لا عوَضَ من إخائك ولا خلفَ من حُسن رأيك ، وقد انتقمت مني في زلّتي بجفائك ، فأطلق أسيرَ تشوّقي إلى لقائك ، فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك ، ضمنتُ لنفسي العفوَ منْ زَلتها عندَك ، وقد مسني من الألمَ ما لمْ يشفهِ غير مواصلتك .

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦ هـ إلى المأمون :

كلُّ ذنبٍ — يا أمير المؤمنين — وإن عظَم صغير في جنب عفوك ، وكل إساءة

---

(١) ظاهر فهو من الأضداد (٢) بفتح القاف الخالص (٣) ضعف (٤) لا يبليه (٥) كلاهما مصائب الدهر (٦) بفتح الجيم وضمها أي الطاقة (٧) آخره (٨) الأقلام (٩) الرقاع بكسر الراء مفرده رقعة وبضمها القطعة من الورق التي تكتب .

وإن جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذي عوّدكَ الله أطال مدّتك ، وتمم نعمتك وأدام بِكَ الخير ، ودَفَعَ عنك الشر والضير .

وبعد : فهذه رُقعة الوَلْهى – التي ترجوك في الحياةِ لنوائِب الدهر ، وفي المات لجميل الذكر – فإنْ رَأيتَ أن تَرْحمَ ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي ، وأن تصل رَحمي ، وتحتسبَ فيما جعلك اللهُ له طالباً ، وفيه راعياً – فافعل وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك .

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتي :

وصلت رقعتك يا أماه – أحاطك الله وتولاك بالرعاية [١] – ووقفتُ عليها وساءَني – شهد الله ! [٢] جميع ما أوْضحت فيها ، لكن الأقدار نافذة [٣] والأحكام جارية ، والأمور متصرّفة ، والمخلوقونَ في قبضتها ، لا يقدرون على دفاعها [٤] ، والدنيا كلها إلى شتات [٥] وكل حيٍّ إلى ممات ، والغدر والبغي حتف الإنسان [٦] والمكرُ راجع إلى صاحبه .

وقد أمرتُ بردّ جميع ما أخذ لك ، ولم تفقدي ممّن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين [٧] والسلام .

وكتب بعضهم :

إني وإن جنيتُ على نفسى ، وخرجت عن حد الأدب ، فيما يجب على العبد لسيّده – فإني عبدُ نعمتك وصنيع إحسانك ، وذَنبي وإن عظم ، وضاقَ باب التوبة عن قبول المعذرة ، فالعفوُ عنه بعضُ حسناتك ، التي فُطِرْتَ عليها والإغضاءُ عني سرٌ من أسرارك التي تميل إليها ، فاجعل العفوَ عني قُربةً إلى

(١) يعني حفظك الله وصانك برعايته (٢) جملة معترضة يقصد بها تأكيد ما يقول (٣) يعني ما قدره الله لا بد أن يكون (٤) يعني أن المخلوقات مستسلمة لأحكام الله وأقداره (٥) مآلها التفرق (٦) يعني أن البغي فيه هلاك الباغي (٧) يعني أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة .

مولى الموالي ، واترك العبدَ عتيق مكارم الأخلاق ، وإلا فضَع سيفَ نقمتك ، في نحر عبد نعمتك ، وأنتَ حِلٌّ من دم أراقه أهله ، أو آلَ أمرُه إلى وارث لا يسعه إلا النزولُ عن المطالبة به ، ألا وهو مقامُ جلالتكم السامي .

وحاشاك أن تُعدمَ الصادق في خدمتك بهفوة لم يقصدها ، وذنب أقلعَ عنه . وعلى كل فالعبدُ بين يديك ، وأمرُه منك وإليك ، فقد ألقى إليك مقاليد الأجل ، فافعل ما تشاءُ ، واتقِ الله عزَّ وجلَّ .

استعطاف ام جعفر[1] بن يحيى الرشيد لأجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كانت أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر[2] وربته في حجرها وغذته برِسْلها[3] وكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو في كفالتها ألا يحْجُبَها ولا استشفعته لأحد إلا شفّعها وآلت أم جعفر أنْ لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شَفَعت لأحد مقترف ذنباً ؛ فكم أسير فكت ، ومُبهم عنده فتحت ، ومُستغلق[4] منه فرّجت فلما قُتل ابنها جعفراً وحبس يحيى زوجها وسائرَ أهل بيته طلبت الإذن عليه ، ومَتت[5] بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها ؛ فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لِثامها محتفية في مشيتها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد

(١) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة ، وذكر الطبري أن اسمها زينب بنت منير ، وذكر ابن خلكان أن اسمها عتابة وكذا صاحب نجباء الأبناء ، وذكر بعضهم أن اسمها عادة والله أعلم (٢) كذا ذكر صاحب العقد وقال الطبري إنها أرضعته مع الفضل ويؤيده قول سليمان الأعمى يرثي جعفراً ويستعطف الرشيد للفضل :

أمين الله في الفضل بن يحيى رضيعك ، والرضيع له ذمام

(٣) الرسل : اللبن (٤) المستغلق (٥) مت إليه : توسل بقربة أو نحوها

الملك بن الفضل الحاجب فقال: ظئر[١] أمير المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماتة الحاسد، إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد. ويحك يا عبد الملك. أوَساعية؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك فرب كبد غذتها، وكُرْبة فرّجتها، وعورة سترتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة مُحْتفية قام مُحْتَفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس وأكبّ على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت: يا امير المؤمنين أيَعدو علينا الزمان؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان؟ ويُحْرِدك[٢] علينا البهتان، وقد ربيتك في حِجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوّي ودهري؟ فقال لها: وما ذلك يا أمّ الرشيد؟ فقالت: ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرّضه للحتْف في شأن موسى أخيه[٣]، فقال لها: يا أم الرشيد أمرٌ سبَق وقضاء حُمّ[٤] وغضب من الله نفذ، قالت: يا أمير المؤمنين «يمحو الله ما يشاء ويُثبِت وعنده أمُّ الكتاب»[٥]. قال: صدقتِ، فهذا مما لم يمحه الله. فقالت: الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرَق الرشيد مَلياً ثم قال:

وإذا المنية أنْشَبَتْ أظفارها ألفيْتَ كلّ تميمة لا تنفع[٦]

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل «والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناسِ والله يُحِب المحسنين» فأطرق ملياً ثم قال: يا أم الرشيد أقول:

---

(١) الظئر: المرضعة (٢) أحرده: أغضبه (٣) تشير إلى ما كان أراده الهادي و... موسى بن المهدي من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها إلى ولده واحتيال يحيى بن خالد في رد الهادي عن عزمه باذلاً في ذلك جهده (٤) حم الأمر: قضى ونفذ (٥) أم الكتاب أصله أو اللوح المحفوظ.

(٦) التميمة: ما يعلق للأولاد من كتابة أو غيرها دفعاً للعين أو للمرض.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تُقبِلُ

فقالت : يا أمير المؤمنين وأقول

ستَقطَع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينَك فانظر أي كف تبدل [1]

قال هارون: رَضيتُ ، قالت : فهبه لي يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله ﷺ : « من ترك شيئاً لله لم يُوجده [2] الله لفقده » فأكب هارون مَلياً ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ». قالت : يا أمير المؤمنين« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أمير المؤمنين أليّتك [3] : ما استشفعتك إلا شفّعتني . قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعتِ لمقترفٍ ذنباً. فلما رأته صرح بمنعها،ولاذَ [4] عن مطلبها أخرجت حقاً من زُمرُّدَة [5] خضراء فوضعته بين يديه . فقال الرشيد:ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب ، فأخرجت منه خفضه وذوائبه وثناياه قد غمست جميع ذلك في المسك . فقالت : يا أمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك،وطيّب جوارحك ليحيى عبدك. فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر [6] وبكى بكاءً شديداً وبكى أهل المجلس . فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها : لحسن ما [7] حفظت الوديعة ، فقالت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين . فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال : « إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها » قالت : والله يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ويقول : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لي

(١) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية في باب العتاب .

(٢) أوجده : أحزنه . (٣) الألية : الحلف .

(٤) لاذ،يلوذ: راغ وانحرف . (٥) الزمرد : من الأحجار النفيسة .

(٦) استعبر: جرت عبرته وهي الدمعة قبل أن تفيض. (٧) ما مصدرية .

أن لا تحجبني ولا تمتهني [١] ؟ قال : أحب يا أم الرشيد أن تشتريه مُحَكَّمة [٢] فيه . قالت: أنْصَفت يا أمير المؤمنين وقد فعلت غيرَ مُستقبلة لك ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسْخِطك . قال: يا أم الرشيد أمالي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين أنت أعز عليّ ، وهم أحب إليّ . قال : فتحكمي في تَمْنيَة [٣] بغيرهم قالت : كلا . قد وهبتكه وجعلتك في حِلّ منه وقامت عنه وبَقيَ مَبْهوتاً ما يُحير [٤] لفظة .

قال سهل بن هارون: وخَرَجَتْ فلم تَعد ، ولا والله ما رأيت لها عَبْرة ، ولا سمعت لها أنَّة

استعطاف إبراهيم بن المهدي [٥] للمأمون

أمر المأمون بإبراهيم بن المهدي فأدْخل عليه فلما وقف بين يديه قال: هيه [٦] يا إبراهيم ! فقال : يا أمير المؤمنين وليُّ الثأر مُحَكَّم في القِصاص ، والعفوُ أقربُ للتَّقوى ، ومن تَنَاوله الاغترار بما مُدّ له مِن أسباب الشَّقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذنب ، كما جعل كلَّ ذي ذنب دونك فإن أخذتَ فبحقّك ، وإن عفوتَ فبفضلك . ثم قال :

ذنبي إليك عظيمُ — وأنتَ أعظمُ منه
فخذْ بحقّك أو لا — فاصفح بفضلك عنهُ
إن لم أكُنْ في فعالي — من الكرام فكُنْهُ

(١) امتهنه : ابتذله وأهانه (٢) يقول أحب أن تطلبي ما تشائين إزاء هذا القسم (٣) التمنية والمنية : بمعنى واحد (٤) يقال : هو لا يحير جواباً أى لا يرد.

(٥) كان ابراهيم بن المهدي أخو الرشيد لأبيه قد ادعى الخلافة بعد قتل الأمين وقبل عودة المأمون من خراسان إلى بغداد وأعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمره فاختفى حتى ظفر به المأمون . وكان ابراهيم بارعاً في الأدب حسن الغناء جيد الشعر توفي سنة ٢٢٤هـ في خلافة أخيه المعتصم.

(٦) هيه مثل إيه للاستزادة أو الاستنطاق فهي اسم فعل .

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق[١] والعبّاس في قتلك فأشارا به ، فقال : فما قُلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال المـــأمون : قلتُ لهما نَبْدؤه بإحسان ، ونستَأمره[٢] فيه ، فإن غيَّر ، فالله يُغيِّر ما بِهِ . قال : أمَّا أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرتْ عليه السِّياسة ، فقد فعلا وبلغا ما يلزمُهما وهو الرأي السَّديدُ ، ولكنَّك أبيت أن تستَجْلِب النصر إلا من حيث عوَّدكَ الله ، ثم استَعْبرَ باكياً . فقال له المأمون : ما يُبْكيك ؟ قال: جَذلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام ، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جُرْمي إستحلالَ دمي فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلِّغاني عفوه ، ولي بعدهما شفاعــة الإقرار بالذنب ، وحَق الأبوة بعد الأب . فقال المأمون : يا إبراهيم لقــد حبِّبَ إلي العفوّ حتى خفتُ أن لا أوجر عليه . أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذّة لتقربوا إلينا بالجنيات . لا تَثْرِيبَ[٣] عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن حَق نسَبك ما يُبلِّغ الصفحَ عن جُرمك لبَلغك ما أملت حسنُ تنصُّلِك ، ولُطْف توَصُّلِك . ثم أمر بِرَدِّ ضياعه وأمواله . فقال إبراهيم :

رددتَ مالي ولم تبخل عَليّ بــه ... وقبل ردِّك مالي قد حَقَنْتَ[٤] دمي
وقام عِلْمك بي فاحتج عندك لي ... مقامَ شاهد عدل غيرِ متَّهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال حتى أسُلَّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت ... لو لم تَهَبْها لكنت اليوم لم تُلم

(١) أبو إسحاق هو المعتصم بن الرشيد ، والعباس هو ابن المأمون ولقد أحسن إبراهيم في تصويب رأيهما لأن ذلك أنجع في طلب الرضا وأبلغ في دفع المكروه من الازدراء عليهما في رأيهما . (٢) أصل الاستئمار : المشاورة . والمراد هنا التجربة
(٣) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب . (٤) حقن الدم : صانه

استعطاف إسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس: تحسبني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له وإيقادك لناره؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لأجرام قريش إلى رسول الله ﷺ أعظم من جرمي إليك، ولرحمي بك أمتن من أرحامهم، وقد قال لهم كما قال يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»،وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمة في الطول، ومُمتثِل[١] لخلال العفو والفضل.

قال: هيهات! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجرمك جرم في أسلافك وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين فوالله للمُسلم أحق بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر وهذا كتاب الله بيني وبينكم إذ يقول: «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» والناس يا أمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف.

قال، صدقت، وَرَتْ[٢] بك زِنادي، ولا بَرِحْتُ أرى من أهلك أمثالك.

(١) امتثل طريقته: تبعها فلم يعدها.

(٢) ورت بك زنادي ووقدت بك زنادي مثلان يقالان لمن أنجدك أو أرشدك والمراد بهما الدعاء.

استعطاف الفضل[1] بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يا فضل ، أكان من حقي عليك وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تَثْلِبني[2] وتَسُبّني وتحرّضَ على دمي ؟! أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عذري يحقدكَ إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا أخْفَتْه العيوب ! وقَبّحَتْه الذنوب ! فلا يضيق عَنّي من عفوك ما وسع غيري منك ، فأنت كما قال الشاعر[3] فيك :

صَفُوحٌ عن الأجرام حتى كأنّه من العفو لم يَعْرِف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكره مسلما

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السّدوسي[4] قد خرج بشاطىء الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبَعُدَ ذكره ، ثم ظُفِرَ به ، وحُمِل مُوثقاً إلى باب المعتصم ، فقال أحمد بن أبي دؤاد : ما رأيتُ رجلاً عاينَ الموت ، فما هَالهُ[5] ولا شَغَلَه عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه لما مَثُلَ

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة البرامكة ثم وزير الأمين في خلافته . ويقال : إنه هو الذي أوغر صدر الرشيد على البرامكة حسداً لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نواس :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

توفي الفضل سنة ٢٠٨ هـ. (٢) ثلبه ، تنقصه وصرح بعيبه. قال الشاعر :

* لا يحسن التعريض إلا ثلبا *

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء (٤) سدوس : بطن من بني شيبان ثم من بني بكر . (٥) هاله : أفزعه .

بين يدي المعتصم ، فأُحْضِرَ السيف والنّطع[١] ، وأوقف بينهما ، تأمّله المعتصم —وكان جميلاً وسيماً — فأحَبَّ أن يَعْلم أين لسانه وجَنانه من مَنْظره ، فقال : تكلم يا تميم . فقال : أمّا إذا أذِنتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقول : الحمدلله الذي أحسن كل شيء خَلَقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جَعَل نَسْله من سُلالة من مَاءٍ مَهين ، جَبر بك صدع[٢] الدين ، ولَمَّ بك شَعَث[٣] المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخْمَدَ بك شهاب الباطل . إن الذُّنُوب تُخرِس الألسنة الفصيحة وتُعْيي الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليَّ أشبههما بك وأولاهما بكرمك ، ثم قال - على البديهة — :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يُلاحظني من حيثما أتلَفَّتُ
وأكبرُ ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرىء مما قضى الله يُفْلِت ؟[٤]
وأيُّ امرىء يأتي بعذر وَحُجَّةٍ ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَت[٥]
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مُوقَّت
ولكنَّ خلفي صِبْيَةً قد تركتُهم ... وأكبادهم من حَسْرَة تتفَتَّت
كأني أراهم حين أُنعى إليهم ... وقد خَمَشُوا[٦] تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عِشْت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الرَّدى عنهم وإن مت مُوِّتوا[٧]
وكم قائلٍ لا يُبْعِدُ اللهُ رُوحَه ... وآخر جَذْلانٍ يُسَرُّ ويَشْمَت

فتبسَّمَ المعتصم وقال : كاد واللهِ يا تميم أن يسبق السيف العَذَل ، قد وهبتك

---

(١) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لا يسقط دمه على الارض
(٢) الصدع الشق في الحائط ونحوه (٣) الشعث : انتشار الأمر والأشياء المتطرفة
(٤) أفلت : تخلص ونجا . (٥) أصلت السيف : استله من غمده .
(٦) خمش وجهه : لطمه وهو من باب ضرب ونصر . (٧) موتوا : كثر فيهم الموت

للصبية ، وغفرت لك الصَّبوة . ثم أمر بفك قيوده وخلع[٢] عليه .

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر[٣] له وتلوّن عليه :

أعاذك الله من سوء الغَضَب ، وعصمك من سرَف[٤] الهَوَى ، وصرفَ ما أعادك من القوّة إلى حب الإنصاف ، ورَجَّحَ في قلبك إيثار الأناة[٥] فقد خفت – أيدك الله ! – أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق[٦] السُّفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن[٧] بن حسان بن ثابت :

وإن آمرءاً أمسَى وأصبح سَالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر[٨] :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنتُ اجترأت – أصلحك الله ! – فلمْ أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ولذلك قال عُيَيْنَة[٩] بن حصن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله عمر كان خيراً لي منك؛ أرهبني فأتقاني[١٠] وأعطاني فأغناني ، فإن كنت لا تهب عقابي – أيدك الله ! – لخدمة فهبه لأياديك عِنْدي ، فإن النعمة تشفع في النقمة ، وإلا تفعل ذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة[١١] ، وإلا فأت ما أنت أهلُه من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتَعَمِّد

(١) الصبوة : الزلة وجهلة الشباب (٢) خلع عليه خلعة : منحه بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء (٣) تنكر له : تغير (٤) السرف : مجاوزة الحد (٥) الأناة : الحلم والوقار (٦) النزق : الخفة والطيش (٧) هكذا يقول الجاحظ وغيره ينسب البيت لحسان نفسه ؛ راجع الأغاني (٨) من الناس من يروي هذا البيت في جملة أبيات لكعب بن زهير ، ومنهم من يرويه لمحمد بن حازم الباهلي؛ راجع الأغاني . (٩) هو سيد بني ذبيان في صدر الإسلام وهي سلالة حذيفة بن بدر الفزاري الذي كان السبب في حرب داحس والغبراء (١٠) أتقاه : صيره تقياً . (١١) الأحدوثة : الحديث والسيرة ، جمعها أحاديث .

وتتَجَافى[1] عن عقاب المصِرّ[2] حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكره[3]، وذنبه نسيان، ومَن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هَجَمَتْ عليه بالعقوبة. واعلم – أيدك الله ! – أن شَين غضبك عليّ كزَيْن صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال سببي بك[4] واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام.

استعطاف رجل من اهل الشام المنصور

يا أمير المؤمنين، من انتقمَ فقد شفى غيظه وانتصف، ومن عَفَا تفضل، ومن أخذ حقه لم يجب شكره، ولم يذكر فضله، وكظم الغيظ حلم والتشفي طرَفٌ من الجزع، ولم يَمْدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل. وبعد: فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب[5] والعافي مُستَدْعٍ لشكرهم آمن من مكافأتهم، ولئن يُثْنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقه، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه، وعقابك إياهم موصول بعقابه. قال الله عز وجل: «خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

روح بن زنباع يستعطف معاوية

أراد معاوية معاقبة رَوْح بن زِنباع، فقال: يا أمير المؤمنين أنشُدُك الله تعالى

---

(١) تتجافى: تتباعد (٢) أصر على الذنب استمر (٣) يقول: هفوته هي تذكر الهفوة أو جريها على لسانه (٤) التشبيه في هاتين الفقرتين من قبيل قولهم في التفضيل: العسل أحلى من الخل. يقول: إن مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وإن مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال.
(٥) الأولياء: الأهل والأقارب.

ألا تضع مني خسيسة أنت رفعتها أو تنقض مني مريرة[1] أنت أبرمتها[2] تشمت بي عدواً أنت كبته[3]، وحاسداً بك وقمته[4] وأسألك بالله إلا أربى حلمك على خطئي وصفحك على جهلي. فقال معاوية: إذا الله سنّى[5] عقد شيء تيسرا، وعفا عنه.

وقد ألمّ المتنبي بقول روح إذ يقول:

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
إذا شدّ زندي حسن رأيك في يدي ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا

ابن الرومي يستعطف القاسم[6] بن عبيد الله

كتب ابن الرومي يستعطف القاسم بن عبيد الله:

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً، وتفضّل بالعفو إن كنت مسيئاً، فوالله إني لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولاً[7] وأزداد تذللا. وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها، وأسأل الله أن يجعل حظي منك بقدر ودّي لك، ومحلّي من رجائك بحيث أستحق منك. والسلام.

---

(١) المريرة: الحبل الشديد الفتل (٢) أبرم الحبل: أجاد فتله، والأمر: أحكمه
(٣) كبته: أذله وغاظه وصرعه لوجهه. (٤) وقمه: قهره
(٥) سنّى الشيء: فتحه وسهله، وهذا شطر بيت وهو:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا

(٦) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة وأدب فقد كان وزيراً ابن وزير أما الكتابة فهو فيها معرق لأنه يرثها عن ثمانية آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً للدماء وهو الذي دس لابن الرومي السم في الطعام خوفاً من لسانه، توفي سنة ٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون. (٧) التطول: الإنعام.

وكتب إليه :

لو كان في الصّمت موضع يَسعُ حالي لخفَتُّ عن سمع الوزير ونظره ، ولم أشغَل وجهاً من فكره ، وما زالت الشكوى تعربُ عن لسان البَلوى. ومن اختلّت حالتهُ كان في الصّمت هَلكته[١] ، وقد كانَ الصبر ينصُرني على ستر أمري حتى خذَلني .

استعطاف للخوارزمي

لو بغير الماء حلْقي شرق كنتُ كالغصّان ، بالماء اعتصاري[٢]

كيف يَقدر -أبقى الله السيد- على الدّواء ، من لا يهتدي إلى أوجُه الدّاء؟ وكيفَ يُدَاري أعداءه من لا يعرفُ الأعداء من الأصدقاء ؟ أم كيف يَسْري بلا دليل في الظلماء ؟ أم كيف يَخرُجُ الهاربُ مِنْ بين الأرض والسماء؟ الكريم - أيّدَ الله مولاي ! - إذا قدر غفر ، وإذا أوثقَ أطلقَ ، وإذا أسرَ أعتق. ولقد هربْتُ من الشيخ إليه ، وتسلّحت بعفوه عليه ، وألقيْت ربقة[٣] حيَاتي ومماتي بيديه ، فليُذِقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتلح[٤] على حالي غرة[٥] عفوه كما لاحت عليها مواسم[٦] غضبه وسطوه ، وليعلم أن الحر كريم الظفر ، إذا نال أقال ، وأن اللئيم لئيم الظفر إذا نال استطال[٧] ، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الاقتدار ، وليحمد الذي أقامه مقام من يرتجى ويخشى ، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتى ،

---

(١) الهلكة الهلاك (٢) الشرق بالماء كالغصة بالطعام والاعتصار معالجة الغصص بشرب الماء قليلاً قليلاً ، والبيت لعدي بن زيد العبادي الشاعر الجاهلي من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول إن الإنسان إذا غص بالطعام عالجه بالماء فماذا يصنع إذا كانت غصته بالماء نفسه !(٣) الربقة العروة التي يربط بها ويراد بها الزمام (٤) لاح ظهر (٥) الغرة بياض في وجه الحيوان والمراد هنا الأثر (٦) المواسم : العلامات . (٧) استطال : تطاول واعتدى .

وأخلقَ العَالَمُ وذكرُها طريّ ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر . وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه مما يزيد به في جماجم أعدائه .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد [1] بن حُمَيد يعتذر :

أنا من لا يحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغالطك عن جُرْمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعي بِرَّكَ إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . نَبَتْ بي عنك غِرَّة الحداثة ، وردتني إليك الحُنكة [2] ، وباعدتني منك الثقة بالأيام ، وقادتني إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستقبل الصَّنيعَة بقبول العذر ، وتجدِّد النعمة باطِّراح الحقد ، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، والمُتْعة بها وإن كثرت قليلة .

اعتذار لأبي علي البصير

كتب أبو علي البصير يعتذر :

أنا أحد مَنْ أسكَنْتَه ظلك ، وأعلقْتَه حبلك [3] ، وحبوته بلطيف بِرِّكَ وخاص عنايتك ، وانتصف بك [من] الزمان ، واستغنى بإخائك عن الإخوان ، فهو لا يرغب إلا إليك ، ولا يعتمد إلا عليك ، ولا يستَنجح [4] طلبه إلا بك ، وقد كان فَرَط مِنِّي قول إن تأوَّلْتَه [5] لي أراك وجه عذري وقام عندك

(١) هو من أولاد الدهاقين ، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح ، أخذ عن الإمام الأعرابي ويؤخذ عليه أنه كثير الأخذ لكلام غيره .

(٢) الحنكة : خبرة التجارب . (٣) وصلته وقيدته بزمام مودتك .

(٤) استنجح حاجته وتنجحها تنجزها وطلب نجحها (٥) أول الكلام وتأوله : فسره .

بحجّتي فأغناني عن توكيد الأيمان على حُسْن نيَّتي ، وإن تأولته عليّ أحاق[١] بي لائمتك [٢] وحبسني على أسوإ حال عندك . وقد أتيتك معترفاً بالزّلة ، مُسْتكيناً[٣] للمَوْجِدَة [٤] عائذاً بالصفح والإقامة ، فإن رأيت [أن] تُقِرّ عَيْناً قرّت بنعمتك عندي ، ولا تسلبني ما ألبستني ، وأن تقتصر من عقوبتي على المكروه الذي نالني بسبب عتبك عليّ ، وتأمُرَ بتعريفي رأيك بما يُطامِن [٥] هلعي وتَسْكُن إليه نفسي ويَأمَنُ به رَوْعي [٦] « فعلت » إن شاء الله .

كتب البديع إلى القاسم الكَرخي يعتذر :

يعزّ عليّ — أطال الله بقاء الرئيس ! — أن ينوب في خدمتك قلمي ، عن قدمي ، ويسعد برؤيته رسوني ، دون وصولي — ويرد شِرْعة [٧] الأنس به كتابي قبل ركابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة :

وعَليَّ أنْ أسْعى وليس عليّ إدراكُ النّجَاح

وقد حضرت داره ، وقبّلت جِداره ، وما بي حب الجدران ، ولكن شَغفاً بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكان [٨] ، وحين عَدَت[٩] العوادي عنك أمليتُ ضمير الشوق على لسان القلم معتذراً إلى مولاي عن تقصير وقع ، وفُتور في الخدمة عرَض ، ولكني أقول :

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى أن لا أراك عقابا

(١) أحاق : أنزل (٢) اللائمة : اللوم (٣) استكان : خضع ، وهو من الكون فوزنه افتعال بزيادة الألف للإشباع كما قالوا في انظر (انظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجيه لأن المعنى لا يعنيه . (٤) الموجدة : الغضب . (٥) يطامن : يخفض ويخفف (٦) الروع القلب وهو أيضاً الفزع والخوف (٧) الشريعة والشرعة والمشرعة مورد الشاربة من الماء (٨) ألم البديع هنا يقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

(٩) منعت الموانع .

الباب الثاني

الفصل الثاني[١] في رسائل حسن التقاضي والطلب

كتب عبدالله بن سليمان أبو العيناء المتوفي سنة ٢٨٢ هـ :

أنا – أعزك الله ! – وعيالي زرعٌ من زَرْعك ، إن أسقيتهُ راع[٢] وزكا ، وإن جفَوْتَه ذبُلَ وذوى[٣] ، وقد مَسَّني منك جفاءٌ بعد بر ، وإغفالٌ بعد تعاهد ، حتى تكلم عدُوٌ ، وشمت حاسدٌ ، ولعبت بي ظنونُ رجال كنتُ بهم لاعِباً ، ولهم مُختَرِساً

لا تهنّي بَعْدَ أن أكرَمتني وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

وكتب المرحوم عبد الخالق باشا ثروت :

إليــك (يا من قد استأسرَ النفوسَ بكرمــه ، واسترقّ الأحرار بجميل صُنْعه ، وأوْلى النعم والخيرات ، وأسدي المعروف والمبَرّات) أرفعُ كتاباً ، تبعثه إلى ناديك العالي عواملُ الحاجة ، وتزْجيه[٤] إلى ساحتك دواعي الشدة ، آملُ أن يكون تذكرةً بأمري (والذّكْرى تنفعُ المؤمنين) وتذكرَةً بحالي (واللهُ لا يضيعُ أجْرَ المحسنين) فقــد كان سيِّدي رفع الله قدره ، وأعلى مرتبته ، وَعدَني (ومثلُه من يتمسك من الوفاءِ بالعروة[٥] الوُثقى ، ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء ، ويُطرز خلعة الوعدِ بوَشْي العطاء) أن يُرْسِل إليّ مِنْ خَيْراته ويُوليَني من آلائه وحسناتِه ، ويضاعف لي من مِنَنِه ، ويزيدني من عطائه ما أشُدُّ به أزْرِي[٦] على الزّمان ، وأطاوِلُ به نوائب الحدثان[٧] ،

---

(١) والفصل الأول في الرسائل التجارية التي أغفلناها في كتابنا هذا لأن لها مؤلفات خاصة بها فارجع إليها إذا شئت . (٢) نما وزاد . (٣) ذبل .

(٤) تدفعه . (٥) من الحبل الوثيق المحكم . (٦) ظهري .

(٧) بفتح الحاء والدال أو بكسر الحاء وسكون الدال حوادث الدهر .

فقد بارزني الدّهر بسيوفه ، ورماني بسهامه ، وأناخ [١] عليّ بكلاكله [٢] ، وقد طال الأمدُ [٣] على حاجتي عند سيّدي – أطال الله بقاءَه ! – حتى شاب غرابُ شبابها ، وصاحَ بجانب ليلها ، فخفتُ أن تكون هبّتْ عليها ريحُ النّسيان ، وعصفت [٤] بها عاصفة [٥] الحِدثان [٦] ، فكتبتُ إلى سيدي ومولاي تلك الرقعة ، أستعجلُ بها بِرَّهُ ، وأستدرُّ بها ضَرْعَ عطائِهِ ، علماً بأن التعجيلَ يكبّر العَطية ، وإن كانت صغيرة ، ويكثرها ، وإن كانت يسيرَة ، فعسى أن يكونَ قد لاحَ نجم النجاح ، وهبَّ نسيم الفلاح ، فيُرْسلُ إليّ سيدي سحاب كرمه ، ويُمطرُني من غيباث فضله فتترف [٧] غصون آمالي بعد ذبُولها ، وتضحك وجُوه مطالبي بعد عبُوسها ، وأملي في ذلك فسيحٌ ، فإن سيّدي من أكرم الناس نسباً وأشرَفهم حسباً ، ومثلُه جديرٌ [٨] بحفظ العهد ، وإنجاز الوَعْد .
فإن رأى سيدي أن يخفف ثقل الحاجة عنّي ، ويَرُدَّ ما سلبه الدَّهْر مِنّي بقَطْرَةٍ من بحر عطائه ، ومِنَّةٍ [٩] من بعض آلائه [١٠] ، ويجبُرَ ما كسرَهُ الفقرُ من جَناحي ، وَيَرُدَّ عني النوائب التي لا تفتأ [١١] تتوالاني ، عقدتُ لساني على مدحه ، ووقفت نفسي على شكره ، فيُحْرِزَ من الله أجراً جزيلاً ، ومني شكراً جزيلاً ، إن شاء الله بمنّه وكرمه .

وكتب المرحوم أحمد بك رأفت :

السيد الكامل – أدام الله علاءَهُ ، وأطال بقاءَهُ ، وجعله مَوْئل [١٢] الكرم ، ومُسْدي النعم – قد غمرني بنَعْمائه ، وطوقني بآلائه ، حتى قصرتُ حَمْدي عليه ، وأمسكت لساني عن الشكر إلا إليه ، وكان من مِنَنِه عليّ وأياديه

---

(١) مال . (٢) مصائبه (٣) الغاية . (٤) اشتدت .
(٥) الريح . (٦) حوادث الدهر . (٧) تتلألأ . (٨) حقيق .
(٩) نعمة . (١٠) آلائه : أفضاله . (١١) تستمر . (١٢) ملجأ .

البيضاء لديّ أن وعدني يُقلّدني في أول العام وظيفةً عالية، ومرتبة سامية، فاخضلّ [١] رَوضُ الأمل بعد ذبوله، وبزغ [٢] كوكبهُ بعد أفوله [٣] واتسع نطاقه [٤] واستبشرَ القلبُ بنيل أُمنيته، والحصول على طِلبته. واشتدّ أزري [٥] على مقارعة كتائب [٦] الزمان، وقوي جناني على صد جيوش الحدثان وما زالت بي الأيام حتى حان أوّلُ العام، وما تحقّقَ الوعدُ، أوْ أوفي العهدُ. ومثلُ السيد مَن إذا وعد وفى، أو تعهد أوفى :

أوفى دين ذي المعروف يحملُ أنّني تنوءُ بي البؤسى ويُثقلُني العُسرُ
وأنتَ الذي أعطى المكارم حقها ولم يحكِ جَدْواكَ السّحابُ ولا البَحرُ
فعجّل فخيرُ البرّ يُحمد عاجلاً وأوْف فوعد الحرّ دين به الحر

هذا؛ ولكنني رجعت وحكّمت العقل، فعذرتُ السيد، وحملت ذلك على أنه إنما لم يعجّل بإنجاز وعده، وإيفاءِ عهده، إلا لتقليد عبده وظيفةً أسمى ومرتبةً أعلى، علهُ يستدرك ما فات، ويُحسنُ إلى عبدهِ فيما هو آت.

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد :

عهدي بالسيد الجليل — أدامهُ الله مصدراً للمكارم تُشتَقُّ منهُ صفاتها، ومظهراً للفضائل تتجلى فيه آياتُها — سبّاقاً إلى غايات المجد درّاكاً لمطالب الحمد، أريحيّاً [٧] لا يَصبو [٨] إلا إلى إسداء المِنن [٩]، جواداً لا يطمعُ طرفه في بث عوارفه إلى ثمن. ما أمّه [١٠] أسيرُ فاقة [١١] إلا وألفى [١٢] لديه كهفاً منيعاً؛ وجاهاً رفيعاً، وما قصدهُ ذو حاجةٍ إلا وصدر [١٣] عن موردِ [١٤] فضله

(١) صار نديا. (٢) طلع. (٣) غيبته. (٤) ثوبه. (٥) ظهري.
(٦) الجيوش. (٧) يرتاح للعطاء. (٨) لا يميل. (٩) احسان.
(١٠) قصد. (١١) فقر. (١٢) وجد. (١٣) رجع. (١٤) مكان الورود.

شادياً [١] بثنائه ، معلناً بولائه وإن لي إلى السيّد حاجة" إن لم يُسعف بقضائها فيا حسرة نفسي وطولَ شقائها . وليست هذه بأوّل مرة استمحت [٢] فيها عالي مُرُوءته ، واستمطرْت صيِّبَ [٣] هِمّته ، فإنه طالما طوّقني قلائد نعمه ، وأرسل عليّ مِدرار [٤] كرمه ، فليجر في هذه أيضاً عادته ويقابلني بما عوّدني من كرامته . ومعاذ الله أن أسأله ما ليس في وُسعه ، أو أن أستقضيَه شيئاً يحرصُ على مَنعه . ولكنني :

أُريدُ بسطةَ كفّ أستعين بها
على قضاءِ حقوق للعُلى قِبَلي

والذي يكفل لي البسطة : أن يقلدني سيدي وظيفة مناسبة لحالتي ، حتى تكون لي دِرعاً أتقي بها مهانة الفقر ، وسيفاً أكفُّ به عوادي الدهر ، ومالي والإقسام عليه في إنالتي هذه البغية ، بنفيس وقت قضيته في خدمة العلم ، واقتناء أبكاره ، وطويل عناء تحملته في مزاولة [٥] الأدب واكتشاف أسراره ، ونفس ارتاضت [٦] بالفضل ، وآثرت [٧] غصة الفقر على منّة البذل ، وله من سنيات [٨] الفضائل [٩] وعليات الفواضل [١٠] وجليات المآثر ، وجليلات المفاخر ، ما لو أقسم به عليه في انالة أعز المطالب ، لألزمه كرم سجاياه برّ ذلك القَسم ، وإجابة دواعي الهمم ، وإنك لفاعل إن شاء الله تعالى .

وكتب فقيد الأدب حسن افندي توفيق العدل المتوفى بلندن سنة ١٣٢٢هـ:

كتابي إلى ربّ النعماء ، واليدِ البيضاء ، وقد أصبحتُ كما قال : الحريري :

---

(١) مترنماً (٢) سأله العطاء (٣) السحاب (٤) ما يدر بالمطر
(٥) معاناته (٦) تمرنت (٧) اخترت (٨) عاليات
(٩) جمع فضيلة ، وهي الدرجة . (١٠) جمع فاضلة ،وهي النعمة الجليلة.

« خاويَ [١] الوفاض [٢] بادي [٣] الإنفاض [٤] ، لا أملك بُلْغة [٥] ، ولا أجد في جرابي مضغة » [٦] – قد التوى عليّ أمري ، وثقل من حاجتي ظهري ومدّ الاحتياجُ إليّ أطنابه [٧]، وسربلني [٨] الافتقار إهابه [٩] والدنيا مكدّرة بأحداثها [١٠] وقصورها منغصة بأحداثها [١١] نعيمها يضفو [١٢] ولكن لا يصفو . وأنت – كما أعلم – مفرّج كُرُبتي ، ومُنقذي من شدتي، بطُرفة [١٣] من طرف رِفدك [١٤] ولمحة من لمحات برّك [١٥] فإن استدررت [١٦] حلوبة [١٧] مالك ، فقد لاذ غيري بجاهك . ما يمت [١٨] غيرَك . وكيف يقصد النهر ، من جاور البحرَ ، ويحتاجُ إلى النجم من يسري في ضوء البدر؟ فأستهز عطف [١٩] جودك وأستمطرُ سحاب كرَمك . كيف لا وأنت قبلة المعروف ! وملاذ الملهوف ! إليك تشد الرّحال، وبك تُناط الآمال ، أولياؤك منك في ظل ممدود ، وهناء وسعود . أفأنت الشمس عمّت بالإشراق ؟! أو الغيث والى الاندفاق ؟! – لكن :

مَن قاسَ جدواك يوماً بالسحب أخطأ مدحك
فالسحبُ تعطي وتبكي وأنت تعطي وتضحك

نسَب الكرم بك عريق ، وروض المجد أنيق ، أصل راسخ ، وفرع شامخ ، تهتز للمكارم اهتزاز الحسام ، وتثبت أمام الشدائد بثغر بسام :

تراهُ إذا ما جئتَهُ متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

حكمت الآمال في أموالك ، واستعبدت الأحرار بفعالك ، ينابيع الجود من أملك تتفجر ، وربيع السماح بك ضاحك لا يضجر ، فلا زلت

---

(١) خالي (٢) بكسر الواو جراب الزاد (٣) ظاهر (٤) فناء الزاد والمال (٥) بضم الباء المؤنثة القليلة (٦) انتهى كلام الحريري (٧) حبال الخيمة (٨) ألبسنيه قميصاً (٩) جلده (١٠) مصائبها (١٢) يكسر
(١٣) بنعمة (١٤) عطائك (١٥) إحسانك
(١٦) استحلبت (١٧) ما تحلت (١٨) ما قصدت (١٩)جانب.

مولاي ممتّعاً بشرف سجاياك وشيمك ، مستمدّاً الشكر غِراس نعمك ، ولا زالت الأنام تنتفع بتلك الشيم وتجني ثمار ذلك الكرم ، ودمتَ للمكارم بدْرَ تِمٍ لا يناله خسوف ، وشمس فضلٍ لا يَلحَقُها كسوف ، اطال الله لك البقاء ، كتطول يديك بالعطاء ، آمين .

استمناح رجل لعبد الملك بن مروان

وفَدَ رجلٌ من بَني ضَبّة على عبد الملك بن مَرْوان فقال :

والله مَا نَدْري إذَا ما فاتَنا طَلَبٌ إليكَ منَ الذي نَتَطلَّبُ؟
فلقد ضَرَبْنا[1] في البلاد فلم نَجِدْ أحداً سِواكَ إلى المكارِم يُنسَبُ
فاصْبر لعاداتنا التي عوّدتنا أوْ لا ، فأرشدنا إلى مَنْ نذهبُ ؟

فقال عبد الملك : إليّ ! إليّ ! وأمر له بألف دينار ، ثم اتاه في العام المقبل فقال :

يَرُبُّ[2] الذي يأتي من الخير أنه إذا فعلَ المعروفَ زاد وَتمّما
وليس كبانٍ حينَ تَمّ بناؤُه تَتَبّعه بالنقْض حتى تَهَدّما

فأعطاه ألفي دِينار . ثم اتاه في العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا مَغَازير[3] في الندى يَجودُون بالمعرُوفِ عوداً على بَدْءِ

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) ضرب في الأرض سافر (٢) رب : زاد وأصلح

(٣) أغزر المعروف جعله غزيراً . والمغازير لا يكون إلا جمعاً لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما في اللسان والقاموس ، وفي المخصوص سحابة مغزار : غزيرة فيكون جمعاً لمغزار .

استمناح العتابي لأحد أصدقائه

كتب كُلْثوم[١] بن عمرو العَتَّابي إلى صديق له :

أمَّا بَعْدُ — أطال الله بقاءك ، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجَنَّة — فإنك كنت عندنا رَوضةً من رياض الكَرم ، تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكُنّا نُعفيها من النُّجعة[٢] استتماماً لزَهْرتها ، وشَفقة على خُضْرتها ، وادّخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سَنَة كانت عندي قطعةً من سِني يوسف ، واشتد علينا كَلَبها[٣] ، وغابت قِطَّتُها وكذَبتنا غُيُومُها ، وأخْلفَتنا بُروقُها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانْتَجَعْتُك ، وأنا بانْتِجاعي إيَّاك شديد الشَّفَقة عليك ، مع عِلمي بأنك موضع الرَّائد[٤] ، وأنك تُغطّي عين الحاسد ، والله يعلم أني ما أعُدُّك إلا في حومة[٥] الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعرف جودُه ولم تَظهر هِمَّته . وأنا أقول في ذلك[٦]

إذا تَكَرَّمْت عن بذل القليل ولم تَقْدِر على سَعَة لم يَظْهَر الجودُ
بُثَّ النَّوال ولا تَمْنَعك قِلَّتُه فكلُّ ما سَدَّ فقراً فهو محمود

قيل : فشاطره جميع ماله .

---

(١) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعراً مترسلاً بليغاً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره في الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه لتعلم أني أمرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .

(٢) النجعة طلب الكلأ في موضعه (٣) الكلب القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب (٤) الرائد الطالب (٥) الحومة هنا الجماعة والطائفة (٦) كذا ذكر القالي في أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض . هذا والمعروف أن هذه الأبيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن برد لا للعتابي وتبعة هذا على القالي .

استمناح اعرابية لعبدالله بن ابي بكرة

دخلت أعرابية على عبدالله ١ بن أبي بَكْرَة بالبصرة ، فوقفت بين السّماطين ٢ ، فقالت : أصلح الله الأمير وأمْتَع به — حَدَرَتْنا إليك سَنَة اشتدّ بلاؤها ، وانكشف غِطاؤها ، أقودُ صِبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، في بلدة شاسعة ، تخفِضُنا خافضة ، وترفعُنا رافعة ، لِمُلمّات من الدّهر أذهَبْنَ لحمي وبَرَيْنَ عظمي وتركنني والِهَة ٣ أدُور بالحضيض ، وقد ضاق بيَ البلدُ العريض فسألتُ في أحياء العرب ، مَن الكاملةُ فضائلُه ، المُعطي سائله ، الكافي نائله ؟ فدُلِلْتُ عليك — أصلحك الله تعالى — وأنا امرأة من هوازن ٤ ، قد مات الوالد ، وغاب الرافد وأنتَ بعد الله غِياثي ومنتهى أملي ، فاصنع بي إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تَرُدّني إلى بَلدي ، أو تُحْسِنَ صَفدي ٥ ، أو تُقيمَ أَوَدِي ٦ .

فقال : بل أجمَعُهُن لك ، ولم يزل يُجْري عليها كما يُجْري على عياله حتى ماتت !

استمناح حكيم فارسي للمهلب

قال الهيثم بن عَدي : قدم حكيمٌ من حُكماء أهل فارس على المُهلّب فقال : — أصلح الله الأمير ! — ما أشْخَصَتْني الحاجَةُ ، وما قنِعْتُ بالمُقام ، ولا أرضى مِنْكَ بالنّصْف إذ قمتُ هذا المقام . قال : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأن الناسَ ثلاثة : غنيٌّ وفقير ومُستزيد ؛ فالغنيّ مَن أُعطي ما يستحقّه ، والفقير من مُنع حقّه ، والمستزيد الذي يطلب الفضل بعد الغِنى ، وإني نظرت

---

(١) هو ابن أخي زياد ابن أبيه (٢) السماط الصف (٣) الوالهة والوله الشديد الحزن (٤) هوازن قسم من قيس وعبدالله بن أبي بكرة نسبه في ثقيف وهم من هوازن فهي تريد أن تميله بعاطفة القرابة (٥) الصفد : العطاء (٦) الأود : الاعوجاج

في أمرك فرأيتُ أنك قد أدّيت إليّ حقي ، فتاقت نفسي إلى استزادتك ، فإن منعتني فقد أنصفتني وإنْ زدتني زادت نعمتك عليّ . فأعجب المهلب كلامُه وقضى حوائجه .

تلطف رجل من اهل الشام في استمناح المنصور

قدم رجل من أهل الشام على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاماً حسناً ، فقال له أبو جعفر : حاجتك ؟ فقال : يُبْقيك الله يا أمير المؤمنين . قال : حاجتك ، فإنه ليس كلّ ساعة يمكنك هذا ولا تُؤمر به . فقال : والله ما أستقْصر عمرك ، ولا أخاف بُخلك ، ولا أغتنم مالكَ ، وإن سُؤالك لشرَفٌ ، وإن عطاءك لزَينٌ ، وما بامرىء بَذل وجهه إليك نقصٌ ولا شَينٌ . فأمر له المنصور بمنحة سنيّة .

وقد ألمّ الرجل في أكثر معانيه بقول أَمية بن أبي الصّلت يستمنح عبدالله ابن جُدْعان[1] القرشي :

عطاؤُك زَين لامرىءٍإنْ حبوتهُ ببذل وما كلّ العطاء يَزينُ
وليْسَ بشين لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السُّؤال يشين

✶

ومن ألف الاستمناح قول أمية يخاطب ابن جُدْعان أيضاً :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حِبَاؤك إن شيمَتك الحباء
وعلمك بالأمور وأنت قَرم لكَالحسب المهذّبوالسَّنَاء[2]
كريم لا يُغَيّرُه صباح عن الخُلُق الجميل ولا مَسَاءُ

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهط سيدنا أبي بكر الصديق وهو جواد مشهور . وكان أمية مداحاً له منقطعاً إليه توفي أمية بين يدي الإسلام .

(٢) القرم : الفحل والسيد ، والسناء : الشرف ، والسناء : الضوء .

تُبَاري الرِّيح مَكْـرُمة وَمجْداً إذا ما الكلبُ أجْحَرَه الشِّتاءُ ١
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه مِن تَعَرُّضه الثناءُ ٢

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية

قال العتْبي : وفدَ عبدُ العزيز بن زرارة على معاوية، فلما أُذِن له وقف بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! لم أزل أُهزّ ذوائب٣ الرحال إليك ، إذ لم أجد مُعَوّلاً إلا عليك ، أمْتَطي الليل بعد النهار ، وأسم ٤ المجَاهل بالآثار يَقُودُني إليك أمَل وَتسُوقني بَلوَى ، والمجتهد يعْذَر ، وإذ قد بَلـَغتك فقطني ٥ . فقال معاوية : أحْطُط عن راحلتك .

★

ولما وَلي الخليفةُ المهتَدِي سُليمانَ٦ بن وَهْب وزارته قامَ إليه رجلٌ من ذوي حرْمته فقال: أعزّ الله الوزير ! — أنا خادمك المؤمّل لِدَوْلتِك، السعيد بأيامك ، المنطوي القلب على وُدّك ، المنشُور اللسان بمدحك، المُرتهَن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وفَنيْتُ كلّ صديق وَدّني ثمناً إلا مُؤمّل دوْلاتي وأيّامي
فإنّني ضامن أن لا أُكافئه إلا بتسويغه فضلي وإنعامي ٧

وإني لكما قال القيسي٨ : ما زلت أمتطي النهار إليك واستدل بفضلك

(١) أجحره : ألجأه (٢) يقول : انك لا تجشم المحتاج مئونة السؤال لأنك تستغني بثنائه عن استجدائه (٣) الذوائب : ذوائبه وهي الجلدة المعلقة على آخرة الرحل. (٤) واسم الأرض كوعد تركفيها أثراً (٥) قطني اسم الفعل بمعنى يكفيني ومثلها قدني (٦) سليمان بن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية ، وقد تقدم ذكر ابنه عبيد الله وحفيد القاسم . توفي سليمان سنة ٢٧٢ هـ (٧) سوغه : أناله . (٨) يريد بالقيسي سوغه عبد العزيز بن زراره المتقدم لأنه من بني عامر ثم من قيس . وقد ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها .

عليك ، حتى إذا اجتن الليل فغض البصر ، ومحا الأثر ، قام الرجاء يدني سائر أملي والنفس راغبة والاجتهاد عاذر وإذ قد بلغتك فقدني . فقال سليمان : لا عليك فإني عارف بوسيلتك محتاج إلى اصطناعك وكفايتك ، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك ما يحسن عليك أثره ، ويطيب لك خبره .

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له :

أما بعد فإنه يسهّل عليّ طلب الحاجة أمران فيك ، وأمران لي، وأمر من قبل الله وبه تمامها ، فأما اللذان فيك فاجتهادك في النجح ، ومبالغتك في الاعتذار ، وأما اللذان لي فإني أضيق عليك بعذري، ولا أصون عنك شكري، وأما الذي من قبل الله عز وجل فإيماني بأن كل مقدر كائن والسلام .

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي :

أنا إن سألتك حاجتي — أعزك الله ! — وبسطت إليك يد رجائي فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً . فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقت إليّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد[1] الحصر ولقد مثلت — أيدك الله ! — بين [أن] استشفع إليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى[2] لديك، وبين[3] أن أكِلُ ذلك إلى كرمك وفضلك وماطبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية بك أحرى وبفضلك أجدر والسلام .

---

(١) الجرائد: جمع جريدة وهي السعفة وكان يكتب فيها، فالمراد الصحائف.

(٢) الزلفى : القربة والمنزلة . (٣) كرر الكاتب بين توكيدا ، وهو جائز مسموع وأنا أستحسنه إذا طال ما قبل المعطوف كما هنا .

استمناح الصابىء لبعض الرؤساء

وكتب أبو إسحاق[١] الصابىء إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة – أطال الله بقاء الأمير ! – بالتمهيد للحاجة قبل موردها وإسلاف[٢] الظنون الداعية إلى نجاحها . وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسئول ، فهو لا يلتمس فضله إلا جزاء ، ولا يستدعي طَوْله إلا قضاء . والأمير بكرمه الغريب ومذهبه البديع ، يُؤْثِر أن يكون السلف له ، والابتداء منه ، ويوجب على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به . فالحمدلله الذي أفرده بالطرائق الشريفة ، ووحده بالخلال المنيفة ، وجعله عين زمانه البصيرة ، ولمعته[٣] الباقية المنيرة .

★

وكتب محمد بن عَيّاد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقرّب إليه :

ما زلت – أيدك الله تعالى ! – أذم الدهر بذمك إياه ، وانتظر لنفسي ولك عقباه ، واتمنى زوال من لا ذنب له ، الى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله ، وأترك الإعذار[٤] في الطلب على الاختلال[٥] الشديد ضناً بالمعروف عندي إلا عن أهله ، وحباً لرجائي إلا عن مستحقه .

★

ومن أرق الاستماحة[٦] ما كتبه عبيد الله بن طاهر إلى سليمان بن وهب :

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسْعَفَنَا فيمن نُحب ونكْرِمِ

---

(١) الصابىء : هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء عن الخليفة وعن عز الدولة بن بويه وهو معدود من رجالات الكتابة توفي سنة ٣٨٤هـ .

(٢) الإسلاف : التقديم . (٣) اللمعة : البقعة والقطعة من الجسد تبرق .

(٤) أعذر : بالغ (٥) الاختلال : الاحتياج (٦) الاستماحة : الاستمناح

فقلتُ له : نعماك فيها أتمها ودَعْ أمرَنا إن المهم المقدَّمُ

فأعجب سليمان بلطف طلبه في تهنئته وقضى حوائجه .

وقال أعرابي لرجل : ما اتهمت حسن ظني بك ، مذ توجه رجائي نحوك ، ولا قعدت بجد قائل [١] باعتمادي عليك ، ولا استدعتني رغبة عنك إلى من سواك ولا أراني الاختيار غيرك عوضاً منك .

وكتب البديع الهمذاني في بابه إلى بعض أصحابه :

لك — أعزك الله ! — عادة فضل ، في كل فضل ، ولنا شبه مقت ، في كل وقت ، ولعمري أن ذا الحاجة مقيت [٢] الطلعة ، ثقيل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء .

الفصل الثالث في رسائل الشكر

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الشكر ترجمان النية ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الاختصاص ، عندي من إنعامه ، وخاصّ بره وعامّه ، ما يستغرق منه الشكر ، ويستنفد قوة النشر ، شكر الأسير لمن أطلقه والمملوك لمن أعتقه ؛ شكر كأنفاس الأحبار ، أو أنفاس الرياض غِبّ الأمطار .

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢ هـ :

من شكركَ على درجة رفعتَه إليها ، أو ثروة أقدرته عليها فإن شكري لك على مهجة أحييتها ، وحشاشة أبقيتها ، ورمق أمسكت به ، وقمت بين التلف وبينه . فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي إليه ؛ ومدى تقف عنده ، وغـاية من الشكر لا يسمو إليها الطرف ؛ خلا هذه النعمة التي فاقت الوصف ، وأطالت الشكر وتجاوزت قدره . وأنت من وراء كل غاية : رددت عنا كيد العدو وأرغمت

(١) الجد : الحظ . والقاتل المخطىء . (٢) المقيت والمقرت : البغيض والمكروه

أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل ، وكنف[١] كريم ، فكيف يشكر يشكر الشاكر ؟ وأين يبلغ المجتهد ؟!

وكتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ:

فأما الشكر الذي أعارني رداءه ، وقلدني طوقه وسناءه[٢] فهيهات أن ينتسب إلا إلى عادات فضله وإفضاله ! أو يسير إلا تحت رايات عرفه[٣] ونواله[٤] ! وهو ثوب لا يحلى إلا بذكر طرازه ، واسم حقيقته ، ولسواه مجازه ، ولو أنه (حين ملك رقي[٥] بأياديه ، وأعجز وسعي عن حقوق مكارمه ومساعيه) خلّى لي مذهب الشكر وميدانه ولم يجاذبني زمامه وعنانه — لتعلقت في بلوغ بعض الواجب بعروة طمع ، ونهضت فيه ولو على وهن وظلع[٦] ولكنه يأبى إلا أن يستولي على أمد الفضائل ، ويتسنم[٧] ذرى[٨] الغوارب[٩] منها والكواهل[١٠] ، فلا يدع في المجد غاية إلا سبق إليها فارطاً[١١] وتخلف سواه عنها حسيراً[١٢] ساقطاً ، لتكون المعالي بأسرها مجموعة في ملكه ، منظومة في سلكه ، خالصة له من دعوى القسم وشركه[١٣] .

وكتب أستاذي الشيخ محمد عبده[١٤] يشكر المرحوم حافظ إبراهيم تعريبه كتاب البؤساء :

لو كان لي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أو أحمدك لرأي لك فيما

---

(١) جانب (٢) رفعته (٣) معرفة (٤) عطائه (٥) ريق
(٦) كلاهما الضعف (٧) يعلو (٨) أعالي (٩) جمع غارب ما بين الظهر والعنق
(١٠) جمع كاهل ما بين الكتفين (١١) سابقاً (١٢) كليلاً (١٣) مشاركته
(١٤) هو الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية سابقاً ولد سنة ١٢٥٨ هـ وتوفي سنة ١٣٢٣ هـ وكتب هذا المكتوب شكراً لمترجم كتاب البؤساء وقد نظم قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

أبدعتَ في تزيينه – لكان لقلمي مطمعٌ أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقُّك، ويجري في الشكر إلى الغاية كما يطلبه فضلُك. لكنك لم تَقف بعُرفك[١] عندنا، بل عمَّمت به من حوْلنا، وبسطتَه على القريب والبعيد من أبناء لغتنا. زَففت إلى أهل اللغة العربية عذراء من بنات الحكمة الغربيَّة، سحرت قومها وملكت فيهم يومها، ولا تزال تُنبِّه منهم خامداً وتهزُّ فيهم جامداً، بل لا تنفكُّ تُحيي من قلوبهم ما أماتته القسوَة، وتقوِّمُ من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة[٢] حكمة أفاضها الله على رجلٍ منهم، فهدى إلى التقاطها رجلاً منا. فجردها من ثوبها الغريب، وكساها حلة من نسج الأديب، وجلاها للناظر، وحلاَّها للطالب، بعدما أصلحَ من خَلقها وزان من معارفها. حتى ظهرت مُحبَّبة إلى القلوب، رشيقة[٣] إلى مؤانسة البصائر، تهش[٤] للفهم وتبش[٥] للطف والذَّوق – وتسابق الفكرَ إلى موطن العلم، فلا يكاد يلحظها الوهم، إلا وهي من النفس في مكان الإلهام.

حاول قومٌ من قبلك أن يَبلغُوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوَقفَ العجز بأغلبهم عند مبتدإ الطريق، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مقصِدِه، ولكنه لم يُمن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها، ويردَّ إليها ما سلبهُ المعتدونَ عليها من متانة التأليف، وحسن الصياغة، وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه.

أما أنت، فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده، ولا مَطمَع لطالب أن يبلغ حدَّه. ولو كنتُ ممن يقول بالتَّناسخ لذَهبتُ إلى أن روح «ابن المُقفع» كانت من طيِّبات الأرواح، فظهرت لك اليوم في صورةٍ أبدع، ومعنى أنفع. ولعلك قد سننت بطريقتك في التَّعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور

(١) المعروف (٢) بالكسر والضم: القدوة (٣) لطيفة
(٤) بفتح التاء: تصل إليه بسهولة (٥) بفتح الباء: من البشاشة.

كتابك ويحملها الزمان إلى أبناء ما يُستقبَلُ منه . فتكون قد أحسنت إلى الأبناء كما أجملت في الصُّنع إلى الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعدُ من العُجْمة سِوَى ما هو في أسماء (أسماء الأماكن والأشخاص ، لا أسماء المعاني والأجناس) ومثلي من يعرف قدرَ الإحسان إذا عمّ ، ويُعلي مكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل في رأيه الحكيم العربي أبي العلاء المعري :

ولو أني حُبيتُ الخلد فرْداً لما أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هَطَلَتْ عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك ! وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء !

وكتب أيضاً في الشكر مع توثيق المودة إلى أصحابه :

لك في قلوبنا من المودة ما يزكيه سناؤك ، وفي مناطقنا من الحمد ما يوجبه كالُك ، وفي صدورنا من الإجلال ما يرفعه بهاؤك !

وما بيننا من المودّة لا تحدُّه مدة ، ولا تخلُق له جِدة ، نعيذه من حاجة للتجديد واستدعاء للمزيد ، فلا المواصلةُ تربيه ، ولا المجاهلةُ توهيه — نعم إنّ ما يحفظُ لك في الأنفس هو تجلي فضلك ، ومثالُ علائك ونبلك ، وذلك الخالد بخلود الأرواح والباقي في تفاني الأشباح .

وبعدُ — فقد تلقيت منك كتاباً يَبُوح بسرّ المحبّة ،وينشرُ طيّ الصداقة ، فيه تبيان وُجدانك بما وجدنا ، وتأثرك على ما فقدنا ، فكان نبأ عما نعلمُ ، وقضاء بما نحكم ، ولكن شكَرْنا لك فضلَ المراسلة ، وأريحيّة المجاملة ، والله يتولى إيفاءك ، مثوبةً تكافىءُ وفاءك .

وكتب أيضاً في الشكر لآخر :

لو كان في الثناء ، وملازمةِ الدُّعاء ، وحفظِ الجميل ، والقيام بالخدمةِ جهد

المستطيع ما يفي بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ولكن أنى يكون في ذلك وفاءٌ ؟ والمحبّة سر نظام الأكوان ! والإحسانُ قِوام عالم الإمكان ! والقائمُ على كنهِ جميعه قيُّوم السموات والأرض ! والمفتتحون لأبواب العُرف على هذه النسبة الجليلة منهُ فليس لي إلا أن ألجأ إلى الله في مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم ، ثم أُسلي نفسي عن عجزي بما أتخيلُ أن أكرمكم سيروي :

سيكفي الكريمَ إخاءُ الكريم ويقنع بالوُد منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة إلى المكاتبة ، لأني شغلت بما شَغَلني عن نفسي . ولكن زالت العوارض (والحمد لله) وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد . وإنما للمؤمن في كل يوم بربه عيد ، فنهنئكم برضاء الله عنكم وتقبله صالح الأعمال منكم . وسلامي على نجلكم ومن ينتمي إليكم .

الفصل الرابع في رسائل النصح والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

اسمع نصيحة ناصحٍ جمَع النصيحة والمِقَهْ [١]
إياك واحذر أن تكو ن من الثقاتِ على ثقهْ

صدق الشاعر وأجاد ، وللثقات خيانة في بعض الأوقات : هذه العينُ تريك السَّرابَ [٢] شراباً ، وهذه الأذنُ تُسْمعك الخطأ صواباً . فلست بمعذور إن وثقت بمحذور ، وهذه حالةُ الواثق بعينه ، السَّامع بأذنه .

وأرى فلاناً يُكثر غشيانك [٣] وهو الدنيء دُخْلَتُه [٤] ، الرَّديء جُملته ، السيىء وصلتُه ، الخبيث كلمته ، وقَدْ قاسمتَه في زِرِّك [٥] ، وجعلته موضع سرِّك ،

(١) المحبة . (٢) ما تراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض وهو مثل في المخادع الكاذب (٣) إتيانك (٤) بتثليث الدال : نيته (٥) قوام القلب .

فأرني موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضعَ تلافيه [١] : أفظاهرُه غرّك ؟ أم باطنُه سرّك ؟؟

يا مولاي : يُورِدك [٢] ثم لا يُصدرُك [٣] ويُوقِعك ثم لا يعذرُك . فاجتنبه ولا تقربه ، وإن حضر بابك ، فاكنُس جنابك [٤] . وإن مَسَّ ثوبُك فاغسل ثيابك ، وإن لَصِقَ بجلدك ، فاسْلخ إهابك . ثم افتتح الصلاة بلعنِه ، وإذا استعذت بالله من الشيطان فاعْنِه [٥] .

وكتب الإسكندر المقدوني إلى أستاذه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعله بأبناء ملوك فارس بعد أن قتل آباءهم وتغلب على بلادهم :

عليك أيها الحكيم منا السَّلام . أما بعدُ فإن الأملاك الدائرة والعلل السماوية وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبحَ الناس لنا بها دائنين — فإنا مضطرون إلى حكمتك ، غيرُ جاحدينَ لفضلك والاجتباء [٦] لرأيك ، لما بلونا من إجداء [٧] ذلك علينا ، وذَقنا مِن جَنى [٨] منفعته ، حتى صار ذلك بنُجُوعه [٩] فينا ، وترسخه في أذهاننا ، كالغذاء [١٠] لنا . فما ننفك نعوّل عليه ، ونستمد منه استمداد الجداول من البحار ، وقد كان مما سَبَق إلينا النّصر ، وبلغنا من النكاية في العدُو ما يعجزُ القولُ عن وصفه ، والشكرُ على الإنعام به ، وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض سورية والجزيرة ، إلى أرض بابل وفارس ، فلما نزلنا بأهلها ، لم يكن إلا ريثما [١١] تلقانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هدية ، وطلباً للحظوة عندنا ،

---

(١) تداركه (٢) يوصلك إلى مكان ورد الماء (٣) لا يرجعك
(٤) الفناء والناحية (٥) اقصده (٦) الاختيار (٧) إعطاء
(٨) ما يجنى ويؤخذ من الثمر (٩) بتأثيره (١٠) بكسر الغين ما يتغذى به . (١١) مقدار ما .

فأمرنا بصلب من جاء به وشُهْرَته ، لسوء بلائه ، وقلة ارعوائه ووفائه ، ثم أمرنا بجمع من كان هنالك من أولاد ملوكهم وأحرارهم ، وذوي الشرَفِ منهم ، فرأينا رجالاً عظيمةً أجسامُهم وأحلامهم[١] ، حاضرة ألبابهم وأذهانهم ،رائقة[٢] مناظرهم ومناطِقُهُمْ ، دليلاً على أن وراء ذلك ما لم يكن معه سبيلٌ إلى غلبتهم ، لولا أنّ القضاء أدالنـا[٣] منهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيداً من الرّأي في أمرهم أن نستأصل[٤] شأفتهم[٥] ، ونَجْتَثّ[٦] أصلهم ، ونلحقَهُمْ بمن مضى من أسلافهم لتَسْكن القلوب بذلك إلى الأمن من جرائرهم[٧] وبوائقهم[٨] ، فرَأينا أن لا نعجل ببادرة[٩] الرأي في قتلهم ، دون الاستظهار بمشورتك فيهم. فارفع إلينا رأيك في ما استشرناك فيه بعد صحته عندك ، وتقليبك إياه بِجَلِيّ نظرك .

والسلام على أهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب أرسطو المتوفى قبل الميلاد إلى الإسكندر المقدوني :

إن لكلّ تُرْبة (ولا محالة) قسماً من كل فضيلة ، وإنّ لفارس قِسْمها من النجدة والقوة ، وإنّكَ إن تقتل أشْرافهم ، تَخْلُف الوُضعاء منهم على أعقابهم وتورث سفلتَهم[١٠] ، منازل عِليتهم ، وتغلب أدنياءهم ، على مَرَاتب ذَوي أخطارهم ، ولم تُبتل الملوكُ قط ببلاءٍ هو أعظَمُ عليهم من غلَبة السفلة وذلّ الوجوه ، واحذر الحذر كله أن تمكّن تلك الطبقة من الغلبةِ ، فإنهم إن نجم

(١) جمع حلم بكسر الحاء العقل وبضمها المنام ليلا (الرؤيا) (٢) زائدة
(٣) جعل لنا الكرة عليهم (٤) نقطع (٥) عداوتهم (٦) نقتلع
(٧) كناية عن شرورهم (٨) الدواهي (٩) ما يظهر عند الغضب
(١٠) بفتح السين وكسر الفاء السقاط من الناس،وبعض العرب يخفف فينقل كسرة الفاء إلى السين .

منهم ناجمٌ على جُنْدك وأهل بلادك ، دهمهم ما لا رَوية فيه ، ولا منفعة معه — فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأحرَار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزمْ اسم الملك كلّ من وَلّيْته منهم ناحية ، واعقد التاج على رَأسه ، وإن صغر ملكه ، فإنّ المُتَسَمّي بالملك لازمٌ لاسمه ، والمعقود لهُ التاجُ لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقعَ بين كل ملك منهم وصاحبه ، تدابُراً وتغالباً على الملك وتَفاخُراً بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وتعود بذلك حربهم لك حرْباً بينهم ، ثمّ لا يزدادُون بذلك بصيرةً إلاّ أحدثوا هنالك استقامة لك فإن دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأيت عنهم تعزّزُوا بك ، حتى يَثِبَ كلٌ منهم على جاره باسمك ، وفي ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لأحداثهم بعدك ، (وإن كان لا أمان للدّهْرِ) وقد أدّيت للملك ما رأيْتُه حَظّاً ، وعليّ حقّاً ، والملك أبْعَدُ روية ، وأعلى عيناً في ما استعان بي عليه .

والسلام الذي لا انقضاء له ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

ومن رسالة للامام عليّ المتوفى سنة ٤٠ هـ كرم الله وجهه :

دَعِ الإسْرَاف مقتصداً ، واذكر في اليَوْمِ غداً ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقَدّم الفضل ١ ليَوْم حاجتك ، أترْجُو أن يُعْطيك الله أجر المتواضعين وأنت عندهُ من المتكَبّرين ؟ أوَ تطمعُ وأنت مُتَمَرّغ في نعيم تمنعه الضّعيف والأرملة ، أن يوجب ٢ لك ثواب المتصدّقين ؟ وإنّما المَرْءُ مجزيٌ بما أسلف ٣ وقادمٌ على ما قدّم ، والسلام .

---

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه .
(٢) أن ومدخولها مجرور بحرف جر محذوف متعلق بتطمع .
(٣) قدمه في سالف أيامه .

وكتب أيضاً كرّم اللهِ وجهه إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما :

أما بعدُ – فإن المرءَ قد يسرّه درْك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوْتُ ما لم يكن ليُدْركه . فليكنْ سرُورُك بما نلت من آخرتِك ، وليكنْ أسفُك على ما فات منها . وما نلتَ من دُنياك فلا تُكثِرْ فيه فرَحاً ، وما فاتَك منها فلا تأسَفْ عليه جَزعاً ، وليكن هَمُّكَ فيما بعد الموت .

وكتب بطل الوطنية السيد عبدالله النديم المتوفى ١٣١٤ هـ :

لا حولَ ولا قوّة إلا (بالله) اشتَبَه المراقبُ باللاه[١] !واستُبدلَ الحُلوُ بالمرّ ، وقُدِّمَ الرقيقُ على الحُر ! وبيعَ الدُّرُّ بالخزف ! والخزُّ بالخشف[٢] ، وأظهر كل لئيمٍ كبرَه ! إن في ذلك لعِبرَة ! سمعاً سمعاً ، فالوُشاة إن سعَوا لا يعقلون ، ويُحِبُّون أن يُحمدُوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترُون منهم القار[٣] في صفة العنبر ؟ وقد بدَت[٤] البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدُورُهم أكبر ! وكيف تسمعُ الأحبابُ لمن نهى منهم وزَجَر ؟ ولقدْ جاءَهُمْ من الأنبَاء[٥] ما فيه مُزْدَجَر ![٦] عَجِبتُ لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرِضون ! فلما أحسوا بأسنَا إذا هم منها يركُضون ! فقابلوهُم بنبال الطّرْد في الأعناق ، حتى إذا أثخَنْتمُوهُم[٧] فشُدُّوا الوثاق[٨] ، أيدْخلون بما لا ينفع ، في بيوتٍ أذِنَ الله أنْ ترفع ! سيعلمون مقام الهبوط والعُرُوج[٩] ، « يوم يسمعونَ الصَّيْحَة بالحق ؛ ذلك يوْمُ الخروج » ويقولون إذا لم يجدُوا ملاذاً يا ويلنا قد كنَّا في غَفْلةٍ من هذا ! فإنهم عزموا على الإقامة مدّة ، ولو أرادُوا الخروج لأعدُّوا لهُ عدة[١٠] ، وأنت عزيز العليا ، ووحيد الدنيا قد

(١) باللاهي الذي يكون ملهياً - وغالباً الشيطان (٢) بفتح الخاء او بضمها الرديء من الصوف (٣) الزفت (٤) ظهرت (٥) الأخبار (٦) النهي بشدة (٧) أكثرتم القتل فيهم (٨) ما يربط به (٩) الطلوع (١٠) ما أعده الإنسان لحوادث الدهر من المال والسلاح .

بينتُ لك فعلهم ، فبما [١] رحمة من الله لِنْتَ لهم ، ولكنهم طمعوا في عميم طَولك [٢] ، ولو كنت فظّاً [٣] غليظ القلب [٤] لانفضوا [٥] من حولك. أتراهُم يعقلون كلامك أم يفهمون ، لَعَمْرُكَ [٦] إنهم لفي سكرتهم يعمهون [٧] لهم قلوبٌ لا يدرُون بها للحسد قراراً ، لو اطّلعت عليهم لولّيْتَ منهم فراراً ، وإني قد شيدتُ [٨] لك بقلبي حصناً [٩] صعباً [١٠] ما اسطاعوا أن يظهروهُ [١١] وما استطاعوا له نقباً [١٢] نسيت بالعاذل [١٣] جميلَ الصوتِ [١٤] ، وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكُرَهُ [١٥] رُميتَ أيها العاذل بسيف الغدر في نحرك ! أجئتنا لتُخرِجَنا من أرضِنا بسِحرِك ،فإن لم ترجعْ عن السحر وفعله، فلنأتينّك بِسِحْرٍ مثله ، كيف يسعى العاذلُ بين النديم وإلفه ، وقد خلت النذُر من بين يديه ومِنْ خلفِه ! فيا سادتي دعوني من المعجبِ والمطرب ! ليسَ البرّ أن تولّوا وجوهكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ . واجعلوا سيفَ ثباتكم للعذّال مسلولا ، وأوفوا بالعهدِ إنّ العهدَ كانَ مسئولا . فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بَطِر ، سيَعلَمونَ غداً من الكذابُ الأشِر [١٦] . وها قد صارَ أمر الحزبينِ عندك جلياً ، فأيُّ الفريقَيْنِ خَيْرٌ مقاماً وأحْسَنُ نَدياً ! [١٧] أتظنُّ عهد العاذل عند غضبك لا ينكث [١٨] مثلُهُ كمثلِ الكلبِ إن تحمل

---

(١) فبرحمة وما للتوكيد وللدلالة على أن لينه ما كان إلا برحمة من الله
(٢) إحسانك (٣) سيىء الخلق (٤) قاسيه (٥) لتفرقوا
(٦) لحياتك واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف تقديره قسمي
(٧) يتحيرون (٨) زينت (٦)موضعاً حصيناً (١٠) لا يقدر أحد أن يدخله والمراد المبالغة في تحصين المحبة (١١) لا يقدرون أن يعلوا ظهره لارتفاعه ونعومته (١٢) خرقاً لصلابته وسمكه (١٣) اللائم
(١٤) الذكر الجميل ولا يستعمل الصوت بهذا المعنى إلا في الجميل
(١٥) أنساني ذكره (١٦) المتكبر (١٧) مجلس القوم (١٨) لاينقض.

عليه يلهث ؛ إنه لكُمْ عدوٌ كبير ، ففرُّوا إلى الله إني لكم منهُ نذير ، فإنه جمع لقتالكَ الأولاد ، والأحفاد [١] وآخرين مُقَرَّنينَ [٢] في الأصفاد [٣] ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ،فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ،وظنّي إن وصل إليك كتابي ، أنهم يُطردون ويُردَعون ، وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيُعْجِبُكَ إذا مشى هذا اللاّدِ ، ثاني عطفه [٤] ليُضِلّ عن سبيلِ [٥] الله .

وإنك وإن فرحت بعلم ما يجْهَلون ، قد نعلم أنه ليحزُنك الذي يقولون . فإن قلتَ إنّ اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شيء من هذا القبيل، إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملين [٦] عليها والمؤلّفَةِ قلوبُهُمْ [٧] ، وفي الرّقاب [٨] ، والغارمين [٩] ، وفي سبيل الله [١٠] وابن السبيل [١١] ؛ على أنهُ لا تحلُّ الصدقة لذميم [١٢] همازٍ [١٣] مشاءٍ بنميمٍ [١٤]،وطباعهم كما تعلمُ منكَرةٌ مُسْتَقْذَرَةٌ ؛ كأنهم حمرٌ [١٥] مستنفِرَة [١٦] فرّتْ من قَسْوَرَةٍ [١٧] .

وقد قال وفائي : خاطب عزيزك هذه المرّة ، وإن لم يعملْ فيك فكراً ، وما يُدْريكَ لعلّه يَزّكّى [١٨] ، أوْ يَذّكّرَ فتنْفَعَهُ الذّكرى .

فقال لساني : إنّ الوُدّ هوَ الرّسول المأمون ، فأرْسلهُ معي رِدْءاً [١٩] يصدّقني إني أخاف أن يكذّبونِ . فقلت : سيرُوا مع المحبّة ذات

(١) أولاد الأبناء (٢) مشدودين (٣) القيود (٤) لاوي عنقه تكبرا (٥)عن دين الله (٦)السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر الحاكم (٧) أشراف من العرب كان النبي ﷺ يستألفهم للاسلام (٨) المكاتبون من العبيد (٩) من تحملوا الدّين (١٠)الفقراء في الجهاد (١١)المسافر والمنقطع عن ماله (١٢)القبيح والمراد قبيح الفعال ذميم الخصال (١٣) عياب يعيب الناس (١٤) ساع بالنميمة والفساد (٥) جمع حمار (١٦) نافرة (١٧) الأسد (٨) يتطهر من الذنوب (١٩) معينا .

الفُتُوَّة [١] ولا تكونوا كالتي نقَضت غزلها منْ بعد قوّة ، وقولوا لهُ عند الغايةِ قد جئناك بآية . ولا تهابوا الجيش وإنْ كبر ، سيهزمُ الجمعُ ويولون الدُّبر [٢] ولا تظنُّوا من ظاهر الأمر حُلول البلوى ، إذْ أنتمْ بالعُدْوَةِ [٣] الدُّنيا [٤] وهم بالعُدْوَةِ القصوَى [٥] ، بل قاتلوهم قتالَ المستشهدين ، وليَجِدوا فيكم غلظة ، واعلمُوا أنّ الله مع المتقين .

وإذا اشتبكَ القتالُ فليذُبّ كلٌ منكم عن مولاه [٦] ، وإن جنحوا [٧] للسَّلم [٨] فاجنح لها وتوَكّلْ على الله ، فسيروا ودعوا الأولادَ والنّجُنَّةَ [٩] ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجَنّة ، ولا تسألوا عن الميرةِ [١٠] من أصله ، وإن خفتمْ عَيْلَةً [١١] فسوف يغنيكم الله من فضله ، فإن الله قد أثارَكم [١٢] لقتال العذال العائبين ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتَهم [١٣] ، فينقلبوا خائبين .

واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا في جنوبهم رَضُوا أن يكونوا مع الخوالف [١٤] وطبع [١٥] اللهُ على قلوبهم ؛ ولا تُدْبروا إذا رأيتموهمْ قدامكم [١٦] ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم .

وإن أخذتم أسرَى فقاتلوا أنصارَها ، فإمّا منّاً [١٧] بعدُ وإمّا فِداءً حتى تضع الحربُ [١٨] أوزارها [١٩] فإن أطعتم رفعتم وأصلحَ الله بالكمْ ، وإن تتوَلّوْا يستبدل قوماً غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالكم .

(١) الكرم والتسامح (٢) الظهر (٣) بضم العين وكسرها جانب الوادي (٤) القريبة (٥) البعيدة (٦) صاحبه (٧) مالوا (٨) الصلح (٩) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطي بها المرأة وجهها (١٠) جلب الطعام (١١) فقراً (١٢) لشركم (١٣) يصرفهم ويذلهم (١٤) النساء (١٥) كناية عن إعماء بصائرهم (١٦) سابقيكم (١٧) تمنون عليهم بإطلاقهم من غير شيء (١٨) أهل الحرب (١٩) أثقالها من سلاح وغيره .

وسأتلو في خطبتكم عند قدومكم سالمين : فقُطع دابرُ [1] القومِ الذين ظلموا والحمد لله ربِّ العالمين .

★

وكتب أستاذنا الإمام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣هـ:

عرض لي ما منعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع ، وكنتُ أسمعُ فيه بحادثة (ميت غمر) من بعض الأفواه ، أظنها من الحوادث المعتاد وقوعها ، حتى تمكَّنتُ من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فإذا لهب ذلـــك الحريق يأكل قلبي أكلهُ لجُسومِ أولئك المساكين : سكان (ميت غمر) . ويصهرُ [2] من فؤادي ما يصهرُه منْ لحومهم ، حتى أرقت [3] تلك الليلةَ ، ولم تغمّضْ عيناي إلا قليلاً . وكيف ينامُ منْ يبيتُ يتقلبُ في نعم الله ، وله هذا العددُ الجمُّ من إخوةٍ وأخوات يتقلبون في شدّة البأساء ؟! [4] فأردت أن أبادرَ بما أستطيع من المعونة (وما أستطيعهُ قليلٌ لا يغني من الحاجة ولا يكشفُ البلاء) ثم رأيتُ أن أدعوَ جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البرّ في أقرب وقت ، وكان ذلك يوم السبت فحضرَ منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكرَ اللهَ سعيَ من حضرَ ، وجزى خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر ، على أنهُ ليس الحادثُ بذي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضعُ [5] مئين منهم الأطفالُ الذين فقدوا عائليهم [6] والتجـار والصناع الذين هلكتْ آلاتهم ورُؤُوس أموالهم ، ويعتذر عليهـم أن يبتدئوا الحيـاة مرّة أخرى إلاّ بمعونةٍ من إخوانهم ، وإلاّ أصبحوا متلصّصين أو سائلين ، والذين

---

(١) أهلكوا عن آخرهم (٢) يذيب (٣) سهرت (٤) الضرر والفقر

(٥) بكسر التاء أو بفتحها ما بين الثلاث إلى التسع — وبالضم الفرج .

(٦) من ينفقون .

فقدُوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوُون إليه ، ولا مالَ لهم يقيمونَ ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخرِّبة — لهذا رأيتُ ورأى كلُّ من تفكرَ في الأمرِ ، أنْ يُجمعَ مبلغٌ وافرٌ يُتمكنُ به من تخفيف المصاب عن جميع أولئك المصابين .

وكتب أيضاً في الغرض المذكور :

قد بلغكم (وَلا رَيْبَ) من أخبار الجرائد ، ما عليه أهلُ (ميت غمر) بعدَ الحريق الذي أصابَ مدينتهم ، فهم بِلا قُوتٍ ولا ساتر ولا مأوًى ، فليتصوَّر أحدكمْ أنّ الأمرَ نزلَ بساحتِه ، أفما كان يتمنى أن يكونَ جميعُ الناس في معونته ؟ فليطالب الآن كلٌّ منا نفسَهُ بما كان يطالبُ به النّاس ، لوْ نزلَ بهِ ما نزّلَ بهمْ ، ولينْفِقْ ممّا له ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ... فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة إخوانكم ، وأن تبذلوا ما في وُسْعكم لِحَثّ من عندكم على مشاركتكم في هذا العَمل المبرور والسلام .

الفصل الخامس في رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٧ هـ :

لَئِنْ ساءَني أن نِلتني بمساءَةٍ   لقد سَرَّني أني خطرْتُ بِبَالِكِ[١]

الأميرُ أطالَ اللهُ بقاءَهُ ، في حالَتَيْ برِّه وجفائه متفضل ، وفي يوْمَيْ إدنائه وإبعاده متطوِّل ، وَهنيئاً لهُ من حمانا من يحلُّه[٢] ، وَمَن عرانا ما يحله[٣] ومن أعراضنا ما يستحلّه .

بلغني أنّــهُ — أدامَ اللهُ عزّه ! — استزاد[٤] صنيعه[٥] ، فكنت ظنَنْتني

---

(١) هذا البيت لعبدالله بن عبيد الله أحد بني عامر المشهور بابن الدمينة من قصيدة والخطاب لمؤنث (٢)ينزل فيه (٣) يفكه (٤)زاد (٥)معروفه وإحسانه.

بجنياً [١] عليه مساء إليه ، فإذا أنا في قرارة الذنب ، ومثارة [٢] العتب ، وليتَ شعري [٣] أي محظورٍ [٤] في العشرة حضرته ، أو مفروض من الخدمة رفضته [٥] ، أو واجب في الزيارة أهملته ، وهل كنت إلا ضيفاً أهداه منزع [٦] شاسع [٧] وأداه أمل واسع ، وحداه [٨] فضلٌ وإن قل ، وهداه رأي وإن ضل ، ثم لم يلق إلا في آل ميكال رحله [٩] ولم يصلْ إلا بهم حبله ، ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره .

ثم ما بعدت صحبة إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعفت منة إلا تراجعت منزلة ، ولم تزلِ الصفة بنا حتى صار وابل [١٠] الإعظام قطره ، وعاد قميص القيام صدره [١١] ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة [١٢] ، فصار ذلك التقريب ازوراراً [١٣] وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماء ، والعبارة إشارة ، وحين عاتبته آمل أعتابه [١٤] ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت فما ازددت له إلا ولاء ، وعليه ثناء ، ولا جرم [١٥] أني اليوم أبيض وجه العهد ، واضح حجة الود ، طويل لسان القول ، رفيع حكم العذر . وقد حملت فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه .

والأمير الرئيس — أطال الله بقاءه ! ينعم بالإصغاء لما يورده موفقاً إن شاء الله تعالى .

---

(١) المؤاخذة بجنايته (٢) مكان الثوران (٣) ليتني أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع (٤) ممنوع (٥) أبطلته (٦) مصدر ميمي بمعنى البعد (٧) بعيد (٨) ساقه ودفعه (٩) ما يأخذه المسافر من الأثاث وحوائج السفر (١٠) المراد به الكثير من الأنعام وأصله المطر (١١) ثوب يلبس فيغطي الصدر (١٢) جماعة (١٣) انحرافا (١٤) إزالة عتبه وملامته (١٥) كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقاً

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرَجي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :

أنا – وإن لم ألقَ تطاوُل الإخوان إلا بالتَّطوُّل ، وتحامُلَ الأحرار إلا بالتَّحَمُّل – أحاسبُ مَوْلاي – أيَّدَه الله ! – على أخلاقه ، ضناً [١] بما عقدتُ يدي عليه من الظن به ، والتقدير في مذهبه ، ولـَوْلا ذلك ، لقلتُ في الأرض مجالٌ ، إن ضاقت ظِلالُك [٢] ، وفي الناس واصـلٌ ، إنْ رَثَّتْ [٣] حبالك ، وآخذهُ بأفعاله .

فإنْ أعارني أذُناً واعية ، ونفساً مراعية ، وقلباً مُتَّعِظاً ، ورجوعاً عن ذهابه ونزوعاً [٤] عن هذا البـاب الذي يقرَعُه [٥] ، ونزولاً عن الصُّعود الذي يفْرعه [٦] . فرشتُ لمودَّته خُوان [٧] صدري ، وعقدتُ عليهِ جَوامعَ خصري ، ومجامع عمري [٨] وإن ركب منَ التَّعالي غير مركبه [٩] وذهب من التغالي في غير مذهبه [١٠] ، أقطعته خُطـَّةَ [١١] أخلاقه ، ووَلـَّيْتُهُ جانب إعراضه

لا أذودُ [١٢] الطَّير عَن شجر قد بلوت المُرَّ منْ ثمـره

فإني وإن كنتُ في مقتبل السِّنِّ والعُمر ، قد حلبتُ شطـْرَي الدَّهر [١٣] وركبتُ ظهرَي البرِّ والبحر [١٤] ، ولقيْتُ وَفدَي [١٥] الخيرِ والشرِّ ، وصافحتُ يدي النفعِ والضرِّ ، وضربْتُ إبطي العُسرِ واليُسرِ ، وبلوتُ

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصاً (٣) أماكن الظل (٣) بليت وذابت (٤) انتهاء وتركا (٥) يدقه بيده ليفتح له (٢) يصعده ويعلوه (٧) بضم الخاء أو بكسرها ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره (٨) مراده التمسك بمودته مدة حياته (٩) مراده وإن تكبر (١٠) طريقه (١١) بضم الخاء الطريقة ، مراده أنه يتركه وإن أخذ في غير طريق طباعه (١٢) لا أطرد (١٣) مراده مر به من خيره وشره وجرب نفعه وضره (١٤) مراده أنه جرب الأمور في البر والبحر (١٥) الوفد الجماعة التي ترد على الأمير أو غيره ، ومراده أنه عرف الخير والشر .

طعمي الحُلو وَالمر ، وَرضعتُ ضرعي العُرْف والنكر [١]، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريباً وتسمعني من أحوالها عجيباً ، ولقيتُ الأفراد ، وَطَرحت الآحاد [٢]، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتيْ [٣] سمعه وبصره، وشغلتُ حَيِّزَيْ [٤] فكره ونظره وأثقلتُ كتفه في الحزن ، وكفته في الوزن . وودٌ لو بادر القرن [٥] صحيفتي [٦] أو لقي صفحتي [٧] فماليَ صغرت هذا الصغر في عينه ، وما الذي أزري [٨] بي عنده حتى احتجب وقد قصدته ، ولزم أرضه وقد حضرته .

وأنا أحاشيه [٩] أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطيَ [١٠] ظهر التيهِ [١١] على أهْليهِ ، وأسأله أن يختصّني من بينهم بفضل إعظام، إن زلت بي مرة قدم في قصده . وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة [١٢] والرتبة المتحيفة [١٣] وهو في جنب جفائه يسير ، فإن أقلع [١٤] عن عادته وترع عن شيمته [١٥] في الجفاء ، فأطال الله بقاء الأستاذ الفاضل ، وأدام عزه وتأييده .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

والله يا قليب : لولا أن كبدي في هواك مقروحة [١٦] ، وروحي مجروحة لساجلتك [١٧] هذه القطيعة وماددتك حبل المصارمة [١٨] وأرجو أن الله تعالى يديل [١٩] لصبري من جفائك ، فيردك إلى مودتي وأنف القلى [٢٠] راغم .

---

(١) المعروف والمنكر ضده (٢) هذا والذي قبله كله بمعنى أنه جرب الأيام واختبرها من أول نشأته (٣) جانبي (٤) ناحيتي (٥) المقارن الكف، عند ملاقاة الأبطال (٦) كتابي (٧) وجهي معناه تمنى لقائي (٨) حط من قدري وشأني (٩) أنزعه (١٠) يركب (٢١) الكبر والعجب (١٢) من الإجحاف وهو الذهاب بالشيء (١٣) من التحيف وهو الظلم والجور (٠٤) رجع (١٥) خلقه (١٦) مجروحة (١٧) معناه لقابلتك (١٨) المقاطعة (١٩) الغلبة والنصر (٢٠) أنف صاحب البغض .

فقد طال العهد بالاجتماع حتى كِدنا نتناكر عند اللقاء والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ إلى تلميذه :

كتابي ، وقد خرجت من البلاء خروج السَّيْف من الجلاء [١] ، وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتني المحنة ، وهي مُفارقٌ لا يشتاق اليه ، وودعتني وهي مودع لا يبكى عليه . والحمد لله تعالى على مِحنة يجلّيها ، ونعمة يُنيلها ويوليها ، كنت أتوقع أمس كتاب مولاي بالتسلية ، واليوم بالتهنية ، فلم يكاتبني في أيام البُرَحاء [٣] بأنها غمّته ، ولا في أيام الرخاء بأنها سرّته ! وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي . فقلت : أما إخلاله بالأولى ، فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحبّ أن يوفّرَ عليّ مرتبة السّابق إلى الابتداء ، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكونَ نعم الله سبحانه عليّ موفورة من كل جهة ومحفوفة بي من كل رتبة ، فإن كنتُ أحسنت الاعتذار عن سيدي ، فليعرف لي حق الإحسان ، وليكتب إليّ بالاستحسان ، وإن كنت أسأت . فليخبرني بعذره ، فإنه أعرف مني بسرد وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي ، واعتذرت عن ذنبه ، حتى كأنه ذنبي ، وقلت يا نفسُ اعذري أخاك ، وكفاك منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد – والعود أحمد .

وكتب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠ هـ :

أما بعد : فقد عاقني الشك في أمرك ، عن عزيمة الرأي فيك ، وذلك أنك ابتدأتني بلطفك عن غير خِبرة ، ثم أعقبته جفاء من غير ذنب فأطمعني أوّلك

---

(١) صقله بإزالة ما عليه حتى يرى له لمعان .

(٢) البلية .

(٣) شدة الأذى .

في إخائك ، وآيأسني آخرك من وفائك . فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف والسلام .

وكتب صديقي زعيم الوطنية المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :

سيدي — مالي أراك كمن نسيَ الخليط[1] وتجرد في الصحبة على المحيط والمخيط فإذا ما صادفتك[2] صَدَفْتَ[3] أو أنصفتك ما نصفت[4] أتظن أني قعيدة بيتك[5]، أو رهين كيْتك وذيتك[6] فوحَقّك إذا آنست[7] من يدي مللا ، أو من قدمي كلَلا[8] ؛ لنجزْتها[9] البتات[10] وكلت بنقضها الذات . ولو أني آنست من الزاد فترة[11] أو من الشراب عُسرة ، لطعمت الطوى[12] واستقيت الجوى[13] فكيف أداعِبُ[14] وتصاعب ؟ وأُحالف وتخالفُ ؟ وأواصل وتفاصل ؟ وأجالب وتجانب ؟ لبئست مطيتك التي اقتدعتَ[15] وشِرعتك[16] التي شرعت[17] فوالله لولا أن الحب حادثٌ لا يتقى بالتروس، ومعنى لايدبُّ إلا في النفوس، وسهامٌ لا ترمى إلا من قسيِّ الحواجب ونحو أوله المعيّةُ وآخره الجوازم، لما افترست الظباء الصيد[18] الأسود ولا ملكت الأحرار العبيد . ولولا أني كَرَعْتُ[19] من صَابِه[20] والتحفت ببردة أوصابه[21] لتعوذت منك بسورة الفلق ونبذتك[22] نبذ الرِّداء الخَلِق[23] ولهان[24] عليّ أن أدعك أو أسمعك .

---

(١) الصاحب (٢) وجدتك (٣) أعرضت (٤) كلاهما بمعنى ساعدتك (٥) المرأة التي في البيت (٦) كلاهما بمعنى كذا وكذا والمراد أني لست رهين قولك أفعل كذا وكذا (٧) علمت (٨) إعياء وضعفا (٩) قضيتها (١٠) القطع المستأصل (١١) ضعفاً وقلة (١٢) الجوع (١٣) الحرقة (١٤) أمازح (١٥) دفعت (١٦) مكان الماء (١٧) دخلت (١٨) المترفعة (١٩) بكسر الراء وفتحها شربت بفمي (٢٠) مائه المر وأصله عصارة شجر مر (٢١) أمراضه (٢٢) رميتك (٢٣) القديم البالي . (٢٤) هان : صار من الهوان .

تمرُّون على الديار ولن تَعوجوا [١] كلامكم عــلـيَّ إذاً حــرامُ

غير أن لي نفساً شبَّت على الحب فلم أفطمها وتقادعت [٢] على ناره فلم أعصمها . حتى بلغ السيل الزُّبى [٣] وتبددت النفس أيدي سَبا إلا حُشاشة [٥] غفل عنها الوجد ، وبقية رمق ألـفيتها [٦] من بعد . وكلما رأيت منك الشطط [٧] واعتساف الخطط [٩] عمدت إلى أن اثني [١٠] من رسنها [١١] وأذود [١٢] عن عطنها [١٣] وشخصت إلى المكافحة والمكافأة ، وأن لا أكيلك إلا مثلا ، ولا أسقيك إلا وشلا [١٤] ولا أزيدك إلا فشلا .

ولست أجزيك الجزاء الذي على وفاء الصنع لا بخسه
وليس يبكي صاحباً من إذا أمين لا يبكي على نفسه

على أني بالرغم أصبح في نهار أحلك [١٥] من ليل ، وأمسي في ليـل أشق على النفس من وَيل .

وليلٍ كموج البحر أرْخَى سُدُولَـه [١٦] عــليّ بأنوع الهموم ليَبْتَلي [١٧]

فإن تخلصت من لقائك ، فإلى الشقاء ، وإذا لجأت من عسفك ، فإلى العناء ، وإذا استجرت بفراقك ، فقد استجرت من الرمضاء [١٨] ، وكأنك لم تدر أن دولة الحسن سريعة التقويض [١٩] وأنه لا بد من هبوط القمر إلى الحضيض ولسوف تبلى

(١) لن تقيموا (٢) تسابقت (٣) مثل يضرب لما جاوز الحد (٤) ذهبت (٥) هو مثل يقال ، وتبددوا أيدي سبا معناه ذهبوا متفرقين ، وأصله في الذين ذهبت جناتهم وغرق مكانهم وقد ذكرهم الله في القرآن قال «لقد كان لسبأ » إلى آخر الآيات (٦) وجدتهم (٧) تجاوز الحد (٨) الميل عن الطريق المألوف (٩) الأمور (١٠) أرد (١١) زمامها (١٢) أمنع (١٣) مكانها (١٤) الماء القليل في هذا الموضع والماء الكثير في غيره (١٥) أشد سواداً (١٦) أستاره (١٧) لتختبرني (١٨) الأرض الحارة (١٩) التفرق .

بعارض [١] بيد [٢] أنهُ غير ممطر ، وبساعة مقبلك فيها مدبر ، وستصبح عما قريب قد عفت [٣] رسومك [٤] ، ولم تجد في سوق الصحبة من يسومك . والعاقل من لا يختال بنفسه ، ولا يبني على غير أسه [٥] فإنك ما نضت [٦] لؤلؤه مَبْسَمِك ، ولا نَضَرَت [٧] صورة معصمك [٨] ، ولا شئت فخلقت كما تشاء ولا اتخذت عند الله عهداً وهذا الوفاء . ولكن مثلك من أفرغه الله في القالب الذي اختار ، وجعله مرتع النفوس ومسرح الأبصار ، وإني أيها العزيز قد تقدمت إليك :

ولي أمل قطعتُ بهِ الليالي　　أراني قد فنيت به وداما

فلا تحرمني من سائغ العفو وسابغه ، ولا تجعلني كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه :

فأشد ما لقيت من ألم الجَوَى [٩]　　قرب الحبيبِ وما إليه وُصُولُ
كالعيس [١٠] في البيداء يقتلها الظما [١١]　　والماء فوق ظهورها محمول

فاعمل في يومك لغدك ، واستجز غيرك ببسط يدك ، ولا تأخذني بجرم الجاني المتلبّس ، ولا تبتغ مني صحيفة المتلمّس [١٢] بَيْدَ أني أنشدك الذي بلى العاشق بالمعشوق ، وكلفه في الحب بيض الأنوق [١٣] وسَهَّد [١٤] طرفه بنواعس العيون ، وخَوَّل [١٥] للحسن إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون ، كما قرن الهوى بالنوى [١٦] ، والقلب بالجوى [١٧] وقضى على المحب ، وبشر العشق فلم يحتجب ، ما الذي أغرى بك إلى الاعتساف ، وعدم الإنصاف ؟

---

(١) السحاب الذي يعترض في الأفق (٢) غير أنه (٣) درست وذهبت (٤) آثارك (٥) أساسه (٦) ما ظهرت (٧) ولا حسنت (٨) موضع السوار من اليد (٩) الحزن (١٠) الإبل البيض يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية (١١) العطش (١٢) الطالب مرة بعد أخرى (١٣) الأنوق العقاب ، ولفظ المثل : هو أعز من بيض الأنوق ، وهو مثل يضرب للمحال او لما لا سبيل إليه (١٤) أسهره (١٥) ملكه (١٦) البعد (١٧) الحرقة .

ألينُ الأعطاف ! أم فتورُ [١] الأجفان ؟ أم تكسُّر الكلام ؟ أم هيفُ القوام !؟ لقد شددت أزرك [٢] (والله) بضعاف ! واستسمنت تلك العجاف ، وهل حدا [٣] إلى قطيعتي بك ! أني خشن الملمس ؟ رثُّ الملبس ؟ ولم أُمنح [٤] كما مُنِحت نضرة ، ولم ألبس بُرقع البياض والحمرة ، فاعلم أنك إن نظرتني بعين الرضا [٥] ، ورحمت فؤاداً يتقلب منك على جمر الغضا [٦] فستجدُني صديقك الذي لا يبطره الوفاء ، ولا يثنيه الجفاء ، أملكُ لك من لسان ، وأطوع لأمرك من بنان :

أكتب ، فأين لعبد الحميد الكاتب قلمي ؟ وأشْعُرُ ، فأين الشعراء إلا تحت عَلَمي ؟ وأبذُل ، فأين حاتمُ [٧] من كرمي ؟ وأحلُمُ ، فأين أحنفُ [٨] من حِلمي ؟

وحسبك فخراً أن يجود بنفسه على رغَبٍ من ليس يأمل في الشكر
ومن يحتمل في الحبِّ مافوق كاهلي [٩] فحسبُك حلماً أن يقيم على الهجر

فإن أصَخْتَ [١٠] إلى الداعية [١١] ووعيت كلماتٍ لا تسمع فيها لاغية [١٢] ، فإليك الجزاء وعليَّ الوفاء ، وإلا فالفرار إلى الموت أمرٌ يسير ، والقبر للعشاق قليل من كثير .

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد يؤنبه ويعاتبه :

أما بعد فقد أدت ألسنة التصريح إلى أُذن العناية بك ، ما فَجَع الأمل فيك وباعد الرّجاء منك ، إذ ملأت العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمالُ

(١) ذبولها (٢) ظهرك (٣) ساق إلى (٤) أعطى (٥) حسنا (٦) شجر خشبه فيه صلابة (٧) أبو عدي حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي وبه يضرب المثل في الكرم من شعراء الجاهلية (٨) الأحنف بن قيس يضرب به المثل في الحلم (٩) ما بين الكتفين (١٠) استمعت (١١) مراده به الواشي العاذل (١٢) اللغو من الكلام .

الراغبين، وهمم المنافسين . فسخت بك فتيان قريش، و كهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجِرّة المُهَوَّعة [١] ، والكظ الحشء [٢] . اقتحمت البوائق [٣] وانقدت إلى المعاير ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر . فليتك —يزيد— إذا كنت لم تكن ، سررت يافعاً ناشئاً وأثقلت كهلاً ضائعاً [٤] ، فواحَزنا عليك يزيد ! وياحر صدر المثكل بك . ما أشمت فتيان بني هاشم ! وأذل فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟ هيهات . خمشت [٥] الدربة [٦] وجه التصبر بك ، وأبت الجناية إلا تحدراً على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أربح فائدة نالوها ، وفرصة انتهزوها ! انتبه يزيد للعِظة ، وشاور الفكرة ولا تكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك ، واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان مما حسن قبحه واحلولى عندك مرّه ، أمرٌ شَرَكك فيه السواد [٧] ونافسك الأعباد ، فأضعت به من قدرك ، وأمكنت به من نفسك — فمن لهذا كله ؟

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت ، وأسير الحياة ، بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون [٨]) ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً .

اعلم يا يزيد أن أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله

---

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم . والمهوعة : من هوعه أي قيأه وهذا تمثيل ، أي أنهم يستقلون ذكرك (٢) الكظ : الامتلاء من الطعام ، والجشء : الكثير وهذا تمثيل أيضاً (٣) البوائق : جمع بائقة وهي الداهية (٤) الضائع والضليع : القوي (٥) خمش : لطم (٦) الدربة : التجربة (٧) السواد : العامة (٨) تقدم شرح غريب الآية في خطبة قطري .

تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى ، والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها ، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، وإظهار العورة وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سرك ، ولا تعقد [1] على فعلك ، فما خير لذة تعقب الندم ، وتعفي [2] الكرم ؟ وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى ، وليبلغ أمير المؤمنين ما يرد شارداً من نومه ، فقد أصبح نصب [3] الاعتزال من كل مؤانس ودريئة [4] الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن .

وكتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب :

يا بني عجبت من الكذاب المشيد بكذبه ، وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه : فالآثام له عادة ، والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقاً لم يصدّق ، وإن أراد خيراً لم يوفّق ، فهو الجاني على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله ، فما صح من صدقه نسب إلى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب إليه . فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من المها نة بعض ما يُحْكَى عليه
فإذا سمعت بكذبة من غيره نُسِبت إليه

وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكري :

كِتابي إلى السيد السند ؛ ولا أُجَشّمه [5] الجواب عنه ! فذلك ما لا أنتظرُه منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ،

(١) يقول : تفقد بالشراب الإرادة والعزيمة (٢) تعفي : تذهب
(٣) النصب هنا : الغرض والهدف
(٤) الدريئة : التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها . (٥) لا أكلفه .

وله الرَّأيُ بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ، ويحكم عليها أو لها :

فقد تنفعُ الذكرى إذا كان هجرُهم دلالاً فأمَّا إن مَلالاً فلا نفعا

زُرْتُ (السيّد) ويعلم الله أنَّ شوقي إلى لقائه كحرصي على بقائه ، وكلَفي بشُهُوده ، كشَغفي بوجوده ، فقد بَعُدَ (والله) عهدُ هذا التَلاق ، وطالَ أمَدُ الفِراق وتصرّم الزّمان ، وأنا من رُؤيته في حرمان. فسألتُ عنه ، فقيل لي : إنَّه خَرَجَ لتشييع [1] زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طُلوعه ولم أزل أعُدُّ اللحظات وأستطيل الأوقات ، حتى بزَغَت الأنوار ، وارْتَجَّ صَحْنُ الدَّار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزُّوَّار ، وجاء السّيدُ في موكبه ، وجلالة مَحتده [2] ومنْصَبِه ، فقمْنا لاستقباله ، وهينمنا [3] بكماله . فمرَّ يتعرَّف وُجُوه القوم حتى حازاني وكبُرَ على عينه أن يراني ، فَغَادَرَني [4] ومَنْ على يساري ، وأخذ في السلام على جاري وجرّ السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا في هذه الحال أوهم جاري أني في داري ، وأظهر للنَّاس أن شدة الألفة ، تسقط الكلفة ، ومرّ السّيد بعد ذلك من أمامي ثلاث مرات ، ومن الغريب أنَّهُ لم يستَدْرك ما فات :

تمرُّون على الدِّيارَ ولَنْ تعُوجُوا كلامكُمُ عليّ إذَنْ حرامُ

وكنْتُ أظنُ أنّ مكانتي عند السيد لا تُنكر ، وأن عهدي لديه لا يُخْفَر [5] فإذا أنا لستُ في العير [6] ، ولا في النّفير [7] ، وغيري عند السيد كثيرٌ ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير

ومَن مدت العلْيا إليه يمينها فأكبرُ إنسان لديهِ صغير

---

(١) لتوديع (٢) أصله من جهة النسب (٣) تكلمنا بصوت خفي
(٤) تركني (٥) لا ينقض (٦) الجماعة (٧) الجماعة أيضاً .

ولا أدّعي أني أوازي السيد (صانه الله) في علوّ حسبه ، أو أدانيه في علمه وأدبه ، أو أقاربه في مَناصبه ورُتَبه ، أو أكاثره في فضته وذهبه ، وإنما أقول: ينبغي للسيد أن يُميّز بين من يزُورُه لسماع الأغاني والأذكار ، وشهود الأواني على مائدة الإفطار ، وبين من يزورُه للسّلام ، وتأييد جامعة الإسلام ، وأن يُفرّق بين من يترَدّدُ عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد إجابةً لدعوة الإخلاص . وأن لا يشتبه عليه طُلاّب الفَوَائد بطلاب العوائد ، وقناص [١] الشوارد [٢] . بنُقباء الموالد ، ورُواد الطُّرَف [٣] ، بأرباب الحرف :

فما كلُّ من لَقيتَ صاحبَ حاجَةٍ ولا كلُّ منْ قابلتَ سائـَلكَ العُرفا[٤]

فإن حَسُنَ عند السيِّد أنْ يُغضي عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضيَ عَنْ جميع الناس وإلا فلماذا يطوف على الضُّيُوف ، ويحيِّيهم بصُنوف من المعروف ويتخطّى [٥] الرّقاب « لصرُوف » [٦] ! ويخترق لأجله الصُّفوف ؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام ، فليس بأقدم هجرة في الإسلام وإن رأى أنه أقدر مني على إطرائه [٧] ، فليس بمُمكن أن يَتـَخِذَهُ من أوليائه !

ولا أرُومُ بحمد الله منزِلةً غيري أحقُّ بها منّي إذا رَاما

وإنما أصونُ نفسي عن المهانة والضعة ، وأن أعرضها للضّيق وفي الدُّنيا سعة :

وأُكرمُ نفسي إنني إن أهنتُها وحقّكَ لم تكرم على أحد بَعدي

فلا يُصَعّر [٨] السيد من خدّه ، فقد رَضيتُ بها ألزمني من بعده ، ولا يَغضُ [٩] عني عينه ، فهذا فراق بيني وبينه ، وليتخذني صاحباً من بعيد ، ولا يكلّمني إلى يوم الوعيد .

---

(١) جمع قانص بفتح القاف: الصائد (٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم (٣) جمع طرفة : وهي ما ترى مليحة ، والمراد أهل المراتب العالية (٤) المعروف (٥) يتجاوز (٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى في آخر يوليه سنة ١٩٢٧ م وهو أحد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية (٧) الثناء عليه . (٨) لا يميل خده كبراً وخيلاء (٩) لا يغمض .

كِلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحنُ إذا متنا أشدُّ تغانيا

ومني على السيد السَّلام على الدَّوَام، ومُباركٌ إذا لبس جديداً، وكلَّ عام وهو بخير إذا استقبل عيداً، ومَرحى[1] إذا أصاب، وشيَّعته[2] السلامة إذا غاب، وقدُوماً مباركاً إذا آب[3]، وبالرِّفاءِ والبنين[4] إذا أعْرَس[5]، وبالطالع المسعود إذا أنجب[6]، ورَحِمهُ اللهُ إذا عطس، ونوم العافية إذا نعس، وصحَّ نومه إذا استيقظ وهنيئاً إذا شرب، وما شاء الله إذا رَكِبَ، ونَعِمَ صباحه إذا انفجَرَ الفجر، وسعد مَساؤه إذا أذَّن العصر، وبخ بخٍ[7] إذا نثر، ولا فُضَّ[8] فُوهُ إذا شعرَ[9] وأجـــاد وأفاد إذا خطبَ، وأطربَ وأغربَ إذا كتب، وإذا حج البيت فحجّاً مبرُوراً، وإذا شيع جنازتي فسعياً مشكوراً والسلام

وكتب القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنّبه على إيذائـه علم الدين ابن النحاس:

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ – أصلحه الله! – إعلامه ما صح عندي من الأحوال التي اخفاها، والله مبديها، في حق عَلم الدين

وبالله أقسمُ لئن لم تداوِ ما جرحت وتستدرك ما فعلت، وتمحُ ما أثبتّ، وتستأنف ضدّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهت، وتعتذرْ بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت، ليكونَنّ الحديث مني بغير الكتاب، ولأزيلَنّ السبب الذي قدرت به على مضرّة الأصحاب، وما أشد معرفتي بأنّ الطباع لا تتغيرَ، وبأنك ستُحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بإيمائك لي وتنصلك إلي

---

(١) كلمة تقال عند الإصابة في الرمي مَدحاً للمصيب (٢) ودعته (٣) رجع.
(٤) كلمة تقال لمن تزوج ومعناه بالالتئام وجمع الشمل (٥) تزوج (٦) ولد له
(٧) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو عند الفخر والمدح وكررها للمبالغة (٨) لا كسرت أسنانه (٩) قال الشعر.

* فالدَّم في النَّصْلِ شاهدٌ عجب *

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالمذام، ولولا أنني شريكك في كل ما تستوجبه من الناس، لألقيت حبلك على غاربك وتركتك، وما اخترت لنفسك، ولكن كيف بمن يرمي وليس برام؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني، فإذا انت لا تنفق إلا من كيسي . فأشفق على نفسك، إن كنت تنظر في غد، وعلى بيتك، إن كنت تنظر في أمس، وعلى مكانك مني، إن كنت لاتنظر إلا في اليوم، ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكراً لك، فإنه وإن كان (والله) ما ذمك فقد ذممتك بهعنه وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً، ولا كنت أوثره، ولولا حافظ غليظ ما كتبته، ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربتُ عن غيره وستعرفك الأيام ما كنت تجهل .

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف جليلتك عن مقلتك، والسلام.

الفصل السادس في رسائل الشكوى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

إنما أشكو إليك زماناً سلب ضِعف ما وهب، وفجّع بأكثر مما متع، وأوحش فوق ما آنس، وعنف في نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرّعنا مرارة الفراق، ولم يُمتعنا بأُنس الالتقاء، حتى غادرنا [١] رهن التلف، والاشتياق .

(والحمدلله تعالى على كل حال) يَسُوء ويَسُر، ويحلو ويمرّ، ولا أيأس من روْح [٢]

(١) تركنا (٢) من رحمة الله .

الله في إباحة صنع [1] يجعل رَبعه [2] مُناخي [3] ، ويقصر مدة البعاد والتراخي ، فألاحظ الزمان بعين راض ، ويقبل إليّ حظي بعد إعراض ، وأستأنف [4] بعزته عيشاً عذب الموارد [5] والمناهل [6] ، مأمون الآفات والغوائل [7] .

وكتب عبد الحميد بن يحيى المقتول سنة ١٣٢ هـ إلى أهله وهو منهزم مع مروان [8] :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته [9] بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها .

وقد كانت أذاقتنا أفاويق [10] استحليناها ، ثم جمحت [11] بنا نافرة ورمحتنا [12] مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا من الأوطان وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة [13] ، والطير بارحة [14] ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ، فإن تتمّ البليّة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفرٌ جارح مِن أظفار من يليكم ، نرجع إليكم بذل الإسار [15] ، والذلُّ شرُّ جار .

---

(١) المعروف (٢) دار (٣) مكان النوم ومراده أنه لا ييأس من معروف يحظى به مدة حياته (٤) أجدد (٥) أمكنة إتيان الماء (٦) المواضع التي فيها والمراد أنه يجدد عيشاً هنيئاً لا حزن معه (٧) الدواهي (٨) هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص الأموي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي قتل سنة ١٣٢ هـ (٩) كناية عن تسلطها عليه بنوائبها ومصائبها (١٠) ألبانها والمراد نعيمها وخيراتها (١١) أسرعت غالبة إيانا (١٢) طعنتنا برمحها والمراد مصائبها (١٣) بعيدة . (١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين إلى الشمال والعرب تتشاءم به وذلك أنه كان من عاداتهم إذا أرادوا أمراً عمدوا إلى الطير فأطاروها فإن طارت شمالاً يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات وإن طارت يميناً تفاءلوا باليمين ومضوا في أمرهم وتسمى سانحات (١٥) الأسر هو القبض على الرجل وأخذه أسيراً .

نسأل الله الذي يُعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان ، والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الرّاحمين .

وكتب أُستاذنا الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وهو مسجون بسبب الحوادث العرابية :

تقلدتني الليــــالي وهي مُدْبِرَةٌ
كأنني صارِمٌ في كفِّ مُنهَزِمِ

عزيزي (هذه حالتي) اشتد ظلام الفتن حتى تجسّم بل تحَجَّر ، فأخذت صخوره من مركز [1] الأرض إلى المحيط [2] الأعلى ، واعترضت مـا بين المشرق والمغرب وامتدت إلى القطبين [3] فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها وامتدت على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين [4] كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين ، انتــــثرت نجوم الهدى وتدَهْوَرَت [5] الشموس والأقمار ، وتغيّبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معه آلهة الخير أجمعين وتمحضت السلطة لآلهة الشرّ فقلبوا الطباع ، وبدّلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين .

رأيت نفسي اليوم في مَهْمَهٍ [6] لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليـــلة

---

(١) وسط دائرتها (٢) الدائرة المحيطة بالكرة الأرضية (٣) الشمالي والجنوبي وهما طرفا محور الأرض والمحور هو القطر الوهمي الذي تدور عليه الأرض من المغرب إلى المشرق أثناء حركتها (٤) الإنس والجن (٥) أدبرت (٦) مفازة واسعة .

داجية[١] غُطِّيَ فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف[٢] رُكاماً ركاماً[٣] لا أرى إنساناً! ولا أسمع ناطقاً! ولا أتوهم مجيباً! أسمع ذئاباً تعوي! وسباعاً تزأر![٤] وكلاباً تنبح![٥] كلها يطلب فريسة واحدة، هي ذات الكاتب، والتَفَّ على رجلي تِنِّينان[٦] عظيمان، وقد خَوِيَتْ[٧] بطون الكلّ، وتحكم فيها سلطان الجوع، ومن كانت هذه حاله، فهو لا ريب من الهالكين.

تقطّع الأمل، وانفصمت[٨] عروة الرّجاء، وانحلت الثقة بالأولياء، وضل الاعتقاد بالأصفياء، وبطل القول بإجابة الدعاء، وانفطر[٩] من صدمة الباطل كبِدُ السماء، وحقّت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين.

سقطت الهمم، وخربت الذمم، وغاض[١٠] ماء الوفاء، وطمست معالم الحق، وحرفت الشرائع، وبدّلت القوانين، ولم يبق إلا هوى يتحكم، وشهوات تقضى، وغيظ يحتدم[١١] وخشونة تنفّذ (تلك سنة القدر) واللهُ لا يهدي كيد الخائنين.

ذهب ذوُو السلطة في بُحور الحوادث الماضية، يغوصون لطلب أصداف من الشُّبَهِ، ومقذوفات مِن التهم، وسواقط من اللمم[١٢] ليُمَوّهوها[١٣] بمياه السفسطة ويغشوها بأغشية من معادن القوة، ليبرزوها في معرض السطوة ويغشوا بها أعين الناظرين، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه، أو لمستور يكشفونه، أو لحق خَفِيّ

---

(١) مظلمة (٢) كثر وتراكم (٣) السحاب المتراكم (٤) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٥) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٦) تثنية تنين وهو الحية العظيمة. (٧) خلت (٨) انقطعت (٩) انشق (١٠) ذهب (١١) يتحرك ويشتد (١٢) المتقارب من الذنوب، واللمم أيضاً طرف من الجنون (١٣) من التمويه وهو التلبيس.

فيظهرُونه ،أو تخرّق بدا فيرقعونه ، أو نظام فاسد فيُصلحونه ! كلاّ ، بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوا غيرُ مخطئين ،وقد وجدوا لذلك أعواناً من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة ، وفاسدي الأخلاق ، وخبثاء الأعراق[١] ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الإفك[٢] ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوّة من الأباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين .

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل ما يسوقه القدر ، وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه ، لأن الله تعالى يعلم كما أنت تعلم أنني بريء من كل ما رموني به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً ، وكنت من الضاحكين .

نعم خنقني الغمّ ، وأحمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة عندما رأيتُ اسمك الكريم ، واسمَ بقيةِ الأبناء والإخوان ، تنسب إليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، لقصد زجّهم في المسجونين .

لكن اطمأن قلبي ، وسكن جأشي [٣] عندما رأيت تواريخ التقارير متقادمة ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر فرجوت أن الحكومة لم تُرِد أن تفتح باباً لا يذر [٤] الاحياء ولا الميّتين .

قدّم فلان وفلان تقريرين ، جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ولم يتركا شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ؛ فإني أراهما من المجانين ؛ ولم أتعجب من

(١) الأخلاق (٢) الكذب (٣) اضطراب القلب عند الفزع (٤) لا يدع ولا يترك .

هذين الشيخين إذ يعملان مثل ذلك الذّنب القبيح ، ويرتكبان هـذا الجُرم الشنيع ! ولكن أخذني العجبُ (كلُّ العجب غاية العجب بالغ ما شئت في عجبي) إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان ، الذي أرسلت إليه السلام ، وأبلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه ، وأنا في هذا الحبس رهين .

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إليَّ ، إنما فيما بلغني أنه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدوٌ مبين .

هذا اللئيم الذي كنت أظن أنه يألم لألمي ، ويأخذه الأسف لحالي ، ويبذل وُسعه إن أمكنه في المدافعة عني ! فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلتُ له منزلة في قلوب الحاكمين ! كم سمعني أقاوم هجاء الجرائد ؟! وأوسع محرّريها لوْماً وتقريعاً ؟ وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عليَّ في بعض أفكاري هذه من اللائمين ! كان ينسبُ فلاناً لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة . ثم لم أنقض له عهداً ولم أبخس له وُدّاً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفاً فما باله أصبح من الناكثين ؟!

آه ما أطيب هذا القلبَ الذي يُملي هذه الأحرُف ! ما أشدّ حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الأولياء ! ما أثبته على الوفاء ! ما أرقّهُ على الضعفاء ! ما أشد اهتمامه بشئون الأصدقاء ! ما أعظم أسفه لمصائب مَن بينهم وبينه أدنى مودة وإن كانوا فيها غير صادقين ! ما أبعد هذا القلب من الإيذاء ولو للأعداء ! ما أشدّه محافظة على العهد ! ما أعظم حِذره مِنْ كل ما تُوبّخ عليه الذمم الطاهرة ! ما أقواه على العمل الحق ، والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ! وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين ؟! هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سرّ قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم

ولطّف خواطرهم بحُسن المُعاملة وشَرَحَ صدورهم بلطيف المجاملة ودافع عنهم أزماناً خصوصاً هذا اللئم !

أفلشرحُ الصدور وهم يُحْرِجُون ؟ ونشفي القلوب وهم يُؤلمون ؟ ونفرحها وهم يحزنون ؟. تالله قد أضلوا وما كانوا مُهتدين . هذا القلب ذَابَ مُعظمهُ من الأسف على ما يُلمُّ بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات، وما ينشأ عنها من فساد الطباع الذي يجعل العموم في قلق مستديم وما بَقِيَ من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته فإن تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال أصبحوا من مودته خالين . واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يُعَرِّضُونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تَفْوِيقها إليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم فينالون منها حظوظهُم – فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين .

آه – ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأحبة وإن جاروا في تصرفهم .

إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخزّ إذا اتصل بذي الودّ (وإن كان خشناً) فَصَعبٌ أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب في علاقة مع الأوداء كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيماويّ يدقق ، لا يجد للتحليل بينهما سبيلاً . وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

وكتب المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم[١] إلى الاستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

كتابي إلى سيدي : وأنا من وعده بين الجنـــة والسلسبيل[٢] ، ومن

(١) يشكو إليه حاله وهو ضابط بالسودان .

(٢) عين في الجنة وهو الشراب السهل في الحلق .

تيهي [١] به فوق النَّثْرَة [٢] والإكليل [٣] وقد تعجلتُ السرورُ ، وتسلقتُ الحُبُور [٤] وقطعتُ بيني وبين النوائب

وبشَّرْتُ أهلي بالذي قد سمعتُهُ   فما محنَتِي [٥] إلا ليالٍ قلائل

وقلت لهم للشيخ فينا مشيئة   فليسَ لنا من دهرنا ما نُنازِلُ [٦]

وجمعت فيه بين ثقة الزُّبيدي [٧] بالصَّمْصامة [٨] ، والحارث بالنعامة [٩] ، فلم أقل فيه ما قال الهذلي [١٠] لصاحبه ، حين نسي وعدهُ [١١] وحجب رِفدهُ [١٢]:

« يا دارَ عاتكة التي أتَعَزَّلُ » بل أناديه نداء الأخيذةِ [١٣] في عَمُورِيَّة [١٤] شجاع الدَّولة العباسية ، وأمُدُّ صوتي بذكر إحسانه ، مدَّ المؤذن صوتَهُ في أذانه وأعتمدُ عليه في البُعد والقُرْب ، اعتماد الملاَّح على نجمة القطب [١٦] .

وقال أُصَيحابي هالني النوى [١٧]   وهالهم أمري متى أنت قافل [١٨]

فقلتُ إذَا شاء الإمامُ فأوْبتي [١٩]   قريبٌ ورَبعي [٢٠] بالسعادة آهل

---

(١) عجبي (٢) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب (٣) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة (٤) الفرح ومعنى تسلق تسور أي أتى الفرح من غير بابه ويروى تسلفت بالفاء (٥) محنتي : بليتي (٦) نضارب لأن الشيخ كفانا صدمات الدهر (٧) أبو ربيعة عمرو بن معدي كرب ينتهي نسبه إلى قحطان صحابي من شجعان الجاهلية والإسلام وزبيدي نسبة إلى زبيد بضم الزاي قوم من اليمن (٨) اسم سيف عمرو (٩) اسم فرس للحارث بن عباد البكري شيخ من العرب (١٠) نديم الخليفة أبي جعفر المنصوري العباسي كان لا يكلم الخليفة إلا جوابا (١١) وعده ولم يوف ولما مرا على دار عاتكة بنت عوف قال الهذلي هذه دار عاتكة التي قال فيها الشاعر — يا دار عاتكة الخ فعجب الخليفة كيف بدأه بالكلام على غير عادة ثم نظر الملك في قصيدة الشاعر فوجد فيها « وأراك تفعل ما تقول » فتذكر الخليفة الوعد (١٢) عطاء (١٣) الأسيرة ويريد بها امرأة من بني هاشم أسرها الروم فنادت وامعتصماه تعني المعتصم من خلفاء بني العباس فوصل الخبر إلى المعتصم فقال : لبيك ! لبيك ! وهم فحاربهم وخلصها (١٤) بلدة من بلاد الروم (١٥) صاحب السفينة (١٦) كوكب في السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه ينظر إليه صاحب السفينة فيعرف الجهة التي هو قاصدها (١٧) العبد (١٨) راجع (١٩) رجعتي (٢٠) داري .

وها أنا متماسكٌ حتى تنحسر[١] هذه الغمرةُ[٢] وينطويَ أجلُ تلك الفترة[٣] وينظر إليّ سيّدي نظرةً ترفعني من ذات[٤] الصدع[٥] إلى ذات[٦] الرّجع[٧] وتردني إلى وكري[٨] الذي فيه دَرَجْتُ،[٩] ردَّ الشمس قطرة المزن[١٠] إلى أصلها، ورد الوفي الأمانة إلى أهلها

فإن شاءفالقُرْبُ الذيقد رجوته وإن شاءَ فالعز الذي أنا آمِل

وإلا فإني قافُ رُؤْبة[١١] لم أزل بقيد النوَى حتّى تغول الغَوائلُ

فقد حللْتُ السُّودان حلولَ الكليم[١٢] في التابوت[١٣]، والمغاضِب[١٤] في جَوْف الحُوت،بين الضّيق والشدّة،والوحْشةِ والوَحدة،لابل حلول الوزير[١٥] في تنور العذاب، والكافرفي موْقف الحساب، بين نارين: نار القيظ[١٦] ونار الغيظ

فناديتُ باسم الشيخ والقيظ جَمْرةٌ تذيب دماغ الضب والعقلُ ذاهل

فصِرْتُ كأني بين روْضٍ ومَنهـلٍ تَهُبُّ الصبا فيه وتشدو البلابـل

واليوم أكتب إليه وقد قعدت همة النجمين، وقصرت يدا الجديدين[١٧] عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد، فلقد نمى ضبٌّ[١٨] ضغنه[١٩] عليَّ،وبدرت[٢٠] بوادر[٢١] السوء منهُ إليّ، فأصبحتُ كما سر العدو وساء الحميم[٢٢] وآلامي كأنها جلود أهل الجحيم، كلما نضجَ منها أديمٌ تجدد أديم[٢٣]وأمسيتُ ومُلك آمالي إلى الزوال، أسرع منْ أثر الشّهاب في السماء، ودولة صبري إلى الاضمحلال،

(١) تنكشف (٢) الشدة (٣) يريد المدة بينهما (٤) الأرض (٥) الشق
(٦) السماء (٧) صوت الرعد (٨) يريد وطنه وأصله عش الطائر (٩) مشيت
(١٠) المطر(١١)رجل من العرب كان أكثر روي أراجيزه على القاف الساكنة
(١٢) سيدنا موسى عليه السلام (١٣)الذي وضعته أمه فيه وألقته في البحر
(١٤) سيدنا يونس بن متى عليه السلام (١٥) محمد الزيات وزير الخليفة مروان الحمار أدخله تنور العذاب الذي اصطنعه لتعذيب من يأمربتعذيبه (١٦) شدة الحر
(١٧) الليل والنهار (١٨) بكسر الضاد الغيظ (١٩) حقده (٢٠) أسرعت
(٢١)جمع بادرة الحدة عند الغضب(٢٢) القريب الذي يهتم لأمره (٢٣)الجلد.

أحثُّ [١] من حبابِ [٢] الماءَ ، فنظرتُ في وجوه تلك العباد ، وإني لفارسُ العين والفؤاد ، فلم تقف فِراستي على غير بابك .

وإني أهديكَ سلاماً لو امتزج بالسَّحاب ، واختلطَ منهُ باللعاب، لأصبحت تتهادى [٣] بقطرهِ الأكاسِرَة [٤] وأمستْ تدخر معه الرُّهبان في الأدْيِرَة، ولأغنى ذات الحجاب ، عن الغالية [٥] والملاب [٦] .

ولا بِدْعَ إذا جاد السيد بالردّ ، فقد يُرى وجه المليك في المرآة ، وخيال القمر في الإضاءة ، وإن حال حائلٌ ، دون أمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا ييأسُ من غدك ، فأنت خيرُ ما تكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفس خيراً ، والسلام .

الفصل السابع في رسائل العيادة

كتب ابن الرُّومي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم :

أذِنَ الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسحَ بيد العافيــة عليك ، ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتّك ماحيةً لذُنوبك مضاعفة لِثَوابك .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

وصل كتابك يا سيّدي ، فسرني نظري إليه ثم غمني اطلاعي عليه ، لما تضمنَّهُ مِن ذِكر علتك ، جعلَ الله أولها كفارةً ، وآخرها عافيةً ، ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شُكراً .

وبودي لو قرُب عليَّ متناولُ عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعضَ أعباء [٧] علتك ، فلقد خصني من هذه العلة قسمٌ كقسمِك ، ومرض قلبي فيك لمرض جسمك ، وأظن أني لو لقيتك عليلاً ، لانصرفت عنــك ، وأنا أعلّ منك فإني بحمد الله جلدٌ [٨] على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي — شفاك الله وعافاك .

---

(١) أسرع (٢) ما يرى على وجه الماء من الفقاقيـع (٣) تجعـله هدية

(٤) الملوك (٥) الطيب (٦) الزعفران (٧) جمع عبء (٨) شديد

الفصل الثامن في رسائل التهاني

كتب في التهنئة بميلاد الأولاد أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أهلاً وسهلاً بعقيلة[١] النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار

ولو كان النساءُ كمثل هذي لفضلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

والله يُعرّفُكَ البركة في مطلعها، والسعادة بموقعها، فالدنيا مؤنثة، والناس يخدمونها، والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة، ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماءُ مؤنثة، وقد زينت بالكواكب، وحلّيت بالنجوم الثواقب[٢] والنفس مؤنثة، وهي قِوام الأبدان، وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا تحرك الأنام، والجنة مؤنثة، وبها وُعِد المتقون وفيها تنعم المرسلون فهنيئاً هنيئاً ما أوليت وأوزعكَ[٣] الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عُرف النسل وبقي الأبد .

وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردي يهنئه بمولود :

حقاً لقد أنجز الإقبال وعده، ووافق الطالع سعده، وإن الشأن لفيما بعده. وحبذا الأصلُ وفرعهُ، وبورك الغيثُ وصوبه[٤] وأينع الروض ونوره[٥]، وحبذا سماءٌ أطلعت فرقداً، وغابةٌ[٦] أبرزت أسداً، وظهرٌ وافق سنداً، وذِكر يبقى أبداً، ومجد يُسمى ولداً، وشرفٌ لحمةٌ وسدى[٧] .

أنجب[٨] كلٌ من والديه به إذا نجلاه فنعم ما نجلا

فالفياه[٩] شهابَ ذكاء، وبدر علاء .

---

(١) كريمتهن (٢) المضيئات (٣) أقدرك (٤) مطره وهنا كناية عن الولد (٥) زهرة الشجر وهو كناية عن الولد أيضاً (٦) موضع الأسد الذي يألفه والمراد أصوله (٧) كلاهما من لحمة الثوب وسداه وهو كناية عن الصرف وظاهراً وباطناً (٨) ولداه كريما (٩) وجداه .

وَوَجداهُ ابن جـــلا [١] أبيَضَ [٢] يُدعى الجفَلَى [٣]
لمثـــله أولى فـــلا إذا النَّدى [٤] احتفـــلا

وكتب في التهنئة بالقدوم أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أهنّىءُ سيّدي ، ونَفسي تطيب بما يَسَّرَ الله من قدومه سالماً ، وأشكر الله على ذلك شكراً دائماً . جعلَ الله قدومك مقرُوناً بالخيرَة التامـة العامة ، والكفاية الشاملة الكاملة .

غيبة المكارم مقرونةٌ بغيبتك ، وأوبة النعم موصولةٌ بأوْبتك ، فوصل الله قدومكَ من الكرامة ، بأضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة ، وهنّاك بإيابك ، وبلّغك غاية محابك ، ما زلتُ بالنية معك مسافراً ، وباتصال الذّكر والفكر ملاقياً إلى أن شمل سرُوري بأوْبتك وسكن نافرُ قلبي بعودتك .

وكتب أيضاً في التهنئة برمضان :

ساق الله إليك سعادةَ إهلاله ، وعرّفك بركة كماله ، لقّاك فيه مـا ترْجوه ورقاك إلى ما تحبُّ فيما تتلوه ، جعلَ الله ما يطول من هذا الصوم مقروناً بأفضل القَبول ، مؤذناً بدرك البغية ونَجح المأمول . ولا أخلاك من برٍّ مرفوعٍ ، ودعاء مسمُوع ، قابل الله بالقبول صيامك ، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك ، أعاد الله إلى مولاي أمثاله ، وتقبلَ فيه أعماله ، وأصح في الدين والدُّنيا أحوالَه وبلغه منها آماله . أسعد الله مولاي بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزَل المثُوبة والأجر .

وكتب أبو الفرج الببغاء المتوفى سنة ٣٩٨ هـ تهنئة :

سيّدي — أيّدَه الله ! — أرفعُ قدراً ، وأنبهُ ذِكراً ، وأعظمُ نُبلاً ، وأشهر

---

(١) واضح الأمر (٢) نقي العرض شريفا (٣) دعاهم بجماعتهم وعامتهم
(٤) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع : أي ، لمثله نصوغ التهاني أولى فلا يحسن أن تصاغ لغيره :

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

فضلاً – من أن نهنئه بولاية ، وإن جلّ خطرها ، وعَظم قدرها ، لأن الواجبَ تهنئة الأعمالِ بفائض عدله ، والرعية بمحمود فعله ، والأقاليم بآثار رياسته ، والولايات بسماتِ سياسته ، فعرّفه الله يُمْنَ ما تولاه وَرَعاه في سائر ما استرعاهُ ، ولا أخلاه من التوفيق فيما يعانيه ، والتسديد فيما يبرمه ويمضيه .

وكتب أستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ :

أي جهابذَةَ (١) الكنانة (٢) نبّال الجُنانة (٣) مياه الإجّانة (٤) أبناء تلك اللغى ، صناديد هذه الوغى ، إليكم يُساقُ الحديث ، في القديم والحديثِ ، عن هذا النبأ العظيم ، والمجد الصميم ، مالي أرَى في لغتنا الشريفة ، ويعلم أولو النهى أيـة من اللغات أحقّ بهذا النبز (٥) أن يُصرّف إليها عند الاطلاق ، هُبوباً غِبّ خمُول ، وتَرةً (٦) بعد نحول ، ونوراً عقيب أفول ، ونَوْراً إثر ذبول ، وصبـاً ورَاء قَبول ، وعدلاً ولا حيف (٧) وقوة ولا ضعف ، وما يشاءُ المطري (٨) في هذا القبيل من العطف آمنت بالقدر المقدور ، والبعث والنشُور ، كذلك يحيي الله الموتى .

أليس رجلٌ واحدٌ أسفرت (٩) عنهُ عناية التوفيق ، فألقت إليه المقاليد (١٠) بلى (١١) ولكنهُ الواحد الذي يقول في مثله صاحب بني ميكال :

والناس ألفٌ منهمُ كواحد وَوَاحد كالألف إن أمر (١٢)

إي (١٣) وَربِّ تلك البَنِيَّة (١٤) ، بارىء (١٥) نسم البرية ، إنه لرجلُ البلاد رجلَ الحزم والسَّداد : ألم نرَ جنانه (١٦) ، وحنانه ، وَبنانه (١٧) وبيانه ، عوامل لهذه اللغة : لغة الفرقان (١٨) ، لغة الأوطان ! لا – بل أمضَى من العوامل حتى

---

(١) الحذاق ذوو النقد (٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل (٣) بضم الجيم الترس التي يتقى بها (٤) الإجانة بالكسر إناء تغلي فيه الثياب وما حول الغراس شبه الأحواض والجمع أجاجين (٥) اللقب الرفيع (٦) امتلاء الجسم [illegible]ن (٧) الظلم والجور (٨) المدح (٩) ظهرت (١٠) المفاتيح (١١) حرف جواب تثبت المنفى (١٢) أهم الناس وأقلهم (١٣) حرف جواب مثل نعم (١٤) بفتح الباء وزن غنية الكعبة (١٥) خالق (١٦) قلبه (١٧) أنامل أصابعه (١٨) لغة القرآن الكريم .

ظلت (آدابها) فرائض ، وقد كانت وما بالعهد من قِدم (نوافل) وما حُليُّها أجياد [١] اللهجات عواطلِ . اللهم إلا بقية ثمد ، قد منيت [٢] صُحُفها الأود [٣] ، ففقدت الجلد والجلد [٤] وبعد أن راجَ سوقُ الرطانة [٥] ونضبَ [٦] ماءُ الإبانة ، وخبت [٧] أسْوارُ البلاغةِ ، وذَوَت [٨] أنوارُ [٩] النباغة ، وكسد البيان ، وقوّض [١٠] منهُ البنيان ، وأصبحت العربية لُقى [١١] ملقاةً ، وبضاعةً مزجاةً [١٢] فأيهذا اليراع [١٣] لا أقل من نفثات في صوغ كُلِمات تقدر هذه النعمة قدرها ، وتمنحها [١٤] شكرها .

وَيْحَكَ ! [١٥] هُب [١٦] من سِنَتِكَ [١٧] ، في حلية مقتك [١٨] ، وانض [١٩] حسامك [٢٠] ، واشحذ كهامك [٢١] ، وانثل [٢٢] كنانتك [٢٣] ، واعمل بنانتك [٢٤] وصغ إن استطعت تهانيء غُرّاً ، بل عقوداً دُرّاً ، بل أنجُماً زهراً ، مشتاراً [٢٥] من خلايا ذلك الأري [٢٦] الشَّهي [٢٧] الندِي الذكي ، ما جرَست [٢٨] نحله الشيحَ [٢٩] والخُزامى [٣٠] وأطايب الثمار ، وأزاهيَ الأزهار تهديهن أولئك المصاقعُ [٣١] شكراناً لتلك النعم ، تجميعاً لشواردها وتقييداً لأوابدها [٣٢]

---

(١) الأعناق (٢) اختبرت (٣) الأود الكد والتعب ومراده اعتنى الناس بها لا عن بذل جهد (٤) القوة (٥) كل لسان يخالف العربية (٦) غار وذهب (٧) خفيت (٨) ذبلت (٩) جمع نور بالفتح الزهر (١٠) نقض (١١) بالقصر مطروحة (١٢) قليلة (١٣) القلم (١٤) تعطيها (١٥) كلمة رحمة (١٦) استيقظ (١٧) نومك (١٨) محبتك (١٩) سله من غمده (٢٠) السيف القاطع (٢١) شحذه حده ، والكهام بفتح الكاف السيف الكليل (٢٢) استخرج ما فيها من النبال (٢٣) الجراب الذي توضع فيه النبال والسهام (٢٤) أصبعك (٢٥) كثير الشرى (٢٦) العسل (٢٧) ما يشتهي (٢٨) أكلت وأصله جرس الشيء جرساً لحسه بلسانه (٢٩) نبت طيب الرائحة (٣٠) بضم الخاء نبت زهره أطيب الأزهار (٣١) جمع مصقع البليغ (٣٢) لغرائبها .

كما شبههما رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوقُ ، وإشفاقاً عليها من الجماح [١] ، بعد ذلك من الارتياح .

فإليكم بني هذه اللغة « كتابي هذا » تهنئة بتلك النهضة العربية في إبّان (كما تعلمون) وجهه مكفهر [٢] وبدنه مقشعرّ ، وثناء على العناية (التوفيقية) والعزمة (الرياضية) .

على أن لهذا المولى الوزير سوى ذلك ، أياديَ [٣] مبرورة ، ومساعي مشكورة أكسبت الوطن وأهليه نهضات ، وأقالته كثيراً من العثرات — لكنني آثرت [٤] تلكمُ النهضة العربية بتهنئتكم بها · أي بني جلدتي [٥] . وأخوان حرفتي لكونها فيما إخال ، لا ، بل فيما أتيقنُ ويتيقنُ أولو الحِجا [٦] أعظم النهضات وأيمنَ [٧] ما اجتازه [٨] الوطن من العقبات ، ولو كان في نطاق الإمكان زيادة البيان ، في هذا الشأن ، لأسهبْتُ [٩] وأوسعتُ ، وأطريت [١٠] وأطنبت ، ولو لم يكن في تلك النهضة إلا أن حياه الأمة حياةُ لغتها فحسب لكفاك ، وشفاك ، وأغناك ، وكان ذلك قصاراك [١١] وحماداك [١٢] .

وكتب المرحوم الأستاذ محمود بك أبو النصر :

إنسان عين الفضائل ، عزيزي فلان المحترم :

نور على نور ، وشفاءٌ لما في الصدور شفاؤك أيها العزيز من ذلك الرمد . قد أنجز الإقبال ما وعد ، وابتهجت النفوس وتزينت الطروس واهتزت الأقلام وأعلنت بالسلام .

ولاح فجرُ التهاني بالبشائر إذ حييتَ فأحييتَ ربُوعَ الفضل والأدب

وكيف لا ! وأنت واحد الكتّاب وإنسان عين الآداب ! رمدت فرمدتْ

---

(١) الذهاب بسرعة (٢) متعبس (٣) نعماً من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (٤) اخترت (٥) بني عشيرتي (٦) العقل (٧) أكثر بركة (٨) سلكه (٩) لأكثرت الكلام (١٠) مدحت (١١) مبلغ جهدك وغايتك (١٢) غاية ما تحمد عليه .

وشفيت فاهتزت وربت . وقد كان طرفها كليلا ، وفؤادُها عليلاً واليوم زال العناء ، وحق الهناء وَوَافى الشفاء ، فكان برداً وسلاماً على القلوب وقميص يوسف في أجفان يعقوب :

فلك الهناءَ بصحة ميمونة   أبداً على مرّ الدهور تدُومُ

وإن الله ما قضى بما قد مضى ، إلا ليُعَرّف سيّدي مكانته من القلوب ومنزلته من الفضل . وهذه حلل العافية قد خلعت عليك ، وثياب السلامة سبقت إليك فوافى السرور ، وعم الحُبور . والله يُبلغك بالصحة والأعمال ، منتهى الآمال والسلام .

وكتب الوزير المرحوم عبدالله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ في تهنئة العيد :

هذا يوم نشر البشر فيه أعلامه ، واضاءت الدنيا وازدانت الآفاق ، ببهجة هذا العيد السعيد ، وأخذ الأحبة يتهادَوْن رسائل البشائر فيما بينهم ، وكل حزب فرحون بما لديهم ، بما أودع فيهم من روابط المحبة وعوامل الاتحاد السارية في النفوس ؛ أما أنا فعيدي ، وبهجة نفسي ، وسرور فؤادي دوام إقبال الزمان عليك بوجه النصر وعَوْدُ أعياد السرور على جنابك الرفيع . فمثلك تشرق الدنيا بطلعته ، وتفرح الأعياد برؤيته :

وأرى الحياة لذيذةً بحياته   وأرى الوجود مشرقاً بوجودِهِ
لو أنني خُيرتُ من دهري المنى   لاخترتُ طول بقائه وخلودِهِ

أعاد الله عليك أيها الأخ أمثاله وأمثال أمثاله في صفاء وهناء .

الفصل التاسع في رسائل التعازي والتأبين

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

خبر عز عليّ مستمَعه ، وأثر في قلبي موقعه . خبر تستاء[١] له المسامع وترتج منه الأضالع ، خبر يهدُّ الرواسي[٢] ويقلق الحجر القاسي . كادت له القلوب تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح[٣] . خبر يشيب الوليدَ ، ويذيب الحديد ، قد كاد .

(١) تتألم وتتأثر من أجله (٢) الجبال (٣) تهلك

من الحزن أن تنقبض الألسن عن هذا النعي الفادح[١] وتخرس، وتقصر الأيدي عن التعزية بهذا الرُّزء الفادح[٢] وتيبس.

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس مصائبه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجَفَلى[٣] إذا ساء، ويخص بالنعمة إذا شاء. فليفكر الشامت: فإن كان أفلت[٤] فله أن يشمت. ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره إلى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه أثراً في نفسه؟ أو لتدبيره عوناً على تصويره؟ أم لعمله تقديماً لأمله؟ أم لحيله تأخيراً لأجله؟ كلا. بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً، خُلق مقهوراً، فهو يحيا جبراً، ويهلك صبراً، وليتأمل المرء كيف كان قبلا؟! فإن كان العدم أصلا، والوجود فضلا، فليعلم الموت عدلا.

والموت (أطال الله بقاء مولاي) خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ولعل هذا السهم قد صار آخر ما في كِنانتها[٥] وأزكى[٦] ما في خزانتها، ونحن معاشر التبع نتعلم الأدب من أقواله، والجميل من أفعاله، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر، ولا نرغبه في الجزيل وهو الأجر، فليرَ فيهما رأيه.

وكتب أيضاً :

يا سيدي — المصاب لعمر الله كبير، وأنت بالجزع جدير، ولكنك بالصبر أجدر. والعزاء على الأعزة رشد كأنه الغيّ، وقد مات الميت، فليحيَ الحيّ.

---

(١) الذي يثقل الناس ويهمهم (٢) المصيبة (٣) يدعو الناس بعامتهم وجماعاتهم
(٤) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر (٥) الجراب الذي توضع فيه السهام (٦) أطهر وأنفس لأنه لا يحرز إلا ما كان نفيسا.

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦ م :

أشباح تروح وتجيء، وآجال تمسي وتغتدي، وأنفاس تتقطع من دونها حزناً وأسفاً، وعبرات تتفطر وجداً ولهفاً، وما عمدت الأقدار إلى استنزاف مدمع، ولا أرادت الأيام إيلام موجع. إنما هي سُنة الخلق: كون يليه زوال وعقد يسبقه انحلال، وإن لكل شيء أجلا موقوتاً، وإن لكل أجل سبباً مقدوراً، وإن الإنسان لفي كل ذلك شاهدٌ، يسمعُ لاهياً ويبصر ساهياً، وليس في يده أن يسترد ماضياً، ولا أن يردَّ آتياً. ولقد وَددت أن أعزيك، لولا ما يغالبني على العزاء من كبد حرى، ومقلةٍ شكرى، وزفرة تترى. ثم وددت أن أستبكيك، لولا أني بكيت حتى لم أدع في البكاء من واد وأحييت لياليَّ بالنوح حتى ألمَّ بي ما بالنجم من سهاد، ثم لم يزدني البكاء على سقم جسدي، ولم يزدني النوح على صفر يدي إلا من كبدي، وإن الأقدار سهام إذا انطلقت لم ترد، وإن المتطلع إلى الفائت لطويل شقة الكمد، وإن الخُطوب هِيَ هِيَ وإنما تتفاوت عند الجلد:

وإن الحصى عند الجَزُوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

والله المسئول في إطالة بقائك قرة للعيون، وجبراً لخاطر المحزون بمنه وكرمه

تأبين الأحنف[1] بن قيس :

مات الأحنفُ بن قيس بالكوفة فمشى مصعب بن الزبير في جنازته بغير رداء[2] وقال قوم : مات سيد العرب. فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت :

---

(١) اسمه الضحاك وكان سيد تميم في عهده معروفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم إلى ثبات جنان وحسن بيان. وحياته مملوءة بجلائل الأعمال وكرائم الفعال توفي سنة ٦٧ هـ . (٢) كانت عاداتهم في جنائز العظماء .

لله درك [١] من مجن[٢] في جَنَن ومُدرج في كفن ، فنسأل الذي فَجَعنا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وأن يُوسِع لك في قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك ، فوالله لقد كنت في المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عطوفاً ، ولقد كنت في الحي مُسَوَّداً ، وإلى الخليفة موفداً . ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين .

ثم أقبلت على الناس فقالت : ألا إن أولياء الله في بلاده ، شهود عباده ، وإني لقائلة حقاً ، ومثنية صدقاً ، وهو أهل لحُسن الثناء ، وطيب البقاء ، أما والذي كنت من أجله في عِدَّة ومن الحياة إلى مُدَّة ، ومن المقدار إلى غاية ، ومن الآثار إلى نهاية ، الذي رفع عملك ، لمّا قضى أجلك ، لقد عشت حميداً مودوداً ، ومت سعيداً مفقوداً [٣] ، ثم انصرفت وهي تقول :

لله دَرك يا أبا بحـــر	مــاذا تغيب منك في القبر
لله درك أيَّ حشو ثرَى	أصبحت من عُرْف ومن نكر
إن كان دهر فيك جَدَّ لنا	حدثانَهُ ووهت قوى الصبر [٤]
فلكمْ يد أسديتهـــا ويد	كانت ترُد جرائر الدهر

ثم انصرفت فسئل عنها فإذا هي امرأته وابنة عمه [٥] فقال الناس : ما سمعنا كلام امرأة قط أصدق ولا أبلغ منه .

تأبين الإسكندر :

لما جُعل الإسكندر في تابوت من ذهب تقدم إليه أحد الحكماء فقـــال :

---

(١) الدر : اللبن والعمل ، ولله درك : كلمة تعجب . (٢) أجنه : ستره والجنن : القبر ومن بدائع العربية أن مادة (ج ن ن) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين . (٣) يقولون مات فلان غير حميد ولا فقيد أي غير مكترث لفقدانه فقولها : مفقوداً تريد يحزن الناس فقدك . (٤) حدثان الدهر : نوائبه .
(٥) ذكر صاحب بليغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقروية .

كان الملك يخبىء الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه .

وتقدم إليه آخر والناس يبكون ويجزعون فقال : حرّكنا بسكونه .

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملك يعظنا في حياته وهو اليوم أوعظ منه أمس[١].

وتقدم إليه آخر فقال ، قد طاف الأرضين وتملكها ثم جُعل منها في أربعة أذرع .

ووقف عليه آخر فقال : انظر إلى حُلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظل الغمام وقد انجلى . ووقف عليه آخر فقال : مالك لا تُقِلُّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلُّ مُلك العباد ؟

وقال آخر : مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان وقد كنت ترغب بها عن رحْب البلاد ؟

الفصل العاشر في رسائل الأجوبة

كتب المرحوم عبدالله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ :

سيدي سلّمك الله وحيّاك وأسعدني برُؤية مُحَيّاك ، وزاد عزّك وعُلياك وحرس دينك ودُنياك ، وجمعني على بساط المسرّة وإياك ، ولا حرمني دوام لقياك ، ولا برِحَ الدهر مبتسِمَ الثغر بمحاسن معاليك ، مباهياً أعصار الأوائل بأيامك ولياليك ، محلياً أجياد المفاخر بزواهر لآليك — وزرد عليّ كتابك الكريم مورد إعزاز وتكريم ، فبلّ بعض ما في الجوانح من الصدى ، وأنعشني ولا انتعاش الزهر بمباكرة الندى ، وجلا عليّ من البلاغة روْضاً غضّاً ، وأدار لدي صفواً من سُلاف المحبة محضاً ؛ وهزني هزة النشوان شوْقاً وطرَباً ، واستفزني بمعجز آياته الحسان عُجْباً وعَجباً وَنثر عليّ من محاسن لفظك الحُر وكلماتك الغر ، ما يُخجلُ الدراري ويفضح الدُّر .

---

(١) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

كلامٌ كستْهُ بهجة الحُسْنِ رَوْنقاً   هو السِّحر، لابل جَلّ قدراً عن السِّحر

وكتب أيضاً وهو بالاستانة العليّة في يوم برد كثير الأمطار :

كتبتُ إليك والأمطارُ ساجمة[١] بطلّها[٢] ووَبْلها[٣]، وعساكرُ البرْد والبرَد هاجمةٌ بخيلها ورَجْليها[٤]، والسماء مُتلَفّعَة بأذيال السّحَاب، وكأن الشمس خافت من الطلّ فتوارت بالحِجاب، والجوُّ مِسكيُّ الرّداء، عنبري الأرجاء، كأنه وعليه ثوب الغيم مَزْرُورٌ، قد وَجَلَ[٥] من صولة البرد فلبس فرْوَة السَّمُور، والغمام قد أناخ على الأفق بكلاكله[٦]، وهزّ من البرْق بيض مناصله[٧]، ونَشَرَ في الجو طرَائِقَ مطارفه[٨]، وجاد على الأرْض بتَليده[٩] وطارفه، وثقلَ على كاهل الهواء كالطّير بُلّ جناحُه بالماء، وقرُب حتى كادَ يُمسَكُ باليدين ويُعتصرُ بالرّاحتين أو كأنه مرآة مُذهّبَة تبدُو وتخفى، أو جذْوة[١٠] مُلتهبَة تُوقدُ وتطفى، والرّعد يُهَدّدُ بزواجير زماجرِ السّحائب فيُبكيها، والطيرُ يتلو سُطور الندى في طرُوس الثرى[١١] فيُمليها، ويُطربُ بأفنان[١٢] الألحان أفنان[١٣] البان فيُعليها ويَثنيها، ويَقرأ على رُؤوس الأغصان أوْرَاده الحسان فيقريها ويرْقيها، وقوسُ السماء يَرْمي بسهام وَبْله[١٤] جنوبَ الشقائق[١٥] فيُصْميها[١٦] ويُدْميها، والرّيح تمسحُ أخلافَ[١٧] الغمائم فتَمريها[١٨]، وتُرضعُ بدَرّها بنات النّبات في حُجُور أراضيها فتربيها وتَرْبيها، وتُرصّعُ بدُرها تيجان القضبان، وتارة تجعله عقوداً في تراقيها[١٩]، أوْ دُمُوعاً في أماقيها، وكأن الحرّ خافَ من بنادقِ البرَدِ،

(١) سائلة (٢) الندى (٣) المطر الكثير (٤) المشاة على أرجلهم (٥) خلف (٦) بجماعاته (٧) سيوفه (٨) ثياب من خز مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء (٩) المال القديم والطارف ضده والمراد كثر عطره (١٠) بتثليث الجيم الجمرة (١١) الأرض (١٢) جمع فنن الغصن (١٣) الاغصان الناعمة (١٤) المطر الكثير (١٥) شقائق النعمان نبت أحمر (١٦) ليرميها ومراده أنه يرميها بالمطر حتى تزهو فتحمر (١٧) جمع خلف بالكسر الضرع (١٨) مرى الناقة يمريها إذا مسح ضرعها لتدر اللبن (١٩) أعناقها

ومدافع الرّعد، ففر إلى مصر ونوّاحيها، وأصبحَ نزيل مَنْ فيها لكرم أهليها، وكأن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفاً ، أو غلط النّاس في حساب الفُصُول فظنوا شتاها صيفاً .

وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلى المرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٤هـ:

وصل يا مولاي إلى هذا الطرَف، ما خصّصت به العبدَ من الطرَف «قفص» من عنب كاللؤلؤ في الصدَف ، تتألق عناقيده كأنها من صناعة « النّجَف » ولعَمر الحقّ إنها تحفة من أحلى التّحف لا يُعثر على مثلها إلا ابطريق الصُّدَف فقابلناه لثماً بالأفواه ورَشفاً بالشفاه، واحتفَينا[1] بقدومه كل الاحتفاء، ولم نفرّط في حبّة عند اللقاء ، بل حلاّنا لهُ الحُبى[2]، وقلنا له أهلاً وسهلاً ومرحباً وأوسَعناه عضاً ولثماً، وتناولناهُ تجميشاً[3] وضمّاً، وحفظنا في صدورنا سره المكنون وطوّيناه في غضُون[4] البطون، فطربت مِنْ تعاطيه الأروَاح ولاغرْو فهو أصل الرّاح[5] ، وانتشَيْنا[6] ولم نحمل وِزْراً، وثمِلْنا[7] ولم نذُق طعماً مُرّاً، فهو كبيان مُهديه سِحر ولكنه حلال ، ولعبٌ إلا أنه كال ، فإن أكسبت الشّمول شاربها قوّة في الجنان ، ونفحَت[8] ذائقها طلاقة في اللسان ، فقد سرَت في أجسامنا من حرارته شجاعةٌ « ليثيّة » ودبت في كلامنا من مذاقته فصاحةٌ «علويّة » وخَلُصت إلينا منه فوَائد لا يحيط بها العلم، ونجمت[9] عنه منافع ليس يصحبُها إثمٌ – فإن زعم الأولون أن في الخمر معنى ليس في العنب، فقد تغير الحال في هذه الهديّة وانقلب، وانكشف للمتأخرين حقيقة الأمر ، أن في العنب معنى ليس في الخمر . وكان الأحرى بهذا العنب أن يناط[10] بالنُّحور أو تُزيّنَ به الصدور ، فما هو إلا اللؤلؤُ ، لكنهُ سلم من سِجْن البحار، وما هو إلا الدُّر ، لكن ليس فيه صغار[11] .

---

(١) بالغنا في إكرامه وأظهرنا الفرح والسرور (٢) الحبال (٣) المغازلة والملاعبة
(٤) طيات البطون (٥) الخمرة (٦) سكرنا (٧) سكرنا أيضاً
(٨) أعطت (٩) أظهرت (١٠) يعلق (١١) بضم الصاد : الصغيرة .

ومن كنتَ بحراً له يا عَليّ لا يَلقط الدُّرّ إلا كبارا

وما ضرَّه أن ضمهُ القفص حصّةً من الحصص ، فإنَّ كريم الطير يودَع في الاقفاص، والقلب ليس لهُ من حنايا الضلوع خلاص ، فلا بدع أن تستقلّ في حبّاته حبّات القلوب ، ويُستملحَ في جنب حلاوته رُضاب[١] المحبوب ، وكأن الثريا لما أخذتْ شكلهُ فغرَ[٢] الهلال فاهُ لعنقودها يريد أكلهُ ، فهو يطاردها في السماء ويأخذ عليها الطريق من الوراء ، وهي تجري من الامام مخافة الالتهام ،هذا لمجرد تشابه في الشكل ،فكيف بالثريا ،لو أشبهته حلاوة وريّا[٣] فلله تلك العناقيد ما أشدّ تألقها ! وأصفى ماءها وأحسن رَوْنقها ! من كل عنقود ، تخاله عمود الصبح أحاطت به الدرّاري ، أو غصنَ البان تعلقت به القماري .

فسقى الغيثُ أرضاً أنبتته ، ولا ثلّ[٤] الدهر عُروشاً حملته ،وأرضاً عرفتنا بأثمارها حلاوةَ الجنّة ، وأبرزت لنا لمحةً من محاسنها المستكنة ، وأنسانا عِنبُها ذِكرى دمشق[٥] وإزمير ،وأنبأنا غارسُها أن مصر خيرُ مُستقر ، ولا يُنبئك مثل خبير ، وعروساً كالعروس ،تتيه[٦] في الحلى والملبُوس ، تحسدها المجرّة[٧] في السماء وتوَدّ لو تكون لها هذه البهجة والرّواء[٨] ، لا زال مولاي يُهدَى ويَهدِي وصنائعه تعيد في ثنائه وتُبدي .

وأجابه المرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٣ هـ :

وبعدُ ، فقد وصل كتاب القاضي الفاضل ، وأرّج الارجاء بلطيف فواضله ، وشريف الفضائل ، وما كنتُ أظُنّ أن يحصَل من زبيبة خماره ، حتى رأيت القاضي الفاضل سبكه في قوالبَ شتى وصاغه وأتى بما أدهش اللّب من أساليب البلاغة فتارةً عِقْداً على النُّحور ، وتارةً في ميادين الطلب تُطارده البُدور

(١) ريقه (٢) فتح (٣) منظراً حسناً (٤) لاهدم (٥) عاصمة الشام سميت باسم بانيها دمشاق بن دمشاق بن كنعان (٦) تتبختر (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وإنما ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء (٨) بضم الراء حسن المنظر .

وآونة درّاً مكبراً ، ومرّة خمراً معنبراً ، وساعة ذوالي « نجفة » وساعة غصناً تعلق به الهزَار ١ وألِفه :

تكاثرَت الظِّباء على خِراشٍ فما يَدْري خراشُ ما يصيد

عجباً لك أيها الفاضل ! هذا مع اشتغال بالك ، وإقبالك على مـا لديك من مراعاة عدلك واعتدالك ! فكيف لو تفرّغْتَ لهذا الأمر !؟ ولإراحة النفس ، اعتصرتَ من العُنقود قدحاً من خمر ، وامتطيْتَ ٢ طرَف اليراع منتهجاً مناهج الطِّرْس ، ودَبّجْتَ ٣ بياض صفحاته بمحاسن حلى النّفس ٤ فلله أنت من بليغ بلغَ ما يريد ، وقلّدَ فرائد آدابه كلّ جيد ! وأفاد السّحْر منثوراً في فواصله ، وأقام بعوامل أقلامه تثقيفَ عوامله ! وأوجب علينا الشهادة له بالسبق ، فأذعَنّا مسلّمين والحقُّ أحق — هذا ، ولولا أن يقال فلان جفَا ، وما احتفل بكتاب أخيه ولا احتفى ٥ ، وإن كان شيي يُلزِمُني ذلك ، كما أن شباب (البيك) يسلك به أقوم المسالك ، لستَرْت عيّي وما أشَرْت ، ورأيت طَيَّي خيراً لي مما نشرت ، وجعلت كتاب سيّدي في عنقي تميمةً ٦ ورَوّحْتُ النّفس تيمناً ٧ بمس آياته الكريمة ، وقلت : كفاني ما أحاط بالعنق من قلائده ، حيث العبد لا يبلغ في الفخامة كمال سيّده :

وهبْني قلْتُ هذا الصبحُ ليلٌ أيعمى العالمون عن الضياء ؟

لا زالت بُرد الترسُّل بيننا مُستمرة ، ومدد التّوصل على جنـاح التقرب مستقرة ، ولا بَرحَ الجناب في كلّ بداية ، يترقى كما يحب من غاية إلى غاية والسلام .

الفصل الحادي عشر في رسائل الوصايا والشفاعات

من كلام النبي عليه الصلاة والسلام لعُمر بن الخطاب في غزوة الفرس :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خِذلانه بكثْرَةٍ ولا قِلّة ، وهو دين الله

(١) بفتح الهاء طائر يقال له العندليب (٢) علوت (٣) نقشت (٤) بكسر النون الحبر (٥) ولا سأل (٦) ما تكتب وتعلق في عنق الصبيان للحرز (٧) تبركا .

الذي أظهرَه وجُنْدُه الذي أعدّه وأمدّه ، حتى بلغ ما بلغ،وطلع حيثما طلع، ونحنُ على موعد من الله ، والله مُنجزٌ وَعْدَه، وناصرٌ جُنْدَه - ومكان القيِّم بالأمر مكان النِّظام من الخرز يجمعه ويضُمه ، فإذا انقطع النِّظام تفرّق الخرز وذهب ، ثُمّ لم يجتمع بحذافيره أبداً .

والعَرَبُ اليَوْمَ،وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام،عزيزُون بالاجتماع، فكن قُطْباً ، واسْتَدِرِ الرَّحى بالعرب ، وأصلهِم دونكَ نارَ الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انْتَقَضَتْ عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدعُ وَرَاءَكَ مِنَ العَوْرات أهم إليك ممّا بين يديك .

إن الأعاجم إن يَنظُروا إليك غداً يقولوا هـذا أصل العَرَب ، فإذا قَطَعْتُمُوه استَرَحْتُم ؛ فيكون ذلك أشدّ لكَلَبِهِم عليك وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القَوْم إلى قتال المسلمين ؛ فإن الله سُبْحانه هو أكْرَه لمَسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يَكْرَه . وأما ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نَكُنْ نُقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنّا نُقاتل بالنَّصر والمَعُونة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام :

أما بَعْدُ ؛ فقد جعل الله لي عليكم حَقّاً بولاية أمركم ، ولكم عليَّ من الحق مثل الذي لي عليكم،فالحقُّ أوْسَعُ الأشياء في التواصُف،وأضْيَقُها في التناصُف لا يجري لأحَدٍ إلاّ جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جَرى لَهُ ، ولو كان لأحد أن يجرى له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانهُ دون خلقه،لقدرته على عباده،ولعدلهِ في كل ما جَرَت عليه صُرُوف قضائه،ولكنَّهُ جَعَل حَقَّه على العباد أن يُطيعُوه،وجَعَلَ جزاءهم عليه مُضاعَفَةَ الثَّوَاب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهلهُ، ثم جعلَ الله سُبْحانه من حقوقه حُقُوقاً افترَضها لبعض الناس على بعض ؛ فجعلها تتكافأ في وجوهِها ، ويوجب بعضُها بعضاً ، ولا

يُسْتَوْجب بعضها إلا ببعض ، وأعظمُ ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حقُّ الوالي على الرَّعِيَّة ، وحقُّ الرَّعيَّة على الوالي ، فريضة فرضها سبحانه لكلٍّ على كلٍّ ، فجعلها جمعاً لألْفَتِهم وعزّاً لدينهم ، فليست تصلح الرَّعية إلا بصلاح الوُلاة ، ولا تصلح الوُلاة إلا باستقامة الرَّعية ، فإذا أدَّت الرعيَّة إلى الوالي حقه ، وأدَّى الوالي إليها حقها ، عزَّ الحق بينهم وقامت مناهج الدين ، واعْتَدَلت معالم العَدْل وجَرَتْ على أذلالها السنَنُ ، فصلح بذلك الزمان ، وطُمِع في بقاء الدولة ، ويئست مَطامعُ الأعداء ، وإذا غلبت الرَّعية واليها ، وأجحف الوالي برعيته ، اخْتَلَفَتْ هنالك الكلمة وظهرت معالم الجوْر ، وكَثُرَ الإدغال في الدِّين ، وتُرِكَتْ محاجُّ السننِ ، فعمل بالهوى وعطِّلت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحشُ لعظيم حق عُطِّل ولا لعظيم باطلٍ فعل ؛ فهنالك تذلُّ الأبرار ، وتعزّ الأشرار ، وتعظمُ تبعاتُ الله عند العباد فعليكم بالتناصح في ذلك وحُسْن التعاون عليه ،فليس أحد وإن اشتدَّ على رضاءِ الله حِرْصه ، وطال على العمل اجتهادُهُ ، ببالغٍ حقيقة ما اللهُ أهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على عباده ، النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاوُن على إقامة الحق بينهم وليس امرؤٌ وإن عظمت في الحقّ منزلته ، وتقدَّمت في الدين فضيلته ، بفَوْقَ أن يُعان على ما حملهُ الله من حقّه ، ولا امرؤٌ وإن صغرَتْه النفوس ، واقْتَحَمَتْه العُيُون بدُون أن يعين على ذلك ، أوْ يُعَانَ عليه .

فأجابه عليه الصلاة والسلام رَجُل من أصحابه بكلام طويل يُكْثِرُ فيه من الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنّ من حقّ من عظُم جلالُ الله في نفسه ، وجلَّ مَوْضعه من قلبه ، أن يصغُرَ عنده لعظم ذلك كلّ ما سوَاه، وإن أحقّ من كان كذلك لمَنْ عظُمت نِعْمَةُ اللهُ عليه ولطفَ إحْسَانه إليه، فإنه لم تَعْظم نِعْمَةُ الله على أحد إلا ازْدَادَ حقُّ الله عليه عِظَماً ، وإنّ مِنْ أسْخَف حالات الوُلاة عند صالح الناس ،أن يظنّ بهم

حبُّ الفخر ويُوضعَ أمرُهُم على الكِبْر ، وقد كرِهتُ أن يكون جالَ في ظنكم أني أحب الإطرَاء واستماع الثَّناء ، ولستُ بحمد الله كذلك ، ولو كنت أُحِبّ أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناوُل ما هو أحق به من العظمة والكبرياء ، وربَّما استحلى الناسُ الثناء بعد البلاء ، فلا تثنُوا عليَّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التَّقيَّة في حقوقٍ لم أفرُغْ من أدائها ، وفرَائضَ لا بُدّ من إمضائها ، فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرَة ، ولا تتحفظوا مني بما يُتَحفَّظ به عندَ أهل البادرَة ، ولا تخالطوني بالمصانَعة ، ولا تظنُّوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي فإنه من استَثْقَل الحقَّ أن يقالَ له ، أو العدْلَ أن يُعْرَض عليه ، كان العمل بهما أثقَلَ عليه ، فلا تكفوا عن مقالةٍ بحقٍّ ، أو مشورَة بعدْل ، فإني لستُ في نفسي بفَوقَ أنْ أُخْطىء ولا آمنُ ذلك من فعلي ، إلا أن يكفي الله من نفْسي ما هو أملك به مني فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربٍّ لا ربَّ غيره ، يملك منَّا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنَّا فيه إلى ما صلَحنا عليه ، فأبدلنا بعدَ الضَّلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام وصّى بها جيشا بعثه إلى العدو :

فإذا نزلتم بعدُوّ ، أو نزلَ بكم ، فليكُن معسكرُكُم في قبيل الأشراف ، وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار . كيما يكون لكم ردْءاً ، ودونكم مَرَدّاً ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رُقباء في صياصي الجبال ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمْن . واعلموا أن مُقدّمة القوم عيونهم وعيونَ المقدّمة طلائعهم – وإياكم والتفرقَ ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارْتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غَشيِكمُ الليلُ فاجعلوا الرِّماح كفّة ، ولا تذوقوا النَّوْم إلا غِراراً أو مضمضة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات :

إنطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تُرَوِّعَنَّ مسلماً، ولا تجتازَنَّ عليه كارها ، ولا تأخذنَّ منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قدمْتَ على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالطَ أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخْدِج بالتَّحية لهم . ثم تقول : عبادَ الله ، أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفتُه ، لآخذَ منكم حقَّ الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حقٍّ فتؤدُّوه إلى وليّه ؟ فإن قال قائلٌ منهم : لا ، فلا تراجعه . وإن أنعَمَ لكَ مُنعمٌ . فانطلق معه من غير أن تُخيفه أو تُوعدَه، أو تَعْسفه أو ترهقه . فخذْ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل ، فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإنّ أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخلْ عليها دُخولَ مُتَسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفّرَنَّ بهيمة ، ولا تفزِعنَّها ، ولا تَسُوأنَّ صاحبها فيها ، واصدع المال صدْعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرّضنّ لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صدْعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرّضنّ لما اختاره ، فلا تزال بذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبض حقّ الله منهُ ، فإن استقالكَ فأقِلْه، ثم اخلطها ثم اصنع مثل الذي صنعت أوّلا حتى تأخذ حق الله في ماله ، ولا تأخذنّ عوداً ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذاتَ عوّار، ولا تأمننّ عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصّله إلى وليهم فيقسمهُ بينهم ، ولا تُوكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مُجحف ولا مُلغب ولا متعب ، ثم احدُر إلينا ما اجتمع عندك نُصَيِّرْهُ حيثُ أمر الله ، فإذا أخذها أمينُك ، فأوعزْ إليه أنْ لا يحول بين ناقةٍ وبين فصيلها، ولا يمْصُر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدَنَّها رُكوباً . وليعدِلْ بين صواحباتها في ذلك وبينها ، وليرْفَهْ على اللاّغب ، وليستأن بالنَّقِب والظَّالع وليوردها ما تمرُّ به من الغدُرِ ، ولا

يعدلْ بها عن نبت الأرْض إلى جوادّ الطرُق ولْيُرَوِّحْها في الساعات، وليُمهلها عند النِّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدْناً مُنقيات، غير مُتعبات ولا مجهودات لنقْسمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وعلى آله) فإن ذلك أعظم لأجْرِك، وأقربُ لرُشْدك إن شاء الله.

وقال عليه الصلاة والسلام وقد سمع رجلاً يذم الدُّنيا:

أيُّها الذّامُّ للدنيا المغترُّ بغرورها، المخدُوع بأباطيلها، أتغترُّ بالدنيا ثم تَذُمها؟! أنت المتَجَرِّم عليها أم هي المتجرِّمة عليك؟! متى استَهْوَتك؟! أم متى غرّتك!! أبمصارع آبائك من البلى؟ أم بمضاجع أمّهاتك تحتَ الثرَى؟! كم علّلْتَ بكفّيك؟! وكم مرَّضْتَ بيديْك؟! تبغي لهم الشفاء، وتستوْصف لهم الأطباء، لم ينفع أحَدَهُم إشفاقك، ولم تسْعفه بطلبتِكَ، ولم تدفع عنه بقوّتك وقد مثلت لك به الدنيا نفسَك وبمصرعه مصرَعك.

إن الدنيا دارُ صدق لمن صَدَقها، ودارُ عافية لمن فهمَ عنها، ودارُ غِنًى لمن تزوَّدَ منها، ودارُ موعظة لمن اتّعظ بها، مسجدُ أحبّاء الله، ومُصلى ملائكة الله، ومَهْبط وحي الله، ومَتجَر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرّحمة وربحوا فيها الجنة فمَنْ ذا يذُمُّها وقد آذَنت ببينها، ونادت بفراقها، ونَعتْ نفسها وأهلَها فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوّقتهم بسرورها إلى السُّرور، راحت بعافية، وابتكرتْ بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذَمَّها رجالٌ غَدَاة الندَامة، وحمدَها آخرون يوم القيامة ذكَّرَتهم الدنيا فتذكَّرُوا، وحدّثتهم فصدقوا، ووَعَظَتْهم فاتّعظوا.

عهد الإمام علي المتوفى سنة ٤٠ هـ لمالك بن الحارث الأشتر النّخَعي، حين ولاه مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها:

اعلم يامالكُ أني قدْ وَجَّهْتك إلى بلاد قد جرَتْ عليها دُولٌ قبلك من عدْلٍ وجور، وأنّ النّاس ينظرُون من أمورك في مِثل ما كنتَ تنظر فيه من أمور

الوُلاة قبلك ، ويقولُون فيك كما كنتَ تقول فيهم ، وإنما يستدلُّ على الصالحين بما يجري اللهُ لهم على ألسنة عباده — فليكن أحبَّ الذخائر إليكَ ذخيرة العمل الصّالح ، فاملكْ هواكَ ، وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك ، فإنّ الشحّ بالنّفس الإنصاف منها فيما أحبّتْ أو كرهت — وأشعِر قلبك الرّحمة للرّعيّةِ ، والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكوننّ عليهم سَبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إمّا أخ لك في الدّين ، وإما نظيرٌ لك في الخلق . يفرُط منهم الزّلَل ، وتعرض لهم العلل ويؤْتى على أيديهم في العَمْد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفْحِك ، مثلَ الذي تُحبُّ وترضى أن يُعطيك الله من عفْوه وصفْحه ، فإنّك فوْقَهمْ ، ووَالي الأمر عليك فوقكَ ، والله فوْقَ من ولاّك ، وقد استكفاك أمرَهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبنّ نفسك لحرْب الله ، فإنهُ لا قِبَلَ لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تَندَمَنّ على عفوٍ ، ولا تبجّحنّ بعقوبة ، ولا تُسْرِعَنّ إلى بادرة وَجدْتَ عنها مندوحة ، ولا تقولن إني مُؤمّرٌ آمرُ فأُطاع ، فإنّ ذلك إدغالٌ في القلب ، ومنهكة للدّين ، وتقربٌ من الغير ، وإذا أحدَث لك ما أنتَ فيه من سلطانك أُبهةً أو مخيلةً ، فانظر إلى عِظَم ملك الله فوقك ، وقدْرَته منك على ما لا تقدرُ عليه من نفسك فإن ذلك يُطامن إليك من طِماحك ، ويكُف عنك منْ غَربك ، ويَفيء إليك بما عَزَب عنك من عقلك ، وإيّاك ومُسامَاةَ الله في عظَمته ، والتّشبُّه به في جبرُوته ، فإنّ الله يُذِل كلّ جبّار ، ويهين كلّ مُختال ، أنصِف الله وأنصِف الناس من نفسك ومن خَاصّة أهلك ، ومن لك فيه هوًى من رَعيّتك ، فإنّك إن لم تفعَل تَظلم ، ومن ظلمَ عباد الله كان اللهُ خَصمه دون عباده ، ومن خاصمهُ الله أدْحَض حُجّته ، وكان اللهُ حرباً عليه حتى يَنْزع ويتوب ، وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة اللهِ ، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإنّ الله سميعٌ دعوةَ المظلومين ، وهو للظالمين بالمرْصاد وليكُنْ أحبَّ الأمور إليك أوْسطُها في الحقّ ، وأعمُّها في العدْل ، وأجمعها لرضاء الرعية .

فإن سخطَ العامّة يجحفُ برضاء الخاصّة وإنّ سخط الخاصة يُغتَفر مع رضاء العامّة ، وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مؤونة في الرّخاء ، وأقل معونةً في البلاء ، وأكرَه للانصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأخفّ صبراً عندَ مُلمّات الدّهر ، من أهل الخاصة : وإنما عماد الدِّين ، وجماع المسلمين ، والعُدة للأعداء ، العامةُ من الأمة ، فليكُنْ صفوُك لهم وميلكَ معهم . وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهُم عندك ، أطلبهم لمعايب النّاس فإنّ في النّاس عُيوباً ، الوالي أحق مَنْ سترَها ، فلا تكشفن عمّا غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهَرَ لك ، واللهُ يحكم على ما غاب عنك ، فاستُر العوْرةَ ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستْرَهُ من رعيتك — أطلق عن النّاس عقدة كلّ حقد ، واقطَع عنك سَبب كلّ وتْر ، وتغابَ عن كلّ ما لا يصح لك — ولا تعجلَنّ إلى تصديق ساع ، فإن السّاعي غاشٌ وإن تشبّه بالنّاصحين — ولا تدخلنّ في مشُورتك بخيلا يَعدل بك عن الفضل ويَعِدُكَ الفقر ، ولا جباناً يُضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يُزَيِّن لك الشرّ بالجوْر ، فإن البُخل والجُبن والحرص غرائز شتّى ، يجمعها سوءُ الظنّ بالله : إنّ شرّ وُزَرائك مَنْ كان قبلك للأشرار وزيراً ومَنْ شَركَهم في الآثام ، فلا يكوننَّ لك بطانة ، فإنهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظَّلَمة ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلَف ممّنْ لهُ مثل آرائهم ونفاذهم ، وليسَ عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لا يُعاوِن ظالماً على ظُلمه أو آثماً على إثمه ، أولئك أخفّ عليك مؤونة وأحسن لك معونةً ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقل لغيرك إلفاً ، فاتخذ أولئك خاصة لخلَواتك وحفَلاتك ، ثم ليكُنْ آثَرَهم عندَكَ أقولُهمْ لك بمرّ الحقّ وأقلّهم مُساعدَةً فيما يكون منك مما كَرِه الله لأوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيثُ وقعَ ، والصقْ بأهلِ الورَع والصّدق ثم رُضهم على أنْ لا يُطْروك ، ولا يُبجّحُوك بباطلٍ لم تفعله : فإنَّ كثرَة الإطرَاء

تُحْدِث الزَّهْو ، وتُدْني من العزّة . ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سَواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءةِ وألزِم كلاًمنهم ما ألزَمَ نَفسهُ — واعلم أنهُ ليس شيءٌ بأدعى إلى حُسن ظنّ والٍ برعيّته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترْك استكرَاههِ إياهم على ما ليس له قِبلَهُم ؛ فليكن منك في ذلك أمرٌ يجمعُ لك حسن الظن برعيتك ؛ فإن حسن الظن يقطعُ عنك نَصباً طويلاً . وإن أحق مَنْ حَسُنَ به ظنُّك لَمَنْ حَسُنَ بلاؤك عندهُ ، وإن أحق من ساء ظنُّك به ، لمَن ساءَ بلاؤك عنده ، ولا تنقضْ سُنَّة صالحة عملَ بها صُدُور هذه الأمة ، واجتمعَتْ بِها الألفة ، وَصَلَحتْ عليها الرعية ، ولا تُحْدِثنّ سُنَّة تَضُرُّ بشيء ممّا مضى من تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوِزْرُ عليك بما نَقضت منها . وأكثِرْ مُدارَسَة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صَلَح عليه أمرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلاّ ببعض ، ولا غنىً ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتّاب العامة والخاصة ، ومنها قُضاة العدل ، ومنها عُمال الإنصاف والرّفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذّمة ومُسلمة الناس ، ومنها التُّجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السُّفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلا قد سَمّى الله سهمه ، ووضع على حدّه فَريضةً في كتابه ، أو سُنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً ، فالجنود بإذن الله حُصون الرعية ، وزينُ الولاة ، وعز الدين ، وسُبُل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قِوام للجنود إلا بما يُخرج الله تعالى لهم من الخراج ، الذي يَقْوَوْن به في جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم — ثم لا قِوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة ، والعمال ، والكتّاب ، لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوامَ لهم جميعاً إلا

بالتجار، وذوي الصناعات فيما يجتمعونَ عليه من مرافقِهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم، ما لا يبلغ رفْقُ غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدُهم ومعونتهم، وفى الله لكل سعةٌ، ولكلٍّ على الوالي حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرُج الوالي من حقيقة ما ألزمَهُ الله من ذلك، إلا بالاهتمام والاستعانـة بالله، وتوطين نفسه على لزومه الحق والصبر عليه، فيما خفَّ عليه أو ثقُـلَ، فوَلِّ من جنودك أنصحهم في نفسكَ للهِ ولَرسوله ولإمامك، وأطهرَهم جَيْباً وأفضلهم حلماً ممن يُبطىء عن الغضَب، ويَستريح إلى العذر، ويرأف بالضّعفاء وينبو على الأقوياء، ممن لا يثيره العنف، ولا يَقعد به الضعف، ثم الصَق بِذَوي المروآت والأحساب، وأهل البيُوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فانهم جِماعٌ من الكرم، وشُعب من العُرْف، ثم تفقّد مِن أمورهم مـا يتفقّده الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقَمنّ في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقِرَن لطفاً تتعاهدُهم به وإن قلّ، فانه داعيةٌ إلى بذل النصيحة لك، وحُسن الظن بك. ولا تدَع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها، فإن لليسير من لُطفِك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم مَوْقعاً لا يستغنون عنه – وليكن آثر رُؤوس جُندك عندك من واساهم في معونته، وأفضلَ عليهم مِن جِدَته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلوف أهلهم حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو فإن عَطفك عليهم يعطِّف قلوبهم عليك، وإن أفضَل قرّة عين الولاة استقامة العَدْل في البلاد، وظهور مَودة الرّعية، وإنه لا تظهر موَدّتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أمورهم، وقلّة استثقال دُولهم، وترْك استبطاء انقطاع مدتهم، فأفسح في آمالهم، وواصل في حُسن الثناء عليهم، وتمديل ما أبلى ذوُو البلاء منهم، فان كثرة الذّكر لحسن فعالهم تهز الشجاع وتحرّضُ الناكلَ إن شاء الله تعالى – ثم اعرف لكلّ امرىء منهم ما أبلى، ولا تُضيفنّ بلاء امرىء إلى غيره، ولا تُقصّرنّ به دون

غاية بلائه ولا يدعُونّك شرف امرىء إلى أن تعظّم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً ، وارْدُدْ إلى الله ورَسوله ما يُضلعك من الخطوب وَيشتبه عليكَ من الأمور ، فقد قال سبحانه لقوْم أحَبّ إرشادهم «يا أيها الذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكُمْ . فان تَنَازَعْتُم في شيء فرُدوه إلى اللهِ والرّسول » فالرّد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ،والرّد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقةَ ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيقُ به الأمور ولا تمحّكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزّلة ، ولا يحصر عن الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تُشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقْصاه ، أوقفَهم في الشبهات ، وآخَذَهم بالحُجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرَهم على تكشيف الأمور ، وأصْرَمَهم عند اتضاح الحكم ، مِمن لا يَزْدَهيه إطراء ،ولا يستَميله إغراء ، وأولئك قليل — ثم أكثر تَعاهُدَ قَضائه ،وأفسحْ في البذْل ما يزيح علّته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطهِ من المنزلة لدَيك ما لايطمع فيه غيرُه من خاصتك ، لتأمن بذلك اغتيال الرّجال له عندك . فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعملُ فيه بالهوى وتطلب به الدنيا — ثمّ انظر في أمور عمّالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تُوَلّهم محاباةً وأثرة ، فإن ذلك جماعٌ من شعبِ الجوْر والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقِدَم في الإسلام ، فانهم أكرَمُ أخلاقاً وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع إشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً : ثم أسْبِغْ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوّة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنىً لهم عن تناوُل ما تحت أيديهم ، وحجّة عليهم إن خالفوا أمرَك أو خانوا أمانتَك — ثم تَفَقَّدْ أعمالهم وابعث العُيون من أهل الصّدق والوفاء عليهم ، فإن تعَاهُدَك في السرّ لأمورهم حَدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية . وتحفظ من الأعوان فإنْ أحدٌ منهم بسط يدهُ إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عُيونك ، اكتفَيت بذلك شاهداً فبسطْتَ عليه العقوبة في

بدنه وأخَذْتَه بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلّة ووسمْته بالخيانة ، وقلدته عار التُّهمة – وتَفقدْ أمرَ الخراج بما يُصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سِواهم ، ولا صلاح لمن سِواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله – وليكن نظرُك في عمارة الأرض ، أبلغ من نَظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يُدرَك إلا بالعمارة ، ومَن طلَب الخراج بغير عمارة أخربَ البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمرُه إلا قليلاً ، فإن شَكَوْا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرْب أو بالةً أو احالة أرْض اغتَمرها غرقٌ ، أو أجحَف بها عَطش ، خَففتَ عنهم بما ترْجو أن يصلحَ به أمرُهم ، ولا يثقلنّ عليك شيءٌ خَففْتَ بــه المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلدِك وتزيين ولايتك ، مع استِجلابك حسنَ ثنائهم وتبجُّحك باستفاضة العدل فيهــم مُعتمداً فضل قُوّتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربّما حدَثَ من الأمور ما إذا عوّلَ فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيّبة أنفسُهم به ، فإن العُمرانَ يحتمل ما حمَّلته : وإنما يأتي خراب الأرْض من إعواز أهلها ، وإنما يُعوز أهلها لإشراف أنفُس الوُلاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاءِ ، وقــلة انتفاعهم بالعِبرَ ، ثم انظر في حال كتّابك فولّ على أمورِك خيرَهم ، واخصص رَسائلك التي تُدخل فيهــا مكائدَك وأسرارك بأجمعهم لوُجوه صالح الأخلاق ممّن لا تبطره الكرامة فيجترىء بهــا عليك في خلافٍ لك بحضرة ملأٍ ، ولا تُقصّر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصّواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعِف عقداً اعتقدَه لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهلَ . ثم لا يكن اختيارُك إياهم على فرَاستك واستنامتك وحُسْن الظّن منــك ، فــإن الرّجــال يَتَعرّفون لفِــراساتِ الوُلاة

بتصنُّعهم وحسن خدمتهم ، وليسَ وَراء ذلك من النصيحةِ والأمانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولّوا للصالحين قبلك ، فاعْمد لأحسنهم في العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإنّ ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولمَن وُليت أمرَه . وَاجعل لرأس كلّ من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرُها ، ولا يتسلطُ عليه صغيرُها ، ومهما كان في كتّابك من عيب تغَابَيْتَ عنه أُلزِمْتَه ، ثم استَوْصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بمالهِ ، والمترفق ببدنه فانّهم موادّ المنافع ، وأسباب المرافق وجلاّبها من المباعد والمطارح ، في برّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضِعها ، ولا يجترئون عليها فإنهم سِلْمٌ لا تُخافُ بائقته ، وصُلحٌ لا تخشى غائلته . وتفقّدْ أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك بابُ مضرّة للعامة ، وعيبٌ على الوُلاة . فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منهُ ، وليكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فمن قارف حكرةً بعد نهيك إياه فنكّلْ به وعاقب في غير إسرافٍ — ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين ، والمحتاجين ، وأهل البُؤْسى والزّمنى ، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً ، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسْماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كلّ بلد ، فان للأقصى منهم مثلَ الذي للأدنى ، وكلٌّ قد استُرعيتَ حقّه ، فلا يَشغلنّكَ عنهم بطرٌ ، فإنك لا تُعذرَ بتضييعك التافه لإحكامك الكثيرَ المهم ، فلا تُشخِص همك عنهم ، وَلا تُصعّر خدّكَ لهم ، وتفقدْ أمورَ مَن لا يصلُ إليك منهم ممّن تقتحمه العيون ، وتحتقرهُ الرّجال ، ففرّغ لأولئك ثِقتك من أهلِ الخشيةِ والتواضع ، فليرفعْ إليك أمورَهم . ثم اعمل فيها بالإعذار

إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فان هؤلاء من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصافِ من غيرهم ، وكلٌّ فاعذِرْ إلى الله في تأدية حقه إليه ، وتعَهّد أهل اليُتم وذوي الرِّقة في السنّ ممّنْ لا حيلة له ، ولا يَنصِبُ للمسألة نفسه ، وذلك على الوُلاة ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبّروا أنفسهم وَوَثِقوا بصدق موعود الله لهم — واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تُفرّغُ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عامّاً فتتواضع فيه لله الذي خلقك . وتُقْعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير مُتتعتع ، فاني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غير مَوْطنٍ : « لن تقدّس أُمةٌ لا يؤْخذ للضّعيف فيها حقه من القويّ غير مُتتَعْتع » .

ثم احتمل الخرق منهم والعيّ وسنّح عنهم الضّيق والأنف ، يبسط اللهُ عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيتَ هنيئاً في إجمال وإعذار .

ثم أمورٌ من أمورك لا بُد لك من مباشرتها ، منها إجابةُ عمّالك بما يَعيا عنه كتّابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يومَ وُرودها عليك مما تَحرَجُ به صدور أعوانك ، وامْضِ لكلّ يومٍ عمله ، فان لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت ، وأجزلَ تلك الأقسام ، وإن كانت كلّها لله إذا صلحَت النيّة وسلمت منها الرعية ، وليكن في خاصة ما تُخلِصُ لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة ، فأعط الله من بدنك ، في ليلك ونهارك ، ووفّ ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غيرَ مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن مُنَفّراً ولا مضيّعاً . فان في الناس مَنْ به العلة وله الحاجة : وقد سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجّهني إلى اليمن : كيف أُصلي بهم ؟ فقال :

« صلِّ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيما » .

أما بعدُ – فلا تُطوّلن احتجابَك عن رعيتك ، فان احتجابَ الولاة عن الرعية شُعبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسَن ، ويحسنُ القبيحُ ، ويُشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالي بشرٌ لا يعرف ما توارى عنهُ الناس به من الأمور ، وليست على الحق سِماتٌ تعرف بها ضروب الصدق منَ الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخَتْ نفسك بالبذل في الحقّ ، ففيم احتجابك من واجب حق تُعطيه ! أو فعل كريم تسديه ؟! أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا منك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ، مما لا مؤنة فيه عليك ، من شكاة مَظْلمة ، أو طلب إنصاف في معاملة .

ثم إن للوالي خاصة وبطانةً ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلة إنصاف في معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقْطِعَنَّ لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة ، ولا يَطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شِرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة ، وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك ، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك ، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويم على الحق ، ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ، ولله فيه رضا ، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن

العدو ربما قارَب ليتغفل ،فخذ بالحزم، واتَّهم في ذلك حسن الظن ،وإن عقدْت بينك وبين عدوك عقْدة ، أو ألبسته منك ذِمة ، فحطْ عهدك بالوفاء، وارْع ذِمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناسُ أشدُّ عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم ، وتَشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استَوْبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرَن بذمتك ، ولا تَخيسَن بعهدك ولا تختلنّ عدوك ، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي ، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحصناً يسكُنون إلى مَنعته ،ويستفيضون إلى جواره فلا إدغالَ ولا مدالسة ولا خِداع فيه ، ولا تعقدْ عقداً تجوز فيه العلل ولا تعوِّلن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيقِ أمرٍ ترجو انفراجه وفضلَ عاقبته ، خيرٌ من غدر تخاف تَبعته ، وأن تحيط بك فيه من الله طلبةٌ ، فلا تستقيمُ فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء ، وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدعى لِنقْمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحْرى بزوال نِعمة ، وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى يتولى الحكم بين العباد فيما تَسافكوا من الدماء يومَ القيامة ، فلا تُقوّيَنّ سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويُوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العَمد ، لأن فيه قوَد البدن ، وإن ابتُليت بخطأ وأفرط عليك سوطك ، أو سيفك ، أو يدك ، بعقوبة ، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلةً ، فلا تَطمحنْ بك نخوة سلطانك ، عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها ، وحُب الاطراء ،فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان في نفسه ، ليمْحقَ ما يكون من إحسان المحسنين

وإياك والمنّ على رَعيّتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تَعِدَهم فتُتبع موعدَك بخُلفك ، فإن المنّ يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقتَ عند الله والناس، قال الله سبحانه وتعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تَفْعَلون) .

وإيّاكَ والعَجَلة بالأمُور قبل أوانها ، أو التّسَقّط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكّرَت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كلّ أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوَةٌ ، والتّغابي عما يُعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطيةُ الأمور ، ويُنتصَف منك للمظلوم ، وامْلك حميّة أنفك، وسورة حدك وسطْوة يدك ، وغربَ لسانك ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثُر هُمُومك بذكر المعاد إلى ربك والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها ،وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي دليلَك لكيلا يكون لك علة عندَ تسرُّع نفسك إلى هواها ، وأنا أسأل الله تعالى بسعة رحمته وعظيم قدْرَته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد، تمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إلى الله راغبون، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين .

وكتب أبو بكر الصديق المتوفى في ٧ جمادى الثانية ١٣ هـ إلى بعض قواده :
إذا سِرْت فلا تُعَنّف أصحابك في السير ولا تغضبهم ،وشاور ذوي الآراء

منهم واستعمل العدل ، وباعد عنك الجور ، فإنهُ ما أفلحَ قومٌ ظَلَمُوا ولا نُصِرُوا على عدوهم (وإذا لقيتُمُ الَّذينَ كَفَروا زَحْفاً [١] فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبارَ [٢] وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً [٣] لِقِتالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّزاً [٤] إلى فِئَةٍ ، فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله) وإذا نصرتم عليهم ، فلا تقتلوا شيخاً ، ولا امرأة ، ولا طفلاً ، ولا تحرقوا زرعاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تذبحوا بهيمة ، إلا ما يلزمكم للأكل ، ولا تغدروا إذا هادنتم [٥] ولا تَنقضوا إذا صالحتم ، وستَمُرُّون على أقوام في الصوامع ، ورهبان ترهَّبوا لله ، فدعوهم وما انفردوا إليه وارتضَوْه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم — والسلام.

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٢ ﻫ إلى بعض قواده :

أما بعد : فإني أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذُنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدّتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بطاعتنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تعملون ، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم .

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُحِيُون فيها أنفسهم ، ويرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به — وليكن منك عند دنوك من أرض

---

(١) مجتمعين لكثرتهم يزحفون (٢) الانهزام (٣) منعطفاً
(٤) منضماً إلى جماعة يستنجد بهم (٥) صالحتم .

العدو أن تكاثر الطلائع ، وتبث السرايا بَينك وبينهم ، ثم أذْكِ أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، والله وليّ أمرك ومن معك ، ووليّ النصر لكم على عدوكم .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى ابن أخته :

أنت وَلَدي ما دُمْت : والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتر أليفك ، فإن قصرت ولا إخالك ، فغيري خالك ، والسلام .

ومن وصية ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٩٦٧ هـ لابنه ، وقد أراد السفر :

أُودعك الرحمن في غُربتك	مرتقباً رُحماه في أوبتك
فلا تُطِل حبلَ النَّوى إنني	والله أشتاق إلى طَلْعتك
واختصر التوديع أخذاً فما	لي ناظرٌ يقوى على فرقتك
واجعل وَصاتي نُصبَ عين ولا	تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التي حنّكت	في ساعة زُفت إلى فطنتك
فللتجاريب أُمورٌ إذا	طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وَعْيها ساعة	فإنها عَوْنٌ إلى يقظتك
وكل ما كابدته في النَّوى	إياك أن يكسِرَ من همتك
فليس يُدْرى أصل ذي غربة	وإنما تُعرفُ من شيمتك
وَآمْشِ الهُوَيْنا مظهراً عفة	وَآبْغ رضا الأعين عن هيئتك
وانطق بحيث العيُّ مُسْتَقْبَح	واصمت بحيث الخير في سكتتك
ولِجْ على رِزْقك من بابه	واقصد له ما عِشْت في بكرتك
وَوفِّ كلاً حقه وَلْتَكن	تكسر عند الفخر من حدتك
وحيثما خَيّمت فاقصد إلى	صحبة من تَرْجُوه في نصرتك
وللرزايا وثبةٌ ما لها	إلا الذي تذخر من عدّتك

ولا تَقُلْ أسْلَمُ لي وحدتي فقد تقاسي الذلَّ في وحدتك
ولتَجْعَل العَقْل محكّاً وخذ كُلّاً بما يظهر في نقدتك
واعتبر الناس بألفاظهم واصحب أخاً يرغب في صحبتك
كم من صديق مُظهرٍ نُصحه وفكرُه وَقْفٌ على عثرتك
إياك أن تقربه إنّه عَوْنٌ مع الدّهْرِ على كربتك
وانْمُ نُموَّ النبت قد زاره غِبُّ النّدى واسمُ إلى قدرتك
ولا تُضيّع زمناً ممكناً تذكاره يذكي لظى حسرتك
والشرُّ مهما اسطعت لا تأتِه فإنه جَوْرٌ على مُهجتك

يا بُني ، الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله — قد قدّمت لك في هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك في كلّ أوان رجوت لك حسن العاقبة — إن شاء الله تعالى — وإن أخفّ منه للحفظ ، وأعلق بالفكر ، وأحقّ بالتقدم قولُ الأول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغترَب ثلاثٌ فمنهنّ حسن الأدب
وثانيةٌ حُسن أخلاقه وثالثةٌ اجتنابُ الريب

واصغ يا بُنيّ إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر ، وسُلّمُ الكرم والصبر :

ولو أنّ أوطان الدّيار نَبَتْ بكم لسكنتم الأخلاق والآدابا

إذ حُسن الخُلق أكرَمُ نزيل ، والأدبُ أرحبُ منزل ، ولتكن كما قال بعضهم في أديبٍ متغرّب ، وكان كلما طرأ على ملك فكأنّهُ معه وُلد ، وإليه قصد ، غير مُستريب بدهره ، ولا منكر شيئاً من أمره .

وإذا دعاك قلبُك إلى صحبة من أُخِذ بمجامع هوَاه ، فاجعل التّكلف له سُلّماً ، وهُبّ في روض أخلاقه هُبوب النسيم ، وحلّ بطرفه حلول الوَسَنَ ، وانزل بقلبه نزُولَ المسرّة ، حتى يتمكن لك ودّادُه ، ويخلص فيك اعتقاده

وطهر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا تُرخّص في جانبه لحسود لك منه، يريد إبعادك عنه لمنفعة، أو حسودٍ له يَغار لتجمُّله بصحبتك، ومع هذا، فلا تغترّ بطول صحبته، ولا تتمهد بدوام رقدته، فقد يُنبِّهه الزمان، ويتغيّر منه القلب واللسان، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله؛ وفي الأمثال العامة: «من سبقك بيوم سبقك بعقل» فاحتذ بأمثلة من جرّب، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، وزُبدة تجاربهم، ولا تتكل على عقلك، فان النظر فيما تعبَ فيه الناس طول أعمارهم، وآبْتاعوه غالياً بتجاربهم، يُرْبِحك، ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة، فاستفد منه، ولا تُضيّع قوله ولا فعله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحَثّاً لك واهتداء.

وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه، حتى تتدبره، فإن كان موافقاً لعملك، مصلحاً لحالك، فراع ذلك عندك، وإلا فانبذه نبذ النواة فليس لكلّ أحد يُتبسّم، ولا كل شخص يُكلم، ولا الجود مما يعُم به، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يُعامل به كلُّ أحد، ولله درُّ القائل:

ومالِيَ لا أوفي البرية قِسْطها على قَدْرِ ما يعطي وعقلي ميزانُ

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكفءِ، ولا الكفء بمعاملة الأعلى، ولا تُضَيّع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع، ويثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة، بغائبة آجلة، ولا تجفُ الناس بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل، ولا ضجر، ولا جفاء، فمتى فارقت أحداً، فعلى حسنى في القول والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجعٌ إليه! فلذلك قال الأوّل:

* ولما مضى سَلمٌ بكيت على سلمِ *

وإياك والبيت السائر:

وكنتَ إذا حللتَ بدار قومٍ رحلتَ بخزية وتركتَ عارا

واحرص على ما جَمَعَ قَوْلُ القائل: «ثلاثة تُبْقي لك الوُدّ في صدر أخيك: أن تَبْدَأَهُ بالسَّلام، وتُوسّعَ له المجلس، وتَدْعوهُ بأحبّ الأسماء إليه»، واحذَرْ كلّ ما بَيَّنه لك القائل: «كل ما تغرسه تجنيه، إلا ابن آدم؛ فإذا غَرَسْتَهُ يقلعك». وقول الآخر: «إن ابن آدم ذئب مع الضّعف، أسدٌ مع القوّة»، وإيّاك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطيل اختباره، ويحكى أن ابن المُقفع خطب من الخليل صُحْبته؛ فجاوبهُ: «إن الصُّحبة رِقّ، ولا أضع رقّي في يديك حتى أعرف كيف ملكتك»، واستمل من عين مَنْ تعاشره، وتَفَقّد في فلتات الألسن، وصفحات الأوْجه، ولا يحملك الحياءُ على السكوت عمّا يَضرُّك أن لا تُبَيّنَه؛ فإنّ الكلام سلاح السّلم، وبالأنين يُعْرَف ألمُ الجرح، واجعل لكل أمْرٍ أخَذْتَ فيه غاية تجعلها نهاية لك:

وخذ من الدّهْرِ ما أتاكَ به من قرّ عَيْناً بعيشةٍ نَفَعه

إذ الأفكار تجلب الهموم، وتُضاعِفُ الغُموم، وملازمة القطوب، عنوان المصائب والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدُوّ والمجانب، ولا تضرّ بالوَساوس إلا نفسك، لأنّكَ تنصر بها الدّهر عليك — ولله درُّ القائل:

إذا ما كنت لِلأحزَان عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم؟!

مع أنه لا يردّ عليك الغائبَ الحزْن، ولا يَرْعوي بطول عتبك الزّمَن.

ولقد شاهَدْت (بغرناطة) شخصاً قد ألفتْه الهُموم، وعشقَتْهُ الغُموم، ومن صغَره إلى كبرَه ولا تراهُ أبداً خلياً من فِكرة، حتى لُقّب «بصدر الهمّ».

ومن أعجب ما رأيتهُ منهُ أنهُ يَتَنَكّدُ في الشّدة، ولا يتعلّل بأن يكون بَعْدَها فرَج، ويتنكّد في الرّخاء خوفاً من أن لا يدوم، ويُنشد:

* توقّعْ زوالاً إذا قيلَ تَمْ *

وينشد: * وعِندَ التّناهي يَقصُرُ المتطاوِل *

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب، ومثل هذا عُمرُه محسور يمر ضياعاً

ومتى رفعَك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحْسِنه حسداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهيداً لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن إلى العلم الذي مدحوه ؛ فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشي الحَجَلة فرام أن يَتَعلمه ُ فصَعُبَ عليه ، ثم أراد أن يَرجع إلى مشيه فنَسِيه فبَقِي مُخَبَّل المشي كما قيل :

إن الغرابَ وكان يمشي مِشْية فيما مضى من سالف الأجْيالِ
حَسَدَ القطا وأراد يمشي مشيها فأصابه ضَرْبٌ من العُقّالِ
فأضلَّ مِشْيَته وأخطأ مشيها فلذاك كنَّوْه (أبا مِرْقال)

ولا يُفسد خاطرَك من جعل يذُم الزمان وأهلَه ، ويقول ، ما بَقي في الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه ؛ فإن الذين تراهم على هذه الصِّفة أكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان ، واستحقتْ طلعتهم للهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وعَجَزوا عن طلب الأمور من وجوهها ، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس ، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، ولا تُزِلْ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إذا ما نِلْتَ عزّاً فأخو العزِّ يلين
فإذا نابك دهرٌ فكما كنت تكون

والأمثال تُضْرَب لذي اللُّبِّ الحكيم ، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفتي عليك لا رب سواه .

وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين :

يا أحمر – إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه ، وثمرة قلبه ؛ فصيّر يدك عليه مبسوطةً ، وطاعته لك واجبةً ، فكُنْ له بحيث وضعَك أمير المؤمنين.

أقرئه القرآن ، وعرّفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السُّنن ، وبصّره

بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدةً تفيده إيّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة .

وصية بعض نساء العرب إلى ابنها وقد أراد السفر :

قال أبانُ بن تغلب ، وكان عابداً من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية وهي توصي ولداً لها يريد سفراً ، وهي تقول له :

أي بُنيَّ : إجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك ، فإن الوصية أجدى [١] عليك من كثير عقلك. قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسناً لوصيتها فإذا هي تقول : أي بُني إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبّين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً [٢] وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعتورت [٣] السهام غرضاً إلا كلمته [٤] حتى يهي [٥] ما اشتد من قوته .

وإياك والجود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك ، فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه .

ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها ، والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء ، فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

---

(١) انفع (٢) هدفاً (٣) تداولت (٤) جرحته (٥) يضعف.

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك :

خرج الزُّهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيت كاليوم، ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال : ما هُنَّ ؟ قال: لا تعد عِدة ولا تثق من نفسك بإنجازها،ولا يَغرَّنَّك المرتقى، وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور بغتات [١] ، فكن على حذر ، قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث (المهدي) وفي يده لقمة قد رَفَعَها إلى فيه فامسكها وقال : ويحك! أعد عليَّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين : أَسِغ [٢] لقمتك ، فقال: حديثك أعجب إليَّ .

نصيحة أعرابي لسليمان بن عبد الملك :

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلِّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ؛ فإن وراءه إن قبلته ما تحبه، قال : هاته يا أعرابي، فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غَيْبَتَهُ ، ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً الناصح جيباً [٣] ، قال : فاني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا [٤] دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْط ربهم ، وخافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا [٥] الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك،فإن أعظم الناس عند

---

(١) البغتات: جمع بغتة وهي الفجأة. (٢) أساغ اللقمة : ابتلعها. (٣) فلان ناصح الجيب : يراد به قلبه وصدره أي أمين ، قال الشاعر : * وحصنت صدراً جيبه لك ناصح * . (٤) ابتاع : اشترى . (٥) ألا يألو ألواً : قصر . يقال إني لا آلوك نصحاً لا أقصره . وقال تعالى : « لا يألونكم خبالا » أي لا يقصرون في خبالكم وفسادكم .

الله غَبْنًا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال سليمان : أمـا أنت يا أعرابي فقـد سَلَلت لسانك وهو سيفك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ! لك لا عليك .

نصيحة فتاة لأبيها :

قالت أعرابية – تنصح أباها بمجانبة السّرف – : حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه في السؤال ، فقد قل النوال ، وكثر النّجال[1] ، وقد أتلفت الطارف والتّلاد[2] وبقيت تطلب ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ماينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمذاني لوارث مال :

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزيه وينصح له :

وصلت رقعتك (يا سيدي) والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجد ، والعزاء عن الأحبة رشد كأنه الغيّ ، قد مـات الميت فليحي الحي ؛ فاشدد على مالك بالخمس [3] ؛ فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكي لك ، وقد موّلك [4] مما ألف بين سراه [5] وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم [6] الشيطان عودك ، فإن استلانك رماك بقوم يقولون : خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب ، وتنفقه بين الحباب [7] والأحباب ، والعيش بين القِداح والأقداح [8] ولولا الاستعمال لما أريد المال ؛ فان أطعتهم فاليوم في الشراب وغداً في الخراب ، واليوم واطرباً للكاس ، وغداً واحَرَبـا [9] من الإفلاس ، يا مولاي : ذلك

---

(١) النجال : جمع نجل وهو الولد. (٢) الطارف : المستحدث من المال وغيره والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف. (٣) يريد بالخمس الأصابع وهي مؤنثة في الأكثر . (٤) موله : اتخذ له مالاً . (٥) السرى : سير الليل (٦) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته. (٧) حباب الماء والشراب : فقاقيعه التي تطفو كأنها القوارير . (٨) القداح : سهام الميسر ، واحدها قِدح كقرد . والأقداح : جمع قدح ، كجبل وهو وعاء الشراب . (٩) الحرب : أن يسلب الرجل ماله ، وقد حرب ماله أي سلب ومن هذا قولهم : واحربا .

الخارج من العُود يسميه الجاهل نَقراً ، والعاقل فقراً ، وذلك المسموع من النَّاي[1] هو في الآذان زَمْر ، وفي الأبواب سَمْر ، وإن لم يجد الشيطان مَغمزاً في عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يُمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرْسك[2] ، وتمنع نفسك وتبوء في دُنياك بوِزْرِك ، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك ، لا — ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين لا منع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضَيْر عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه

ومن يُنفِق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فليكن لله في مالك قسم ، وللمُروءة قسم ، فَصِلِ الرحم ما استطعتَ وقدِّر[3] إذا قطعت ، فلأن تكون في جانب التقدير ، خير من أن تكون في جانب التبذير .

وصية الرياحي لقومه

قال الرِّياحي في خطبته بالمِرْبد[4] :

يا بني رياح — لا تُحَقِّروا صغيراً تأخذون عنه ، فإني أخذت من الليث بَسالته ومن الحمار صبره ، ومن الخنزير حرصه ، ومن الغُراب بُكورَه ، ومن الثعلب رَوغانه[5] ، ومن السّنور ضَرَعه[6] ، ومن القرد حكايته ، ومن الكلب نُصرته ، ومن ابن آوى حذره ، ولقد تعلمت من القمر سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين .

---

(١) الناي : آلة للزمر ، فارسي معرب ، وقد تهمز ياؤه ، وقد جمعوه على نايات . (٢) العرس : الزوجة . (٣) التقدير : التروية والتفكير في تسوية أمر .

(٤) المربد : الجرين ، ثم صار علماً على موضع بالبصرة .

(٥) الروغان : الميل عن الشيء لتجنب الضرر . (٦) الضرع : الخضوع :

وصية ذي الأصبع[١] لابنه

لمّا احتُضِرَ ذو الأصبع العَدواني دعا ابنه (أسيداً) فقال له :

« يا بُني : إن أباك قد فني وهو حيّ ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته : ألن جانبك لقومك يحبُّوك وتواضع لهم يرفعوك ، وابسُط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يُسوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويَكبرُ على مودّتك صغارهم . واسمح بمالك ، واعزِز جارك[٢] وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك وأسرع النهضة في الصريخ[٣] فإن لك أجلا لا يَعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتمّ سُؤدَدُك

وصية عبدالله بن شداد[٤] لابنه

قال الكلبي : لما حضرَت عبدالله بن شداد الوفاة دعا ابناً له يقال له (محمد) فقال : يا بني ، إني أرى داعي الموت لا يُقلِع ، وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي فإليه يَنزَع[٥] ، وإني موصيك بوصية فاحفظها .

عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أولى الأمور بك شكر الله ، وحسن النيّة في السر والعلانية ، فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد ، وكن كما قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنّ التّقيّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بدّ أن يأتي قريبٌ ولكن الذي يمضي بعيدُ

---

(١) هو حرثان بن الحارث ، خطيب حكيم ، شاعر فارس ، وهو أحد المعمرين في الجاهلية (٢) الجار : المجاور والذي أجرته من أن يظلم . (٣) الصريخ : صوت المستغيث وهو أيضاً المغيث واحداً أو أكثر . (٤) هو عبد الله بن شداد بن الهادي الليثي كان من رجالات العراق ومن ذوي المكانة عند الحجاج ، ثم خرج عليه مع ابن الأشعث ، ويقال إنه قتل سنة ٨٣ هـ . (٥) نزع إليه كجلس . اشتاق .

أي بُنيّ : لا تزهَدَنّ في معروف ، فإن الدهر ذو صُروف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليـه ، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه . واعلم أن الزّمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان وكن أي (بُنيّ) كما قال أبو الأسود الدؤلي :

وعدّ من الرحمن فضلاً ونعمـة   عليك إذا ما جاء للعُرْف[١] طالبُ
وإن امرأ لا يُرْتجى الخير عنده   يكن هيّناً ثقيلاً على من يصاحب
فلا تمنعنْ ذا حاجة جاء طالبـاً   فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التّـوا [٢] هذا الزمان بأهله   وبينهم فيه تكون النوائب

أي بُنيّ : كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البِرّ ، وإن أحمد بخل الحر الضّن بمكتوم السّر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم [٣] الأنصاري :

أجُود بمكنون التّلاد وإنني   بسِرك عمّن سالني لضنين [٤]
إذا جاوز الاثنين سر فإنـــه   بنثّ وتكثير الحديث قمين [٥]
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني   مكان بسَوْداء الفؤاد مكين [٦]

أي بُنيّ : وإن غُلبت يوماً على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال ، والدنيّ عيال ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ،وأقلّ ما تكون في الباطن مالاً ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاد[٧] نعمته، وكن كما قال ابن خذاق [٨] العَبْدي :

---

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا مصدر التوى وقصره للضرورة. والتوى به الزمان . اعوج . وألوى به : أهلكه . (٣) شاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة . (٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن . (٥) قطع همزة اثنين للضرورة ونث الحديث : أفشاه . (٦) سوداء الفؤاد أو القلب وسويداؤه وأسوده : حبته ، (٧) الإنفاد : الفقر . (٨) اسمه يزيد وهو شاعر قديم .

وجدتُ أبي قد أوْرثه أبوه خلالا قد تُعد من المعالي ١
فأكرم ما تكون عليّ نفسي إذا ما قلّ في الأزمات مالي
فتحسُن سيرتي وأصون عِرْضي ويَجمل عند أهل الرأي حالي
وإن نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم أخصُص بجفوتيَ الموالي ٢

أي بُنيّ : وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها ٣ رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل هو الفطن المتغافل ٤ ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتي شتْم ابن عمي وما أنا مُخلِف من يرتجيني
وكلمةِ حاسد في غير جُرم سمعت فقلت مُرّي فانفذيني ٥
فعابوها عليّ ولم تَسؤني ولم يَعرق لها يوماً جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقاً وليس إذا تغيب يأتليني ٦
سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حَسبي وديني

أي بُنيّ : لا تؤاخ امرءاً حتى تعاشره ، وتتَفقد موارده ومصادره ، فاذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبْرة ٧ ، فواجه على إقالة العثرة ، والمواساة في العُسرة وكن كما قال المُقنَّع الكندي٨ :

أبْل الرجالَ إذا أردت إخاءهم وتوسَّمن فِعالهم وتَفقَّد

(١) نقلت حركة الهمزة من أورث إلى الواو وحذفت هي للوزن ، والخلال: جمع خلة وهي الخصلة . (٢) غلا في الأمر غلو : جاوز الحد . والموالي: الأقارب، يقول : إن كثر مالي لم أجف أقاربي. (٣) حيال ظرف في معنى إزاء أي تركتها تذهب في طريقها الخ . (٤) في معنى هذا قول الشاعر :

ليس الغني بسيد في قوم لكن سيد قوم المتغابي

(٥) نفذه: جازه. (٦) ائتلى كألا أي قصر: يقول إذا غاب عني فلن يقصر في نكايتي (٧) الخبرة ، وبغير هاء ، العلم بالشيء كالاختبار (٨) هو محمد بن عمرة والمقنع لقب شاعر رصين المباني حكيم المعاني من شعراء الدولة الأموية

فإذا ظفرت بذي اللَّبابة والتقى   فبه اليَدَين قرينَ عين فاشدد [١]
وإذا رأيت ولا محــالة زلة   فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

أي بنيّ : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط [٢] ، فإنه قد كان يقال أحبب حبيبك هوْناً مّا [٣] عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا ، وأبغض بغيضك هوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وكن كما قال هدبة [٤] بن الخشرم العذري :

وكن معْقلاً للحلم واصفح عن الخنا   فإنك راء ما حييت وسامع
وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً   فإنك لا تدري متى أنت نازع [٥]
وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقاربا   فإنك لا تدري متى أنت راجع

الفصل الثاني عشر في رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أبو الحسن علي بن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤هـ إلى القاسم بن عبيد الله :

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً ، فوالله لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولاً ، وأزداد تذللاً ، وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها . وأحرسها بوفائك ممن يحاول إفسادها .

وأسأل الله أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك السلام .

---

(١) اللبابة مصدر لب أي صار ذا لب وهو العقل ؛ وكل ما قبل « فاشدد » من الشطر الثاني معمول له وتكررت الفاء للربط — وكذا في البيت التالي

(٢) شط وأشط : جاوز الحد . (٣) الهون : الرفق ، وما : إما زائدة ، وإما صفة لهونا مثلها في قوله تعالى : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما » .

(٤) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة وهو القائل :

ولست بمفــراح إذا الدهــر سرني   ولا جــازع من صرفــه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركي   ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٥) نزع عن الأمر نزوعاً : انصرف وانتهى عنه .

وكتب أبو الوليد أحمد بن زيدون ، الأندلسي المتوفى بأشبيلية ٤٦٣ هـ :

يا مولاي [١] وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي [٢] بـه ، وامتدادي [٣] منه ، ومن أبقاه الله ماضيَ [٤] حد العزم [٥] واريَ [٦] زند [٧] الأمل [٨]، ثابتَ [٩] عهدِ [١٠] النعْمة ، إن سلبتني [١١] أعزك [١٢] الله لباس [١٣] نعمائك ، وعطلتني [١٤] من حلى [١٥] إيناسك [١٦] وأظمأتني [١٧] إلى بُرود [١٨] إسعافك [١٩] ونفَضْت [٢٠] بي كفّ حياطتك [٢١] وغَضَضْت [٢٢] عني طرف [٢٣] حمايتك . بعْد أن نظر الأعمى إلى تأميلي [٢٤] لك ، وسمع الأصَمُّ ثنائي [٢٥] عليك وأحس الجماد باستِحْمادي [٢٦] إليك .

(١) المولي له معان كثيرة والأليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد أيضاً قال أبو تمام :

مولاك يا مولاي صاحب لوعة ... في يومه وصبابة في أمسه
دنف يجود بنفسه حتى لقد ... أمسى ضعيفاً أن يجود بنفسه

(٢) عدتي ليوم حاجتي (٣) مزيد خيري (٤) قاطع (٥) قوة الإرادة أي لا يعزم على أمر إلا أمضاه (٦) الوري : خروج النار من الزند وقت الاقتداح . (٧) مقدحة (٨) الرجا (٩) متمكن ومتوثق (١٠) ميثاق أي أن نعمته ثابتة ومحفوظة عليه أبداً وأن محبته مقصورة عليه ، وأنه يطلب من الله أن يبقيـه ، وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره غيث متتابع وأنه لحسن افتتاح وبراعة استهلال (١١) انتزعت مني (١٢) أعزك الله ، جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء لسيده بالعزة والإشارة إلى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبيها له على ذلك . (١٣) ما يواري الجسم أي جردتني من نعمتك المحيطة بي (١٤) العطل في الأصل خلو جيد المرأة من القلائد (١٥) ما يتحلى به (١٦) أنسك ، أي حرمتني من لذيذ أنسك (١٧) أعطشتني (١٨) بارد (١٩) إنجادك (٢٠) طرحت (٢١) أحاطتك أي طرحتني من كنف حوزك لي (٢٢) خفضت (٢٣) نظر ، أي خفضت طرف وقايتك عني فتركتني غرضاً لصائبات الحوادث (٢٤) التأميل أمر معنوي لا يشاهد وإنما ذلك مبالغة في شدة التلبس والاتصاف به (٢٥) مدحي ، — مبالغة في انتشار مدحه (٢٦) استحمادي مبالغة في تأثير حمده يشير إلى تعداد ما حل به من المصائب وأحدق به من كل جانب ألا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به إحاطة الثياب وحرمانه من الأنس بذلك الجناب وإعطاشه إلى سريع إغاثته وإخراجه

فلا غَرْوَ [١] قد يغصُّ [٢] بالماءِ شاربهُ ، ويقتلُ الدواءُ المستشفيَ بـه ، ويؤتى الحذِرُ [٣] من مأمنه [٤] ، وتكونُ مَنيةُ [٥] المُتمني في أمنيتهِ [٦] ، والحين [٧] قـد يسبقُ جهد [٨] الحريص

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى وتهون غيرَ شماتة [٩] الحسَّاد

وإني لأتجلدُ [١٠] وأُري للشامتين « أني لرَيبِ [١١] الدهر لا أتضعضع » [١٢]

فأقول : هل أنا إلا يدٌ أدماها [١٣] سوارُها [١٤] ، وجبينٌ عضَّ به إكليـله [١٥]

= من محيط دائرته وصرفه عنه نظر ملاحظته خصوصاً بعد أن صير تأميله فيه جسماً مخترعاً ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب إليه الآذان فدخلها بدون استئذان ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده في حمد حتى كان مؤثراً في كل الكائنات ولذا أدركه الجماد ، وفيه من المبالغة ما في قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وإنما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجعه وتألمه ، وأسرع لتلبية ندائه وأمكن لجلب الصفاء وإزالة الجفاء .

(١) فلا عجب : الفاء واقعة في جواب أن من قوله إن آسليتني (٢) غصصت بالمـاء أغص غصاً إذا شرقت به وأغصصته أنا . (٣) المتيقظ (٤) من حيث لا يتوقع الضرر (٥) موت (٦) ما يتمناه ٧. الهـلاك ٨) طاقة (٩) الفرح في مصائب الغير ، يقول : إن انتزعت مني ما أعطيت ، وأحللت بي من المصائب ما أحللت ، بعد غلوي في الثناء عليك ، والتجائي في كل الأمور إليك ، فليس ذلك بالأمر العجيب ولا بالنادر بل كثير النظائر والأمثال ، فالماء الذي بـه زوال الغصص قد يكون هو المغص وأن الأمنية قد تكون فيهـا المنية وأنه يشير في عبارته لقول بعضهم :

قد كنت عدتي التي أسطو بهـا ويدي ، إذا اشتد الزمان ، وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته والمـرء يشرق بالزلال البـارد

ولقول الآخر :

تجري الأمور على وفق القضاء ، وفي طي الحوادث محبوب ومكروه !
فربما سرني ما بت أحذره وربمـا ساءني ما بت أرجوه !

والبيت الذي ذكره لابن عيينة . (١٠) أتكلف الصبر والقوة (١١) ريب الدهر : نوائبه (١٢) أتزلزل : هذا حل بيت لأبي ذؤيب الهذلي وهو :

وتجلدي للشامتين أريهـم أني لريب الدهر لا أتضعضع

(١٣) اسال دمها (١٤) نوع من الحلي يلبس في الساعد (١٥) تاجه .

ومشرَفيٌّ ١ ألصقهُ بالأرض صاقِلُهُ ٢ ، وسمهريٌّ ٣ عرضه على النار مثقفه ٤ وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ٥ ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم

هذا العتبُ ٦ محمودٌ عواقبه ، وهذه النَّبوةُ ٧ غمرةٌ ٨ ثم تنجلي ٩ ، وهذه النكبة ١٠ سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشعُ ١١ ، ولن يريبني ١٢ من سيدي إن أبطأ سيبه ١٣ أو تأخر ، غير ١٤ ضنين غناؤه ١٥ ، فأبطأ الدلاء فيضاً ١٦ أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها ١٧ ، وأنفع الحيا ١٨ ما صادف جدباً ١٩ وألذ الشراب ما أصاب غليلاً ٢٠ ، ومع اليوم غدٌ ولكل أجلٍ كتابٌ .

(١) سيف (٢) جاليه (٣) رمح (٤) مقومه (٥) يمتنعوا : يخاطب نفسه ويسليها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه ، ويحببها ما تعاديه مع مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته حيث لم يستهجن فعله وعمله معه فقد أنزل نفسه منزلة الحسناء التي أجرى دمها السوار ، والجبين الذي أثر فيه تاج الافتخار ، والسيف الذي وضعه على التراب صاقله لصقله لا لهوانه ، والرمح الذي وضعه على النار مثقفه لتقويمه لا لإحراقه ، والعبد الذي قسا عليه سيده رحمة به وإحساناً لا استخفافاً به وهواناً ، والبيت لأبي تمام . (٦) اللوم (٧) الجفوة (٨) شدة (٩) تنكشف (١٠) المصيبة (١١) تقلع ، يقول : أرجو أن يكون هذا اللوم ختام الجفاء ، مبدأ الألفة والصفاء وأن هذه الجفوة شدة وتحول وسحابة لا تلبث ان تزول ، يشير إلى قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

وإلى المثلين العربيين « غمرات ثم تنجلي » و « سحابة صيف عن قليل تقشع » والأول يضرب في حصول اليسر بعد العسر والثاني في سرعة التغير (١٢) يجعلني شاكاً (١٣) عطاؤه (١٤) غير ضنين : احتراس يريد به حمل سيده على العطف ودفع ما يتوهم من أن التأخير للايقاع به (١٥) نفعه (١٦) الفيض : صعود الماء على الضفة ، والمراد هنا مجرد الصعود ، أي أن أبطأ الدلاء صعوداً أكثرها امتلاء (١٧) أملؤها (١٨) المطر (١٩) الأرض التي لا نبات بها (٢٠) العطش بحرارة ؛ لما ذكر أن هذا العتب محمود العاقبة وأن ما حل به عن قريب يزول ، ورأى أن تأخير الرحمة به وعدم إنقاذه من ورطته ربما يوهم الريبة في محمدة العاقبة ، دفع ذلك معتذراً عن سيده في هذا التأخير معللاً بقوله فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها وأثقل السحاب مشياً أحفلها وغير ذلك مما يدل على أن في التأخير ما ينعم البال =

له الحمدُ على اهتباله [١] ، ولا عتب عليه في اغتفاله [٢]

فإن يكن الفعلُ الذي ساءواحداً   فأفعـــاله اللائي سَررْنَ ألوف

وأعود فأقول : ما هذا الذنبُ الذي لم يسعهُ عفوُك ، والجهلُ الذي لم يأتِ من ورائه حلمك ، والتطاوُل [٣] الذي لم يستغرقه تطولك [٤] والتحامل [٥] الذي لم يفِ به احتمالك [٦] ؟! ولا أخلو من ان أكون بريئاً فأين عدلـك ؟ أو مسيئـاً ، فأين فضلك .

إلاَّ يكن ذنبٌ فعدلك واسعٌ   أو كان لي ذنبٌ ففضلك أوسعُ

فهبني مسيئاً كالذي قلت طالبـاً   قصاصاً [٧] فأين الأخذيا عز [٨] بالفضل

حنانيك [٩] ، قد بلغ السيل الزُّبى [١٠] ، ونالني ما حَسْبي به وكفى .

وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت [١١] واستكبرت !!

= ويقر الأعين ، ثم ختم عبارته بما هو أمثل في التسلية وأدعى للتصبر من حيث يقول : ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

(١) اغتنامه (٢) تغافله : وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر من سيده بما اعتذر وأخذ يمدحه على إيقاعه به وتغافله عنه عله أن يرأف به ويعطف عليه والبيت للمتنبي (٣) الكبر (٤) فضلك (٥) التكليف بما لا يطـاق (٦) الاحتمال كالحمل إلا أنه في الأمور العظيمة ، قال النابغة الذبياني * فحملت براً واحتملت فجاراً * (٧) عقاباً ٨) اسم امرأة ، رجع بعد أن عود نفسه في مخاطبة الأمير الصبر والانتظار التفت منه الى ما في ضميره من بقايا العتاب فقال يستفهم مريداً بذلك إلزامه بالصفح عنه بتصغير ذنبه وتكبير عفو سيده فكأنه يقول: ما هذه الحركة التي زلزلت طودك ، وما هذه الجيفـة التي عكرت بحرك ، ولم لا يشملني كرمك وجودك مع أن فضلك وعدلك أكبر ، شفيع للعاصي والمطيع ، وذكر البيتين تأييداً لما قاله في نثره ، والاول للبحتري والثاني مأخوذ من قول الحماسي:

هبيني ظلوماً نلته بمساءة   قصاصاً فأين الأخذيا عز بالفضل

(٩) تثنية حنان ، وهو الرحمة (١٠) جمع زبية ، وهي حفرة تحفر لصيد الأسد في مكان مرتفع لا يعلوه الماء فإذا وصل إليه السيل كان مجحفاً : يريد بذلك مزيد استرحام سيده من حيث يقول له : حنانيك ، أي رحمة إثر رحمة أطلبها منك فإن الذل والهوان قد وصلا الغاية ، والصغار والاحتقار قد بلغا الغاية: وقوله بلغ السيل الزبى مثل عربي يضرب في بلوغ الشيء غايته (١١) امتنعت: ولقد أحسن =

وقال لي نوحٌ اركب معنا فقلت سآوي [١] إلى جبل يَعْصِمني [٢] من الماءِ ، وأمَرْت ببناءِ صرح [٣] لعلي أطّلع إلى إله موسى ، وعكَفت [٤] على العجــل ، واعتديت [٥] في السَّبت ، وتعاطيْت [٦] فعقرْت [٧] ، وشربت من النهـر الذي

= كل الإحسان وتلطف ما شاء في عطف قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق إشارة مبدعاً في وصف ما لاقاه من العقاب والنكال ، وأنه لو قسم على ذري الذنوب من الأولين والآخرين لكان كافيـاً لتكفير تلك الذنوب جزاء وفاقاً ، ملمحاً إلى ذوي الذنوب المشهورة ووقائع الآثام المأثورة. فقال : وما أراني ... إلخ . يشير إلى ذنب إبليس وهو امتناعـه واستكباره عن السجود لآدم من حيث أمره الله بذلك «فأبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

(١) سألجأ ٢) يحفظني ، يشير إلى ذنب ابن نوح،وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه : «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» فخالف أباه وقال : سآوي... إلخ . (٣) قصر ، يشير إلى ذنب فرعون، وهو إنكاره الإله وادعاؤه أنه هو الإله الحقيقي؛ وذلك حينما أتاه موسى عليه السلام بالإيمان بالله ، فقال فرعون « يأيها الملأ مـا علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً »: الآية . (٤ . واظبت ، يشير إلى ذنب بني اسرائيل وهو عبادة العجل ، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صائغ من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر وقال لبني إسرائيل إن الحلى الذي استعرتموه من المصريين وبقي معكم بعد غرقهم لا يحل لكم فادفنوه حتى يأتي موسى ويرى رأيه فيه ،ففعلوا ،فأخذه وصاغه عجلاً ووضع فيه القبضة التي أخذها من أثر حافر فرس الحياة فرس جبريل عليه السلام ،فصار العجل يمشي ويخور ،فقال لبني إسرائيل هذا إلهكم وإله موسى نسيه وذهب لطلبه ؛ فافتتن به كثير منهم واتبعوه ٥ جاوزت ، يشير إلى ذنب بني إسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت ،وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيه وكانت الحيتان تأتي فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تغطي الماء ولا تأتي في غيره فتحيلوا بعمل حيضان متصلة بالبحر فإذا جاءت عشية الجمعة فتحوا الاتصال فتدخل الحيتان في الحيضان فيأخذونها يوم الأحد ،ولما أمهل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحاق بهم العذاب . (٦ تعاطى : قام على اطراف اصابع رجليه : ثم رفع يديه وضرب (٧ عقر البعير بالسيف فانعقر ، اي ضرب به قوائمه . يشير إلى ذنب قدار وهو قتـل ناقة صالح عليه السلام ،وذلك أن امرأة يقال لها عنيزة لها مال وبنات حسان ،وأخرى يقال لها صدوق بنت المحيا صاحب أوثانهم ،كان زوجها أسلم وأنفق ماله على صالح =

ابتلى الله [١] به جيش طالوت ، وقُدت الفيل لأبرهة [٢] ، وعاهدت [٣] قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأوّلت [٤] في بيعة العقبة [٥] ، واستنفرت إلى العير [٦]

= واتباعه ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، فدعت صدوق مصدقاً لنفسها على قتل الناقة ، ودعت عنيزة قداراً على ذلك ايضاً فذهبا وتبعهما أشقياء ثمود وكمن كل منهما في أصل صخرة ، ولما مرت الناقة رماها بسهم فأصاب ساقها ، وشد عليها قدار بسيفه فأبان عروقها ، ثم نحروها .

(١) اختبر ، وهو يشير إلى ذنب معظم جيش طالوت عليه السلام وهو مخالفتهم له حينما اشتكوا له قلة الماء ، وهم ذاهبون للقتال ، فقال لهم : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده » فخالفوا وشربوا إلا قليلاً منهم . ٢) كان عامل اليمن من قبل النجاشي ، يشير إلى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة ، وسبب ذلك أنه بنى كنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن الكعبة فأتى رجل كناني ولوثها بالعذرة ، وأتى أقوام من تجار قريش واضرموا ناراً بجانبها فهبت الريح فأحرقتها ، فغضب النجاشي لذلك ؛ وقام أبرهة واخذ الفيلة وفي مقدمتها فيل النجاشي المسمى محموداً ليهدم الكعبة إرضاء له ، ولما وصل إليها وجه الفيل نحوها فأبى ، فوجهه إلى اليمن فقام مهرولاً ، وبعد ذلك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فأهلكتهم . ٣) أعطيتهم عهداً وميثاقاً ، يشير إلى ذنب قريش ، وهو اتحادهم على عدم نصرة الدين ، وذلك أنهم لما رأوا ان الدين أخذ في النمو وأن حمزة وعمر أسلما تعاهدوا على مهاجرة بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعلى قطع العلائق بينهم تماماً وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة عهداً لذلك. ٤) خالفت. (٥) طريق وعر في الجبل ، يشير إلى ذنب من نقض بيعة العقبة ، وبيعات العقبة ثلاث ، ولم يتأول فيها أحد ، فذكره لها على سبيل الفرض ، اي هب أني خالفت الإجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعله أحد .

٦) العير – بالكسر – الإبل التي تحمل الميرة ، وهو يشير إلى ذنب ضمضم الغفاري وهو استنهاض قريش لأبي سفيان ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب كان آتياً من الشام في عير ، فذهب رسول الله لقتاله ، فشعر بذلك أبو سفيان ، فاستأجر ضمضماً المذكور ليخبر قريشاً ، فذهب وصرخ ببطن الوادي واقفاً =

ببدر ، والخذلت [١] بثُلث الناس يوم أُحد [٢] ، وتخلفت [٣] عن صلاة العصر في بني قريظة [٤] ، وجئتُ بالإفـــك [٥] على عائشةَ الصِّديقية ، وأنِفت [٦]

= على جمل قد جدعه ، وحول رحله وشق قميصه قائلاً : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة . اموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى ان تدركوها ، الغوث الغوث ، فتجهزوا جميعاً وذهبوا إليه ، وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى ، وفيها انتصر النبي عليه الصلاة والسلام انتصاراً باهراً .

(١) خذله : ترك عونه ونصرته (٢ أحد ، جبل بالمدينة . يشير إلى ذنب أبي ابن سلول رأس المنافقين ، وهو رجوعه من الجيش هو ومن معه من المنافقين ، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج الى أحد ومعه ألف من أصحابه لقتال اعدائه ، وكان من رأي ابي ان يمكث النبي في المدينة ، فأبى عليه الصلاة والسلام قبول رأيه موافقاً لمعظم الصحابة ؛ فرجع هو ومن معه من المنافقين ، وقال أطاعهم وعصاني (٣، تأخرت ٤) طائفة من اليهود . يشير إلى حادثة بني قريظة ؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال : من كان سميعاً مطيعاً ؛ فليصل العصر في بني قريظة ، فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس ، والبعض الآخر رأى أن المقصود الإسراع فصلى في الطريق ، ولما اختلف الفريقان في تعيين المصيب ، ترافعا الى الرسول فحكم بإصابتهما وإذا تكون عبارته كناية عن فداحة التخلف عن الذهاب (٥) الكذب ؛ يشير إلى ذنب مسطح وحسان ومن معهما في مجاهرتهم بالسوء لزوجه عليه الصلاة والسلام ، وذلك انه لما ذهب عليه الصلاة والسلام إلى غزوة بني المصطلق ؛ كانت معه السيدة عائشة ، حيث كانت قرعتها ففي العودة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها ففاتها الركب ولم ينظر في هودجها فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما ، فأركبها بعيره وقاده فأشاع هؤلاء ما اشاعوا فبرأها الله تعالى بالآيات البينات (٦ استكبرت ، يشير إلى بعض الصحابة ، من حيث استكبروا على أسامة وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام جهز جيشاً ليذهب به الى الشام وقال له سر إلى مقتل أبيك فتكلم قوم قالوا : أيؤمر هذا الغلام على المهاجرين الأولين فغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك وخرج في مرضه عاصباً وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال ما معناه : ولئن طعنتم في اسامة فقد طعنتم في ابيه من قبل وأنه لأهل لها فاستوصوا به خيراً .

عن إمارة أسامة ، وزعمتُ أن خلافـة أبي بكر كانت فلتة [١] ورويتُ رمحي من كتيبة [٢] خالد ، ومزقت [٣] الأديم الذي باركتْ يدُ الله عليـه وضحّيْتُ بأشمط [٥] عنوان السُجود به ، وبذلتُ لقطام [٦] .

ثلاثة آلافٍ وعبـدٌ وقينةٌ [٧] وضَرْبُ عليٍّ بالحسام المسمّم

(١) أي من غير إحكام ولا روية يشير إلى ذنب الشيعة وهو عتقادهم أن علياً هو الأحق بالخلافة ، ومن سواه غاصب ويقولون ما تقدم. وفي حديث عمر، «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها» فقيل: المراد بالفلتة الخلسة أي الإمامة يوم السقيفة مالت الأنفس إلى توليها وكثر فيها التشاجر فانتزعها واختلسها أبو بكر اختلاساً ومثل هذه البيعة مهيجة للشر والفتنة فعصم الله تعالى من ذلك ووقى

(٢) جيش ، يشير إلى ذنب أبو شجرة السلمي وهو فتكه بجيش خالد في حرب الردة ويشير إلى قوله في ذلك .

ورويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

(٣) قطعت (٤) الجلد ، يشير إلى ذنب أبي لؤلؤة وهو قتل عمر عليه الرضوان وذلك أن أبا لؤلؤ طلب منه أن يخفف عنه جعل سيده فقال له: إنه ليس بكثير وإنك لصانع مجيد واريد أن تصنع لي رحى. فقال : سأصنع لك رحى يسمـع دويها أهل المشرق والمغرب وكن لهحتى طعنه في صلاة الصبح ومات بسبب ذلك ويشير إلى ذلك ما قاله بعضهم في رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يـــد الله في ذاك الأديم المزق

(٥) مختلط شعر الرأس: يشير إلى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليه الرضوان وذلك أنه وفد عليه وفود كثيرة من الجهات يشكون عماله فأرضاهم وأرسل محمد بن أبي بكر ليكون والياً على مصر فبينما هو ذاهب إذ رأى عبداً على هجين يستحثه فأحضره وفتشه فوجدمعه كتاباًمن الخليفة الى عامل مصر يقول: اذا أتاك محمد ومن معه فتحيل في قتلهم، فرجع محمد وأعطى الجواب لعثمان فأقر بأنه خط كاتبه وهذا ختمه وعبده وهجينه وأنه لم يرسله، فطلب منه أحد أمرين: الاعتزال أو اعطاءه كاتبه الحكم فأبى فحصلت الفتنة وحاصروه الى أن قتل ، ويشير الى ما قاله بعض نعاته :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليـل تسبيحاً وقرآنـاً

(٦) اسم امرأة ٧ جارية : يشير بذلك الى ذنب ابن ملحم وهو قتل علي كرم الله وجهه وذلك أن هذه المرأة أعجبته لنضارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما في البيت. فقال لها : لك ما طلبت. وقال البيت وبعده : =

وكتبت إلى عمر بن سعد : أن جعجع [١] بالحسين ، وتمثلت عندما بلغني من وقعة الحرة [٢] :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ورجمت [٣] الكعبة ، وصلبت العائذ على الثنية [٥] ، لكان فيما جرى علي [٦] ما يحتمل أن يكون نكالا [٧] ، ويدعى ولو على المجاز عقاباً .

وحسبك من حادثات بأمرىء* ترى حاسديه له راحمينا

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(١) ضيق : يشير إلى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين، وذلك أنه أبى مبايعة يزيد وأراد الذهاب إلى الكوفة من حيث أنهم طلبوا مبايعته فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله بن زياد بذلك فأرسل لقتاله عمر بن سعد ولما أبطأ جهز له «شمراً» وكتب عبيد الله له ما تقدم فانتشبت الحرب بينهما وانتهت باستشهاده رضي الله عنه ٢ أرض بظاهر المدينة كانت بها الوقعة بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة . يشير إلى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة وذلك أنه أرسل عقبة بن مسلم إلى محاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام فقتل وأسرف وأباح . فلما بلغ يزيد ذلك قال بيت ابن الزبعري المذكور مظهراً لما في الضمير المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين . (٣) رميت بالحجارة (٤) الملتجىء (٥) طريق العقبة : يشير إلى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبد الله بن الزبير وذلك أنه لما حاربه التجأ عبدالله وأصحابه إلى الكعبة فنصب الحجاج المنجنيق عليها ورجمها وبعد ما انتصر عليه صلبه منكساً وآلى أن لا ينزله إلا إذا شفعت أمه فيه فبعد سنة مرت عليه أمه وقالت أما آن لهذا الفارس أن يترجل فاعتبر قولها شفاعة وأنزله . ومن قولها لابنها يوم مقتله : يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربه بالسيف في عز، خير من ضربة بالسوط في مذلة . فقال لها : إنما أخاف المثلة . قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها (٦) حصل لي (٧) عذاباً يريد أني لو أتيت بهذه الذنوب كلها لكان ماحصل لي من التعذيب والإهانة والذل والاستكانة كافياً لتمحيص هذه الذنوب كيف لا وقد صرت إلى حالة يرثي لها العدو والحبيب والبعيد والقريب ، وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم في الاستعطاف والبيت الذي ذكره للعتبي .

* والأصح : وحسبك من حادث بامرىء

فكيف ولا ذنب إلا نميمةٌ[١] أهداها كاشحٌ[٢] ! ونبأ[٣] جاء بـه فاسق وهم الهمازون[٤] المشاؤون[٥] بنميم ، والواشون[٦] الذين لا يلبثون[٧] أن يصدَعُوا[٨] العصا ، والغُواةُ[٩] الذين لا يتركون أديما[١٠] صحيحاً ، والسُّعاة الذين ذكرهم الأحنفُ بن قيس فقال : « ما ظنك بقومِ الصِّدق محمودٌ إلا منهم ؟! »

حلفت فلم أترك لنفسك رِيبة[١١] وليس وراءَ الله للمرءِ مطلَب

والله ما غشَشْتُك بعدَ النصحة ولا انحرفت[١٢] عنك بعدَ الصاغية[١٣] إليك، ولا نصَبْتُ[١٤] لك بعد التشيّع فيك، ولا أزمعت[١٥] بأسامنك. مع ضمان تكفلت به الثقة عنك، وعهد أخذه حُسنُ الظن عليك، ففيم عبِثَ[١٦] الجفاءُ بأذمّتي[١٧]،

---

(١) نقل الكلام للافساد (٢) مضمر العداوة «أهداها كاشح» كناية عن حسن سبك هذه النميمة وأنه معتنى بها كأبعتني بالهدية للأمير (٣) خبر (٤) المغتابون (٥) النماون (٦) الذين يزينون الحديث للافساد (٧) لبث بالمكان : اقام به (٨) يشقوا (٩) المضلون (١٠) الأديم : الجلد ، يريد سعي النمام وخبر الفاسق وتزيين الغواة والذين يشقون عصا الألفة ويمزقون اعراض الناس ويلمح في عبارته إلى قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا » الآية ، وإلى قول كثير عزة :

ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا إذا هي لم يصلب على البري عودها

(١١) شبه : يريد حلفت فلم أترك شبهة في نفسك من براءتي وليس بعد الله من يصدق القسم به حتى أقسم به وأذهب إليه والبيت للنابغة الذبياني من اعتذارياته للنعمان. (١٢) ملت (١٣) الإصغاء (١٤) الناصبي في العرف من كان عدو العلي كرم الله وجهه وهو ضد الشيعي (١٥) خفت ، يقول أقسم بالله أني مقيم على النصح لك ثابت على الميل لك ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهبا ولم يستفزني اليأس منك وتلعب بي أيدي الأهواء فإن ثقتي بك وحسن ظني فيك قد ضمنا لي أن اطرد اليأس بالرجاء في عفوك ، وهذا الكلام من الاستقصاء البديعي بمكان فإنه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول لو) ولا (ليت استجلاباً للرحمة وطلباً للعفو ١٦) لعب وهزل . (١٧) حرماني .

وعاث [١] العُقوق [٢] في مواتي [٣] ، وتمكن الضياع [٤] من وَسائلي [٥] ؟ ولم ضاقتْ مذاهبي [٦] ، وأكْدَتْ [٧] مطالبي ؟ وعلام رضيت من المركب [٨] بالتعليق [٩] ؟ بل من الغنيمة بالإياب [١٠] ؟ وأني غلبني الغلب [١١] ، وفجر [١٢] على العاجز الضعيف ، ولطمتني [١٣] غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس ؟ وتدركني ولما أمزّق [١٤] ؟ ! أم كيف لا تضطَرِمُ [١٥] جوانحُ [١٦] الأكفاء [١٧] حسداً لي على الخصوص لك ؟ وتنقطع أنفس [١٨] النُظراء [١٩] منافسة [٢٠] لي على الكرامة فيك ،

---

(١) أفسد . (٢) ضد البر . (٣) وسائلي . (٤) الهلاك . (٥) ما أتقرب به (٦) طرقي . (٧) ردت . (٨) الركوب . (٩) المراد تعليق الأمتعة . (١٠) الاياب : الرجوع . (١١) الغلب : المغلوب مراراً . (١٢) فجر : اجترأ . (١٣) ضربتني على وجهي براحتها (١٤) أقطع : يستفهم عن سبب إفساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل للرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحتى رضي من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالماً واجترأ عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلابا وظلمه من لم يكن له كفؤا وقد ضمن عبارته من الأمثال ما هو كالسحر الحلال (أولها) إرض من المركب بالتعليق يضرب في القناعة بإدراك بعض الحاجة وثانيها) رضيت من الغنيمة بالإياب يضرب في القناعة بالسلامة وهو مأخوذ من قول امرىء القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن وخامسها (لو ذات سوار لطمتني) قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة — والثلاثة تضرب عند العجز والذلة — ويشير إلى قوله المثقب العبدي :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

وفي هذا الاستفهام تخصيص له على إنجاده وسرعة إنقاذه .

(١٥) تتقد . (١٦) أضلاع . (١٧) الأمثال .
(١٨) جمع نفس . (١٩) جمع نظير . (٢٠) رغبة شديدة .

وقد زانَني اسم خدمتك ، وزهاني ١ وسْم ٢ نعتك ، وابليت ٣ البلاء الجميل في سماطك ٤ ، وقمت المقامَ المحمود على بساطك ؟!

ألست الموالي ٥ فيك غُرّ قصائد هي الأنجُمُ اقتادت مع الليل أنجما
ثناءٌ يظلُّ الروض منهُ منوَّراً ضُحى ويخال الوشي٦ فيه منمنما٧ ؟!

وهل لبس الصباحُ إلا بُرداً ٨ طرّزته ٩ بفضائلك ، وتقلدت ١٠ الجوزاء ١١ إلا عقداً فصَّلتُهُ ١٢ بمآثرك ، واستملى ١٣ الربيعُ إلا ثناءً أمليته في محاسنك ، وبثّ ١٤ المسْك إلاّ حديثاً أذعته ١٥ في محَامدك ؟ ما يوم (حليمةَ بسرّ) وإن كنت لم أكسك سليباً ١٦ ! ولا حليتك عُطلاً ! ولا وسمتك غفلاً ١٧ بل وجدت آجُرّاً ١٨ وجصاً ١٩ فبنيت . ومـــكان القول ذا سعَة فقلت :

---

(١) الزهو الكبر (٢) علامة (٣ جربت (٤) السمط . الصف من الناس (٥) المتابع (٦) ضرب من الحرير ذو ألوان (٧ ثوب موشى بألوان فيها البياض – لقد اتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ – وذلك من الاعتراف لسيده بأنه قد أوقد النار في قلوب الحساد والنظراء بتعهده له بالإنعام بالصلات حتى أنطق لسانه فيه بالمدائح التي طلعت من الليل أنجما والثناء الذي زهرت به الرياض ووشيت به حلل الفضل والبيتان من قصيدة للبحتري يعاتب بها الفتح بن خاقان (٨) رداء (٩) علمته (١٠) لبست (١١) برج (١٢) تفصيل العقد : جعل خرزة بين كل لؤلؤتين (١٣) طلب الإملاء (١٤ نشر (١٥) أشعته : والمعنى أن فضائلك التي نشرتها في مدائحك ظهرت للعين ظهور الصباح حتى أنه لا يضيء إلا بسببها : وأن عقد الجوزاء لم يحسن في مرأى العين إلا لكوني فصلته في محامدك وكذلك الربيع لم تتضوع الأزهار بنشرها فيه إلا لكونه استملى من الثناء المملوء بمحاسنك ثم أثبت أن ما تقدم حقائق ثابتة بقوله ما يوم حليمة بسر وهو مثل عربي يضرب في فشو الأمر وانتشاره (١٦) مسلوباً (١٧ عادم العلامة (١٨) الطين المحروق (١٩) الجير : أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه بإذاعة المحاسن ونشر المدائح وأنه اخترع له هذه السجايا والخلال حيث يقول له : إني لم أمدحك إلا بمـــا هو فيك من خصائص الخصال وجميل الخلال وإنما أنا صغتها في القالب الذي يلفت الانظار ويجلي صدأ الأفكار .

حاشا [١] لك أن أعدّ من العامِلة الناصبة [٢] ، وأكون كالذُّبالة [٣] المنصوبة ، تضيء للنّاس وهي تحترِقُ . فلكَ المثلُ الأعلى [٤] ، وهو بك وبي فيك أولى . ولعمرُك [٥] ما جهلت أنّ (صريح الرأى [٦]) أن أتحوّل إذا بلغتني الشمس و(نَبا بي المنزل [٧]) واصفح [٨] عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال فلا أستوطيء العَجْز [٩]) ولا أطمئنّ [١٠] إلى الغرُور [١١] ومنَ الأمثال المضروبة : خامري [١٢] أم عامر [١٣] .

(١) تنزيها لك (٢) من النصب : وهو التعب (٣) الفتيلة (٤) الصفة العليا — بعد ان عمل جهد المستطيع في الثناء عليه أراد أن يستميله بلطف ليجعل لعمله فائدة ونتيجة فنزهه على أن يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث عملوا وتعنوا في الدنيا فيما لم يعد عليهم منه فائدة في الأخرى ، ويشير إلى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية) الآية والى قول العباس ابن الاحنف :

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وبالغ في التلطف بقوله : فلك المثل الأعلى والصفة العليا من التجاوز والصفح وأنت أولى من صفح عن زلة المسيء ، وأنا أولى من ادخرت مودته بالصفح عنه ، وما أحسن قوله وهو بك الخ ، كأنه يقول هو بك أولى وهو بي كذلك إذا كان فيك فكلا الحالين مخصوص بك وما ألطف ما ينسب إلى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في الإمام أحمد بن حنبل :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله

إن زرته فلفضله أو زارني فلفضله فالفضل في الحالين له

(٥) حياتك ٦ شديدة ٧ نبا بي المنزل: لم يوافقني (٨)أعرض ٩ استوطيء العجز ٠ اجده لينا سهلاً(١٠)أميل(١١) ما يغتر به من متاع الدنيا ١٢) اشترى (١٣) كنية الضبع ، يقسم بحياة سيده أنه جهل أن سديد الرأي وجوب التحول عن مقام الإهانة متى شعر بلحاقها به كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة الخذلان ومقطع أعناق الرجال وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستسهل العجز ولا يميل إلى الغرور ولكن خابت آماله وانعكست أحواله فكان الغرور نصيبه والأمل قائده فاغتر كما اغتر الضبع بقول القائل خامري أم عامر . يشير إلى قول أبي تمام :

وإني مع المعرفة أن الجلاء [١] سباءٌ [٢] والنقلةَ [٣] مثلةٌ [٤] :

ومن يَغترب عن قومه لم يَزل يرى مصارعَ مظلوم مجرا ومحسبا
وتدفنّ منه الصالحاتُ وإن يسىء يكن ما اساء النار في رأس كبكبا [٦]

عارفٌ ان الأدب الوطنُ لا يُخشى فراقه ، والخليط [٦] لا يتوقع زياله [٧] والنّسيب [٨] لا يخفى ، وَالجمال لا يُجفى [٩] .

ثم مـا قِران [١٠] السعد بالكواكب أبهى أثراً ، ولا أسنى خطراً [١١] من اقتران غِنى النفس به ، وانتظامها نسقاً [١٢] معه ، فإن الحائز [١٣] لهما الضارب بسَهم فيهما ، — وقليلٌ مـا هم [١٤] — اينما توجّه ، وردَ منهل [١٥] بر ، وحط في جناب [١٦] قبول ، وضوحك قبل إنزال رَحله ، واعطى حكم الصبي على اهـله

وإن صريح الرأى والحزم بامرىء إذا بلغته الشمس ان يتحولا

وإلى المثل العربي « العجز وطيء » يضرب لمن استلان فراش العجز وقعد عن طلب المكاسب ؛ وقوله : خامري الخ مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ثم يميل إليها ويغتر بها .

(١) الخروج عن الوطن (٢) اسر (٣) الانتقال (٤) تنكيل (٥) جبـل (٦) المخالط (٧) مفارقته (٨) ذو النسب (٩) لا يهجر : بعد ان بين لسيده انه لا يجهل ان الصواب التحول اراد ان يبين له انه يعرف ايضاً ان الانتقال فيه التمثيل والنكال وان الغربة كربة والنوى توى وان حسنات الغريب مهجورة وسيئاته منشورة فقال إني مع معرفتي بأن خروجي من وطني أسر لي ودفـن لمحاسني وانتقالي منه إلى غيره مع عدم معرفة أهـل هذه الجهات بما انا متحل به من العلوم والآداب والكمالات تنكيل بمحاسني وتضييع لبهجة كمالاتي فيجهـل قدري وتهضم حقوقي وتدفن مني الصالحات وتشاع على قلتها السيئات غير اني لا اعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقي بل وطني الذي أعول عليه إنما هـو ملازم لي اينما حللت و رحلت اخشى فراقه وهو سميري الملازم لي فلا اتوقع غيابه وان النسيب اينما حل فهو معروف والجمال اينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك فلا يخشى من الانتقال بأساً ولا من التحول ضيماً ـ والبيتان للأعشى . والنقلة مثله ـ مثل مولد (١٠) مصاحبة (١١) قدراً (١٢) النسق من الكلام وغيره ما جاء على نظام واحد (١٣) الجامع (١٤) قليل ماهم : يريد بذلك التعريض لسيده بأنه لا نظير لا في اخلاقه وآدابه (١٥) عين (١٦) ناحية بعد ان بين ان الأدب كبير النفع عظيم الفائدة =

وقيـل له اهلاً وسهلاً ومَرحَبَاً فهذا مَبيتٌ صالح ومقيـل

غير ان الوطنَ محبوبٌ ، والمنشأ مألوفٌ ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه ، حنين النجيب [١] إلى عطَنِه [٢] . والكريمُ لا يجفو أرضاً بها قوابله ، ولا ينسى بـلداً فيها مراضعهُ – قال الأول :

أُحبُّ بلاد الله مـا بين مَنعَجٍ [٤] اليّ وسلمى ان يصوبَ سحابهـا

بلاد بها حل الشباب تمائمي [٥] واول أرض مسّ جلدي ترابُها

= حتى جعله وطنا في الغربة وفرجة عند الكربة بين انه يكون اكبر نفعاً واعظم جدوى إذا صاحبه غني النفس فان المتحلي بحلاهما القابض على زمامهما اينما يمم فالسعد قرينه والناس اهله يقبلون عليه من كل جانب ويعظمونه كل التعظيم لأول وهلة او بمجرد نظرة ويعطونه حكم الصبي على اهله يفعل مـا يريد كالسيد بالعبيد ويقولون له لقيت اهلاونزلت مكانا سهلاًواسعاً رحباً فأنس ولا تستوحش وكن كما تحب وتختار فأنت رب الدار . وقوله مـا قران السعد الخ اخذه من قوله البستي :

واتم الأشياء نوراً وحسناً بكر شكر زفت إلى صهر بر

ماقران السعد بالحوت أبهى منظراً من قران بر وشكر

وقوله اعطى حكم الصبي الخ : عبارة كانت تقولها العرب في مدح من نزلوا عنده واكرمهم واصل البيت المذكور :

فقلت له اهلاً وسهلاً ومرحبا فهـذا مبيت صالح وصديق

(١) النجيب من الإبل الفحل الكريم (٢)مبرك الإبل حول الماء(٣)جمع قابلة وهي من تتلقى المولود عند خروجه (٤)اسم مكان(٥) تميمة وهو ما يعلق للطفل حفظاً له؛بعد أن بين له أن سديد الرأي الانتقال وأنه لا يخاف عاقبة ذلك لأدبه وغنى نفسه أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث فقـال ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف .

ما من غريب وإن ابدى تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو فهو أول ارض وجد بها واول تربة تضمخ بها جسده واول بقعة نما فيها فكره واول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع إخوان واحباب وخلان واتراب ــ فاذا تذكر هده الجهات تخيل لهرغد العيش وحسن الحال ورأى اغصان شبابه تميد على تلك الاوطان وتتمايل مع النسيم تمايل البان فيحن إليها حنين الغريب =

هذا إلى مُغالاتي [١] بعقد جوارك ، ومُنافستي [٢] بلحظة من قرْبك واعتقادي الطمع في غيرك طبع [٣] والغنى ممن سواك عناء ، والبدل منك أعور ، والعوض لغاء [٤] ، وكل الصيد في جوْف الفرا [٥] .

وإذا نظرت إلى اميري زادَني ضنـا به نظري إلى الأمراءِ

وفي كلِّ شجر نار ، وأستمجدُ (المرخ والعفار) [٦] ، فما هذه البراءَةُ ممن

= إلى وطنه وأنه ليس من كرم الأصل وشرف المحتد ان يهجر الانسان قوابله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجسيم أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن في إبان الكبر حتى يجنين ثمرات اتماهن ويسررن بحسن معاملته لهن والبيتان لبعض الأعراب ١) مجاوزتي الحد (٢) رغبتي فيك على وجه المباراة (٣) دنس (٤) خسيس (٥) حمار الوحش ٦ نوعان من الشجر سريعا الوري . وأستمجد : استفضل وقيل أقتدح على الهوينا – بعد ان بين محبة الوطن وألفة المنشأ . وسبب ذلك الطبيعي : أراد ان يبين للأمير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد الحامل على المكث بل انضم إليه ما هو أشد منه تأثيراً وأعظم خطراً ألا وهو شدة محبتي لجوارك وحظوتي بقربك ، وأنت اكرم من حفظ للجوار حرمته ، وأوضح محجته . واعتقادي بأن الطمأنينة إلى غيرك غرور والثقة بخلافك خذلان وعدم رضائي بسواك بدلا ولا بغيرك عوضا وكيف استبدل لغث بالسمين والتعب بالراحة أم كيف أنظر إلى غيرك من الأمراء، وغيرك فيك:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

. نعم وإن اشتركوا معك في اللقب إلا أنهم لم يشتركوا معك في كمال الأدب وفي كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وفي ذلك من استمالة القلب ما يدهش اللب وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يذري باللآل – فأولها «رب طمع يجر الى طبع » وثانيها « كل الصيد في جوف الفرا» وهو يضرب لمن يفضل نفسه على أقرانه وثالثها « البدل منك أعور » يضرب لكل ما لا يرتضى به ، وأصله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلي وكان شحيحا أعور قال الناس هذا بدل أعور – ورابعها « رضي من الوفاء باللقاء » يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير – خامسها « وفي كل شجر نار وأستمجد المرخ والعفار» يضرب في تفضيل بعض المشتركين في صفة على بعض

يتولاك [١] ؟ والميلُ عمن لا يميلُ عنك ؟! ــ وهلاّ [٢] كان هواك [٣] فيمن هــواه فيك ؟ ورضاك فيمن رضاه لك ؟؟

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كلّ شيء بعدكم عدمُ

أعيذك ونفسي من أن أشيمَ [٤] خلـّبا [٥] ، وأستمطرَ جهامًا [٦] ، وأكدمَ [٧] في غير مَكدَم ، وأشكو شكوى الجريح إلى الغربان والرّخم [٨] فما أبسستُ [٩] لك إلا لتَدُرّ ، ولا حركت لك الحُوار [١٠] إلا لتحنّ ، ولا نبهتك إلا لأنام ، ولا سَريتُ إليك إلا لأحمدَ السُّرَى [١] لديك .

---

(١) مضارع تولاه صار وليه ١) كلمة تخصيص (٣ ميل النفس : بعد أن يبين له أنه لا يرضى سواه وأنه يفضل جواره على ما عداه وهو مع ذلك يعرض عنه ولا يميل إليه رجع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كاهو الأدب من حيث يقول كيف تتبرأ مني وأنا أواليك وتميــل عني وتهجرني وأنا لا اميــل إلا إليك وهلا هويت من يهواك ورضيت من يرضاك والبيت للمتنبي ٤) شام البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر (٥) البرق الذي لا يعقبه مطر . ٦) السحاب الذي لا ماء فيه . (٧ أعض (٧) طائر ضعيف (٩) الابساس : الرفق (١٠) ولد النــاقة (١١) السير ليلا ــ يطلب منه أن يجعل لأعماله نتيجة يجني ثمرتها وأن يكون سيده غارس دوحتها وأن لا يجعله كالمسيح المــاء من الصخر ، والمستجير عند كربته بعمرو والمستمطر الجهام والناظر الى البرق الخلب بل يرسل عليه عطفه مدراراً ، وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة ويقر عينا أضرها سهــاد الجفوة وأن يحمد إليه سراه ويحسن عقباه ، ولقد رصع عبارته بجواهر الأمثال وصاغها في قالب غريب المثل بشير فيها الى قول معد يكرب :

لا تهني بعد إكرامك لي فشديد عــادة منتزعه

لا يكن برقك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه

وإلى المثل العربي « كدمت في غــير مكدم » يضرب لمن يطلب شيئاً من غير أهله وإلى قول المتنبي :

ولا تشكو إلى خلق فتشمتهم شكوى الجريح الى العقبان والرخم

والى الأمثال العربية : « الإبساس قبل الإيناس » وهو يضرب في الرفق «حرك=

وإنك إن سنيت [١] عقد امرىء تيسر ، ومتى أعذرت [٢] في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة . وفضل الجاه [٣] يعوذ به صدقه .

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من مـــاله

لعلي ألقي العصا بـذاك [٤] وتستقر بي النوى [٥] في ظلك ، واستأنف [٦] التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجـالَ [٧] لحظه [٨] ولا أدع للقادح [٩] مساغ [١٠] لفظه .

= لها حوارها تحن » وهو يضرب في استنهاض الهمة ، و « لهـــا عمراً ثم نم » يضرب فيمن يعتمد على غيره، و « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو يضرب عند حمد العاقبة .

(١) سهلت (٢) بالغت في طلب العذر (٣) المنزلة - يقول لسيده : إني ما كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال ولا بعدد نجـــوم السماء ولا رمال الدهناء، وإنما هو أمر يكبر في عين سائله ويصغر عند باذله وهو في يدك وقبضتك وأنت قادر عليه وإن سهلت عسيره سهل وإن التمست المعذرة انتفت الصعوبة ،وأنت تعلم - زادك الله علماً - أن النعمة شجرة ثمرها المعروف وأن المروءة مال زكاتها الشفاعة وشفاعة اللسان أفضل زكاة الإنسان وبذل الجاه رفد المستعين - وأيد ذلك بالبيت بعده وقوله إن سنيت مأخوذاً من قول بشار :

فبالله ثق إن عز ما تبتغي وقـل إذا الله سنى عقـــد أمر تيسرا

(٤) كل ما استقرت به (٥) ما ينويه المسافر من قرب أو بعد (٦) ابتدى (٧) جال : طاف (٨) نظره (٩) الطاعن (١٠) ساغ : الشراب سهل مدخله في الحلق - يقول أرجو من سيدي أن يعفو عن ذنبي وتقصيري ويلبي ندائي، هذا كي أسكن في ظلك وكنفك ولا أذهب إلى غيرك وتكون غاية آمالي ومنتهى أسفاري وأتوب عما كنت مرتكبه ومتمسكاً به مما لا يرضيك وأتخلق بأخلاقك وأتمسك بطريقتك وأحذو حذوك واتبع مذهبك وبذلك لا يجد عدوي في مدار لحظه ولا الطاعن ما يسوغ من لفظه وقوله لعلي ألقى الخ حل بيت للمعز بن أوز وهو :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينـــا بالإياب المسافر

والله ُ مُيسّرك من إطلابي [١] بهذه الطَّلبة َ [٢] وإشكائي من هذه الشكوى [٣] بصنيعة تُصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مُستودع حسبا أنت َ خليق [٤] له ، وأنا منك حري ٌّ [٥] به ، وذلك بيده وهيّن عليه .

مكاتبات متفرقة

كتب رئيس الجمهورية التركية إلى إحدى الدول الأوروبية :

أيها الوزير الأفخم - إن لفظة تقسيم (تركيا) إفك ٌ لا يفوه به عاقل ، ولا يتصوره إنسان ، تكاد تنفطر له السماء دهشة ، وترتج له الأرض وحشة ، بل تخِر ّ دونه الجبال ، وتنفك عنده الآمال ، كأن أوربا تستطيعه ، ولكنها لم تفعله ولن تفعله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فـ « قل اللهُم ّ مالك الملك ، تُؤتي الملك َ من تشاءُ ، وتَنزع الملك َ ممَّن ْ تشاءُ ، وتُعِز ُّ مَن تشاء ، وتُذل ُّ مَن تشاءُ ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

تقسيم تركيا : كلمة ليست أكبر من أوربا فقط ، بل هي أكبر من منظومة هذا العالم الشمسي ، الذي تراه ، أو تسمع به ، إن كنت لا تراه ، فلا يليق ُ أن يفوه به إلا فم القدرة الإلهية « القائم على كل نفس بما كسبت ْ ، والله ُ غالب ٌ على أمره ، ولكن ّ أكثرَ الناس لا يعلمون » .

تقسيم تركيا : رُبما يكون ، ولكن متى يكون ؟ حينما يتحلى وجه البسيطة بدمائنا الطاهرة الزكية ، يوم ترى الأرض لابسة تلك الحلة الأرجوانية الثمينة ، حيث تتمشى الدّماء على فيروزج الفضاء ، محاطة كواكب الوجود بكتائب جنود العدم المطلق : لا أرض لمن تقِل ّ ، ولا سماء لمن تُظل ، ولا قائم موجود ، ولا دائم

---

(١) إسعافي (٢) ما أطلبه (٣) إزاء ما أشكوه (٤) جدير (٥) حقيق : يقول لسيده والحمد لله الذي سهل لك مطلبي وإسعافي وإزالة ما أشكوه من آلام السجن بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفتك وأنا أحق الناس به لمودتي لك وإخلاصي في ولائك وما ذلك عليك بعزيز :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع

مقصود – هنالك تتحدث شياطين الخيال في أندية المحال بحديث ذلك التقسيم المشئوم ، ولا من سميع ، ولا من مجيب ؛ فالويلُ ثم الويل يوم ذلك التقسيم الموهوم، والثبور ثم الثبور إذا تنزلت السماءُ بقضاء ذلك الهول المقسوم : « إنّ في ذلكَ لبلاغاً لقومٍ يتفكّرون » .

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في شكر صديق له على مراسلته إياه :

وصل ما وصلتَني به [1] (جعلني الله فداك) [2] من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنتك العامة [3] فقرت عيني بورُوده [4] ، وشفيت نفسي بوُفوده [5] ، ونشرته فحكى نسيم الرياض غبّ المطر [6]، وتنفسَ الأنوار في السّحر [7]، وتأملتُ مفتّتحه وما اشتمل عليه من لطائف كلمك ، وبدائع حكمك [8] ؛ فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك [9] ، وضرُوب الفضل منك [10] ؛ جدّاً وهزلا [11] ما ملأ عينيّ ، وغمر قلبي [12] ، وغلب فكري ، وبهر لبّي ، فبقيت لا أدري أسُمُوط دُرّ خصصتني بها [14] ؟ أم عقود جوهر منحتنيها [15] ؟ ولا أدري : أجدّك أبلغ وألطف ؟ أم هزلك أرفع وأظرف ؟ وأنا أوكّل بتتبع ما انطوى عليه نفساً

---

(١) ورد إلي كتابك الذي ربطتني به معك (٢) فداك : أي وضعني الله مكانك في كل مكروه حتى تخلص منه (٣) أي الذي ورد إلي هو خطابك الذي أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل (٤) فاطمأن قلبي بوصوله إلي (٥) وطابت نفسي بمجيئه إلي (٦) ونشرته أي فتحته فحكى نسيم الرياض غب المطر أي يشبه الريح التي تهب من البساتين بعدما نزل المطر عليها (٧) وأشبه تفتح الأزهار في أواخر الليل (٨) أي وتدبرت في صدره رقي الكلمات اللطيفة التي أودعتها فيه والحكم البديعة التي نثرتها فيه (٩ و ١٠) أي شاهدت منه أنواعاً من الإكرام أثبتها فيه ، وأصنافاً من الأفضال دونتها فيه (١١) من الأمور الهامة الجديدة والأمور المفرحة المازحة . (١٢) ملأ عيني : يعني صرفهـا عن النظر إلى غير إحسانك – وغمر قلبي أي : لم يدع له منصرفاً إلى غير أفضالك (١٣) وغلب في فكري أي : استحوذ على عقلي ، وبهرني أي راع عقلي وسباه (١٤) أي عقود در قصرتها علي (١٥) ومنحتنيها أي أعطيتنيها .

لا ترى الحظ إلا ما اقتنيته منه [١] ، ولا تعدّ الفضل إلا فيما أخذته عنه ، وأمتّع بتأمله عيناً لا تقرّ إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويرد من عندك ، وأعطيه نظراً لا يمله ، وطرفاً لا يطرِف دونه [٢] ، وأجعله مثالاً أرتسمه وأحتذيه [٣] ، وأمتع خلقي برونقه ، وأغذي نفسي ببهجته ، وأمزج قريحتي برقته ، وأشرح صدري بقراءته ، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً ، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً ، لقد عرفت أنه ما سمعت به من السِّحر الحلال .

ومن كتاب المرحوم السيد توفيق البكري في سفرته إلى الآستانة العلية :

كتابي إلى السيد الأجل ، وأنا أحمد الله إليه ، وأدعوه أن يديم النعمة والسلامة عليه ، وبعد : فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام ، إلى قبّة السلام ، ودار خلافة الإسلام ، وفارقت مصر ، وساكنها ، وأرباضها [٤] ، ومواطنها ، ركبت سفينة عَدَوْلية [٥] إلى الثغور الفرنجيّة ؛ فجرت في خضم [٦] عجاج ، ملتطم الأمواج ، له دَويٌّ من جرجرة [٧] الآذي [٨] أخضر الجلد ، كأنه إفرند [٩] تصخب [١٠] فيه النينان [١١] ، وتجري في جوفه الدعاميص [١٢] والحيتان ، إذا مازجه الأصيل [١٣] بالعشي خلتّه كُسْتِرت [١٤] عليه الحُلى ، أو مُزج بالرحيق [١٥] القُطْرُبُليّ [١٦] ، وإن لاحت به نجوم السماء ، خلته صفائح من فضة بيضاء سمرت بمسامير صغار نُضار [١٧] ، وأخذت السفينة تشقّ عُبابه [١٨] ، وتفلق حَبابه [١٩] بين ريح رُخاء [٢٠] ، أو زَعزَع [٢١] هوجاءَ [٢٢] ؛ فهي تارة في طريق مُعبد [٢٣] ،

(١) اكتسبته (٢) الطرف العين ، يطرف : يطبق جفناً على الآخر (٣) أرسمه في فكري وأقتدي به (٤) مساكنها (٥) نسبة إلى قرية عدولى بالبحرين أو نسبة إلى صانعها ، والمقصود أنها أضخم سفينة (٦) البحر (٧) الصوت (٨) الموج (٩) جوهر السيف (١٠) تختلط أصواتها (١١) جمع نون وهو الحوت (١٢) جمع دعموص دودة لها رأسان ترى في الماء اذا قل (١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس (١٤) رددت ووضعت (١٥) الخمر (١٦) بضم القاف وسكون الطاء وضم الراء وتشديد اللام الخمر المنسوب إلى قطر بل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالخمر الجيدة (١٧) الذهب (١٨) الموج (١٩) بفتح الحاء ما يعلو (٢٠) بضم الراء الريح اللينة (٢١) بفتح الزاي الريح الشديد (٢٢) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت (٢٣) مذلل ومسهل .

ورميث [١] مُسَرَّد [٢] ، وطوراً فوْق حَزْن [٣] وقرْدَد [٤] ، أو على صرْح [٥] مُمرّد [٦] ، وكان معنا في الفُلْك رَهط من العرب والتُرك، فكنا نتوارد معهم في جوائب [٧] الأخبار ، وطُرف [٨] الأحاديث والأسمار [٩] ، ما يُزْري [١٠] بالمنهل العَذْب ، واللؤلؤ الرطب ، إلى أن يميلَ ميزان النهار ، وتغرق ذُكاء [١١] في البحار ، ويُمسي الكونُ من السواد ، في لَبُوس حديد [١٢] أو لِباس حداد ، وتَبرُق نجومُ السماء في أكناف الظّلماء ، كأنها سِكاك [١٣] دِلاص [١٤] ، أو فلقُ رَصاص ، أو عيون جراد ، أو جمرٌ في خلال رماد ، أو دُرٌّ في بحر أو ثُقبٌ في قُبّة الدَيْجُور [١٥] ، يلوحُ منها النور ، ويبدو الهلال كأنه خنجرٌ من ضياء ، يَشُقُّ طيالس الظلماء ، أو قلادة أو دِمْلُج [١٦] غادةٍ [١٧] ، أو سِنان [١٨] لواء الضرّاب ، أو الليل فيل وهو ناب ، فنأخذ مجلساً نَسَمه [١٩] الكافور ، وأرضهُ عنبر مذرُور [٢٠] رُقِمَت فيه زرابيُّ مبثوثات [٢١] ، ومنابذ [٢٢] ، وحُسْبانات [٢٣] ، وأنماطٌ [٢٤] مفروشة ، وبُسط منقوشة :

بُسط أجادَ الرسمَ صانِعُها وزها عليه النقشُ والشكلُ
فيكاد يُقطَف من أزهارها ويَكاد يسقط فوقها النحلُ

وحولهُ شموع تزهو ، وأضواءٌ تبهر [٢٥] ، وقد دارت عليه سُقاةٌ [٢٦] ،

(١) الأرض السهلة (٢) منتظم لا صعوبة فيه (٣) الأرض الصعبة (٤) الأرض المرتفعة الغليظة (٥) القصر (٦) مرد البناء : ملسه حتى صار ناعماً (٧) الأخبار الطارئة (٨) المحاسن (٩) الأحاديث وأصله لأحاديث الليل (١٠) يعيبه ويحقر (١١) بضم الذال ممنوعة من الصرف اسم للشمس (١٢) بفتح اللام الدرع (١٣) جمع سك المسمار (١٤) بكسر الدال الذي يبرق ويلمع (١٥) الظلام (١٦) بكسر الدال وزن درهم أو بضمها مع ضم اللام : حلي للنساء يلبسنه في أيديهن (١٧) المرأة الناعمة لينة الاعطاف (١٨) حديدة الرمح (١٩) نسيمه (٢٠) منشور (٢١) منشورات (٢٢) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التي يتكأ أو ينام عليها (٢٣) جمع حسبانة الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها أيضاً (٢٤) جمع نمط ، ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون من الألوان (٢٥) تزهر وتبهر كلاهما بمعنى تضيء وبابهما منع (٢٦) جمع ساق .

كجُمَّاع [١] الثريا [٢] ، بأقداح الحُميّا [٣] ، وأكوابِ [٤] الفانيذ [٥] المروّق ، وقوارير [٦] الجُلاب [٧] المُصفّق [٨] ، ثم تجيء قينةٌ [٩] في يدها ناي ، كأنه صور إسرافيل ، يحيي الرفات [١٠] ، وينشر [١١] الأموات ، حتى إذا بدأ الضياء ، كابتسام الشفة اللمياء ، دخلنا المضجع لنهجع ، وهلمّ جرّاً [١٢] ، في أيامنا الأخرى .

وكتبت السيدة وردة اليازجية إلى السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ :

سيدتي ومولاتي — أعرض أنني بينما أنا ألهج بذكر ألطافكم السنية ، وأتنسّم شذا أنفاسكم العبقرية ، وأترقّب لقاء أثر من لدنكم يتعلل به الخاطر ، ويكتحل بإثمدِ مداده الناظر .

وصلتني مكاتبتكم ، فجلَت عن العين اقذاءها ، ووردت الى النفس صفاءها ، فتناولتها بالقلب لا بالبنان ، وتصفحتُ ما في طيها من سحر البيان ؛ فقلت :

هذا الكتاب الذي هامَ الفؤاد به   يا ليتني قلمٌ في كف كاتبه

ولعمري إنه كتاب حوى بدائع المنثور والمنظوم ، وتحلّى من درر الفصاحة فأخجل لديه دراري النجوم ، وقد تطفلتُ على مقامكم العالي بهذا الجواب ناطقاً بتقصيري ، وضمّنتُه من مدح سجاياكم الغرّاء ، وما يشفع لدى مكارمكم في قبول معاذيري ، لا زلتم للفضل معدناً ، وللأدب كنزاً وفخراً .

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣١٣ هـ :

أستهلُّ براعة سلامٍ حَمَل الشوق وسالته ، وتقلدَ الشفق ما نشقتْ ناشقةُ عَرْفِ الوداد كفالته ، ولو رضيت الجمال ، في صدق المقال ، لنطق بخالص الوفاء

---

(١) بالضم ما جمع وانضم بعضه إلى بعض ومراده الغلمان (٢) سبعة كواكب منضمة بعضها إلى بعض (٣) الخمر والمراد الشراب (٤) جمع كوب الكوز المستدير الرأس لا عروة له أو لا خرطوم (٥) نوع من الحلوى فارسي معرب بانيذ.
(٦) جمع قارورة : ما يوضع فيها الشراب من الزجاج (٧) ماء الورد فارسي معرب
(٨) المروق الصافي (٩) المغنية (١٠) الحطام البالي ، والمراد الأموات (١١) يحييها
(١٢) معناه اتصال الأمر واستدامته .

مِدادُ حروفه، وأقام بأداء التحية العاطرة قبل فضّ ختام مظروفه، ولعَمري قد تَوَّجَتْه أزهار الثناء، بلآلىء غرّاء، وكللته زواهر الوفاء، من خالص الوداد إلى حضرة من لاتزال تستَروح الأسماع بنسيم أنبائها صباح مساء، وتتشوّق الأرواح إلى استطلاع بدرِ إنسانها الكامل أطرافاً وآناءً، ومما زادني شوقاً إلى شوق، حتى لقد شبَّ فيه طفل الشفق عن الطوق، اجتلائي حديقة «الورْد» القدسية ونافجة الأدب المسكيَّة؛ فياهامن حديقة رَمتها أحداق الأذهان، فاقتبست نَوراً ونُوراً وانتشقَتْها مسامُّ الآذان، فتملت طرباً وسروراً، ومنذ سرّحتُ في أرجاء تلك اليانعة إنسان العيون، وشرحت بأفكار البصيرة أسرار ذلك الدُّرّ المصون، لم أزل بين طَرَبٍ أتَوَشَّح بوِشاحه، وأتعجَّبُ من حسن اختتامه وافتتاحه، وجعلت أغازل من نرجس تلك الروضة عيوناً ملكتْ مِنّي الحوَاس وهَصَرَتْ من غصون ألفاتها كل ممشوق أهيف مَيّاس، وأتأدب في حضرة وردها خوفاً من شَوكة سلطانها، وأن حياتي بجميل الالتفات ضاحكةً عن نفيس جُمانة، وإذا بالياسمين الغضّ قد ألقى نفسه على الثرى ونادى بلسان الأفصاح: هل لهذه النضرة نظيرة يا تُرى؟! فأشار المنثور بكفِّه الخضيب أن لا نظيرَ لتلك الغادة، ونطق الزنبق بلسان البيان: لا تكتموا الشهادة، فعندذلك صفَّق الطير بأكف الأجنحة وبَشَّرَ، وجَرَى الماءُ لإذاعة نبإ السرور فعثرَ بذَيْلِ النسيم وتكسَّرَ، وتمايَلتْ أغصانها المُورقة لسماع هذا الحديث، وأخذتْ نسماتُها العاطرة في السير الحثيث إذاعةً لتلك البشائر في العشائر، ونشراً لهذه الفضائل التي سارت مسير المَثل السائر، فقلت بلسان الصادق الأمين، بعد تحقُّق هذا النبإ اليقين، هكذا هكذا تكون الحديقة وإلا، وكذلك كذلك لتُكتب الفضائل وتملى:

وحدَّثتَني يا سعد عنهم فزدتني غراماً فزدْني من حديثك يا سعد

فتحمَّل عني أيها الصديق تحيةً إلى ربّة هاتيك الحديقة، واشرح لديها حديث شغفي بفضلها الباهر على الحقيقة، واعتذر عن كتابي هذا فقد جاء يمشي

على استحياء ، وكلما حركه الشوقُ يُبطئُهُ الحياء . وكيف وقد حل في منبع الفضائل والمقام لم يَدَعْ مقالاً لقائل، فكأني إنما أهدي التمر إلى هَجر ،وأمنحُ البحرَ الخِضَمَّ بالمطر ؛ أدام الله معالي تلك الحضرَة ، وزادَها في كل بهجة ونَضرَة ، ما لاح جبينُ هلال ، وبلغ غاية الكمال .

وكتب المرحوم السيد عبدالله النّديم سنة ١٣١٤ هـ :

أُستاذي و قُدوَتي ، ومَلاذي و عُمدتي — ربَّيتَ ، فأحسَنتَ ، وَغذّيتَ ، فأسمَنتَ ، مؤدّباً ليثاً ، ولِنت فسوّدت ، وجُدتَ فعوّدتَ ، مُهذّباً غيثاً ، وعلمتُ فأفهمت ، وأشرت فألهمت غرض سَهمك ، وقد نلتَ ما أمّلتَ ، فيمَن عليه عوّلت بحُسْن فهْمك :

غلامُك الشهير بالنّديم مَنْ صارَ في البيان كالنّسيم

وكيفَ لا يكونُ لساني قوسَ البديع ، وكلامي السّهم السّريع ،وأنت باريه ورامِيه ! أم كيف لا يكون مقامي الحِصْنَ المنيع ،وقَدْري العزيز الرّفيعَ ، وأنت مُعليه وبانيه ! فوجْهُ جمالِ العلم أنتَ غُرّته ، وإنسانُ عينِ العلمِ أنتَ قُرّته ، وحاليه وجاليه . وجبينُ العقل أنت طُرّته ، وكتاب الفَضْل أنت صُورته ، وطاليه وتاليه :

على بابك العالي من الفضل رايةٌ على رأس أرباب المعارف تخفق
فعلمك جنّاتٌ وحلمك جُنّةٌ وكُلُّكَ خيراتٌ وغَيْثُكَ مغدق
أرَى غصنَ من يدعو إلى الفضل نفسه من الفَضل عرياناً وغصنك مورق
إذا رُمْتَ إنشاءً فعن صدْقِ فكرة تهادى بأبكارٍ وغيرك يسرق

وكتب أيضاً في التوَدُّد :

بينما أنا راكبٌ لجة بحر الفِكر ، مُجدٌّ في طلب فريدة بِكر ، تارة أغوص وَمرّةً أَسبحُ وآونةً أقفُ وطوْراً أُصفح ، لايقرُّ لي قرار ، ولايمكنني الفرار ، ولا يقْصرعن طرْحِ شِباكي ذراعٌ ، ولا يُطوَى لسفينتي شِراع ،كلما أدركني الملل

هاجت عليَّ رياحُ الأمل ، حتى دخلتُ في بحر عجّاج ، متلاطم الأمواج ، فاقتحمت هذا المركبَ الصعب ، وتهتُ بين الجزائر والشعب ، فتعلّقت أفكاري بالسّواري والحبال ، وبتُّ بليلة نجومها كواحل ، لا يُرى فيها برٌّ ولا سواحل ، وقلتُ : اشتدادُ الأمر يستدعي ضده ، ولا يأتي الفرجُ إلا بعد الشدّة ؛ وعينيك ما سلّ سيفها على مفرقِ مساها ، حتى سمعت باسم الله مجريها ومرساها ، فكان من تمام حظي وسعودي ، أن تركت لجّة اليمّ واستوت على الجودي ، وانصرف خوفي وارتباكي ، وبادرتُ بطرح شباكي ، فإذا قد مُلئت بأصداف الجوهر ، وعلقت بها شجرة العنبر ، فتفتح الصدف عن دُرٍّ يستخدمُ الأقمار ، وفاح العنبر بما أذهب شذيّ الأزهار

وصرت ما بينهما كِسرى الزّمانِ له شمسٌ تنادمُه في مجلس عطرِ
ونلتُ أقصى أمان كنت آملها الأنس في خلدي والنور في نظري

ولما جلوت الطرف ، بما فيها من الظرف ، ووقعت عندي الموقع الحسن ، أردت أن أسومها بثمن ، فإذا هي دُرّة يتيمة ، لا يقدر لها أحدٌ على قيمة ، فاستهديتها من ربّها ، لشغفي بحبّها ، وجعلتُ القلبَ لها كنزاً ، والفؤادَ لها حِرْزاً ، ألا وهي (محبّة العزيز الحافظ) أبدع مرئيّ وأبلغ لافظ .

وكتب إبراهيم بك المويلحي المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ يعزي محمود باشا البارودي :

أنت يا فوق أن تُعزّى عن الأحبا ب فوق الذي يُعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذي له قلتَ قبلا
وقتلت الزّمان علماً فما يغر ب قولاً ولا يُجدّد فعلا

نعم إنك يا « محمود » الخصال و « سامي » الفِعال ، لأنتَ الشهم المُجرّب لصروف الحدثان ، والعالم الخبير بأحوال الزمان ، قد أعددتَ لنوازل المقدور نُزُلاً من الصبر المأجور ، وصرفت ضيف الشجون والهموم ، إلى قرى الفضائل

والعلوم ، وأخذت بِسُنَّة السَّلف الصالح ، في مقابلة الخطوب الفوادح ، وأنت لا شك عندنا آخذ فيما دهمك اليوم من المصاب العظيم ، بسيرة ذلك الفيلسوف الحكيم بينما هو جالسٌ يوماً في الدّرس بين تلاميذه ، إذ جاءه من أخبره بأنّ ابنه الوحيد مات ، وهو رَطب الشباب غضُّ العُمر ، فلم يتولّه الفزَع ، ولم يظهر عليه الاضطرابُ ، ولم يَبدُ على وجهه الكدَر ، وما زاد على أن استرجع ، واستمرّ في قراءة درسه كما كان فلما انتهى منه بادره أحد الحاضرين من أصحابه ممّنْ حيَّرتهم الدّهشة في أمره ، يسأله : كيف لم يسلبُه الحزنُ ثوب الثّبات بُرهةً عند مُفاجأته بالخبر ؟ فقال له : « لو فاجأتني النّازلةُ على غِرّة مني لجزعتُ وحزنتُ ولكني ما زلتُ أُقَدّرُ لابني مُنذُ يوم ولادتهِ ، حُلول أجله في كل يوم من أيام حياته ، ولمثلِ هذا اليوم كنت أعدّه من زمانٍ طويلٍ ، وكان كلما مضى عام من أعوامه اعتبرتُه خُلسة اختَلَستها من الدّهر ، حتى مضى على هذه العارية عشرون عاماً ، فشُكري للهِ اليوْم على أن أبقاها في يدي طول هذه المدّة ، يوم مقام الحزْن عندَ غيري لدى استردادها » ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا ماتَ ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : أقبَضتُم ولدَ عبدي ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أقبضم ثمرَة قلبه ؟ فيقولون : نَعم . فيقولُ الله تعالى : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدَك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » وأنت يا محمود — صلوات الله عليك ورحمتُه لقوله تعالى : « ولنبلونّكم بشيء من الخوْف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفس والثّمرات ، وبشّرِ الصّابرين الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون ، أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ، وأولئك هُمُ المُهتَدُون » أوّل مَنْ يَمتثل لحكم القضاء ، ويسترجع عندَ نزُول البلاء ، ويعملُ بأدب الدين في التّجلّد والتّصبر ، ويأخذُ بسيرة الحكماء في التدبّر والتّبصّر :

ومن كان ذا نفس كنفسك حُرّةٌ ففيه لها مُغنٍ وفيها له مُسل

وكتب سهل [١] بن هرون المتوفى سنة ٦٤٩ في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس : معشر بني تميم ؛ لا تسرعوا الى الفتنة ، فإن أسرع الناس الى القتال ، أقلهم حياء من الفرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمة ، فتأمل عياباً . فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مرشداً ، وأن تغري بمشفق ، وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقديم فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، وما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم ، وقد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم ، ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » فما كان أحقنا منكم في حرمتنا بكم ، أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر ، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً .

عبتموني بقولي لخادمي : أجيدي العجين فهو أطيب لطعمه ، وأزيد في ريعه [٢] وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « املكوا [٣] العجين ، فإنه أحد الريعين » .

وعبتموني حين ختمت على ما فيه شيء ثمين من فاكهة رطبة نقية ، ومن

---

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون وقد وضع كتاباً حاكى به كتاب « كليلة ودمنة » وسماه « ثعلة وعفرة » وكان قيم بيت الحكمة « مدير دار الكتب » في عهد المأمون .

(٢) الريع النماء والزيادة (٣) إملاك العجين : إنعام عجينه .

رُطبة غريبة، على عَبدٍ نَهِم، وصَبي جَشِع، وأَمَة لكعاء[١]، وزوجةٍ مُضيعة.

وعبتُموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مِزود سَويق[٢] وعلى كِيس فارغ. وقال: «طينة خير من ظِنّة»[٣] فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتُم من ختم على شيء.

وعبتُموني أن قلت للغلام: «إذا زدتَ في المرَق فزدْ في الإنضاج، ليجتمع مع التأدّم باللحم طيب المرق».

وعبتُموني بخَصْف[٤] النعل، وبتصدير[٥] القميص، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشد، وإن الترقيع من الحزم، والتفريط من التضييع، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ويرقّع ثوبه، ويقول: «لو أهدي إليّ ذراع لقبلت، ولو دعيت إلى كُراع لأجبت». وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يَلبَس الخَلِق، وبعث زياد رجلا يرتاد له مُحدّثا واشترط عليه أن يكون عاقلا، فأتاه به موافقا، فقال له: أكنت به ذا معرفة؟ قال: لا. ولكنني رأيته في يوم قائظ، يلبس خلقا، ويَلبَس الناس جديداً. فتفرّست فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الخَلِق في موضعه، مثل الجديد في موضعه، وقد جعل الله لكل شيء قدْراً، وسما به موضعاً، كما جعل لكل زمان رجالا، ولكل مقام مقالا. وقد أحيا الله بالسم، وأمات بالدواء، وأغص بالماء. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة؛ ولبس سالم بن عبدالله جلد أضحية. وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أهدي إليك دجاجة، فقال: إن كان لابد فاجعلها بَيوضا.

---

(١) اللكعاء: الحمقاء (٢) المزود: وعاء الزاد والسويق: شراب يتخذ من الحنطة أو الشعير (٣) طينة من طان الشيء أي ختمه بالطين و«طية» من الطوى وهو الجوع (٤) خصف النعل: خرزها (٥) تصدير القماص: أن يجعل لصدره بطانة.

وعِبتمُوني حين قلت : من لم يَعرف مواضع السَّرَف في الموجود الرخيص لم يَعرف مواضعَ الاقتصاد في الممتنع الغالي . ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشدّ من الكفاية ، فلما صِرْت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التَّوْفير عليها من وَضيعة [1] الماء ، وجَدْت في الأعضاء فضلاً عن الماء ، فعلمت أنْ لوْ كنت سَلكت الاقتصادَ في أوائـله لَخَرج آخره على كِفاية أوّله ، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر . فعبتموني بذلك وشَنّعتم عليّ ، وقد قال الحسن : وذكر السرف : « أمَا إنه ليكونُ في الماء ، والكلأ » فلم يرْض بذكر الماء حتى أردفَه الكلأ .

وعبتموني أن قلت : لا يَغترّنَّ أحـدكم بطول عمره ، وتَقوّس ظهـره ، ورقّة عظمه ، ووهْن قوّته . وأن يرى نحوه أكثر ذرّيّته ! فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويـله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السَّرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمّراً وهو لا يدري ، وممدوداً له في السن وهو لا يشعرُ . ولعـله أن يُرْزق الولدَ على اليأس ، ويَحدُث عليه من آفات الدهر ما لا يخطُر على بال ولا يُدْركه عقـل ، فيستردّه ممن لا يرده ، ويَظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أصعبَ ما كان عليه الطـّلب ، وأقبَح ما كان به أن يُطلب ، فعِبتُموني بذلك . وقد قال الأول :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وعبتموني بأن قلت : بأن السَّرَف والتبذير إلى مال المواريث ، وأموال الملوك ، وإلى ما لا يُعمّرّض فيه بذهاب الدين . واهتِضام العِرْض ، ونَصْب البَدن واهتضام القلب أسرع ، وأن الحفظ للمـال المكتسب ، والغنى المجتَلب أقرب ، ومن لم يَحْسِب نفقته لم يحْسِب دخله ، ومن لم يحْسِب الدخل ، فقد أضاع

---

(١) الوضيعة هنا : النقص .

الأصل ومن لم يعرف للغنى قدره ، فقد أُوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذلّ .

وعبتموني بأن قلت : إنّ كَسْب الحلال ، يضمّن الإنفاق في الحلال ،وإن الخبيثَ يَنزِع الخبيث ، وإن الطيّب ، يدعو إلى الطيّب ، وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الهُدى ، فعبتم عليّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرَ تبذيراً قط إلا وإلى جَنْبه تَضييع ، وقد قال الحسن : إن أردتم أن تَعرفوا من أين أصابَ الرجل مـــاله ، فانظروا فيماذا يُنْفِقه ، فإن الخبيثَ إنما يُنفق في السرف ، وقلت لكم بالشّفقة عليكم ، وحُسْن النظر منّي لكم ، وأنتم في دار الآفات ، والـحَوائج غير مأمونات فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يَرْجِع إلا إلى نفسه ، فاحذروا النّقم باختلاف الأمكنة فإن البليـــة لا تجري في الجميـع ، إلا بموت الجميـع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبدوالأمة والشّاه والبعير :فرّقوا بين المنايا . وقد قال ابن سيرين لبعض البَحْريين : كيف تَصنَعون بأموالكم ؟ قالوا نُفَرّقها في السفن : فإن عَطِب بَعض سلم بَعض ،ولولا أن السلامة أكثر ما حَمَلْنا أموالنا في البحر ، قال ابن سيرين «تحْسبها خرقاء وهي صَناع [1] » .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم : إن للغنى لسُكرا ، وللمـــال لنزْوة [2] ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره ، فقد أضاعه ، ومن لم يرْتبط المالَ بخوف الفقر فقد أهمَله .

فعبتموني بذلك ، وقد قال زيد بن جَبَلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنيٍّ أمِنَ الفقر ، وسُكر الغنى أكثر من سُكر الخمْر ، وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد ابن برْمَك :

وَهوبٌ تِلاد المال فيما يَنوبه ... مَنوعٌ إذا ما منعه كان أحزما

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يفاد العـــلم ،

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقظ .

(٢) النزوة : الثورة — أو الوثبة .

وبه تقوّم النفس ، قبل أن تعرف فضل العلم . فهو أصل ، والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع . فقلتم : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لِمَعْرفة العلماء بفضل المال ، وجهل الأغنياءِ بحق العلم. فقلت : حالها هي القاضية بينهما : وكيف يَستوي شيء حاجةُ العامة إليه ، وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض ؟؟

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمُر الأغنياء باتخاذ الغَنَم ، والفقراء باتخاذ الدّجاج . وقال أبو بكر رضي الله عنه : إني لأبغض أهل بيت يُنفِقون نفقة الايام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده : إذا بَسط الله لك الرزق فابْسط ، وإذا قبض فاقْبض .

وعبتموني حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احْتيج إليها استُعمِلت ، وإن اسْتغني عنها كانت عُدّةً . وقد قال الحُصيْن ابن المُنذِر : وَدِدْت أنّ لي مثل أُحُدٍ ذهبا لا أنتفع منه بشيء. قيل له : فما كنت تصنَع به ؟ قال : لكثرة من كان يخدُمُني عليه ، لأن المال مخدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب الغِنَى : فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزّ في قلبك وذلّ في قلب عَدُوّك ، لكان الحظّ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لأصحاب اللهو ولستم عليّ تردّون ولا رأيي تفَنّدون . فقَدّموا النظر قبل العَزْم . وأدرِكوا مالكم قبل أن تُدْرِكوا مآلكم . والسلام عليكم .

الكلام على الرسالات العلمية

الرّسالات العلمية ، هي : مقالاتٌ في المطالب العلمية أو المسائل الأدبية ، وإنّما سمّيت بالرسالات ، لأن أصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم ، ويسلك

فيها صاحبها مناهِج الاسترسال ، والمخاطبات البَليغة . وقد أفردنا لها كتابنا « أسلوب الحكيم – في منهج الإنشاء القويم » فارجع إليه إن شئت .

الفن الثاني في المناظرات

للمناظرة ثلاثة شروط : (الأول) : أن يُجمَع بين خَصمين متضادّين ، أو مُتباينين في صفاتهما ، بحيث تظهر خواصُّها كالرّبيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاء . (والثاني) : أن يأتي كلٌّ من الخصمين في نصرتهِ لنفسهِ ، وتفنيد مزاعم قِرْنه ، بأدلّة من شأنها أن تَرفَع قَدْره ، وتحُطّ من مقام الخصم ، بحيث يميل بالسّامع عنه إليه . (والثالث) : أن تُصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسناً . وتُرتّب على سِياق مُحكم ليزيد بذلك نشاط السّامع ، وتنمى فيه الرّغبة في حلّ المشكل .

ولنذكر لك عليها شذرات من أقوال الكُتّاب فنقول :

مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان في شأن العرب

رَوى ابن القُطامي عن الكَلْبي قال: قَدِم النعمان بن المنذر على كِسرى : وعنده وُفود الرّوم، والهند، والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم – فافتخَر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم ، لا يَستَثْني فارسَ ولا غيرها ، فقال كِسرى وأخَذَتْه عِزّة المُلك: يا نعمان، لقد فكّرْتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حالة من يَقْدِم عليّ من وُفود الأمم–فوجدت للرّوم حظّاً في اجتماع أُلفتها، وعظم سُلطانها، وكثرة مدائنها وَوثيق بُنيانها. وإنّ لها دِيناً يُبَيِّن حلالها وحرامها، ويردّ سَفيهها ويقيم جاهها–ورأيت الهند نحواً من ذلك في حِكمَتها وطِبّها، مع كثرة أنهار بلادِها وثمارها ، وعجيب صناعتها، وطيب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددِها، وكذلك الصّين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفُروسيّتها، وهِمّتها في الحرب وصناعة الحديد، وأن لها مُلكاً

يجمعها - والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيهم، وتدبر أمرهم؛ ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم، ولا قوة؛ ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها، وصغر همتها، محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قدخرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها، وسوء طعمها، وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها وشد مملكتها، ومنعها من عدوها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً، وقرى وحصوناً، وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعني اليمن).

ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من المذلة، والقلة، والفاقة، والبؤس، حتى تفتخروا، وتريدوا ان تنزلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك. حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها، ويعظم خطبها، وتعلو درجتها، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه، ولا تكذيب له، فإن أمنني من غضبه نطقت به. قال كسرى: قل فأنت آمن، قال النعمان: أما أمتك أيها الملك: فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها، وبحبوحة عزها، وما اكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها. قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها.

فأما عزها ومنعتها، فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد

وَوطّدوا المُلكَ ، وقادوا الجُند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم يَنلْهم نائل ، حصونُهم ظهور خيلهم ومِهادُهم الأرض، وسقوفُهم السماء، وجُنَّتهم السُّيوف، وعُدّتهم الصبر — إذ غيرُها من الأمم ، إنما عِزُّها الحجارة والطين، وجزائر البُحور .

وأما حُسن وُجوهها وألوانها ، فقد يُعرَف فَضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحَرِفة ، والصِّين المنحَفة ، والتُّرك المشوَّهة ، والرُّوم المقَشَّرة .

وأما أنسابُها وأحسابُها : فليست أُمّة من الأمم إلا وقد جَهِلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى أن أحدَهم ليُسأل عمَّن وراء أبيه دنيا فلا يَنسُبه، ولا يعرفه . وليس أحد من العَرَب إلا يُسمّي آباءه أباً فأباً ، حاطوا بذلك أحسابهم ، وحَفِظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا يَنتسب إلى غير نسبه ولا يُدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها : فإن أدناهم رَجلاً الذي تكون عنده البَكْرة والنّاب ، عليها بَلاغه في حموله ، وشِبَعه وريه ، فيَطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ، ويجتزي بالشَّرْبة فيعقرها له ، ويَرضى أن يَخرج عن دنياه كلّها فيما يكسبه حُسْن الأحدوثة ، وطيِّب الذِّكر .

وأما حِكمة ألسنَتهم : فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم، ورَونق كلامهم وحسنه ووَزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضَرْبهم للأمثال وإبلاغهم في الصِّفات ما ليس لشيءٍ من ألسنة الأجناس — ثم خيلهم أفضل الخَيْل ، ونساؤهم أعفُّ النِّساء ولباسُهم أفضل اللِّباس، ومَعادِنُهم الذّهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع ومطاياهم التي لا يُبلغ على مِثْلها سَفرٌ ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قَفْرٌ .

وأما دينها وشَريعتها : فإنهم مُتَمسكون بـه حتى يبلغ أحدُهم من نسكه بدينه أن لهم أشهُراً حرماً وبلداً محرَّماً، وبَيتاً محجوباً، ينسكون فيه مناسكَهم، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيَلقى الرجل قاتلَ أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره وإدْراك رَغْمه منه، فيحجزه كرَمه ويمنعهُ دينه عن تَناوله بأذى .

وأمَّا وفاؤها : فإنَّ أحدَهم يلحظ اللحظةَ ، ويومىء الإيماءةَ ، فهي وَلْتٌ (أي عهدٌ) وعُقدةٌ لا يَحلها إلا خُروج نفسه ، وإنَّ أحدَهم يَرفعُ عوداً من الأرض فيكون رَهناً بدينه ، فلا يَغلق رهنُه ، ولا تخفر ذِمَّته . وإنَّ أحدَهم ليَبْلُغه أنَّ رجلا استجـارَ به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيُصاب فلا يرضى حتى يُفني تلك القبيلة التي أصابَته ، أو تَفنى قبيلته لما أخفِرَ من جواره . وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفُسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأمَّا قولك أيها الملك يَئِدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار ، وغَيْرة من الأزواج .

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له ، فعَمَدوا إلى أجلّها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثرُ البهائم شُحوماً ، وأطيَبُها لحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شيء من اللُّحمان يُعالج ما يعالج به لحمُها إلا استبان فَضلها عليه .

وأمَّا تحارُبهُمْ وأكل بعْضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرَجل يسوسهم ويَجْمَعُهُمْ فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنِست من نفسها ضعفاً ، وتخوَّفت نُهوض عدوّها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهلُ بَيت واحدٍ يُعرَف فضلُهم على سائر غيرهم ، فيُلقون إليهم أمورَهم ، ويَنقادون لهم بأزِمَّتهم .

وأما العرب فإنَّ ذلك كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوَطْث (أي الضرْب الشَّديد بالرِّجل على الأرض) بالعَسف .

وأما اليمن التي وَصفها الملك ، فإنما أتى جَدَّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على مُلك مُتَّسق ، وأمر مُجتمع ، فأتاه مسلوباً طريداً مُستَصرِخاً ، ولولا

ما وُتِر به مَنْ يليه من العرَب لمال إلى مجال ، ولَوَجَدَ مَنْ يُجيد الطّعان ، ويَغْضَب للأحرار ، من غَلَبة العَبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهلٌ لموْضعك من الرّياسة في أهل إقليمك ، ثم كساه من كسوته وسرّحه إلى موْضعه من الحيرة.

فلمّا قدِم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِن تَنَقُّص العرب وتهجين أمرِهم ، بعث إلى أكثم بن صَيفي ، وحاجب بن زُرارة التميميين ، وإلى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود البَكرِيّيْن ، وإلى خالد بن جعفر ، وعلْقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عَمرو بن الشّريد السُّلمي ، وعمرو بن معْدِيكرِبَ الزّبيدي ، والحارث بن ظالم المُرّيّ — فلما قدِموا عليه في الخَوَرْنَق قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقُرْب جِوار العَرب منها ، قد سمعتُ من كسرى مقالات ، تَخَوَّفت أن يكون لها غوْرٌ ، أو يكون إنما أظهرَها لأمر أرادأنْ يتخذبه العَرب خَوَلاً كبعض طماطمَتِه في تأديتهم الخراج إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذينَ حوْلهُ — فاقتصّ عليهم مقالات كسرى ، وما رَدّ به عليه فقالوا : أيُّها الملك وفقك اللهُ ، ما أحسن ما رَدَدْتَ ، وأبلغ ما حَجَجْتَه ، فمُرنا بأمرك ، وادْعُنا إلى ما شئت .

قال : إنما أنا رَجلٌ منكم ، وإنما مَلكتُ وَعززْتُ بمكانكم وما يتخوّف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبّ إليّ مما سدّد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عِزّكم والرّأي أن تسيروا بجماعتكم أيُّها الرّهطُ ، وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم : نَطق كلُّ رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرَب على غيرما ظنّ ، أو حدّثته نفسه ، ولا ينطق رَجل منكم بما يُغضبُه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان ، مُترَف مُعجَبٌ بنفسه ، ولا تَنخذلوا له انخذال الخاضع الذّليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به دَماثةُ حلُومكم ، وفَضل منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن

أول من يَبْدأ منكم بالكلام (أكثم بن صيفي) ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها فانما دعاني إلى التّقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدّم قبل صاحبه، فلا يكونَنّ ذلك منكم فيجد في آدابكم مَطْعناً، فانه ملك مُترف، وقادر مُسلّط. ثم دعا لهم بما في خزانته من طرائف حُلَل الملوك وأعطى كل رجل منهم حُلّة، وعمّمه عمامة، وختّمه بياقوتة، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية، وفَرَسٍ نجيبةٍ؛ وكتب معهم كتاباً:

أما بعد: فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبته بما قد فهم مما أحْبَبْت أن يكون منه على علمْ، ولا يَتَلجلج في نفسه أن أمّة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكتها، وحمت ما يليها بفضل قوّتها، تبلُغُها من الأمور التي يَتَعَزَّز بها ذوو الحزم والقوة والتّدبير والمكيدة — وقد أوفدتُ أيها الملك رهطاً من العرب، لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم، وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك وليُغمض لا عن جفاء إن ظهر من منطقهم، وليكرمني باكرامهم، وتعجيل سراحهم.

وقد نسَبْتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم.

فخرج القوم في أهْبَتهم، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقَرَأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم؛ فلما أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مرازبته، ووُجوه أهل مملكته فحضَروا وجلسُوا على كراسي عن يمينه وشماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام التَّرْجمان ليُؤدّي إليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخيرُ الأزمنة أخْصبُها، وأفضل الخطباء أصدقها.

الصدق مَنجاة، والكذبُ مَهوَاة، والشّر لجاجة، والحزم مَركب صعب

والعَجْز مركب وطيء ـ آفَة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حُسن الظنّ ورطة، وسوء الظن عِصمة، وإصلاح فساد الرّعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانَتُه كان كالغاصّ بالماء.

شرُّ البلاد بلاد لا أمير بها، وَشرُّ الملوك من خـافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررَة، خير الاعوان من لم يُراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلّغك المحل، حَسْبُك من شر سماعُه، الصّمت حكم وقليل فاعله، البَلاغة الإيجاز، من شدد نفّر، ومن تراخى تألّف. فتعجب كسرى من أكثم؛ ثم قال: ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك! لولا وضعُك كلامك في غير موضعه، قـال أكثم: الصّدق يُنبيء عنك لا الوعيد. قـال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قـال أكثم: رُبَّ قول أنفَذُ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي وقال: وري زَنْدُكَ، وَعلَت يَدُك، وَهيب سلطانك ـ إن العرب أمّة قد غَلُظت أكبادُها، واستَحْصدت مِرّتُها ومُنِعت دِرّتها، وهي لك وامقة ما تألفتها، مسترسلة ما لاينْتها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارة، وهي الصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزُّلال سَلاَسة.

نحنُ وفودُها إليك، وألسنتها لديك، ذِمَتُنَا محفوظة، وأحسابُنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مُطيعة، إن نؤبْ لك حامدين خيراً، فلك بذلك عموم محْمدتنا وإن نذمّ لم نُخَصّ بالذم دونها؛ قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها؛ قال حاجب: بل زَئير الأسد بصولتها، قال كسرى: كفى ذلك؛ ثم قام الحارث البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها، وعلوّ سنائها، من طال رِشَاؤُهُ كثر متحه [١]، ومن ذهب ماله قل منحهُ، تناقُل الأقاويل يُعَرّف اللب، وهذا مقام سيُوجِف [٢] بما تنْطِق به الركب، وتعرف به كنْه حالنا العجم والعرب، ونحن جيرانُك الأدنَوْن، وأعوَانُك المُعينون، خيولنا

(١) المتح: الاستقاء (٢) أوجفته: أي أجريته

جمة، وجيوشُنا فخمة، إن استنجدتنافغير رُبُض، وإن استَطرقتَنافغيرُ جهض، وإن طلبتنا فغير ُغمض، لا ننثني لذُعر، ولا نتنكر لدهر؛ رِماحنا طوال؛ وأعمارنا قصار، قال كسرى: أنفُسٌ عزيزة وأمّة ضعيفة، قال الحارث: أيها الملك وأنّى يكون لضعيف عزة أو لصغير مِرّة[١]؟ قال كسرى: لو قصر عمرُك لم تستول على لسانك نفسك، قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مُغرّراً بنفسه على الموت؛ فهي منيّة استقبلها، وجنان استدبرها؛ والعرب تعلم أني أبعث الحرب قُدُماً، وأحبسها؛ وهي تصرّف بها[٢] حتى إذا جاشت نارُها، وسعرت لظاها وكشفت عن ساقِها، جعَلتُ مقادها رُمحي، وبَرْقها سيفي، ورعْدَها زئيري، ولم أقصر عن خوض خضخاضها، حتى أنغَمس في غمرات لُججها وأكون فُلكا لفُرساني إلى بُحبُوحة كبشها، فأستَمطرُها دماً، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قَشْعم. ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ قالوا: فعاله أنطق من لسانه، قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوْفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلمي فقال: أيها الملك، نعم بالُك، ودام في السرُور حالك، إن عاقبة الكلام مُتَدبرة، وأشكال الأمور مُعتبرة، وفي كثير ثِقلة وفي قليل بُلغة، وفي الملوك سورة العزّ، وهذا منطق له ما بعده: شَرُف فيه من شَرُف، وخَمل فيه من خَمُل، لم نأت لضيْمك، ولم نفد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك، إن في أموالنا مُنتقداً، وعلى عزنا مُعتمداً، إن أوْرينا ناراً أثقبنا، وإن أودَ دهر بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رامَك كافحون حتى يُحْمَدَ الصدر، ويُستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قصدُ منطقك بإفراطك ولامدْحك بِذَمّك. قال عمرو: كفى بقليل قصْدي هاديا، وبأيسر إفرَاطي مُخبراً

(١) مرة: قوة (٢) بها: أي بالعرب

ولم يُلَمْ من غَرَبت نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء يَنْطق به، إجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعاداً، وأرشده إرشاداً، إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعيُّ المنطق أشد من عي السكوت، وعِثار القول أنكأ من عِثار الوعث، وما فُرْصة المنطق عندنا إلا بما نَهوى، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مُستساغة، وتركي ما أعلم من نفسي ويُعلم من سمعي أنني له مطيق، أحب إليّ من تكلفي ما أَتخوّف ويُتخوّف مني. وقد أوفدنا إليك مَلِكنا النعْمان: وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف والإحسان، أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال كسرى: نطقتَ بعقْل، وسَموْت بفضل، وعلوت بنُبل.

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامري فقال: نهجَت لك سُبل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد، إن للأقاويل مناهج، وللآراء موالِج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضلُ الطلب أنجحه ـ إنّا وإن كانت المحبة أُحضرتنا، والوِفادة قرّبتنا، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزُب عنك، بل لو قِستَ كلّ رجل منهم وعلمتَ منهم ما علمنا، لوجدت له في آبائه دُنيا أنداداً وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدَد موصوف، وبالرأي الفاضل، والأدب النافذ معروف، يحمِي حماه، ويروي ندماه، ويذود أعداه، لا تخمدُ ناره، ولا يَحترِزُ منه جاره، أيها الملك، من يَبلُ العرب يعرفه فضلهم، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرّواسي عزا، والبحور الزواخر طمياً والنجوم الزواهر شرُفا، والحصى عدداً فإن تعرف لهم فضلهم يُعزّوك، وإن تستصرخهم لا يَخذلوك؛ قال كسرى، وخشي أن يأتيَ منه كلام يحمله على السخط عليه: حسبُك أبلغت وأحسنت.

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطابَ الله بك المراشد، وجنّبك

المصائب ، ووقـَّاك مكروه الشدائد، ما أحقـّنا إذ أتـَيناك بإسماعك ما لا ُيحنق صدرك ولا يزرع لنا ِحقداً في قلبك ، لم َنقدم أيها الملك لمـُساماة ، ولم ننتسب لمـُعاداة ولكن لتعلم أنت ورعيـَّتك، ومن حضرك من وُفود الأمم ، أنا في المنطق غير محجمين ، وفي الناس غير مقصرين ، إن جـُورينا فغير مسبوقين، وإن سوِمينا فغير مغلوبين ؛ قال كسرى : غير أنكم إذا عاَهدتم غيرُ وافين ، وهو يعرض به في تركه الوفاء بَضمانه السَّوَاد ؛ قال قيس : أيها الملك ، مـا كنت في ذلك إلا كواف ُغدرَ به ، أو كخافر أخـْفِرَ بذَمته ؛ قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمان، ولا لذليل ِخفارة. قال قيس: أيها الملك ، ما أنا فيما أخـْفِر من ذمـَّتي أحقُّ بإلزامي العارَ منك فيما ُقتـِل من رعيـَّتك ، وانتـُهك من حـُرمتِك، قال كسرى: ذلك لأن من ائتـَمن الخونة واستنجد الأثمة ، ناله من الخطأ ما نالني ، وليس كل الناس سواء ـ كيف رأيت حاجبَ بن ُزرارة لمَ يحكم ُقواه فيبرِم، ويعهد فيوفي، ويعدُ َفيـُنجزُ ؟؟ قال : وما أحقه بذلك ومـا رأيتهُ إلا لي ، قال كسرى : القوم بزل [١] فأفضلـُها أشدُّها .

ثم قام عامر بن الطـُّفيل العامري فقال: كثر ُفنون المنطق، وليس القول أعمى من ِحنـْدِس الظلماء، وإنما الفخر في الفِعال والعجز في النجدة ِ، والسـُّؤدد مطاوَعةُ القدرة ، وما أعلـَمك بقدْرنا، وأبصرك بفضلنا، والحرى، إن أدالت الايام وثابَت ِ الأحلام، أن ُتحُدِث لنا أموراً لها أعلام، قال كسرى : وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومُضر على أمر ُيذكر ؛ قال كسرى : وما الأمر الذي يُذكر ؟ قال عامر : مالي علم بأكثر مما خبـَّرني به مخبـِّر ؛ قـال كسرى : متى تكاهنـْتَ يا ابن الطفيل ؟ قال : لست ِبكاهن ، ولكنـّي بالرُّمْح طاعن ؛ قال كسرى: فإن أتاك آت من جهة عينك العـَوْراء، ما أنت صانع؟ قال: ما َهيبتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي وماأذهب عيني َعيـْثٌ ، ولكن ُمطاعة ُالعبث.

(١) جمع بازل : وهو البعير سن تسع سنوات .

ثم قام عمرو بن مَعديكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب، ومِلاك النجدة الارتيـــاد، وعفو الرأي خير من استكراه الفِكْرَة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الخيرة، فاجْتَبِذ طاعتنا بلفظك واكتظم بادرتنا بحلمك، وأَلِن لنا كنفَكَ يَسلس لك قيادنا، فـــإنا أناس لم يُوَقَّس صفاتنا قِراعُ مناقير من أراد لنا قضماً، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما

ثم قام الحارث بن ظـالم المُرّي فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملَق، ومن خطَل الرأى خفة الملك المُسلّط، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لقبول ذلك منا بخليق، ولا للاعتماد عليه بحقيق، ولكن الوفاء بالعُهود، وإحكام ولث العقود، والأمرُ بينَنا وبينَكَ معتدل، ما لم يأت من قِبلك مَيل أو زلل؛ قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم، قال: إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك، وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر؛ قال الحارث: إن في الحق مغضبة، والسّرّ في التغافل، ولن يستوجب أَحد الحِلم إلا مع القُدْرَة، فلتُشْبِه أفعالك مَجْلِسَك؛ قال كسرى: هذا فتى القوم، ثم قال: قد فهمْتُ ما نطقت به خطباؤكم، وتفنّن فيه متكلموكم، ولولا أني أعلم أن الأدب لم يُثقّف أودكم، ولم يُحكم أمركم، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم، فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة: فنَطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم، لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به، وإني لأكره أن أجبه وُفودي، أو أحنق صدورهم. والذي أحبّ من إصلاح مُدبركم، وتألّف شواذّكم، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب وصفحت عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى مَليككم فأحسنوا مُؤازرته والتزموا طاعته واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم، وأحسنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة

* * *

رُوي عن الكلبي أنه قال: كان كسرى يحفِل بالعرب، ويستأنس بمشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم، ومفاخراتهم ومنافراتهم، ولم يَدّخر وسعاً إلا بذَله للحصول على ذلك (ومما اتفق له) أن النعمان بن المنذر، كان بمجلسه يوماً. فقال له: هل في العرب من قبيلة تَشرف على قبيلة؟ قال: نعم. قال: فبأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، واتصل ذلك بمزية رابعة، فبيته أشرف بيت: وإليه تنسب القبيلة، وبه تعلو على غيرها. قال: أحضر مَن هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يُصبهم إلا في آل حذيفة بن بدر، وآل ذي الجدّين؛ وآل الأشعث بن قيس بن كِندة؛ فأحضرهم في جملة من عشائرهم؛ فعقد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكّام والعدول والأعيان. ثم قال، ليتكلم كل منكم بمآثر قومه وليصدق.

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكان ألسن القوم فقال: قد علمت العرب أن فينا الشرفَ الأقدم والفخرَ الأعظم. فقيل له: لِمَ ذاك يا أخا فزارة؟ قال: ألسنا الدعائم[1] التي لا ترام؟! والعز الذي لا يضام؟! فقيل له: صدقتَ ثم قام شاعرهم فقال:

فزارةُ بيت العز والعز فيهمُ ... فزارةُ بدرٍ حسْبُ بدر نضالها[2]
لها العزة القعساء[3] والحسب الذي ... بناه لبدرٍ في القديم رجالُها
فهيهات قد أعيا القرون التي مضت ... مآثر بدرٍ مجدُها وفِعالها
وهل أحدٌ إن مد يوماً بكفّه ... إلى الشمس في مجرى النجوم ينالها؟!
فإن يصلُحوا يصلُح لذاك جميعنا ... وإن يَفسدوا يَفسُدْ على الناس حالها

ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ونقهر جمْعها الأكبرَ وأنّا غياثُ اللزْبات[4] وبُناة المكرمات. فقيل له لِمَ يا أخا كِندَة؟ قال: لأنا ورثنا مُلكَ كِندة فاستظللنا بأفيائه وتقلدنا منكبَه الأعظم؛ وتوسّطنا بُحبوحه[5] الأكرم. ثم قام شاعرهم فقال:

---

(١) الأركان (٢) محاماتها ودفاعها (٣) الرفيعة
(٤) بتسكين الزاي: الشدائد (٥) وسطه

إذا قِست أبيات الرجال ببيتنا وَجدْت له فضلا على من يفاخرُ
فمن قال : كلاّ أو أتانا بخُطّة يُنافرُنا يوماً فنحن نخاطرُ
تعالوْا قِفوا كي يعلم الناس أيُّنا له الفضل فيما أورثَتْه الأكابر

ثم قام بسطام بن قيس، فقال: قد علِمتْ العرب أنـّا بُناة بيتها الذي لا يزول ومغرَسُ عزها الذي لا يحول؛ فقيل له : ولِمَ يا أخا شيبان ؟ قال : لأنا أدركهم للثار وأضربهُم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدُّهم للخصم .

ثم قام شاعرهم فقال .

لعمريَ بسطامٌ أحقُّ بفضلها وأول بيت العز عز القبائلِ
فسائل أبَيْتَ اللعن عنعز قومها إذا جَدّ يوم الفخر كل مناضل[1]
فيخبرك الأقوام عنهـا فإنها وقائع جَدٍّ لا ملاعبُ هازل
ألسنا أعز الناس قوماً وأُسرةً وأضرَبهم للكبش يوم التخاذل
وقائع عزٍّ كلهـا رَبَعِيّةٌ[2] تذلُّ لهم فيها رقابُ المحافـل
إذا ذُكرتْ لم يُنكرالناس فضلها وعاذ بها ، من شرها ، كل قاتل
وإنا ملوك الناس في كل بلدةٍ إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زُرارة التميمي ،فقال:قد علمت العرب أنـّا فرعُ دعاتها، وقادة زُحوفها ؛ فقيل له : لِمَ ذلك يا أخا بني تميم ؟ قال : لأنـّا أكثر النـاس عديداً ، وأنجبُهم طرّاً وليداً ، وأعطاهم للجزيل ، وأحمَلهم للثقيل .

ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمتْ أبناء خِندفَ أنـّا لنا العز قِدماً في الخطوب الأوائل
وأنـّا كرامٌ أهلُ مجدٍ وثروة وعزٍّ قديم ليس بالمتضـائل
فكم فيهمُ من سيّدٍ وابن سيّد أغَرَّ نجيب ذي فعـال ونائل

(١) المجادل . (٢) نسبة إلى قبيلة ربيعة .

فسائلُ أبيتَ اللعن [١] عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائلَ

ثم قام قيس بن عاصم السَّعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرُمات وأثبتهم في النائبات، فقيل له: لِمَ ذاك يا أخا بني سعد ؟ قال: لأنا أدركهم للثار، وأمنعهم للجار، لا نتكل إذا حَملنا، ولا نُرام إذا حللنا، ثم قام شاعرهم فقال:

لقد علمت قيسٌ وخندفُ أننا وجُلُّ تميم والجموعُ التي ترى
بأنا لُيوثُ البأس في كل مأزِق إذا جُزّ بالبيض الجماجم والطُّلى
وأنا إذا داعٍ دعانا لنجـدة أجبنا سِراعاً في العلائم من دعا
فهيهات قد أعيا الجميع فِعالُهم وقامو بيوم الفخر مَسْعاة من سعى

فقال كسرى حينئذ: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، ثم أعظَم صِلاتهم أجمعين، وردّهم إلى أقوامهم مُعظمين.

مناظرات المهدي ومشاورته لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفَت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيْعتهم ونقضوا موْثقهم وطردوا العمال، والتوَوْا بما عليهم من الخراج، وحَمَل المهدي ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عنَتهم، على أن أقال عَثرتهم واغتفرَ زَلتهم واحتمل دالتهم تطوُّلاً بالفضل واتساعاً بالعفو وأخذاً بالحُجة ورِفقاً بالسياسة، ولذلك لم يزل مذ حَمَّله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقاً بمدارِ سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطاً للمعْدَلة في رعيته تسكن إلى كنَفه وتأنس بعفوه، وتَثِق بحلمه، فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنة، أثرةً للحق، وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحزْم، فدعا أهلَ خراسان الاعترارُ بحلمه والثقة

(١) أبيت اللعن: بغضته ومنعته اي انك لا تفعل ما يوجب لعنك بل تفعل ما تحمد وتمدح به.

بعفوه : أن كسّروا الخراج وطردوا العمال وسألوا مـا ليس لهم من الحق ، ثم خلـطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وتنَـصُّلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه ، وبعث إلى نفرٍ من لُحمته ووزرائه ، فأعلمهم الحال واستفهمهم للرّعية ، ثم امر الموالى بالابتداء ؛ وقـال للعبـاس بن محمد : « أي عمّ » تعقب قولنا وكن حكماً بيننا وأرسلَ ولديه : (موسى وهارون) فأحضرهمـا الأمر وشاركهما الرأي ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مُراجعتهم وإثبات مقالتهم في كتاب .

فقال سلاّم صاحب المظالم :

أيها المهدي ، إن في كل امر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفرغَت رأيهم ، واستغرقَتْ اشغالهم ، واستنفدَتْ اعمارهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرِفوا بها وعُرِفَتْ بهم ، ولهذه الأمور التي جملتنا فيها غاية ، وطلبَتْ معونتنا عليها اقوام من ابناء الحرب ، وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب ، وابطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها ، وفيأتهم ظلالها ، وعضتهم شدائدها وفرمتهم نواجذها ؛ فلو عجمْتَ ما قبلهم وكشفت ما عندهم لوجدْت نظائر تؤيد امرك ، وتجارب توافق نظرك واحاديث تقوّي قلبك ؛ فأما نحن معاشرَ عمالك واصحاب دواوينك فحَسَنٌ بنا ، وكثيرٌ منا ان نقوم بثقل ما حمّلتنا من عملك واستودعتنا من امانتك وشغلتنا من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك .

فأجابه المهدي : إن في كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفي كل حال تدبيراً يُبطل الآخرُ الأولَ ، ونحن على علم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم ايها المهدي انت متّبع الرأي ، وثيق العُقْدة ، قوي المنة ، بليغ الفِطنة معصوم النّية ، محضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفّق العزيمة ، مُعان بالظفر ، مهديّ إلى الخير ، إن هممْتَ ففي عزمك مواقع الظن ، وان اجتمعْتَ صدَع فعلك مُلتبسَ الشك ، فاعزم يهدِ اللهُ الى الصواب قلبك ، وقلْ يُنطق الله بالحق لسانك ، فإن جنودك جمة وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهدي : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يَهلك عليهما رأيٌ ولا يتفيل معهما حزم فأشيروا برأيكم وقولوا بما يحضُركم ، فإني من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أيها المهدي إن تصاريف وُجوه الرأي كثيرة ، وإن الإشارة ببعض معاريض القول يسيرة ، ولكن خُراسان أرضٌ بعيدة المسافة ، متراخية الشُّقّة متفاوتة السبيل ،فإذا ارتأيتَ من مُحكم التدبير ومُبرَم التقدير ولُباب الصواب رأياً ، قد أحكمه نظرُك ، وقلّبه تدبيرك؛فليس وراءه مذهب طاعن، ولا دونه مَعلَقٌ لخصومة عائب،ثم خبّت البُرد به،وانطوت الرُّسل عليه كان بالحرى أن لا يصل إليهم مُحكمه ، إلا وقد حدَثمنهمماينقُضه ،فما أيسَرَ أن ترجع إليك الرُّسل ، وترِدَ عليك الكتب بحقائق أخبـارهم وشوارد آثارهم ومصادر أمورهم فتُحْدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحللت العُقد ، واسترخى الحقاب ، وامتد الزمان ثم لعلك موقع الآخرة كمصدر الأولى ولكن الرأي أيها المهدي ، وفقك الله أن تصرف إجالة النظر وتقليب الفِكَر فيما جمعتَنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيَل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورَع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثرَةٍ عليك ، ولا ظنيناً على دُخْلة مكروهة ولا منسوباً الى بدعة محذورة ، فيقدح في ملكك ويُريّض الأمور لغيرك ، ثم تُسنِد إليه أمورَهم وتُفوّض إليه حربَهم وتأمُره في عهدك ، وصيّتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم : وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور واشتداد الأحوال التي ينقَضُ[١] أمر الغائب عنها ويثبتُ رأي الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ؛ فواثبَ أمرَهم من قريب وسقط عنه مـا

(١) ينقض : ينهدم .

يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة ، ونفذ العمل وأُحمِد النظر إن شاء الله .

قال الفضل بن عباس :

أيها المهدي ، إن وليّ الأمور وسائس الحروب رُبما نحّى جنوده وفرّق أمواله في غير ما ضيقِ أمرٍ حزَبه، ولا ضغطة حالٍ اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقداً لها ، لا يثق بقوّة ولا يصول بعُدّة ، ولا يفزع إلى ثقة؛ فالرأي لك أيها المهدي وفّقك الله أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال وجُنودك من مُكابدة الأسفار ومُقارعة الأخطار وتغرير القتال، ولا تُسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسُدُ عليك أدبُهم ويُجرّىءُ من رعيّتك غيرهم ولكن اغزُهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعْهم باللين وخاتلهم بالرّفق وأبرق لهم بالقول وأرْعد نحوهم بالفعل وابعث البُعوث وجنّدَ الجنود وكتّبْ الكتائب واعقد الألوية وانصب الرّايات وأظهر أنك موجّهٌ إليهم الجيوش مع أحنق قُوّادك عليهم وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم ادسس الرسل ، وابثُثْ الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسُد فيهم واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصّدور على البغضة ، ويدخل كلاً من كل الحذَرُ والهيبة ، فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمُناصبة بالكتب ، والمُكايدة بالرسل ، والمُقارعة بالكلام اللطيف المُدخل في القلوب ، القويّ الموقع من النفوس، المعقود بالحجج الموصول بالحِيَل المبنيّ على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة ــ أنفذ من القتال بظُبات السّيوف وأسنّة الرّماح ، كما أن الواليَ الذي يستنزل طاعة رعيّته بالحيل ، ويفرّق كلمة عدُوه بالمُكايدة أحكم عملاً وألطفُ منظراً وأحسن سياسة ، من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغرير ، والخطار .

وليعلم المهدي ، أنه إن وجّه لقتالهم رجلاً لم يسرْ إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة ، وتُقدِم على أسفار ضيّقة وأموال مُتفرقة وقُوّاد غششة إن ائتمنتَهُمْ استنفدوا ماله ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له . قال المهدي : هذا رأيٌ قد أسفر نورُهُ ، وأبرق ضوءُهُ ، وتمثل صوابهُ للعيون ومجُد حقه في القلوب ولكن فوّق كل ذي عِلم عليم . ثم نظر إلى ابنه علي فقال : ما تقول ؟

قال عليٌّ : أيها المهدي ، إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك ، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدح في تغيير مُلكك ويُريض الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأن أصغر والحالُ أدلّ ، لأنّ الله مع حقه الذي لا يخذله وعند موعده الذي لا يُخلِفه ، ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبُوا حقاً وسألوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفّست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، أو يحدُث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرّب وأطفأت ثائرة الحرب ، ووفرت خزائن المال وطرحت تغرير القتال ، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجيّة حلمك وأسجاع خليقتك ، ومعدلة نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةً ، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سألوا اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتهم في ميدان الخطاب . فما أربُ المهدي أن يَعْمِدَ إلى طائفة من رعيته مُقرّين بمملكته مُذعنين بطاعته لا يخرجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يبرّئونها من عبوديته فيُملّكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المنازعة ومضمار المخاطرة . أيريد المهدي وفقه الله الأموال ؟ فلعَمري لا ينالها ، ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يَطلب منهم ، وأضعاف ما يدّعي قِبَلهم ، ولو نالها فحُملت إليه أو وُضعت بخرائطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها واطال عليهم بها ، لكان ممـا إليه يُنسب وبه يُعرف من الجود

الذي طبعه الله عليه وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه، فإن قال المهدي هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا فأما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود وأنطقوا لسان الإرجاف، وفتحوا باب المعصية وكسّروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم وعظةً لسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أُتِيَ بهم مغلولين في الحديد، مُقرّنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوهُ ولإقالةِ عثرتهم صفحه واستبقاهم لما فيه من حزبه، أو لمن بإزائهم من عدوّه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكراً من نظره.

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدُّها وقعاً وأصدقها صولةً وأنه لا يتعاظمه عفو، ولا يتكاءدُهُ صفح، وإن عظمَ الذنب وجل الخطب، فالرأي للمهدي وفقه الله تعالى أن يحلّ عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكر أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم برّاً بهم، وتوسعاً لهم فإنهم إخوان دولته وأركان دعوته، وأساس حقه الذين بعزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرّضوا له من معاصيه، وانطووا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غيّرَ من رأيه فيهم أو نُقِلَ من حاله لهم، أو تغيّرَ من نعمته بهم كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازرين أصاب أحدهما خبَلٌ عارض ولهوٌ حادث فنهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزدد أخوه إلا رقةً له ولطفاً به واحتيالا لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبَرّاً به ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد كوى سمتَ اللبّان وفض القلوب في أهل خراسان ولكل نبأ مستقر، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ (يعني موسى ابنه).

فقال موسى:

أيها المهدي، لا تسكُن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم، الحال من القوم يُنادي بمضمرة شرّ وخفيّة

حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها ستراً واتخذوا العلل من دونها حجاباً ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير ، والأمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويُفنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم ؛ والمهدي من قولهم في حال غِرّة ولباس أمَنة ، قد فتر لها وأنس بها ، وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال ، والإضمار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرَهِبُوا عواقب أخبار الوُلاة ، وغِبّ سكون الأمور فليَشْدُدْ المهدي – وفقه الله – أزره لهم ، ويُكتّب كتائبه نحوهم وليضع الأمر على أشد ما يحضرُهُ فيهم ، وليُوقن أنه لا يُعطيهم خُطة يريدُ بها صلاحهم إلا كانت دُرْبة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوُفود ، الذين إن أقرّهم وتلك العادة وأجراهم على ذلك الأرب ، ولم يبرح في فتق حادث ، وخلاف حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّرْبة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة ، والمؤُونة الشديدة ، والرأي للمهدي وفّقه الله أن لا يُقيل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرّ بهم القتل ويحدق بهم البلاء ويُطبق عليهم الذل ، فإن فعل المهدي ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شرٍ منهم ، واحتمال المهدي في مئونة غزوتهم هذه تضع عنه غزواتٍ كثيرة ، ونفقات عظيمة . فقال المهدي : قد قال القوم ، فاحكمْ يا أبا الفضل !.

فقال العباس بن محمد :

ايها المهدي : أما (الموالي) فأخذوا بفروع الرأي وسلكوا جنبات الصواب وتعدّوا أموراً قصّر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربُهُمْ عليها – وأما (الفضل) فأشار بالأموال أن لا تنفق ، والجنود أن لا تفرّق ، وبأن لا يُعطى القوم ما طلبوا

ولا يُبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بين ذلك استصغاراً لأمرهم ، واستهانة بجربهم وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارُها ، وأما (علي) فأشار باللين ، بإفراط الرِّفق وإذا جرّد الوالي لمن غَمط أمره وسفه حقه اللين بحتاً ، والخير محضاً ، لم يخلطها بشدّة تعطف القلوب عن لينه ، ولا بشرّ يحبسهم إلى خيره ، فقد ملّكهم الخلع لعذرهم ، ووسّع لهم الفرجة لثني أعناقهم ، فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة ، فنَزْوةٌ في رُؤوسهم ،يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم ، ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم ، وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصُّرَاح ، فذلك ما عليه الظنّ بهم ، والرأي فيهم ، وما قد يُشبه أن يكون من مثلهم لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم ، والملك الكبير ما لا يخطرُ على قلب بشر ولا تُدْرِكُه الفكر ، ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها ، فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما (موسى) فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لا لين فيها ، وأن يُرْمَوْا بشرٍ لا خير معه ؛ وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً: والشَرّ مجرداً ليس معها طمع ولا لين يثنيهم اشتدت الأمور بهم ، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم الحمية من الشدة ، والأنفة من الذلةِ ، والامتعاض من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف ، والاستبسال في القتال والاستسلام للموت ، وإما أن ينقادوا بالكُرْه ويذعنوا بالقهر على بغضةٍ لازمةٍ ، وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق ، فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة أو قويت لهم حال عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان .

وقال في قول الفضل : أيها المهدي أكفى دليل وأوضح بُرهان ، وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه وحزْم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم ، وتوجيه

البُعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدْل.

قال المهدي : ذلك رَأيٌ .

قال هارون : ما خُلطت الشدة أيُّها المهدي باللين ، فصارَت الشدة أمرٌ فِطام لما تكْرَه ، وعاد اللّين أهْدَى قائدٍ إلى ما تحبُّ، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدي : لقد قلْت قولاً بديعاً ، وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً ، والمرء مُؤتمن بما قال وَظنِينٌ بما ادعى ، حتى يأتي ببينة عادلة وحجّة ظاهِرة فاخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهدي : إن الحرْبَ خدْعة ، والأعاجم قوْمٌ مكرَة ، وربُما اعتَدلت الحال بم ، واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يُسرُّون على ظاهر ما يُعْلنون وربما افترقت الحالان ، وخالف القلبُ اللسانَ ، فانطوى القلبُ على محجوبة تبطَن ، واستسر بمدخولة لا تُعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره العالم بمقدم يده وَموضع ميسميه ، لا يَتَعَجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأي للمهدي وفقه الله أنْ يَفرّ باطنَ أمرهم فَرّ المُسِنَّةِ ويمخض ظاهِر حالهم مخض السقاء بمتابعةِ الكتب ومظاهرَة الرُسل ، وموالاة العُيون ، حتى تُهتَكَ حُجُب عيونهم وَتُكشف أغْطية أمورهم ، فإن انفرَجت الحال وأفضت الأمور إلى تغيير حال ، أوْ داعية ضلال اشتملت الأهواء عليه ، وانقادَ الرّجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه وَإثم يستحلونه عَصَبتهم بشدّة لا لين فيها ، وَرماهم بعقُوبة لا عَفو معها ، وإن انفرَجت العُيون وَاهْتُصرَت السّتور وَرُفعَت الحجبُ والحال فيها مَريعة والأمور بهم معتدلة في أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها ، وظلامات يدعونها وَحقوق يسألونها بماتّة سابقتهم وَدالة مناصحتهم ، فالرأي للمهدي وَفقهُ الله أن يتسع لهم بما طلبوا وَيَتجافى لهم عما كرهوا وَيشعَبَ منْ أمْرهم ما صَدَعُوا ، وَيَرتُقَ من فتقهم ما قطعوا ، ويولي عليهم من أحَبوا وَيُداوي

بذلك مَرَض قلوبهم. وفساد أمورهم ، فإنما المهدي من أمته وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي المجرّب الذي يحتال لمرابض غنمه ، وضوالّ رعيّته حتى يُبرىء المريضة من داء علتها ويردّ الصحيحة إلى أنس جماعتها ؛ ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة ، وماتّة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوق واجبة ؛ لأنهم أيدي دولته وسيوف دعوته وأنصار حقّه وأعوان عدله ، فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ، ولا التوعّر بهم ولا المكافأة بإساءتهم ، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ أحزم في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : ما زال هارون يقع وقع الحيا حتى خرج خروج القدح من الماء وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى ، فدعوا ما سبق موسى فيه فأنه هو الرأي وثنّى بعده هارون؛ ولكن من لأعنّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟!

قال صالح بن علي : لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك وبعض لحظات نظرك ، وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تقلده حربك وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة ، وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم . فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله ما تحب وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدي : إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ، ولكني أحب الموافقة على الرأي والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث : أهـــل ُخراسان قَـوم ٌ ذوُو عزّة و َمنعَة وشياطين خدَعة ، زُروع الحميَّة فيهم نابتـة ، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعَجلة عنهم حاضرَة ، تسبق سيولهم مطرَهم سُيوفُهم عذَلهم لأنهم بين سِفلة لا يعْدو مبلغ عقولهم منظر عُيونهم ، وبين رُؤساء لا يُلْجمون إلا بشدة ، ولا ُيفْطمون إلا بالمرّ ، وإن وَلى المهدي عليهم وضيعـاً لم تنْقد َله ُ العُظماء ، وإن ولـّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، وإن أخر المهدى أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من َحشمه ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ، ناصحاً يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا َحمِيَّة تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم ، َتنَفسَّت الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ما لا يتلافاهُ صاحب هذه الصفة وإن َجدّ ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير ، وليس المهدي — وفقه الله — فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صفاتهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: احدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويَد ٌ ممثلة لعينك وصخرة لا تزعزع وبهمة لا ُتثنى ، وبازل لا يفزعه صوت الجلجـــل ، نقي العِرْض نزيه النفس جليل الخطر ، قـد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه َموْطئاً ، فليس يقبل عملا ، ولا يتعدّى أملا وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك ، رجل قد ُغذّي بلطيف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قوائم أدبك فإن قلـّدته أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرَهم ، كان قفلا فتحه أمرك وباباً أغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً . وإذا حكم المَنْصفَة وسلك المَعْدَلة فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم مـــا عليهم ، غرَسَ في الذي لك بين صدورهم وأسكن لك السُوَيْداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة في حواشي عَوامّهم . متمكّنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم َريْب ٌ إلا نفَوْه ولا يلزمهم

حقٌ إلا أدَّوه ، وهذا أحدُهما . والآخر عودٌ من غيضتك ، أو نبعةٌ من أرومتك ، فتيُّ السنّ كهلُ الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف يجرّد فيهم سيفَه ويبسط عليهم خيرَه بقدر ما يستحقون وعلى حسب ما يستوجبون وهو « فلان » أيها المهدي ــ فسلطه أعزّك اللهُ عليهم ، ووجّهه بالجيوش إليهم ولا تمنعكَ ضراعة سنّه وحداثة مولده فإن الحِلمَ والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشكّ والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداثُكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصّكم به من مكارم الاخلاق ومحامد الفعال ومحاسن الأمور وصواب التدبير وصرامة الأنفس كفراخ عتاق الطير [1] المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب ، فالحلم ، والعلم ، والعزم ، والحزم ، والتؤدة ، والرفق ، ثابت في صدوركم مزروع في قلوبكم ، مستحكم لكم متكامل عندكم ، بطبائعَ لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبدالله .

أفتاءُ [2] أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذُكر ، وأهل خراسان في حال عزَ على ما وُصف ، ولكن إن ولّى المهدي عليهم رَجُلاً ليس بقديم الذكر في الجنود ولا بنبيه الصوت في الحروب ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء ، دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطران مهولان أحدهما ، أن الأعداء يغتمزونها منه ويحتقرونها فيه ويجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأمره ، والتكشف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أن الجنود التي يقود ، والجيوش التي يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ولم يعرفوه بالصيت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل

(١) عتاق الطير : الجوارح منها .

(٢) أفتاء : أصحاب القوة من الشبان ، جمع فتي ، كيتيم وأيتام .

الاختبار ، بباب المهدي — وفقه الله — رجل مهيب نبيه حنيك صيّت له نسب زاك وصوت عال قد قاد الجيوش وساد الحروب وتألف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالمِقة [1] ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم

قال المهدي: جانبت قصد الرمية وأبيت إلا عصبية ،إذ رأي الحدث من أهل بيتنا كرأي عشرة حلماء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم وليّ العهد ؟

قالوا : لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ، ومن الدين وأهله،بحيث يقصر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عزّ وجل حجب عن خلقه وستر دون عباده علم ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجري عليه المقادير من حوادث الأمور،وريب المنون المخترمة لخوالي القرون ، ومواضي الملوك فكرهنا شسوعه عن محلة الملك ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومستقر الجنود ومعدن الجود ، ومجمع الأموال التي جعلها الله قطباً لدار الملك ، ومصيدة لقلوب الناس ، ومثابة لإخوان الطمع وثوّار الفتن ، ودواعي البدع ، وفرسان الضلال ، وأبناء الموت ؛ وقلنا : إن وجّه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد يحدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهديّ أن يعقبهم بغيره إلا أن ينهد إليهم بنفسه ، وهذا خطر عظيم وهول شديد ، إن تنفست الأيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عوض لا يستغنى عنه ، أو يحدث أمر لا بد منه صار ما بعده مما هو أعظم هولاً ، وأجل خطراً له تبعاً ، وبه متصلاً .

قال المهدي : الخطب أيسر مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، نحن أهل البيت نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من

---

(١) المقة : المحبة .

العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ونبأت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا ، فيه ندبّر وعلى الله نتوكل إنه لا بدّ لوليّ عهدي وولي عهد عقبي بعدي ، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتّجه نحوها بالجنود ؛ أمّا الأوّل فإنه يقدّم إليهم رسله ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً عليهم ، يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعي البدع ، وفرسان الضلال إلا توطّأه بحرّ القتل وألبسه قناع القهر ، وقلده طوق الذلّ ولا أحداً من الذين عملوا في قصّ جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحقّ إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول نهله ، فإذا خرج مزمعاً به مجمعاً عليه لم يسر إلا قليلاحتى تأتيه أن قد عملت حيله ، وكدحت كتبه ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائرة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطفاً عليهم إلى عدوّ قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حجّاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال ، وأمّا الآخر ، فإنه يوجّه إليهم ، ثم تعقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون ، فإذا سمحت الفرق بقراباتها له وجنح أهل النّواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوفود قصد الأول ناحية نجمت بطاعتها وألقت بأزمّتها ، فألبسها جناح نعمته وأنزلها ظلّ كرامته وخصّها بعظيم حبائه ، ثمّ عمّ الجماعة بالمعدلة وتعطّف عليهم بالرّحمة فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولافرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته ووصلت إليها منفعته فأغنى فقيرها وجبر كسيرها ورفع وضيعها وزاد رفيعها ، ما خلا ناحيتين : ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطىء عن إجابته وتثاقل عن حقّه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ، فيصطلي عليها موجدة ويبتغي لها علة ، لا يلبث أن يجد بحقّ يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتأكلهم السيوف ويستحرّ بهم القتل ويحيط بهم الأسر ويفنيهم التّتبع حتى يخرّب البلاد ويؤتم الأولاد . وناحية لا يبسط لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً

ولا يجعل لهم ذمّة لأنهم أولُ من فتَح باب الفرْقة وتدرّع جلبابَ الفتنة وربَض في شَق العصا ، ولكنه يقتُل أعلامهم ويَأسِر قوّادهم ويطلب هرّابهم في لجَج البحار وقُلل الجبال وحميل الأوْدية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً حتى يدع الدّيار خراباً والنساء أيامَى — وهذا أمرٌ لا نعرف له في كتبُنا وقتاً لا نصحّح منه غيرَ ما قلنا تفسيراً — وأما (موسى وليّ عهدي) فهذا أوانُ توجُّهه إلى خراسان وحلوله بجُرْجان وما قضى الله له من الشُّخوص إليها والمقام فيها خيرٌ للمسلمين مَغبة وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذاءب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدي — إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل مِلتك عَلماً قد تثنّتْ نحوه أعناقها ، ومدت سَمْتَه أبصارُها ، وقد كان لقُرْب داره منك ومحلّ جواره لك عُطل الحال غُفل الأمر واسعَ العُذر ، فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره ، فإن من شأن العامة أن تتفقد مخارج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادث أحواله في برّه ومرحمته ومعْدلته ، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ما سبقَ إليهم أغلب الأشياء عليهم وأمْلك الأمور بهم وألزمها لقلوبهم وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم فلا يفتأ المهدي وفّقه الله ناظراً له فيما يُقوّي عمدَ مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ، ويستجمع رضاء أمته بأمر هو أزْين لحاله ، وأظهر لجماله ، وأفضل مَغبة لأمره ، وأجلّ موقعاً في قلوب رعيته ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملّته ، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له ، وأبْلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ، ومحبةٍ للخير وأهله — وأن يختار المهدي وفّقه الله من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهلِ كلّ

مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس الرّعية بهم إذا وُصفوا، ثم تسهّل لهم عمارة سُبل الإحسان، وفتح باب المعروف؛ كما قد كان فتح له وسُهّل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت؛ ثم بعث في طلب ابنه موسى، فقال له:

أي بُني – إنك قد أصبحت لِسَمْت وجوه العامة نُصُباً، ولمثنى أعطاف الرّعيّة غاية، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية، وأمرُك ظاهر، فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سُخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسْخطه عليك إيثارُك رضا من سواه – ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان فترة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدّد حبل الإسلام بدعواهم ويشيّد أركان الدين بنُصرَتهم ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعْواناً، يَسُدون الخلل ويُقيمون المَيل، ويدفعون عن الأرض الفساد، وإن أهل خراسان أصبحوا أيْدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونستصرف نزول العظائم بمناصحتهم، وندافع ريب الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم، فهُم عماد الأرض إذا أرجفت أُفقُها وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها، فقد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات أخمدت نيران الفتن، وقسمت دواعي البدَع، وأذلّت رِقاب الجبّارين، ولم ينفكوا كذلك ما جرَوا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظلّ دعْوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذاتهم ورَفع بها ضِعَتهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ومُلوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذُّل وقِناع الخوف، وإطباق البلاء ومُحالفة الأسى وجهد البأس والضرّ فظاهِرْ عليهم لِباسَ كرامتك، وأنزِلْهُمْ في حدائق نعمتك ثم اعْرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالّتهم وماتّة سابقتهم، وحُرمة مُناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمُسيئهم.

أي بُنيّ ، ثم عليك العامّة فاستدْع رضاها بالعَدْل عليها ، واستجلِبْ مودتها بالإنصاف لها ، وتحسَّن بذلك لرَبك ، وتَوثّقْ به في عين رعيتك ، واجعل عُمّال العذْر وو ُلاة الحُجج مُقدمة بين يديْ عملك ونَصفَة منك لرَعيّتك ، وذلك أن تأمر قاضيَ كل بلد ، وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً تُوَلّيه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبَينهم فإن أحسنَ حُمِدْتَ ، وإن أساءَ عُذِرْتَ ، هؤلاء عُمّال العُذْر وو ُلاة الحُجَج ، فلا يسقُطنّ عليك ما في ذلك ، اذا انتشر في الآفاق وسبق الى الأسماع من انعقاد ألسنة المُرْجفين وكَبْت قلوب الحاسدين وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكنّ في ظل كَرامتك نازلاً ، وبِعُرى حَبلِكَ متعلقاً رَجُلان : أحدُهما كريمة من كَرائم رجالات العرب وأعلام بُيوتات الشّرَف ، له أدب فاضل وحِلْم راجح ودين صحيح . والآخر له دين غيرُ مَغْموز ، وموضع غير مدخول ، بصيرٌ بتَقليب الكلام ، وتصريف الرأي ، وأنحاء العرب ، ووَضْع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخُطوب ، يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية من مَحاسِنك وتحسين أمرك وتحلية ذِكرك فتَستَشيرُهُ في حَرْبك وتُدْخِلهُ في أمرك ، فرَجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى الى محلّتي ويَرْعى في خُضرة جِناني ، ولا تَدَعْ أن تختار لك من فقهاء البُلدان وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسُمّارك ، وأهل مُشاورتِكَ فيما تورِد ، وأصحاب مُناظرتك فيما تُصدِر ، فَسِرْ على بركة الله ، أصْحَبَكَ الله من عَوْنه وتوفيقه دليلاً يهدي الى الصواب قلبَك ، وهادياً يُنْطِق بالخير لِسانَكَ .

وفود بكّارة الهلالية على معاوية

استأذنت بَكّارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها ، وهوَ يومئذ بالمدينة فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسَنّت وعشيَ بصرُها وضعُفَت قوتها ، ترعَشُ بين خادمين لها ؛ فسلّمت وجلست ، فردّ عليها مُعاوية السلام ، وقال :

كيف أنتِ يا خالةُ ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غيَّرَكِ الدهر ، قالت : كذلك هو ذو غِيَرٍ ، من عاش كبرَ ، ومن مات قُبرَ ، فقال عمرو بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كُنتُ أذخره ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هِندٍ للخلافة مالكاً هيهات ذاك وان أراد بعيدُ
مَنَّتك نفسك في الخلاءِ ضلالةً أغراك عمرو للشقا وسعيدُ

وقال سعيد بن العاص : هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُميَّة خاطبا
فالله أخَّرَ مُدَّتي فتطاولت حتى رأيت مِنَ الزَّمان عجائبا
في كلِّ يوم لا يزال خطيبُهم بيْنَ الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا ، فقالت : يا معاوية ، كلامك أعشى بصري ، وقَصَّرَ حُجَّتي ، أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفي عليك مِنِّي أكثر ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعُنا ذلك من برِّك ، ، اذكُري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

مناظرة السيف والقلم

لزين الدين عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ ﻫ

لمّا كان السيفُ والقلمُ عُدَّتيْ العمل والقول ، وعُمدتي الدُّوَل ، فإن عَدِمتهما دولةٌ فلا حَولَ ، ورُكنَيْ إسناد المُلك المُعرَبين عن المخفوض والمرفوع ، ومقدّمتي نتيجة الجدل الصادر عنهما المحمولُ والموضوع فكّرتُ أيهما أعظم فخراً وأعلى قدْراً فجلستُ لهما مجلس الحكمِ والفتوى ، ومثلتُهما في الفكر حاضِرَين للدعوى ، وسوّيتُ بين الخصمين في الإكرام ، واستنطقتُ لسان حالِهما للكلام ، فقال القلمُ : بسم الله مُجريها ومُرساها ، والنهار اذا جلّاها

والليل إذا يغشاها ، أما بعد حمد الله باريء القلم، ومشرّفه بالقسم ، وجاعله أول ما خلق ، وجمّل الورق بغصنه ، كما جمّل الغصن بالورق ، والصلاة على القائل جفت الأقلام ، فإن القلم قصب السّباق ، والكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتّاب في السبع الطباق ، جرى بالقضاء والقدر، وناب عن اللّسان فيما نهى وأمر ، طالما أربى على البيض والسّمر في ضرابها وطعانها ، وقاتل في البعد ، والصوارم في القرب ملء أجفانها ، وماذا يشبه القلم في طاعة ناسه ؟ ومشيه لهم على أمّ راسه ؟ قال السيف : بسم الله الخافض الرافع ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع ، أما بعد حمد الله الذي أنزل آية السيف ، فعظّم بها حرمة الجرح وآمن خيفة الحيف ، والصلاة على الذي نفّذ بالسيف سطور الطروس ، وخدمته الأقلام ماشية على الرؤوس ، وعلى آله وصحبه الذين أرهفت سيوفهم ، وبنيت بها على كسر الأعداء حروفهم ، فإن السيف عظيم الدّولة ، شديد الصّولة ، محا أسطار البلاغة ، وأساغ ممنوع الإساغة ، من اعتمد على غيره في قهر الأعداء تعب ، وكيف لا وفي حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب ؟(فإن كان القلم شاهداً ، فالسيف قاض ، وإن اقتربت مجادلته بأمر مستقبل قطعه السّيف بفعل ماض ، به ظهر الدين ، وهو العدّة لقمع المعتدين ، حملته دون القلم يد نبيّنا ، فشرف بذلك في الأمم شرفاً بيّناً، الجنة تحت ظلاله ، ولا سيّما حين يسل فترى ودق الدّم يخرج من خلاله ، زيّنت بزينة الكواكب سماء غمده ، وصدق القائل « السّيف أصدق إنباء من ضدّه » لا يعبث به الحامل ، ولا يتناوله كالقلم بأطراف الأنامل ، ما هو كالقلم المشبّه بقوم عرّوا عن لبوسهم ، ثم نكسوا كما قيل على رؤوسهم ، فكأن السيف خلق من ماء دافق ، أو كوكب راشق مقدراً في السّرد ، فهو الجوهر الفرد ، لا يشترى كالقلم بثمن بخس ، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس ، كم لقائمه المنتظر ، من أثر في عين أو عين في أثر ، فهو في جراب القوم قوام الحرب ، ولهذا جاء مطبوع الشكل داخل الضرب ، قال القلم :

أو من يُنَشَّأُ في الحِلية وهو في الخصام غيرُ مُبين ، يُفاخرُ وهو القائمُ عن الشِّمال ، وأنا الجالس على اليَمين ؟! أنا المخصوص بالرأي وأنت المخصوص بالصَّدى ، أنا آلةُ الحياة وأنت آلةُ الرَّدى ، ما لِنتَ إلا بعد دخول السَّعير ، وما حُددت إلا عن ذنبٍ كبير ، أنت تنفعُ في العمرِ ساعة ، وأنا أفني العُمْرَ في الطاعةِ ، أنت للرَّهب ، وأنا للرَّغَب ؛ وإذا كان بَصَرُكَ حديداً فبَصري ماءُ ذهب : أين تقليدُكَ من اجتهادي ، وأين نجاسةُ دَمِك من تطهيرِ مدادي ؟.
قال السيفُ : أمِثلك يُعَيِّرُ مثلي بالدِّماء ؟! فطالما أَمَرْتُ بعض فِراخي – وهي السِّكين – فأصبحَت من النَّفاثات في عُقَدِك يا مسكينُ ، فأخلَت من الحياة جُثمانك ، وشقَّت أنفك وقطعت لسانك . ويكَ ! إن كنت للديوان فمُحاسِبٌ مهمومٌ ، أو للانشاءِ فخادمٌ لمخدوم ، او للتبليغ فساحرٌ مذمومٌ ، أو للفقيه فناقص في المعلوم ، أو للشاعر فسائلٌ محروم ، أو للشاهد فخائفٌ مسمومٌ ، أو للمعلم فللحيِّ القيُّوم . أما أنا فلي الوجه الأزهرُ والحِلية والجوهر ، والهيبةُ إذ أُشهرَ ، والصعود على المِنبر ، ثم إني مملوك كالك ، فإنك كناسِك ، أسلك الطريق ، وأقطعُ العلائق .

قال القلمُ : اما انا فابن ماءِ السماء ، وأليف الغدير وحليف الهواء ، اما انت فابن النار والدخان وباترُ الأعمار وخوّان الإخوان تفصلُ ما لا يفصَلُ وتقطع ما امر الله به ان يُوصل ، لا جرم ان صَعَّر السَّيف خده وصقَلَ قفاه ، وسُقي ماءَ حميا ، فقَطَّع مِعاهُ ، يا غُراب البيْن ، ويا عُدَّة الحين ، ويا مُعتلَ العين ، ويا ذا الوَجهين ، كم افنيت واعدمت ؟ وارملتَ وأيتَمْتَ ؟

قال السيف : يا ابن الطين ، ألست ضامراً وانت بطين ، كم جَرَيت بعكس ، وتصرفتَ في مكس ، وزوَّرْت وحرَّفتَ ، ونكَّرْتَ وعرَّفتَ ، وسَطَّرتَ هجواً وشتماً ، وخلدْت عاراً وذماً ، ابشِر بفرط رَوْعتك ، وشدَّة خيفتك ، إذا قِسْتَ بَياض صحيفتي بسواد صحيفتك ، فألنْ خطابَكَ فأنتَ قصير المدة ، واحسِن

جوابك فعندي حدة، وأقلل من غلظتك، وتجبهك، واشتغل عن دم في وجهي بقبيح في وجهك، وإلا فأدنى ضربةٍ مني بروم أرومتك، فتستأصلكَ وتجتثّ جرثومتَك، فسقياً لمن غاب لك عن غابك، ورعياً لمن لو أهاب بك لسلخ إهابك .

فلما رأى القلم السيفَ قد احتد، ألانَ له من خطابه ما اشتد، وقال: أما الأدبُ فيؤخذ عني، وأما اللطف فيكتسب مني، فإن لِنتَ لِنتُ، وإن أحسنت أحسنت، نحن أهل السمع والطاعة، ولهذا نجمع في الدواةِ الواحدةِ منا جماعة، وأما أنتم فأهل الحِدة والخلافِ، ولهذا لا يجمعون بين سيفين في غلاف . قال السيف: أمكراً ودعوى عفةٍ؟ لأمر ما جدع قصير أنفه! لو كنت كما زعمت ذا أرب، لما قابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب، أنا ذو الصّيت والصوت، وغِراريّ لسان مشرَفي يرتجل غرائب الموت، أنا مِن مارجٍ من نارٍ، والقلم من صلصالٍ كالفخار، وإذا زعم القلم أنه مثلي، أمرت من يدق رأسه بنعلي . قال القلم: صهْ فصاحب السيف بلا سعادة، كأعزلَ. قال السيفُ: مهْ فقلم البليغ بغير حظ مغزل، قال القلم: أنا أزكى وأطهر، قال السيف: أنا أبهى وأبهر؛ فتلا ذو القلم لقلمه: إنّا أعْطيناكَ الكوْثَرَ، وتلا صاحب السيف لسيفه: فصَلّ لرَبّكَ وانحَر . فتلا ذو القلم لقلمه: إن شانئك هوَ الأبتر، قال: أما وكتابي المسطور، وبيتي المعمور، والتوراة والإنجيل، والقُرآن ذي التّبجيل، إن لم تكف عني غَرْبك، وتُبعد مني قُرْبك، لأكتبنكَ منَ الصّم البُكم، ولأسَطّرَنّ عليك بقلمي سجلاً بهذا الحكم، قال السيف: أما ومَتني المتين، وفتحي المُبين، ولسانيّ الرّطبين، ووجهي الصلبين، إنْ لم تَغب عن بياضي بسوادك، لأمسخَنّ وجهك بمدادك: ولقد كسبت من الأسد في الغابة، توقيح العين والصّلابة، مع أني ما ألوْتكَ نصحاً، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً؟ قال القلم: سَلّم إليّ مع من سلم إن كنت أعلى فأنا أعلم، وإن كنت أحلى فأنا أحلم، وإن كنت أقوى فأنا أقوم، أو كنت ألوى فأنا ألوم، أو كنت

أطْرى فأنا أطربُ ، أو كنت أغلى فأنا أغلب ، أو كنت أعتى فأنا أعتبُ ،أو كنت أقضى فأنا أقضب . قال السيْف: كيف لا أفْضُلك ، والمقرُّ الفلانيُّ شادٌ أزري . قال القلم : كيف لا أفضلك وهو (عزَّ نصرهُ) وليّ أمرني ؟!

قال الحكمُ بين السيْف والقلم : فلمـا رأيتُ الحجّتين ناهضتين ، والبيّنتين بينتين مُتعارضتين ، وعلمتُ أنّ لكلّ واحدٍ منها نسْبةً صحيحة ، إلى هذا المقرّ الكريم ، وروايةً مُسْندةً عن حديثه القديم ، لَطّفتُ الوسيلة،ودقّقت الحيلة حتى رددْتُ القلم إلى كنّه ، وأغمدْتُ السيف فنام ملء جفنه ، وأخَرْت بينهما التّرجيح وَسكَتّ عما هو عندي الصّحيح ، إلى أن يَحكم المقرُّ بينهما بعلمه ، ويُسكّن سورة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط حلمه .

مناظرة الآمدي بين صاحب أبي تمام ـــ وصاحب البحتري

صاحب أبي تمّام : كيف يجوز لقائل أن يقول : إن البُحتريّ أشعرُ من أبي تمّام ، ومن أبي تمام أخَذ ، وعلى حذْوه احتذى ، ومن معانيه استقى ! حتى قيل الطائى الأكبر ، والطائي الأصغر !

صاحب البحتري : أما الصحبة له فما صحبه ولا تَتَلمذَ له ، ولا رَوى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا رأى قط أنه محتاج إليه ، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري) وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها * أفاقَ صَبٌّ من هَوى فأفيقا * وأبو تمّام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة ، فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ، ما ظننت أحداً يقدِم على أن يسرق شعري ، وينشده بحضرتي حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظه ، حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة . فبهت البحتري ، ورأى أبوم تمام الإنكار في وجه أبي سعيد . فحينئذ قال له أبو تمام : أيها الأمير والله ما الشعر إلا له ؛ وإنـــه

أحسن فيه الإحسان كلّه ، وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعف له الجائزة .

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يَعْرِفَ أنّ أبا تمّام جديرٌ به أن يستغنيَ عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراء ، على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معاني أبي تمّام ، لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البُحتري من شعره وليس ذلك بمقتضٍ أن يكون أبو تمام أستاذ البحتري ، ولا بمانع أن يكون البحتري أشعر من أبي تمام . فهذا « كُثَيّر » قد أخذ من « جميل » واستقى من معانيه ، فما رأينا ان أحداً قال إن « جميلاً » أشعرُ منهُ بل هو عند أهل العِلم بالشعر والرّواية أشعر من جميل .

صاحب أبي تمام : إن البُحتري نفسه يَعترف ان ابا تمام أشعرُ منه ، فقد سُئل عنه وعن ابي تمام فقال : إن جيّده خيرٌ من جيدي ، وجيدُ ابي تمام كثيرٌ .

صاحب البحتري : إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحتري لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء ، والمُستوي من الشعر أولى بالتّقدُمة من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحطّ انحطاطاً قبيحاً ، وأن البحتري يعلو بتوسّط ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يُسِفّ أفضلُ ممن يسقط ويسف .

صاحب أبي تمام : إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أوّلاً ، وإماماً متبوعاً ، وشُهِرَ له حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام ، وسَلَكَ الناس نهجه ، واقتَفَوْا أثره ، وهي فضيلة عري عن مثلها البحتري .

صاحب البحتري : ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ، ولا بأوّل فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد

واحتذا حذوه ، وأفرط في ذلك وأسرف ، حتى زال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف .

بل إن مسلماً غير مبتدع ، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسمُ البديع متفرّقة في أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثر في شعره منها ، ولكنه حرص على أن يضعها في مواضعها ، ولم يَسلم مع ذلك من الطعن عليه ، حتى قيل إنه أوّل من أفسد الشعر ، فجاء ابو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأحبّ أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه ، فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه ، وكلُّ ما في المسألة أنه استكثر منهُ وأفرط فكان إفراطه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه .

أما البحتري فإنه مافارق عمود الشعر ، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبُعد عن التكلف والتعمل سبباً في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله ، ونفاقُ شعر الشاعر دليلٌ على علوِّ مكانته ، واضطلاعه بما يلائم الأذواق ، ويُلامس القلوب ، من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام : إنما أعرض عن شعر أبي تمام مَنْ لم يفهمه لدقّة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقّاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضُرّه طعنُ من طعنَ بعدها عليه .

صاحب البحتري : لا يستطيع أحدٌ أن يُنكر منزلة ابن الأعرابي ، وأحمد بن يحيى الشيباني ، ودعبل الخزاعي من الشعر ، ومنزلتهم من العلم بكلام العرب ، وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدرائهم بشعره ، حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال[1]

(١) المحال : الفاسد .

وثُلثه مسروق وثُلثه صالح، وقال: ما جعل الله أبا تمام من الشعراء، بل شعره بالخُطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر. وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام: إنْ كان هذا شعراً فكلام العرب باطلٌ. وهذ محمد بن يزيد المُبَرِّد: ما علمناه دَوَّنَ له كبير شيء.

صاحب أبي تمام: إن دُعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهورٌ فلا يُقبل قول شاعر في شاعر. وأما ابن الأعرابي فكان شديد التَّعصُّب عليه لغرابة مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يَفهمه ولا يَعلمه، فكان إذا سُئل عن شيء منها يأنَفُ أن يَقول لا أدْري فيعدِل إلى الطعن عليه.

ولا مانع أن يكون جميع من تَذْكرونه على هذا القياس.

صاحب البُحتري: لا عَيْبَ على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المُخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة، والعيبُ في ذلك يَلحق ابا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجْهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية.

صاحب أبي تمام: إنّ العلم في شعر أبي تمام، أظهرُ منه في شعر البُحتري، والشاعر العالم، أفضل من الشاعر غير العالم

صاحب البُحتري: كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً، وكان الأصمعي شاعراً عالماً، وكان الكسائي كذلك، وكان خلف بن حيّان الأحمر أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقةَ من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء، والتَّجْويد في الشعر ليست علته العلم، والشائع المشهور انّ شعر العلماء دُون شعر الشعراء، وقد كان ابو تمام يعمل على ان يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب. اما البُحتري فلم يقصد هذا ولا اعْتمَده، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علماً، بل كان يَرى انه شاعر، لا بُدّ له ان يقرِّب شعرَه من فهم سامعه، فلا يأتي بالغريب إلا أن يتّفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه، على أن هذا العلم

الذي تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه ، فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق العذر فيه ، ولا يجد المتأول له مخرجاً منه ، إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبي تمام : لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه ، وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد، أن يلحقه الكلال في الأوقات ، والزلل في الأحيان وبل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهوه، ويتجاوز له عن أخطائه وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب، وكذلك ما أخذته الرواة عن المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ ، واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من أولئك وهؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل ، بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم عن تقصيرهم .

صاحب البحتري : أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات، يكون فيها مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارة قبيحة ، أو مخطئاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد ، حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام : تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحتري نفسه ، فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره.

صاحب البحتري : لم لا يفعل البحتري ذلك ؟؟ وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين ، وأخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والمسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ، ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يعطى في تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام : كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء ، أن جيّد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ، وإذا كان جيّده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه واطّراحه كأنّه لم يَقُله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره ، والبحتري واحد منهم .

صاحب البحتري : إنمـــا صار جيّد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدرته ، ووقوعه في تضاعيف الرّديء ، فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيّد البحتري كجيّد أبي تمام ، إلا أنه يقع في جيّد مثله أو متوسط ، فلا يفاجىء النفس منه ما يفاجئها من جيّد صاحبه .

مناظرة بين الليل والنهار

لمحمد أفندي المبارك الجزائري

لمّا أسفر النهار عن بياض الغُرة ، قابله الليل بسواد الطرة ثم صار الهزل جداً واشتدّ النزاع بينهما جدّاً ، فاستنجد كلٌّ منهما أميره ، وأفشى له سره وضميره ، وإذا بالليل حمل على النهار ، فصبغَ حُمرة وردَته بصُفرة البَهار ، وخطر يَجُرُّ ذُيول تيهه وعجبه ، مَرصعاً تيجان مفاخره بدُرَرِ شهبه ، ثم قال : « والليل إذا يَغشى » « إنّ في ذلك لَعِبرة لمَنْ يَخْشى » ففتح باب المناقشة في هــذا الفصل ، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل « فإن الحرب أوّلها كلام » ثم تنجَلي عن قتيل ، أو أسير بكلام

ولما بلغ الليل غايته بَزَغ الفَجْرُ ورفع رايته ، وقال إذ جـال في مُعترك المنايا « أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا » فتقدم في ذلك الميدان وجلى ، تالياً قوله تعالى « والنّهار إذا تَجَـلى » ثم استوى على عرش السنا والسناء ، وأطلع شموس طلعته في الأرض والسماء ، فأعرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق ، وأغرب في نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق ، وما انحدر من مِنبره ، حتى أيد دعوى

خبره بشاهد مخبره ، فانتدب إليه « الليل » ومال عليه كل الميل ، وقال : أحمد من جعلني خلوة للأحباب ، وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب ، وخلقني مَثْوى لراحة العباد ، ومأوى لخاصة النسّاك والعباد ، ولله درُّ من قال فأجاد:

أيها الليلُ طـُل بغير جُناحٍ ليس للعين راحةٌ في الصباحِ
كيف لا أبغض الصَّباح وفيه بانَ عني نور الوُجوه الصِّباحِ

أتردَّدُ على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب ، وأتوددُ إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب ، تدور في ساحتهم بدورُ الحسن والبهاء ، وتدارُ من راحتهم كؤوس الأنس والهناء ، فتُحَيِّيهم نغمات السمر ، وتُحْييهم نسمات السحر ، فأحيانُ وَصْلي بالتهاني مُقمرة ، وأفنان فضلي بالأماني مُثمرة ،وحسبي كرامةً ، أني للناس خير لباس أقيهم بلطف الإيناس من كل باس ، ومَنْ واصل الإدلاج وهجر طيب الكرى قيل له (عند الصَّباح يَحمد القومُ السُّرى) : ' .

وما الليلُ إلا للمُجِدّ مَطيَّةٌ وميدانُ سبق فاستبق تبلغ المُنى

ففتن بمعاني بيانه البديع ، وتفنّن في أفانين التصريع والترصيع ثم أتم خطبته بالتماس المغفرة والعفو ، واستعاذ بالله من دَواهي الغفلة ودَواعي اللهو ، فوثب إليه (النهار) وصال عليه صولة ملك قهار ، وصعد على منبره ثانياً ،وقد أضحى التيه لعطفه ثانياً ، فأثنى على من جلـّى ظلمة الحجاب ، وتجلـّى له باسمه النور وتوجه بسورة من الكتاب وزانه بأبْهى سراج وَهّاج ، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج ثم صاح : أيها الليل ، هَلاّ قصرت من إعجابك الذّيل ؟! ولئن دارت رحى الحرب واستعرت نار الطعن والضّرْب ، فلأسبيَنّ مخدراتِك ،وهي عن الوُجوه حاسِرة وأنت تتلو يومئذ « تِلكَ إذاً كَرَّةٌ خاسِرة » فما دعاك إلى حلبة المفاضلة ؟ وما دهاك حتى عرّضت بنفسك للمُناضلة ؟ وهل دَأبك إلا الخداع والمكر ؟! وترقب الفرصة وأنت داخل الوَكر؟! أما حَضّ القرآن على التَّعَوُّذِ بِرَبِّ الفَلَقِ وندب « مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا

وقب » فبربي يُستعاذ من شَرِّك ، ويُستعانُ على صنوف صروف غدرك ، وَهَبْ أنك تجمع المُحِبّ بالحبيب ، إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب ، فكم يُقاسي منك في هاجرة الهجر ويَئِنّ أنين الثكلى حتى مطلع الفجر ؟!

يبيتُ كما باتَ السليمُ مُسَهَّدا وفي قلبه نارٌ يَشُبُّ لها وَقْدُ

فيُساهر النجوم ، ويُساور الوُجوم ، وقد هاجت لواعج غرامه ، وتحركت سواكن وجده وهُيامِه ؛ فأنشد وزفيره يتصعد :

أُقضّي نهاري بالحديثِ وبالمنى وَيجْمَعُني والهمّ بالليل جامعُ
نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ليَ الليلُ هزّتني إليك المضاجعُ

على أن العاشق الوَلِه ، يشكو منك في جميع أحواله ، فكم قطع آناءك بمواصلة أنينه متململا من فرط شوقه وحنينه ، فلما أنْ حُظيَ بالوصال تمثّل بقول من قال :

الليلُ إن واصلَتْ كالليل إن هجرت أشكو من الطول ما أشكو من القِصَر

ولئن افتخرت ببدرك الباهر الباهي ، فإنما تُباري ببعض أنواري وتُباهي ، وهل للبدر عند إشراق الشمس من نور ؟ أو لطلعة حسنه من خدور البُطون ظهور! ومن ادّعى أنك تساويني في الفضل والقدر! أو زعم أن الشمس تقتبس من مشكاة البدر ! ومتى استمدت الأصول من الفُروع « وما أغنى الشموس عن الشموعِ » فبي تنجَلي محاسن المظاهر الكونية ، وتتحلّى بجواهر الأعراض اللّوْنية وأنّى يخفى حسني وجمالي على مشاهد؟أو يفتقرُ فضلي وكمالي إلى شاهد! وعرْضي عار عن العار ، وجميع الحسن من ضيائي مُستعار ؟!

وليس يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

أما كفاك بَيِّنة ، وزادك ذكرى وتبصرة ، قوله تعالى : « فَمَحَوْنا آيةَ الليل وَجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبْصِرة » و « هَلْ يَسْتَوي الأعمى والبَصيرُ أم هل تَسْتَوي

الظُّلُمات والنُّور ، وأين منزل أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور او إن كنت مغنى الأنس والأفراح ، تفعل بعقول الناس فعل الرّاح ، فهل حسبت أن السكون خير من الحركة ، وقد أجمع العالم على أن « الحركة بركة » فإن لي بكل خطوة حَظْوة ، وليس لجوادي كَبْوة ، ولا لِصارمي نبوة وإن صرّحْت للذينَ يَبيتونَ لرَبّهم سجداً وقياماً ، معرِّضاً بكل غافل لاه ، في كل مجالٍ رجالٌ لا تُلهيهِمْ تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله ، وأين من احتجب بظلماتٍ بعضها فوق بعض ، ممن أضحى ينظر بعين الاعتبار في ملكوت السموات والأرض ! وقد أتحفني الله بالصلاة الوُسطى فأوْترُ بها صلواتي ، وشرع فيهما الإسرار لأسرار اختصت بها أهل جلواتي ، وكفاني شرفاً « شَهْرُ رَمضانَ الذي أُنزِل فيهِ القُرْآن » فمآثري مأثورة في القديم والحديث ، ومفاخري مَنثورَةٌ في الكتاب والحديث ومحاسِني واضحةٌ لأولي الأبصار ، وهل تخفى الشمس في رائعة النهار ! فاكفُفْ عن الجدال وأمْسِكْ ، ولا تجعل يومك مثل أمسك ، وسالِمْ من ليس لك عليه قُدْرة ، فقد قيل « ما هَلَكَ امْرُؤ عَرَفَ قَدْرَه » أقول قولي هذا وأستغفر الله من آفة العُجْب والكبرياء ، ولمّا انهارَ رُكن النهار ، ابهارّ (الليل) وتَبَرْقع بالاكفِهْرار ، فسدّ ما بين الخافقين بسواده ، وطفِقَ يَرْمي بِسِهام جَدَله في جلاده وقدّم بين نجواه سورة القدر ، آية على ما حازه من كمال الرفعة والقدر ، وثنّى بقوله تعالى : « سُبْحانَ الذي أسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً » فأشار إلى الحبيب حين تَجَلَّتْ له قرة عينه ليلاً ، ثم قال : سُحْقاً لك أيها النهار ، فقد أسّسْت بنيانك على شَفا جرف هارٍ ، تُناضِلني ومني كان انسلاخُكَ وظهورك ، وتفاضلني وبي أرّخَتْ أعوامُكَ وشهورُك — ألم يأن لك أن تخشع للذكر [1] ! فتعترف برُتبة التقديم في الذكر [2] ، وكيف تُعيرني بلون السّواد ! وهل يقْبُح السواد إلا في الفؤاد ؟! أو كيف تَعيبُني

(١) الذكر : القرآن .

(٢) الذكر هنا : الشرف

بالخداع (والحربُ خُدْعة) وليس الشيء في موطنه بغريب ولا بِدْعة؟! أما تشهد العوالم من هَيْبَتي حيارى ؟ « وترى الناس سكارى وما هم بسُكارى» فكم أرّقتُ [١] ملوكاً أكاسرةً ؟ وأرَقت [٢] دماء أسودٍ كاسرة ، وكم أوْرَيتُ نار الوغى تحت العجاج ؟ وقد ازورَّت اللحاظ واغبرَّت الفجاج ، فأنا البطل الذي لا يُصْطلى بناره ، ولا يأخذ منه الموتور بثـــاره ، وافتخاركَ عليَّ بالصلاة الوسطى ، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً ، وهبْ أنــك انفردت بتلــك الصلاة الجليلة ، فأين أنت مما أُوتيتُهُ من الصِلات الجزيلة ، أما كان افتراض الصلاة في ليلة العروج ؟! فما بالُكَ تدعي الارتقاء إلى هذه البُروج ؟!

وما أعجبَتْني قطُّ دعوى عريضة ولو قام في تصديقها ألف شاهد

وأمّا افتخارك عليّ بفضل شهر رمضان ، وما نزل فيه من السبع المثـــاني والقرآن ، فهل صحّ لك صيامه إلا بي بَدْءاً وختاماً ؟! وقـد تميّزْتُ عليك بفضيلة إحيائه تهَجُّداً وقياماً ، على أني محل النيّة « ونية المرء خير من عمـله » لأنها بمثابة الروح له ، وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله ، هذا : وإني أتكفّـــل للصائم بمديد الراحة ووافر الأجر حتى يتبيّن له الخيط الأبيض من الأسود من الفجر ، وكيف تفتخر بالكتاب المنزه في مزاياه عن المشاركة ؟ والله تعالى يقول فيه : « إنّا أنزَلناهُ في لَيْلةٍ مُبارَكةٍ » وهل في مطالع سعودك أشرقت بدور العيدين ؟! أم على جناح جُنْحك أسْري بنور طلعة الكونين ؟! ثم عُرجَ بـه عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوسيْنِ وهل في تجليــات أسحارك يقول الرب : هل من سائل ؟ فيُناجيه العبد متضرعاً إليه بقلب خاشع ودمع سائل .

ومما اختصصت به من الفضائل والمفاخر ، أنه في دولتي وُلد سيد الأوائل والأواخر ، وناهيك بليالي شهر الله رجب ، وكيف لا وفي طالعها السعيد حملت آمنة بسيّد العَجم والعرب .

---

(١) أرقت : أسهرت . (٢) أرقت : أسلت .

فطلع (النهار) طلوع الأسد من غابه ، وكسَر جيُوش الدجى حين كشَّر عن نابـه ، وشمّر للحرب العَوان غيرَ ناكلٍ ولا وانٍ ، ناشراً في الأفق رايته البيضاء وأسِنّته لامعة بين الخضراء والغبراء ، وقال : والذي كساني حُلل الملاحة ، وأطلق لساني بالبلاغة والفصاحة ، لأمحوَنّ سطور الدجى من طُروس الوجود ؛ ولأثبتن حسن أحوالي في مقامات أهل الشهود ، فإني معروف بالوفاء وصدق الخبر، موصوف بالصفاء الذي لا يشوب صفوه كدَر ، كيف يُباهيني (الليل) بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، وأنا أتحدث بنعم الله وهو موسوم بكُفران النِّعم ؟ ألست مظهرَ الهداية والدلالة، وهو مظهر الغَواية والضلالة؟! فكم أرشدت مَن أضله ، وأعززت من أهانه وأذله ، وكم أظهرت منه عيباً كان غيباً ، فابيضت عيناه حُزْناً « واشتعل الرأس شَيباً » :

ومن جَهِلَتْ نفسه قدرَه رأى غيره منه ما لا يرى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق أنه لسَيِّده في حلبة الشرف سابق ، وقد قال الواحد القهار: « ولا الليلُ سابقُ النهارِ » إن هو وأيم الله إلا كافر، وبشموس أنوار الشهادة غير ظافر ، لو كان من السُّعداء لفاز بدار النعيم ، ولولا شقاؤه لما شابه سواد طبقات الجحيم ، وماذا يؤمِّله من الجزاء ويرجوه «يوم تَبْيَضُّ وجوه وتسودُّ وجوه» ، أمادرى أن صحيفته سوداء مظلمة ، وصحيفتي تفصح عن نفسٍ مؤمنة بالله مسلمة ! وأنى يرقى كتابه إلى عليِّين ، وهو من ظلمات الحجاب في سِجِّين !.

ثم أقبل عليه ، وأنشد مشيراً إليه :

يا مُشبهاً في فِعلِهِ لونَـه لم تَعْدُ ما أوجبت القِسْمة
خُلُقك من خَلْقك مستخرجٌ والظلم مُشتق من الظلمة

وقال : كيف تدعي فوق حالك ، وأي فضل لمن منظره أسود حالك !.

أما علمت أن الظاهر للباطن عنوان ، كما ان اللسان عن الجنان ترجمان قال أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام : « ابتغوا الخير عند حِسان الوجوه » وقال الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهدٌ من الخبر

فأنا مِفتاح خزائن الأرزاق ، وبي يُستفتح بابُ الكريم الرزاق ، وكفاني دليلاً على الفضل والكمال « إن الله تعالى جميل يحب الجمال » لقد سمعتُ أقاويلك التي قدمتها بين يديك ، وزعمتَ أنها حُجّة عليك[1] ، ولا جرم أن « لسان الجاهل مفتاح حَتْفه » ، وكم من باغ قُتل بصارم بغيه وحَيفه ـ أما انسلاخي منك فمن أملَح الملح لي والغُرَر ، وهل تحق لأصناف الأصداف أن تُنافس نفائس الدُّرر؟ أليست « تلدُ الأمة ربتها حُرَّة نجيبة » وقد قالوا : « إن الليالي حبالى يلِدْن كل عجيبة » وأما تقدُّمك عليَّ فمن العادة تقدم الخدم بين يدي السادة :

أو ما ترى أن النبيَّ محمداً   فاقَ البريَّة وهو آخر مُرْسَل

على أنه « أولُ ما خلق الله النورَ » كما ورد عن جابر في الخبر المأثور .

وأما تحلّي صفوتك بتجلّي الحق تعالى في السَّحَر ، فليس إلا لمن أحيا أحيانك بالمجاهدة والسهر ، وأما زَهْوُك بقصة ظهور سيد ولد آدم الذي هو نتيجة مقدّمات الكون وزُبدة العالَم ، فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك ، وأنّى لك هذا ، وصَبْح طلعته تمحو سوادك الحالك ، وأما خبرُ الإسراء فعني رَوته الأمة[2] ثم بلّغه الشاهد للغائب بعد أمة[3] ؛ فما لاحت أسراره إلا بمطالعي ، ولا زاحت أستاره إلا بطوالعي ، وما أشرْتَ إليه من بقية معانيك التي أضاءت بها في الخافقين نجومُ معاليك ، فأين أنت من يوم عرَفة ، الذي عرفه بأبهى الخصائص مَن عرفه ، وأين أنت من يوم عاشوراء ، الذي يَعظم فيه الشكر والصبر على السراء والضراء ! وناهيك بسمُو شأن العيدَين ، فما أجلّهما من موسمين سعيدين ، وكيف تُفاخرني بساعة تبدو منك مرة في كل عام ، ولي كل

---

(١) هكذا بالأصل والأصح أن يقال : « وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك » .

(٢) الأمة : أهل الدين . (٣) الأمة : الحين من الدهر ، أي مدة ، أو وقت .

أسبوع أمدُّ تمتد فيه موائد الجُود والإنعام فأخبارُ أخباري سارت بها الركبان، وماسَت بنسيم رِقتها معاطف البيان، وقدري فوق ما تصفه الألسُن، وعندي «ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعيُن» فدَع عنك قول الزور والميْن «فقد بيَّن الصبح لذي عينين».

ولمّا افاض (النهار) في حديث يفضح الأزهار، أبدَع في كنايته وتلويحه، وأعرَب في تعريضه وتصريحه ــ ابتدَر إليه الليل (وأجلب عليه بالرَّجل والخيل) وامتطى جواده الأدهم، واعتم بعمامة سوداء وتلثَّم، فأنسى بفتكاته عنترة بني عبس، حين أمسى يتوعَّد عمارة بالقتل والرمس، ثم نشر في الأفق ذوائبه السود، وعَبس وبَسر فأسرَ بسطوته الأسود، وقال: «فلا أُقسمُ بالشفقِ، والليلِ وما وَسَق، والقمرِ إذا اتسَق، لأسبينَّ رُوميَّ النهار، ولأجعلنه عبرة لذوي الاعتبار فلقد تزَيّا المملوكُ بزيّ الملوك، وادّعى مقام الوُصول إلى صاحب السيْر والسلوك، أمّا كفاه ازدرائي وتحقيري؟! حتى حكم بتضليلي وتفكيري! كم أسبَلت على عوْراته ذيلَ ستري، وهو لا يُبالي بهتك أستاري؟! وكم أوْدعتُ مكنون سرِّه في خزانة سرِّي، وهو يبوح بمصون أسراري! أفٍّ له من فاضح أما يكفيه ما فيه من المفاضح؟!

أنمَّ بما استوْدعتُه من زجاجةٍ ... يُرى الشيء فيها ظاهراً وهو باطن

كيف احتج لتقدمه بحديث جابر، مع أن ما رواه لكسْري أعظمُ جابر، فإنه برهنَ على تقدُّمي عليه لو أدرك سر ما أومأ إليه، وعلامَ جعل السوادَ على النقص علامة، وهو مُشتقٌّ من السؤدَد لدى كل علاَّمة؟ أما درى أني حُزتُ من الكمال الحظ الاوْفر، حتى تحلى ببديع وصفي العنبرُ والمسكُ الأذفر!

إن كنتُ عبداً فنفسي حرّة كرماً ... أو أسودَ الخَلق إني أبيض الخُلق

وهل يُزري بالخال سواده البارع، أو يُغري بالبرص بياضه الناصع، وفي بياض المشيب عبرة وأي عبرة، فكم أجري من الآماق أعظم عَبرة.

له منظرٌ في العين أبيضُ ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع

ومَن عاب نعت الشباب، وفضّل وصفَ الشيب، فقد غاب عن شهود العَيب وعالَم الغيب «فما كلُّ بيضاء شَحمة ولا كلُّ حمراء لحمة» ولمّا أنهى مقالَه، وتَمّ مقامه شمّر للرّحلة أذياله، وقوّض خيامه؛ فتهلّلَ وجه الصباح، وهلل بذكر فالق الإصباح وازدهاه السرور والابتهاج، كأنه ربُّ السرير والتاج:

فكأن الصبح لمّا لاح من تحت الثّريّا
مَلِكٌ أقبَل في التا ج يُفدّى ويحيّا

وبَرز إلى المبارزة من بابها، إذ كان في فُرسانها وأربابها، فسلب (الليل) لباسه، وأذاقه شدته وبأسه، وقال له: ايها المعجبُ بنفسه، المغرب في نقشه صحيفة زُوره بنِقسه[1] «ما كل سوداء تمرة، ولا كل صَهْباء خمرة» ألم تعلم أيّنا أبهى مُحيّا، وشتّان ما بين الثرَى والثريّا، أين سوادك من بياضي؟! وما زهر نجمك إن تتلألأ زهر رياضي! وكم أطلعت بُدوراً في مواكب السيارة، فأضحت تزهو بجماله على الكواكب السيارة، وهل لك مثل الغزالة؟ التي انفردت في الملاحة لا محالة! فأنا الذي ضاء صباح الصباحة من مُحياه، وضاع عبير العنبر من نشر أنفاسه وطيب ريّاه؛ ولولاي ما عُرِف الحُسن والجمال، ولا سعى على وجه الأرض بدر الكمال. فتَوجّم (الليل) لبراعة تلك العبارة، وبلاغ ما لاح له من الرّمز والإشارة، ثم وثبَ للمقال كأنما أُنشط من عِقال، وقال: «رُبّ ملوم لا ذنب له» ومظلوم خيب الدهر أمله، فإلى متى يسوءُني النهار؟ وحتى مَ يسومني عذاب النار، طالما أعرتُه أذناً صمّاء، وعيناً عمياء، وهو لا يَنثني عن المقابلة، ولا يرْعوي عن المحاربة والمقاتلة، أما تَعلم أيها المُغتر ببياضك أن السواد حِلية أهل الزهد والصلاح، وهل يسترقُ الأسْودَ إلا سُودُ أحداق المِلاح! بيَد أن الحر لا يُبالي بالجمال الظاهر وإنما يباهي بالفعل

(١) النقس: ما يكتب به من مادة؛ يريد سواده.

الجميل ، والقلب الطاهر ، فإن تفاوُت المراتب ، بحسب تفاوت المناقب .

وما الحسن في وجه الفتى شرفٌ له إذا لم يكن في فعله والخلائق

وكم أعددتُ للأنس مقاعد ، وفي الأمثال : « ربَّ ساع لقاعد » فإن ظِلي ظليل ونسيمي عليلٌ بليل ، تهدأ بي الأنفاس وتسكُن الأعضاء والحواس. فقام (النهار) يعثر بذيله ، وقد كفكفَ واكِف سيله ، فما لبث أن تنفّس الصباح ، وأظهر من سناه ما أخفى ضوءَ المصباح ، ورفرف بجناحه الابيض على الدُّجى ، فاقتنصه من وكره بعدما سكن وسَجا :

فكأن الصباح في الأفْق بازٌ والدُّجى بين مخلبَيه غُراب

وقال: تباً لك أيها (الليل) فلقد أوتيتَ من الَمين أوفر نَيل ، اي حديث لك صحيح وضعتَه ، وأي حق لك صريح أضعتَه ؟!

عليك بالصدق ولو أنه أحرقَكَ الصدق بنار الوعيد
وابْغِ رضا الله فأغبَى الورَى من أسخط المولى وأرضى العبيد

نعم لك في السمر خبرٌ مرفوع ، بيد أنه مكروه في السُّنة موضوع ، قد اشتهرتَ لكن بأقبح الاوصاف ، وعدلْتَ لكن عن سبيل العدل والإنصاف ، تكتم عن المرءِ ما يُرْديه « وتخفي في نفسك ما اللهُ مُبديه » وفي المثل : « الليل أخفى للويل » فما أصعبَ مراسك قبل افترار سُهيل ، وهل يترنم بذكرك إلا غافل ؟! وأنَّى يفتر بك عاقلٌ ، ونجمك آفل ؟! وكيفَ تفتخر عليَّ ، وأنت تفتقر إليَّ ؟!

ولمَّا سلَب النهار بأساليب بيانه العقول ، سكت الليل مَليّاً ثم أنشأ يقول :

فعين الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ كما أن عينَ السُّخط تُبدي المساويا

كيف أتصدّى للكذب ، وأتردّى باللهو واللعب !! وأنا المنعوت باللُّطف والظرف والموسوم بالصمت وغضّ الطرف ، كيف أورث الغُرور ، وأوثر الغفلة على الحضور ، وأنا الداعي لذكر الله وحده ؟ والساعي في ردّ الكثرة الوهمية إلى عين

الوَحْدة وأنا الموصوف بالسَّتْر الجميل ، والمعروفُ بشكر المعروف والجميل ، وهل أحْجبُ البصر عن شُهود عالـَم الكثافة ، إلا لأكشفَ لعين البصيرة عن عالـَم اللطافة ، وبذلك يتحقق العبد بفنائه عن وُجوده ، فيَمدّه الربّ تعالى بسر بقائه من خزائن جودِه . ثم قال (النهار لليـــل) وقد هجم عليه هُجوم السيل : أيها المدعي مقام الدَّعْوة إلى الله ، وهو في حال الغفلة عن مَوْلاه لاه ، كيف تَسنَّمْتَ ذُرْوة هذا المِنبر ؟ كأنك تَكتُبُ بالمِسْك وتختمُ بالعنبر ! لقد أطلت فيما « لا طائل تحته » ولا مَعنى ، فكم ذا «أسمَعُ جَعْجَعةً ولا أرى طَحْناً » فلو كنت ممن انتخب غُرر الشِّيَم وانتَقى ، لاتَّعظت بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هُوَ أعلَمُ بمن اتَّقى » فتنبَّه من غفلتك أيها « الليل » قبل أن تدعو بالثُّبور والويل ، وإلا فَرَّقْتُ طلائع سَوادِك أي تفريق ، ومزّقت سوابغَ ظلامِك أي تمزيق « فما كلُّ مَرَّة تَسْلَم الجرَّة » . فاسودّ وجه الليل ، وانقلبَ « بحَشَف وسوء كيل » وندم على مُناضلة النهار ، نَدامة الفَرَزْدَق حين فارَق النَّوّار [1] ولما سُقِط في يَدِه ، ورُزِىء في عَدَده وعُدَده ، تردى بالسواد ، ولبِسَ ثياب الحِداد ، ثم لاح هلاله للعين ، كمِنْجَل صيغ مِن لُجين

انظُر إلى حُسْنِ هلالٍ بدا   يجْلو سَنا طَلْعته الحِنْدِسا
كمِنْجَل قد صيغ من فِضَّةٍ   يَحْصُدُ من زَهْر الدجى نرجسا

(١) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها في مجلس عبد الملك بن مروان — وذلك أن الفرزدق قال في المجلس وفيه جرير — النوار طالق ثلاثاً إن لم أقل بيتــاً لا يستطيع جرير أن ينقضه أبداً فقال عبد الملك : ما هو ؟ فقال :

فــإني أنا الموت الذي هو واقع   بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

فقال جرير أم حرزة طالق منه ثلاثاً إن لم أكن نقضته وزدت عليه . فقال عبد الملك هات . فأنشد :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد   فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس ، وطلق عليك .

وقال : مَنْ يُنصفني من هذا الجائر؟ويُنصِتُ لي فأبثه شكوى الواله الحائر فحتّام أعاني حدّ الظُّبا ، وقد بلغ السّيلُ الزُّبى

وكنت كالمُتَمني أن يرى فَلَقاً من الصّباحِ فلما أنْ رآه عمي

فانتبهَ طرفُ (النهار) وازدهر سراحهُ أيّ ازدهار ، وشرع يتلو سورة النور بكمال الابتهاج ، والشّمسُ ترقمُ آية جماله بالذهب الوهاج

وقابل الصُّبْحُ جُنْحَ الليل فارتَسَمَتْ سُطورُه البيضُ في ألواحه السُّود

ثمّ قال أيها « الليل » البهيم «تالله إنّكَ لفي ضَلالِكَ القديم» كيف تدّعي أنّك مظلوم ، وتشتكي من جوْري وأنت الظّلوم ، وهبْ أني قاتلْتُكَ ظلماً فأنت البادي ، وهل قابلتك إلا بما واجهتني به في المبادي ، وها أنا بَرْهَنتُ على فضلي بشهود عُدول ، ليس للمنصف عن تزكية شهادتهم عُدول ، فاستقلْ من دعوى المجد والفخر ، «فقد حَصْحَص الحقُّ » ووضح الفجر ، وإن أبيت سلوك محجّتي ولم تتضح لك أدلة حُجّتي ، فهلم إلى « حضرة الأمير » ولا ينبئك مثل خبير . فأنكر الليلُ زعمه التفرد بالفضل وادعاءهُ ، وأجاب في عرض أمرهما على (الأمير) دعاءه ، وقال : على الخبيرِ سقطت وعند ابن بجدتها حططت .

وكتب أيضاً في مناظرة بين الأرض والسماء

جالت السماء في ذلك المضمار وصالت ، ونوّهت برفيع قدرها وقالت : تبارك الذي جعل في السماءِ بُروجاً ، ومنح أشرف الخلقِ إليّ مُروجاً ، وقدّمني في الذكر في محكم الذكر ، وشرّفني بحسن القسم ، وأتحفني بأوْفر القسم ، وقدّسني من النقائص والعُيوب ، وأطلعني على الغوامض والغُيوب ، وقد ورد أنّ الرّب ينزِل إليّ كل ليلة ، فيولي من تعرض لنفحاته بره ونيله . فيا لها من تحفةٍ جليلة ومنحة جزيلة يحقُّ لي أن أجرّ بها ذُيول العزة والافتخار ، وكيف لا والوجود بأسره باسطٌ إليّ أيدي الذلة والافتقار ، فلي العز الباذخ ، والمجد الأثيل الشامخ ، لتفرّدي بالرفعة والسمو وعُلوّ المنزلة دون غُلوّ . فقالت لها «الأرض» . ويلكِ لقد

أكثرث نزراً وارْتكبتِ بما فهْتِ به وزراً، أما إنه لا يُعجَبُ بنفسه عاقل ، ولا يأمنُ مكر ربّه إلا غافل ، ومن ادّعى ما ليس له بقوله أو فعله ، فهلاكه أقربُ إليه من شراك نَعله ، وقد قيل : « من سعادة جدّك ، وقوفك عند حدّك » ومن فعلَ ما شاءَ لقي ما ساء ،أو ما كفاك أن خَطرت في ميادين التيه والإعجاب ! حتى عرضت لشتمي « إنّ هذا لشيءٌ عُجاب » ! وهل اختصك الله بالذكر ؟ أو أقسَم بك دوني في الذكر ؟ أو آثرك بالتقديم ، في جميع كلامه القديم ، حتى تردّيتِ بالكبرياء وتعدّيت طَوْرَ الحياء !

إذا لم تخشَ عاقبة الليـــالي ولم تستحِ فاصنع ما تشاءُ
فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وكيف تزدرين أهلي بالذنوب والمعاصي ؟ وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصي ؟ فقابلتها « السماء » بوجه قد قطبتْه ، ومِجَنٍّ قد قلبته ، وقالت لها في الحال: أيتها القانعةُ بالمحال،ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مُبارزة مثلي، وتنكرين عليّ ما ترنمتُ به من شواهد مجدي وفضلي، وهَلْ خِلتِ أن التحدثَ بالنعم مما يلام عليه؟ مع انه أمرٌ مندوبٌ إليه؟ ومن أمثال ذوي الفطنة والعقل « ليس من العدل سرعة العذل » وكيف جحَدْت ظهور شمس كمالي ؟ وهل لك من الفضائل والفواضل كما لي! ولكنّ لك عندي عُذراً جليّاً ، وإن كنت « لقد جئت شيئاً فريّاً »

قد تنكر العينُ ضوءالشمس مِنْ رَمَدٍ وينُكِرُ الفَم طعـم المـاء من سَقم

ولو رأيت ما فيك من المساوي عياناً ، لما ثنيت إلى حلبة المفاخرة عناناً . فأنّى تفوزين بأشرف الأقدار ، وأنت موضع الفضلات والأقذار ؟ ومـا هـذا التطاولُ والإقدام ، ووجهك موطىء النعال والأقدام ، إن هذا إلا فعل مكابر، دَعوى عريضة وعجز ظاهر ، وهل يحق للكثيف أن يتغالى على اللطيف ، أم ينبغي للوضيع أن يتعالى على الرفيع ! فقالت لها « الأرض » : أيتهـا المُغْترة

بطوالع أقمارها والمُعْتَزّةُ بلوامع أنوارها « ما كلّ بيضاءَ شَحْمة ، ولا كل حمراءَ لحمة » فبمَ تزعُمين أنك أتقى مني وأنقى ، وما عند الله خيرٌ وأبقى ، وأنت واقفةٌ لي على أقدام الخدْمة جارية في قضاء مآربي بحسب الحكمة ، قد كفّلك الحق بحمل مَؤُونتي ، وكلّفك بمساعدتي ومعونتي ، ووكلك بإيقاد سراجي ومصباحي ، ووكلك إلى القيام بشؤوني في ليلي وصباحي ، وليس عُلوُّكِ شاهداً لك بالرتبة العَليّة ، فضلاً عن أن يوجبَ لك مقام الأفضلية — فما كل مُرْتفع مَجد ، ولا كلُّ مُتعاظم ذو شَرف ومجد

وإن علاني مَن دوني فلا عَجبٌ لي أسوة بانحطاطِ الشمسِ عنْ زُحل

فمن أعظم ما فقتُ به حسناً وجمالا ، وكدْتُ بإخمصي أطأ الثريا فضلاً وكمالا تكوينُ الله مني وجود سيّد الوُجود ، فأفرغَ عليَّ به خلع المكارم فهو بدر الكمال وشمسُ الجمال :

وأجملُ منك لم ترَ قط عينٌ وأكملُ منك لم تلد النّساءُ
خُلقت مبرءاً من كل عيْب كأنك قد خلقت كما تشاء

فأكرم به من نبي أسَرّني به وأرضى ، كيف لا ولولاه ما خلق سماءً ولا أرضاً وجعلني له مسجداً وطهوراً ، وأقرَّ به عيْني بطوناً وظهوراً .

فأبرَقت « السماءُ » وأرعدَتْ ، وأرغتْ وأزبدَتْ ، وقالت : إن لم تَتخطّى خطّة المكابرة وتَتخلي عن هذه المثابرة ، لأغرقنّك في بحر طوفاني ، أو أحرقنّكِ بصواعق نيراني ، وهل امتطيت السماكين ، أو انتعلت الفرْقدَين ، حتى تفتخري عليّ ، وتشيري بالذم إليّ ، وتلك شهادة لي بالكمال ، ولقد صدق من قال :

وإذا أتَتْكَ مَذمّتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

أم حسبت أن لك في ذلك حجة ، فخاطرت بنفسك في ركوب هذه اللّجّة وكنت كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارنَ أنفه بكفّه

لكل داءٍ دَواء يُستَطَبُّ به إلاّ الحماقةَ أعْيَت مَن يُداويها

أمّا دعواكِ أني واقفةٌ على أقدام الخِدْمة ، فهي مما يوجبُ عليكِ شكر الفَضْل والنّعمة ، فلو تفكرتِ أنّ خادم القوم هو السيد والمولى ، وعرفت الفاضل من المفضول ، أو تَدَبّرتِ أنّ « اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى » لاسْتقلت من هذا الفضول ، فإنّ قيامي بشؤونك أوضحَ أمارة — وأما قولك : مني سيد الوُجود ، ومن اصطفاهم لحضرته الملكُ الوَدودُ ، فإن كنت تفتخرين بأشباحهم الظاهرة ، فأنا أفتخرُ بأرْواحهم الطاهرة ، أمّا علمتِ أنها في ملكوتي تغدْو وتروح ، وبواردَيْ [١] بَسْطي وقبضي تَشْدو وتَنوح ، فأنا أوْلى بهم ، وأحرى بالافتخار بحزبهم .

فلما سمعت الأرض من السماء مقالة تقطرُ من خلالها الدّماءُ ، أطرقت لمحة بارقٍ خاطف ، أو نُغبةَ [٢] طائر خائف ، ثم قنّعتْ رَأسها ، وصعّدت أنفاسها وقالت : لقد أكثرتِ يا هذه اللغط ، وما آثرتِ الصواب على الغَلَط ، فعلامَ تهزئين بي وتستخفّينَ بحسبي ونسبي ؟ وإلامَ تنقُضين عُرى أدِلتي ، ولا تعامِلينني باللتي ؟ وحتّامَ تقابلينني بأنواع التأنيب ، ولِمَ لا تقفي على حقيقتي بالبَحْث والتنقيب ؟ أحسبتِ أن الجسم ما خُلق إلا عبثاً ، ولا كان للنفس النفيسة إلا جَدثاً ؟ وفي ميدانه تتسابق الفُهوم ، وتُدرك عوارف المعارف والعلوم ، وبه تترقى الأرواح في مراقي الفلاح . وكيف لا يكون مقدساً من كلّ غي وميْن ؟ وهو لا يَفْترُ عن تسبيح بارئه طرفة عيْن ! وإلى متى أنتِ عليّ مُتحاملة ؟ وعن آية العدْل والإحسان مُتحاملة ؟ وأنا لك أسمعُ من خادم ، وأطوَعُ من خاتم ، على أن لي من الفضائل ما ثبت بأصح البراهين والدلائل ، أما فيّ بقعةٌ من أشرف البقاع على الإطلاق ، لضمّها أعضاء مَن تمّمَ اللهُ به مكارم الأخلاق ! وفيّ روضةٌ من رياض الجنّة ، كما أفصحتْ عن ذلك ألسنةُ السُّنة ، ومني الكعبة والمشعرُ الحرام ، والحجر وزمزمَ والركنُ والمقام ، وعَليّ بيُوتُ الله تُنشدُ

---

(١) وارد : طريق . (٢) النغبة : الجرعة .

إليها الرّحال ، ويسبّحُ فيها بالغُدُوّ والآصال رجال ، وأخرَج مني طيّبات الرزق فأكرمَ بها عبادهُ ، وأتمّ نِعمتَه عليهم فجعل الشكر عليهـــا عِبادة ؛ وناهيك بما اشتملت عليه من الرّياض والغياض ، ذات الأنهار والحيــاض . التي تَشفي بنسيمها العليل ، وتنفي ببرد زُلالها حرّ الغليل

لِمَ لا أهيمُ على الرّياضِ وطيبها   وأظلُّ منها تحت ظِلٍ ضافِ
والزهرُ يَضحك لي بثغر باسم   والنّهرُ يلقـــاني بقلبٍ صافي

فأسفرتْ عن بدر طلعتهـــا « السماء » وهي تزهُو في بُرود السّنا والسناء ، وقالت تناجي نفسها عند ما رقّ السّمر ، حتّامَ أريها السهى وتُريني القمر ؟ ثم عطفتْ عليها تقول ، وهي تسطو وتصول : أيتها المتعديةُ لمُفاضَلتي ، والمتصدّية لمناضلتي مَتى قِيس التراب بالعسجد ؟ أو شُبّه الحصى بالزبرجد ؟! إن افتخرتِ بشرف هاتيك البقاع التي زَها بها منك اليَفاع والقـــاع ، فأين أنت من عرش الرّحمن؟ الذي تعكفُ عليه أرواحُ أهل الإيمان؟ وأين أنت من البيت المعمور! والكرسي المكلّل بالنّور ؟! وكيف تفتخرين علي بروْضة من رياض الجنة ، وهي عـليّ بأسرهـــا فضلاً من الله ومِنّة ! أم كيف تزُعمين أنه كُتِب لك بأوفر الحظوظ ، وعندي القلم الأعلى واللوح المحفوظ ؟ وأما ازدهاؤك بالحِياض والأنهار ، والرياض المبتهجة بوُرود[1] الورد والأزهار فليتَ شِعري هل حويت تلك المعاني إلا بنفحات غُيوثي وأمطاري ؟! أم أشرقت منك هاتيك المعاني إلا بلمحات شموسي وأقماري ؟! فكيف تُباهينني بمـــا منحتُك إياه ، وعطّرتُ أرجاءك بأريج نَشره وريّاه ؟! ويا عجباً منك كلما لاحَ عليّ شعار الحزن ، خطرتِ في أبْهى حلة من حُلل الملاحـة والحُسن ، وإن افترّت ثغور بدور أنسي ، وقرّت ببديع جمالي عينُ شمسي ، زَفرت زفْرة القيظ ، وكدت أن تَتَميزي من الغيظ ، ما هذا الجفاء يا قليلة الوفاء ؟! وهل صفت أوقاتك إلا بوجودي ، او طابت اوْقاتك إلا بوابـــل كرمي وجُودي ؟! ولوْ قطعتُ

(١) وردث الشجرة وروداً إذا اخرجت وردها .

عنك لطائف الإمداد لخلعت ملابس الأنس ولبست ثياب الحداد ! او حجبتُ عنك الشموس والأقمار لما ميّزت بين الليل والنهار ! فهلا كُنتِ بفضلي معترفة حيث إنك من بحر فيضي مغترفة ؟! فنزعت « الأرض » عن مُقاتلتها ، وعلمت انها لا قِبَل لها بمقابلتها ، وحين عجزت عن العوم في بحرها ، واستسلمت تمائمها لسحرها ، بسطت لها بساط العتاب ، متمثّلةً بقول ذي اللطفِ والآداب :

إذا ذهبَ العِتابُ فليسَ وُدٌ ويَبقى الوُدُّ ما بَقيَ العِتابُ

ثمّ قالت : اعلمي ايتها الموسومة بسلامة الصّدر ، الموصوفة بسموّ المنزلة وعُلوّ القدر ، ان الله ما قارنَ اسمي باسمك ، ولا قابل صورة جسمي بجسمك ، إلا لمناسبة عظيمة ، وأُلفةٍ بيننا قديمة ، فلا تُشمِتي بنا الأعداء ، وتُسيئي الأحبّاءَ والأودّاء ، فإنّ ذلك من اعظم الرّزايا ، وأشدّ المِحَن والبلايا

كلّ المصائب قد تمرُّ على الفتى فتهونُ ، غيرَ شماتة الأعداءِ

ألا وإنّ العبدَ محلُّ النّقصِ والخلل ، وهل يسوغ لأحدٍ ان يبرّيء نفسه من الزّلل ؟! ومَن ذا الذي يسلم من القَدح ، ولو كانَ اقومَ من القِدْح [١]

ومَن ذا الذي تُرضي مزاياهُ كلها كفى المرءَ نُبلاً ان تُعدّ معايبُهْ

هذا ، وإنّ لي مفاخرَ لا تُنكر ، ومآثرَ تجلُّ عن ان تحصر ، كما انك في الفضل اشهرُ من نارٍ على عَلَم ، وأجلُّ من ان يحصي ثناءً عليك لسانُ القلم ، فإلى متى ونحنُ في جدالٍ وجلاد ، نتطاعنُ بأسِنة ألسِنة حِداد ، وهل ينبغي ان يجُرّ بعضُنا على بعضٍ ذَيلَ الكِبرِ والصّلَف ، عفا اللهُ عمّا سلَف ، وهذه لعمري ، حقيقة امري ، فانظري إليّ بعينِ الرّضا واصفحي بحقّك عمّا مَضى .

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التي تجنَحُ إلى طلب السّلم والإقالة ، قالت لها : مآربُ لا جفاوة ، ومشربٌ قد وَجَدتُ لهُ حلاوة ، وما ندَبت إليه من المودة

---

(١) القدح : بكسر القاف السهم قبل ان يراش ويركب نصله .

والألفة ، فلأمرٍ ما جدّع قصيرٌ أنفه ، ولو لم تُلْقِي إليّ القياد ، لعاينتِ مني ما دونه خَرْط القَتاد ، ولكن لا حرَج عليكِ ولا ضَير ، فإنك اخترت الصلح والصلحُ خير ، وكيف جَعلْتِ العتاب شرطاً بين الأحباب أو ما سمعت بعض أولي الألباب :

إذا كنتَ في كلّ الأمور مُعاتباً   صديقك لم تَلْقَ الذي لا تُعاتبهْ
وإن أنت لم تشرب مِراراً على القذى   ظمئْتَ وأيّ النّاس تصفُو مشاربه

وها أنا رادّةٌ إليكِ عوائد إحساني ، وموائدَ جُودي وامتناني ، فقرّي عيناً وطيبي نفساً ، وتيهي ابتهاجاً وأنساً ، وأبشري ببلوغ الوَطر ، وزوال البُؤس والخطر ، فسجدت الأرض شكْراً ، وهامَت نَشْوةً وسُكراً ، وتهلّل وجهُها سُروراً ، وامتلأت طرباً وحُبوراً .

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٤٠١ هـ

قال الرّبيع : أنا شابُّ الزمان ، وروح الحيوان ، وإنسان ١ عين الإنسان أنا حَياة النفوس ، وزينة عروس الغُروس ، ونُزهة الأبصار ، ومَنطق الأطيار ، عَرف ٢ أوْقاتي ناسم ، وأيامي أعيادٌ ومواسم ، فيها يَظهر النّبات ، وتُنْشَر ٣ الأموات ، وتُرَدُّ الودائع ، وتتحرّك الطبائع ، ويمرح ٤ جَنيب ٥ الجنوب ٦ ، ويَنزح ٧ وجيب ٨ القلوب ، وتفيض عيون الأنهار ، ويَعتدل الليل والنهار ، كم لي عِقدٌ منظوم ، وطِراز وشيٍ مَرْقوم ، وحُلّة فاخرةٌ ، وحيلةٌ ظاهرة ، ونَجم سعد يُدني راعيه من الأمل ، وشمس حُسْنٍ تُنشدنا ٩ : «يا بُعد ما بين بُرْج الجَدْي ١٠ والحَمَل ١١ » عساكري مَنصورة ، وأسلحتي مشهورة فمنْ سيف غُصْنٍ

(١) ما يرى في سوادها (٢) الريح الطيبة (٣) تحيا (٤) ينشط (٥) بجنوب ، والجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيـل إلى مطلع الثريا (٦) ريح تخالف الشمال ومنه إذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير (٧) يبعد ويذهب (٨) خفقانها (٩) تقول لنا من إنشاد الشعر (١٠) برج في السماء وهو أحد البروج الاثني عشر التي تمر بها (١١) برج في السماء أيضاً .

بجوْهر ، ودِرْع بنفسج مُشهَّر ، ومِغفَرِ شَقيقٍ[٢] أحمر، وتُرْس بهارٍ يَبْهر ، وَسهم آس يرْشقُ فيَنشق ، ورُمح سَوْسن [٣] سِنانه أزْرق ، تحرُسها آيات ، وتكتنِفُها ألويةٌ ورايات، بِي تحْمَرُّ من الورد خُدوده، وتهتزُّ من البَان قُدوده، ويخضرُّ عذار الرَّيحان ، ويَنتَبهُ من النرْجس طَرفه الوسنان [٤] وتخرُج الخبايا من الزَّوايا ويَفترُّ ثغرُ الأقْحُوان [٥] قائِلاً أنا ابنُ جَلا وَطلاّع الثَّنايا)

إنَّ هذا الرَّبيعَ شيءٌ عجيبٌ يُضْحِكُ الأرض مِنْ بُكاء السَّماء
ذَهَبٌ حيثُما ذَهَبْنــا ودُرٌّ حيث دُرْنا وفِضّةٌ في الفَضاء

(وقال الصيف : أنا الخِلّ المُوافق، والصديق الصادِق، والطبيب الحاذق أجتهد في مَصلحة الأحباب ، وأرفع عنهم كُلْفة حَمْلِ الثياب ، وأُخَفِّف أثقالهم ، وأُوَفر أموالهم ، وأكفيهم المؤونة ، وأجزِلُ لهم المعونة ، وأغْنيهم عَنْ شراءِ الفِرا ، وأُحققُ عندَهم (أن كل الصيد في جَوْف الفَرا) نُصِرتُ بالصّبا، وأُوتيتُ الحكمة في زمن الصِّبا ، بي تتَضحُ الجادّة [٦] وتنضج منالفواكه المادة ، ويزْهُو البُسْرُ والرَطب وينصلحُ مِزاج العِنب ، ويقوى قلبُ اللوز ، ويلين عطف التين والموز ، وينعقِدُ حبُّ الرمان ، فيقمع الصفراء ، ويسكنُ الخفقان ، وتخضبُ وجنات التُّفّاح ويذهب عَرف [٧] السَّفرجل مع هُبوب الرياح، وتسودُّ عيون الزيتون وتخرُج تيجان النّارنج والليمون، مواعدي مَنقودة، وموائِدي مَمْدودة ، الخير موجود في مقامي ، والرزْق مقسومٌ في أيامي .

الفقير يَنصاع [٨] بملءِ مُده وصاعه ، والغني يرتَع في ربع مُلكه وإقطاعه ، والوحش تأتي زُرافاتٍ [٩] ووحداناً ، والطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً [١٠] .

---

(١) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٢) شقائق النعمان وهو نبت أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة (٣) نبات طيب الرائحة (٤) النعسان الغفلان (٥) البابونج نبت طيب الرائحة حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر
(٦) الطريق (٧) رائحته الطيبة (٨) ينتقل راجعاً مسرعاً
(٩) جماعات (١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة .

مصيفٌ له ظِل ظليل على الورى ⠀⠀ ومَنٌّ حلا طعماً وحللَ أخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مُبديــاً ⠀⠀ لصحتّها حفظاً يُعجز بقراطا [١]

(وقال الخريف) : أنا سائق الغيوم ، وكاسر جيش الغموم ، وهازم أحزاب السَّموم [٢] ، وحادي نجائب السحائب ، وحاسِر نقـــاب المناقب ، أنا أصدُّ الصدى [٣] وأجود بالندى ، وأُظهر كل معنى جليّ ، وأسمو بالوسميّ [٤] والوليّ ، في أيامي تقطف الثمار ، وتصفو الأنهار من الأكدار ويَترَقرق [٥] دمــع العُيون ، ويتلون ورق الغصون ، طَوْراً يحاكي البقم ، وتارة يُشبه الأرقم ، وحيناً يبدو في حلته الذهبية فيجذِبُ إلى خلته القلوب الأبية ، وفيَّ يُكفى النــــاس همّ الهوامّ ، ويتساوى في لذة الماء الخاص والعام ! وتقدُمُ الأطيارُ مُطربةً بنشيشها رافلةً في الملابس المجددة عن ريشها ، وتُعصرُ بنت العنقود وتوثَقُ في سجن الدنّ بالقيود ، على أنها لم تجترح إثماً ، ولم تعاقب إلا عُدواناً وظلماً ، بي تطيبُ الأوقات ، وتحصُلُ اللذّات ، وترق النسمات ، وتُرمى حصى الجمرات ، وتسكن حرارة القلوب ، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب ، كم لي من شجرةٍ أكلها دائم ، وحملها للنفع المتعدي لازم ، وورقها على الدوام غيرُ زائل ، وقدُودُ أغصانها تُخجِل كل رُمح ذابل :

إن فصل الخريف وافى إلينــا ⠀⠀ يَتَهــادى في حُلــّةٍ كالعروسِ
غيره كان للعيون ربيعـــاً ⠀⠀ وهو ما بيننا ربيــــعُ النفوسِ

(وقال الشتاء) أنا شيخُ الجماعة ، ورب البضاعة ، والمقابلُ بالسمعِ والطاعة أجمع شمل الأصحاب ، وأسدِلُ عليهم الحجاب ، وأتحفهم بالطعام والشراب ، ومَنْ ليس له بي طاقةٌ أغلق من دونه الباب ، أميلُ للمطيع ، القادر المستطيع

---

(١) بقراط الحكيم اليوناني وهو لفظ يوناني معناه ناسك الصبح (٢) الريح الحارة (٣) العطش (٤) المطر الذي يأتي في الخريف ، والولي الذى يأتي بعده (٥) ترقرق الدمع في العين تحرك .

المعتضد بالبرود والفرا ، المتمسكِ من الدينار بأوثق العُرى ، ومن يَعشُ عن ذِكري ، ولم يمتثل أمري ،أرجفته بصوت الرّعد ،وأنجزتُ له من سيف البرق صادق الوعد ، وسرتُ إليه بعساكر السحاب ، ولم أقنع من الغنيمة بالإياب ، مَعروفي مَعروف ، ونَيل نَيلي موصوف ، وثمار إحساني دانيةُ القطوف ، كم لي من (وابل) طويل المدى (وجَود) وافرِ الجدا (وقطر) حلا مذاقه (وغيث) قيد العُداة إطلاقه (وديمة) تُطرب السمع بصوتها (وحَيا) يحيي الأرض بعد موتها ، أيامي وجيزة وأوقاتي عزيزة ، ومجالسي معمورة بذوي السيادة ، مغمورَة بالخير والمير والسعادة ، نُقلها يأتي من أنواعه بالعَجَب ، ومناقلها تسمحُ بذهب اللهب ، وراحُها تُنعش الأرواح ، وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن المقول الصِّحاح ، إن رُدتها وَجدتَ مالاً ممدوداً ، وإن زُرتها شاهدت لها بَنين شهوداً .

مناظرة بين البر والبحر لبعض الأدباء

قال (البرّ) يا صاحب الدّر ، ومَعدن الدُّر ، أطرقتَ رياضي ومَزّقتَ قصوري وأحواضي ، وأغرَقتَ جنّتي ، ودخلت جنتي ، وتلاطمت أمواجك على جِنتي ، وأكلتَ جزائري وجروفي ،وأهلكتَ مَرعى فَصيلي وخروفي ، وأهزلتَ ثوري وحملي وفرسي وجملي ، وأجريتَ سفنك على أرضٍ لم تَجْرِ عليها ، ولم تمل طرف غرابها إليها ، وغرست أوتادها على أوتاد الأرض ،وعرّست في مواطن النفل والفرض ، وجعلت تَجري مَراكِبك في مَجرى مراكبي ،ومَشى حوتك على بطنه في سعد أخبية مضاربي ، وغاصَ ملاحك في ديار فَرَحي ، وهاجرت من القرى إلى أم القرى وحملت فلاّحي أثقاله على القِرى ، وقد تلقيتك من الجنادل بصدري ، وحملتُك إلى بَرزَخك على ظهري ، وقبّلت أمواجك بثغري ، وخلفت مِقياسي فرحاً بقدومك إلى مصري وقد جُرتَ وعدلت وفعلتَ ما فعلت ،فلعلك تفيض ، ولا يكون ذهابك عن ذهاب بغيض ،

أو تفارق هذه الفِجاج ، وتختلط بالبحر العَجاج ، وإن لم تفعل شكَوناك إلى مَن أنزلك من السماء ، وأنعَم بك علينا من خزائن الماء :

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغِث عِباداً فمولاهم يُغيثُ ويَرحمُ
وإن صدرت منهم ذنوبٌ عظيمةٌ فعفوُ الذي أجراك يا بحرُ أعظمُ
نمدُّ إليه أيدياً لم نَمُدَّها إلى غيره والله بالحالِ أعلمُ

قال (البحر) : يا برُّ ، ياذا البِرِّ ، ومَنبِتَ البُرِّ ، هكذا تخاطِب ضيفَك وهو يخصب شتاءك وصَيفك ، وقد ساقني الله إلى أرضك الجرُز ، ومعدن الدُّر والخرز لأ بهجَ زرعها وخيلها ، وأخرج أبَّها ونخيلها ، وأكرمَ ساكِنَك ، وأنزلَ البركة في أماكنك ، وأثبت لك في قلب أهلك أحكام المحبَّة ، وأنبت بك لهم في كلِّ سُنبلة مائة حبَّة ، وأحييك حياة طيبة ، يبتهجُ بها عمرُك الجديد ، وتتلو « كذلك يُحيي اللهُ الموتى » ألسنةُ العبيد ، وأطهِّرك من الأوساخ ، وأحمِل إليك الإبليز فأطيبك به من عَرَق السباخ ، وأنا هدية الله إلى مِصرك ، وملكُ عصرك ، القائم بنصرك ، ولولا برَكاتي عليك ، ومسيري في كل مسرًى إليكَ ، لكنتَ وادياً غير ذي زرْع ، وصادياً غير ذي ضَرْع :

سَرَيْتُ أنا ماءُ الحياة فلا أذى إذا ماحفِظتُ الصحبَ فالمالَ هيِّنُ
فكن خَضِراً يا برّ واعلم بأنني إلى طينِكَ الظمآن بالريِّ أحسنُ
وأسعى إليه من بلادٍ بعيدةٍ وأحسنُ أجري بالتي هي أحسنُ
إذا طاف طوفاني بمقياسك الذي يُسِرُّ بإتيان الوَفاءِ ويُعلِنُ
فقم وتلقَّاه ببسطتِكَ التي لرَوْضَتِها فضلٌ على الرَّوض بيِّنُ

ولعمري : لقد تلطفَ (البرُّ) في عِتابه وأحسن ، ودَفع (البحرُ) في جوابه بالتي هي أحسن ، وقد اصطلحا وهما بحَمْدِ الله أخوان متضافران على عمارة بلاده ، ونشر الثَّروة ونموّ الخيرات بين عباده ، فالله تعالى يخصب مرعاهما ويحرسهما ويَرعاهما

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء

قال (الهواء) : الحمد لله الذي رفع فلك الهواء ، على عُنصر التراب والماء . «أما بعد» فأنا الهواء الذي أوَلف بين السحاب وأنقلُ نسيم الأحباب ، وأهُبُّ تارةً بالرَّحمة وأخرى بالعذاب ، وأنا الذي سُيِّرَ بي الفلـكُ في البحر كما تسير العِيسُ في البِطاح ، وطار بي في الجوّ كل ذي جَناح ، وأنا الذي يضطربُ مني الماءُ اضطراب الأنابيب في القنا ، إذا صَفَوْتُ صفا العالم ، وكان له نضْرَةٌ وزَهْواً ، وإذا تكدَّرْتُ انكدرت النجوم وتكدر الجوّ،لا أتلوَّن مثل الماء المتلوّن بلوْن الإناء ، لولايَ ما عاش كل ذي نفس ، ولولايَ ما طاب الجوُّ من بخار الأرض الخارج منها بعدَ ما احْتبس ، ولولايَ ما تكلم آدميٌّ ولا صوّت حيوان ، ولا غرّد طائر على غُصن بان ، ولولايَ ما سُمع كتاب ولا حديث ، ولا عُرف طَيِّب المسموع والمشموم من الخبيث فكيف يُفاخرني الماء الذي إذا طال مُكثه ، ظهر خبثه ، وعلت فوقه الجِيَفُ وانحطّت عنده اللآلىءُ في الصدف .

فقال (المـاء) : الحمد لله الذي خلق كلّ حيّ « أما بعد » فأنا أول مخلوق ولا فخر ، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر ، وأنا الجوهر الشفاف ، المشبّه بالسيف إذا سُلّ من الغلاف ، وقـد خلق الله فيّ جميع الجواهر حتى اللآلىء والأصداف ، أحْيي الأرضَ بعد مماتها ، وأخرج منها للعالم جميع أقواتهـا ، وأكسو عرائس الرّياض أنواع الحلل ، وأنثر عليها لآلىء الوَبْل والطلل ، حتى يُضرَب بها في الحُسن المثل ، كما قيل :

إن السَّماءَ إذا لم تبْكِ مقلتُها لم تَضْحك الأرضُ عن شيءٍ من الزَّهر

فكيف يُنْكِرُ فضلي مَن دَبّ أو درَج ؟ وأنا البحرُ الذي قيـل عنه في الأمثال « حدّث عن البحر ولا حرَج » وأما أنت أيها الهواء : فطالما أهلكت أمماً بسُمومِك وزمهريرِك ، ولا تقوّم جَنتَّك بسعيرك .

وأما قولك: لولايَ ما عاش إنسان، ولا بقيَ على الأرض حيوان، فجوابهُ: لو شاءَ اللهُ تعالى لعاش العالم بلا هواء ، كما عاش عالم الماء في الماء ، وأنشدُك الله أما رأيْتَ ما حباني اللهُ به من عظيم المِنّة ، حيث جعلني نهراً من أنهار الجنة ، أنا أرفع الأحداث ، وأطهّرُ الأخباث ، وأجلو النظر ، وأزيلُ الوَضر ، أما رأيت النـــاسَ إذا غِبْتُ عنهم يتَضرّعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء ويسألونه تعالى إرسالي من قِبَل السماء ؟ واعلم أنني ما نلتُ هذا المقامَ الذي ارتفعتُ به على أبناء جنسي ، إلا بانحطاطي الذي عيَّرْتني به وتواضعي وهَضم نفْسي .

وقد كثر بينهما النزاع والجدال ، حتى حكم بينهما أميرٌ وقال :

إن كلاً منكما مُحِق فيما يَدّعيه ، فما أشبهكما في السماء بالفرْقدين ، وفي الأرض بالعينين ، إلا أن مِرآة الحقّ أرَتْني فضيلةً تفْضُلُ بها أيها الماءُ أخاك الهواء ، وحققت لي بأنكما لستما في الفضل سَواء ، وهي (أن الله تعالى خلقَ آدمَ منَ الماء) فاعترفْ لأخيك بالفضل والذكاء .

مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ

قال (الجمل) : أنا أحمِلُ الأحمَالَ الثقال ، وأقطع بهـــا المراحل الطوال ، وأكابد الكَلال ، وأصبرُ على مُرّ النـّكال، ولا يعتريني من ذلك مَلال، وأصول صَوْلة الإدلال ، بل أنقادُ للطفل الصغير ، ولو شئتُ استصعبت على الأمـــير الكبير ، فأنا الذّلول ، وللأثقال حَمُول ، لستُ بالخائن ولا الغلول، ولا الصائل عند الوُصول أقطعُ في الوُحول ، ما يَعْجِـزُ عنـه الفحول ، وأصابرُ الظماء في الهواجر ولا أحول ، فإذا قضيتُ حـقّ صاحبي ، وبلغْت مآربي ألقيتُ حَبْلي على غاربي ، وذهبت في البوادي أكتسبُ من الحلال زادي ، فإن سمعتُ صوت حاديّ سلمتُ إليه قيادي ، وواصلتُ فيه سُهادي ، وطلقتُ طيّبَ رُقادي ، ومددتُ إليه عُنقي لبلوغ مرادي ؛ فأنا إن ضَللتُ فالدليلُ هادي ، وإن زللْتُ أخذَ بيدي مَن إليه انقيادي، وإن ظمِئتُ فذِكرُ الحبيب زادي،

وأنا المسخر لكم ، بإشارة « وَتحْمِلُ أثقالَكُمْ » فلم أزل بين رحلة ومقام ، حتى أصِلَ إلى ذلك المقام .

فقال (الحصان) : أنا أحْمِلُ صاحبي على كاهلي فأجتهدُ بــه في السير ، وأنطلقُ به كالطير ، أهجم هجومَ الليل ، وأقتحمُ اقتحام السيـل ، فإن كان طالباً أدرَك بي طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسبابَ الرّدى عنه محتجبة ، فلا يُدرَك مني إلا الغبار ، ولا يُسْمع عَني إلا الأخبار ، وإن كان الجملُ هو الصابر المجرَّب ، فأنا السابق المقرّب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأنا المقرّب السابق ، فإذا كان يوم اللقاء قدمتُ إقدام الواله ، وسبقت سبق نباله ، وذلك مُتخلفٌ لثقل أحماله ، وإن أوثقَ سائسي قيدي وأمِن قائدي كيدي ، أوثقت بِشكالي ، لكيلا أحُول على أشكالي ، وألجِمْتُ بلجامي كيلا اغفل عن قيامي ، وأنعلتَ الحديدَ اقدامي كيــلا أكِلّ عن إقدَامي ، فأنا الموعُود بالنجاة ، المعدُود لِنَيل الجاه ، المشدود للسلامة ، المقصود للكرامة ، قد أجزل المنعم عليّ إنعامه ، وأمضى بالعناية الأزليّة أحكامه « فإن الخير معقودٌ بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » خُلِقتُ من الريح ، وألهمت التسبيح ، ومــا برِح ظهري عِزّاً ، وبطني كـنزاً ، وَصهْوَتي حِرزاً ، فكم رَكَضْتُ في ميدان السباق وما أبديت عَجزاً ، وكم حززت رءوس أهــل النِّفاق حزّا ، وكم أخليت منهم الآفاق (هل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكزا) .

الفن الثالث في الأمثال

المثل عبارةٌ عن تأليف لا حقيقة له في الظاهر ، وقد ضُمّنَ باطنــه الحِكم الشّافية وهي ثلاثة أقسام : مفترضةٌ ممكنة ، ومخترعةٌ مستحيلة ، ومختلطة :

(١) الأمثال المفترضة الممكنة : هيَ ما نُسِب فيها النطق والعمل إلى عاقل[١] .

---

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين : الأول أن لها مغزى ، والثاني كونهــا غير واقعة وإن كانت في حيز الإمكان .

(٢) والمخترعة المستحيلة: ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيُعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان .

(٣) والمختلطة : ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق .

وشروط المثل أربعة : (الأول) أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليفضي المقصودُ منه إلى ذهن السامع . (الثاني) أن لا يكون مُسهباً مُملاً . (الثالث) أن يُبهج السامع بطلاوته ويفكه فكرَته بهزل كلامه وابتكارُ معانيه ، ويضبط عقله في فهم الرواية المختلقة وفضّ مُشكلها (الرابع) أن يُورد بصورة محتملة .

وفوائد المثل جمّة ، منها نزهة البال وترويح الخاطر ، ومنها استقصاءُ الحكم ؛ وهي قديمة العهد جداً ، ولا يعرف اسم أول من تكلم بها ، وكما تكون نثراً تكون نظماً — ونذكر لك من الأمثال ما طاب وراق فنقول :

أمثال القرآن الكريم

أمثال القرآن الكريم قسمان : ظاهرٌ مُصَرّحٌ به ، وكامنٌ لا ذِكر للمثل فيه ، أما أمثاله الظاهرة : فكقوله تعالى في شأن المنافقين « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنورِهِمْ وتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرون صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرجِعُونَ * أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرقٌ يَجْعَلونَ أَصابِعَهُم في آذانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ حذَرَ المَوتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافِرينَ * يَكادُ البَرقُ يَخْطَفُ أبْصارَهُم كُلَّما أضاءَ لَهُم مَشَوْا فيهِ وَإذا أظلَمَ عَلَيهِم قامُوا ، وَلو شَاء لذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأبصارِهِمْ » .

وقوله سبحانه تعالى في شأن الذي يُنفق أمواله ابتغاء مرضَاة الله ، والذي ينفقها رياءً : « يَا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صدَقَاتِكُم بالمَنّ والأذَى ، كالذي يُنفِقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ ولا يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

(١) مطر .

صَفْوانٍ [١] عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ [٢] فتركه صَلداً [٣] لا يقدرُون على شيْءٍ مِمّا كَسَبوا والله لا يهْدي القوْمَ الكافرين ، ومَثَلُ الذين يُنفقون أموالهُم ابْتغاءَ مَرْضاةِ الله وتَثبيتاً منْ أنفُسِهم كمَثَلِ جنّةٍ بربْوةٍ [٤] أصابها وابلٌ فآتت أُكلَها ضِعْفَين فإنْ لم يُصبْها وابلٌ فطلٌّ [٥] والله بما تعملون بصير ، أيَودُّ أحدُكُمْ أنْ تكون له جنّةٌ منْ نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنْهار،له فيها منْ كلِّ الثّمرات وأصابه الكِبرُ وله ذُرّيّةٌ ضُعفاءُ فأصابها إعْصارٌ [٦] فيه نارٌ فاحترقت كذلك يُبيّنُ الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرُون »

وقوله تعالى في تمثيل الحق والباطل : « أنزل من السّماء ماء فسالت أوديةٌ بقدَرها فاحتمل السيْل [٧] زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حِلْيةٍ أو متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأمّا الزّبَدُ فيذهب جُفاءً [٨] وأما ما ينفع الناس فيمكُثُ في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

وقوله تعالى في تمثيل الحكمة وضدها : « ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذنِ ربّها ، ويضْرب الله الأمْثال للناس لعلهم يتذكّرون ، ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجْتُثّتْ [٩] من فوق الأرض ما لها من قرار » .

وقوله جل شأنه في حال الكفار وما يعبدون من دون الله : « يا أيها الناس ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له ، إنّ الذين تَدْعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضَعُفَ الطالب والمطلوب» وقوله تعالى: «مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإنّ أوْهَن البيوت لبيتُ العنْكبوت لو كانوا يعلَمون » .

---

(١) حجر أملس (٢) مطر شديد (٣) صلباً نقياً من التراب (٤) مكان مرتفع
(٥) مطر خفيف (٦ ريح شديد (٧) ما يعلو على وجه الماء من قذر ونحوه
(٨) باطلاً مرمياً به (٩) قطعت من أصلها

وقوله تعالى في أنّ عمل الكافر يذهب هباءً تذروه الرّياح :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف لا يقدِرون ممّا كسبوا على شيء » .

وقوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب[1] بقيعةٍ[2] يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءَه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريعُ الحساب . أو كظلمات في بحر لُجّيّ[3] يغشاهُ موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نور » .

وقوله تعالى في أنّ الدنيا ظلٌّ حائل وخيال باطل :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً[4] تذروه الرّياح » .

وقوله تعالى ، « اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثم يهيج فتراه مُصفرّاً ثم يكون حطاماً » .

وأما أمثاله الكامنة ، فهي الآداب البارعة والحكم الباهرة فمن ذلك قوله تعالى :

في الصدق

١ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين

٢ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم

٣ إنّه كان صادق الوعد

في الصبر والثبات

١ وبشّر الصابرين

(١) شعاع يرى مثل الماء حين اشتداد الحر نصف النهار

(٢) جمع قاع وهو الأرض المستوية (٣) عميق (٤) يابساً متفرقة أجزاؤه .

٢ فاصبر صبراً جميلا
٣ واصبر على ما أصابك إن ذلك
مِنْ عَزْمِ الأمور
٤ فصبر جميلٌ
٥ واصبر على ما يقولون واهجُرهم
هجراً جميلا

في العلم والاسترشاد

١ إنما يخشى اللهَ مِنْ عباده العُلماءُ
٢ وما يعقِلها إلا العالِمون
٣ قلْ هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون
٤ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون

في الاتحاد والوئام بعد الخصام

١ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا
تفرّقوا واذكروا نِعمة الله عليكم
إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً
٢ ولا تنازَعوا فتَفشلوا وتذهَب
ريحُكم
٣ ولا تكونوا كالتي نقَضَتْ غزْلها
من بَعْدِ قُوةٍ أنكاثا

في العفو

١ فاصفح الصفحَ الجميل
٢ والكاظمين الغيظَ والعافين عن
الناس
٣ فمن عفا وأصلح فأجرُهُ على الله
٤ عفا الله عمَّا سَلف

في الوفاء

١ وأوْفوا بالعهد إنّ العهدَ كان
مسئولاً
٢ إنّ الله يأمرُكم أن تؤدّوا
الأمانات إلى أهْلِها

في الاقتصاد

١ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقِكَ
ولا تبْسُطها كلّ البَسْط فتقعُد
مَلوماً مَحسوراً
٢ إن المبَذّرين كانوا إخوان الشياطين
٣ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

في الأمر بالمعروف

١ خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعُرف
وأعْرِض عن الجاهلين
٢ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير
ويأمرون بالمعْروف وينهَوْن عن
المُنكرِ وأولئِكَ هُمُ المفلِحون
٣ وتعاوَنوا عَلى البِرّ والتّقوى
ولا تعاوَنوا على الإثم والعُدوان
٤ إن الله يأمُرُ بالعدل والإحسان
وإيتاءِ ذي القرْبى ويَنهى عنِ
الفَحْشاءِ والمُنكرِ والبغي

برُّ الوالدين والقريب والجار والصاحب

١ وقضى ربك ألاّ تعبُدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يَبْلُغَنّ عندكَ الكِبر أحدُهما أو كلاهما فلاتقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهُما جناحَ الذُّل من الرَّحمة وقل رب ارحمهما كما ربَّياني صغيراً

٢ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض

٣ وبالوالديْنِ إحْساناً وبِذي القرْبى واليتامى والمساكين والجارِ ذي القُرْبى والجارِ الجُنُبِ والصاحب بالجَنبِ وابن السبيل وما ملكت أيمانُكم إنّ الله لا يحبُّ من كان مُختالاً فخوراً

في النصيحة

١ إني لك من الناصحين

٢ وأنا لكم ناصحٌ أمين

٣ ونصَحْتُ لكم ولكن لا تُحِبون الناصحين .

في الشكر

١ لئن شكرتم لأزيدنكم

٢ وقليلٌ من عبادي الشكور

٣ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه

٤ وسيَجْزي الله الشاكرين

في الاغضاء والتغافل واللين

١ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعْرض عنهم وعِظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً .

٢ لا تثريبَ عليكم اليومَ يغفرُ الله لكم .

٣ ادفع بالتي هي أحسن

٤ فاصبرْ على ما يقولون واهجُرْهم هجراً جميلاً .

٥ ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفضّوا مِنْ حوْلك

٦ فأسرَّها يوسفُ في نفسهِ ولم يُبْدِها لهم

٧ وإذا خاطبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاماً

في المدح

١ ما هذا بَشراً إن هذا إلا مَلكٌ كريم .

٢ إذا رأيتَهم حَسِبتَهُمْ لؤلؤاً منثوراً .

٣ إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمين .

٤ إنّ هذا لهُوَ الفضلُ المبين
٥ وإنك لعَلى خُلُقٍ عظيم
٦ ختامُه مسك
٧ ذُرِّيَّةً بعضُها من بعض
٨ وبَرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً عَصِيّاً .
٩ ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا
١٠ أولئك هم خير البرية
١١ رضي الله عنهم ورَضُوا عنه
١٢ وكلٌ من الأخيار
١٣ سِيماهم في وجوههم
١٤ وكانوا أحقَّ بها وأهلها
١٥ أولئك الذين هَدى الله فبهُداهم اقْتَدِهْ .
١٦ إنّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين .

في التبرئة والتنزيه

١ حاشا لله ما علمنا عَلَيْهِ من سوء
٢ أولئك مُبرّءُون مما يقولون
٣ فبرأه اللهُ مما قالوا

في حسن الخلق

١ ما شاء الله
٢ وصوركم فأحْسن صُوَرَكم
٣ يَزيد في الخلق ما يشاء
٤ فتبارك الله أحسنُ الخالقين
٥ صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيْء

في الكذب والزور

١ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزُوراً .
٢ إن هذا إلا اختلاق
٣ كبُرَت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كَذِباً
٤ فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون .
٥ فَبَدَّلَ الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم .
٦ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضَل عنهم ما كانوا يفترون

في الخيانة ونقض العهد

١ أوَ كلما عاهدوا عهداً نبَذَهُ فريق منهم .
٢ وما وجدنا لأكثرهم من عهد
٣ إنهم لا إيمان لهم .

٤ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه .
٥ إنّ الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً
٦ وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين

في السخرية والغيبة والنميمة والجهر

١ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب .
٢ ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً .
٣ لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم .
٤ ويلٌ لكل همزة لمزة
٥ وإذا مرّوا بهم يتغامزون .

في القتل والانتحار

١ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً .
٢ ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنّه كان منصوراً .
٣ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة .
٤ ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً .

في الزنا

١ ولا تقربوا الزّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا .
٢ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا.

في الخمر والميسر

١ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.
٢ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟!

في البخل وحب المال

١ وَمَنْ يَبخلْ فإنما يبخلُ على نَفسه والله الغَنيُّ وأنتم الفقراء
٢ والذين يَكنِزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشّرْهم بعذاب أليم .
٣ الذي جمعَ مالاً وعدّدَه يحْسَب أن ماله أخْلَدَهُ .
٤ وتأكلون التُراثَ أكلاً لَمّاً وتُحبون المال حُبّاً جَماً .

في الرِّبا

١ وأَحلّ الله البيعَ وحرّم الرِّبا .
٢ يمحَقُ الله الرِّبا ويُربي الصّدقات .

في العُجْب والكبر

١ واستكبرَ هو وجنودُه في الأرض بغير الحق .
٢ ثم ذهب إلى أهله يَتمطّى .
٣ ثانيَ عِطفِه ليُضلّ عن سبيل الله .
٤ أليس في جهنّم مَثوًى للمتكبرين .
٥ إنْ في صدورهم إلا كِبرٌ ما هم ببالغيه .
٦ ولا تُصعّرْ خدّك للناس ولا تمش في الأرض مَرَحاً .

في الاستبداد والأثرة

١ فإذا جاءتهمُ الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيّروا بموسى ومَن مَعَهُ .
٢ وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه مُذعنين .
٣ ما أُريكم إلا ما أرى .

في التفرق والاختلاف

١ تَحسَبهم جميعاً وقلوبُهم شتّى .
٢ كلّ حِزب بما لديهم فَرِحون .
٣ فاختلف الأحزابُ من بينهم .
٤ إنكم لفي قول مختلف .

في الجبن والفرار

١ إن يُريدون إلاّ فِراراً
٢ يَحْسَبون كل صَيْحةٍ عليهم هم العَدُوُّ .
٣ أشِحّةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تَدورُ أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموتِ فإذا ذهب الخوف سَلَقوكم بألسنةٍ حِدادٍ .

فيمن يأمر بما لا يفعل ويعلم ولا يعمل

١ أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتنسَوْن أنفُسكم .
٢ لِمَ تقولون ما لا تفعلون ؟
٣ كمثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً .

في الغفلة

١ لعمرُك إنهم لفي سكرتِهم يعمهون .
٢ قُتِل الخرّاصُون الذين هُمْ في غمْرةٍ ساهُون .
٣ وإذا ذُكّروا لا يذْكرون .
٤ فويلٌ للمُصلّينَ الذينَ هُم عن صلاتهم ساهون .
٥ إذْ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ .
٦ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هُمْ غافِلون .

في إنكار الجميل

١ فلمّا كشفْنا عنهُ ضُرّهُ مَرّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسّهُ .
٢ ولو رحمناهُم وكشفنا ما بهم من ضُرٍّ للَجُّوا في طغيانهم يعْمَهون .
٣ ولو بَسَط اللهُ الرِّزْقَ لعباده لَبغَوْا في الأرض .
٤ إنّ الإنسانَ ليَطغى أنْ رآه استَغنى .
٥ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه !؟

في الذم والاهانة والتهكم والتحقير

١ أنتم شرٌّ مكاناً !!
٢ فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق؟؟
٣ خذُوه فغُلُّوه .
٤ ما نفقهُ كثيراً ممّا تقول .
٥ كلما دخلَتْ أُمّةٌ لعنَتْ أختَها .
٦ لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوعٍ .
٧ إنا تطيّرنا بكم .
٨ سواءٌ محياهُم ومماتهم .
٩ لَمقْتُ اللهِ أكبرُ مِن مقتكم أنفُسَكمْ .
١٠ يُعرَف المجرمون بِسيماهُم .
١١ ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم .
١٢ ذوقوا فِتنتَكم هذا الذي كُنتم به تَستعجلون .
١٣ ومَنْ يُهِنِ اللهُ فماله مِن مُكرِم
١٤ وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً .
١٥ ذلك مَبْلَغُهُم مِنَ العلم .
١٦ فمَثَلُه كمثل الكلب إن تحْمِلْ عليه يَلهَثْ أو تتركه يَلهَثْ .

١٧ كمثلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً .
١٨ أولئك هم شرُّ البَريّة .
١٩ همّازٍ مشّاءٍ بنميمٍ منّاعٍ للخير مُعتدٍ أثيم . عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم .
٢٠ إنك لغَويٌّ مُبين .
٢١ إن شانِئَكَ هو الأبتر .
٢٢ أولئك لا خَلاقَ لهم في الآخرة .
٢٣ أينما يُوجّهْهُ لا يأتِ بخير .
٢٤ أولئك حزبُ الشيطان .
٢٥ اتخَذوا أيمانَهم جُنّة .
٢٦ فما لهؤلاءِ القوم لا يكادون يفقهون حديثاً

في الضالين والمضلين

١ إنهم ألفَوْا آباءَهم ضالين ، فهم على آثارهم يُهرَعون
٢ الشيطان سَوَّلَ لهم وأملى لهم .
٣ وإنّ كثيراً ليُضلّون بأهوائهم بغيرِ علم .
٤ ولقد ضلّ قبلهم أكثرُ الأولين
٥ وإخوانهم يَمدّونهم في الغيّ ثم لا يُقصِرون .
٦ ربّنا إننا أطعْنا سادَتَنا وكُبَراءَنا فأضلونا السبيلا .

فيمن عميت بصيرتهم وأضلهم هواهم

١ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك همُ الغافلون .
٢ فإنها لا تَعمى الأبصار ولكن تَعمى القلوب التي في الصدور .
٣ أفرأيتَ مَنِ اتخذَ إلهه هواه وأضله الله على علم ؟!

في قُرناء السوء ، والغاوين والنهي عن اتباعهم :

١ ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قلبه عن ذِكرِنا واتبع هواه وكان أمرُه فُرُطاً .
١ يدْعو لمَنْ ضَرُّه أقرب من نفعه لبئسَ المولى ولبئسَ العَشير .
٣ ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار .
٤ ولا تتَّبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون
٥ وإخوانهم يَمُدّونهم في الغيّ ثم لا يُقصِرون

٦ يا ليتَ بيني وبينك بُعدَ المشرقَين فبئس القرين .
٧ يا ويلتنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا .

في التنبيه على الخطأ والضلال

١ مالَكم كيف تحكمون ؟
٢ فأين تذهبون؟
٣ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ ؟
٤ تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى .
٥ تالله إنكَ لفي ضلالك القديم .
٦ ذلك هو الضلالُ البعيد .
٧ ويحسَبون أنهم يُحسِنون صنعاً .

في المنافقين والمرائين

١ قد بَدَت البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ .
٢ وإذا خلَوْا عضوا عليكم الأنامِل مِنَ الغيظ .
٣ يقولون بألسِنتِهم ما ليس في قلوبهم .
٤ يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم .
٥ وليحلِفُنّ إن أردنا إلا الحُسنى والله يشهدُ إنهم لكاذبونَ .
٦ إن تمسَسْكمُ حسنةٌ تسوءْهم وإنْ تُصبكم سيئةٌ يفرَحوا بها ، وإنْ تَصبروا وتتقوا لا يضرُّكم كيدهم شيئاً .
٧ مُذَبذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .
٨ يَبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم .
٩ لقد ابتَغوا الفتنة مِنْ قبلُ وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهرَ أمرُ الله وهم كارهون .
١٠ ويحلِفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهُمْ قومٌ يفرَقون .

في تمثيل أعمال المرائين والمنافقين

١ فمثله كمثَلِ صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلداً .
٢ أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الريح في يومْ عاصف .
٣ أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يَحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجِدْهُ شيئاً .

في الانذار والوعيد

١ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم .
٢ فسوفَ يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون .
٣ لكلِّ نبإٍ مُستقرٌّ وسوف تعلمون .
٤ وإن تنتَهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُدْ ولن تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئاً ولو كثُرَتْ .
٥ فانتظروا إني معكم من المنتظرين .
٦ واتقوا فتنةً لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصةً .
٧ إلا تفعلوه تكنْ فتنة في الأرض وفساد كبير .
٨ ذلك وعدٌ غير مكذوب .
٩ وما هيَ من الظالمين ببعيد .
١٠ هذا بلاغٌ للناس وليُنذروا به .
١١ عما قليلٍ ليُصْبِحُنّ نادمين .
١٢ وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلبٍ ينقلِبون .
١٣ فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُنداً .
١٤ اعمَلوا على مكانتِكم إني عاملٌ سوف تعلمون .
١٥ إنه لقوْلٌ فصلٌ وماهو بالهزل .
١٦ ذَرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهمُ الأملُ فسوف يعلمون .
١٧ سيعلمون غداً مَنِ الكذّابُ الأشِرُ .
١٨ سيُهزَم الجمع ويُولّون الدُبر .
١٩ لتُنَبّؤُنّ بما عملتم .
٢٠ ولقد جاءهم من الأنباءِ ما فيه مُزْدَجر .
٢١ اعملوا ما شئتم .
٢٢ فستعلمون مَنْ هو في ضلالٍ مبين .
٢٣ إنّ ما توعدون لواقع .
٢٤ فستذكرون ما أقول لكم .
٢٥ فليضحكوا قليلاً وليَبكوا كثيراً .
٢٦ فإن للذين ظلموا ذَنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون .
٢٧ اعملوا على مكانتِكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون .
٢٨ كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون .
٢٩ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال .
٣٠ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون .
٣١ ولنخرجنّهم منها أذلّةً وهم صاغرون .

٣٢ وقد أفلح اليوم من استَعلى .
٣٣ ولا تعجبْكَ أموالهم ولا أولادهم إنما يُريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا
٣٤ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غِطاءَك .
٣٥ ولتعلمنّ نبأه بعد حين .
٣٦ سَنسِمُه على الخرطوم .
٣٧ أولَم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً .
٣٨ كلا لا وَزَرَ .
٣٩ إنا من المجرمين مُنتقِمون .
٤٠ سنَستدرجهم من حيث لا يعلمون
٤١ سننْظر أصدَقت أم كنت من الكاذبين .

في الحياة الزوجية

١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكُنوا إليها وجعل بينكم مَودّةً ورحمةً .
٢ وأنْ تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم
٣ وإنْ خفتم شِقاقَ بينهما فابعثوا حَكماً من أهله وحكماً من أهْلها إنْ يريدا إصلاحاً يُوفّق الله بينهما .
٤ ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درَجة .
٥ وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نُشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً والصلح خير .
٦ وعاشروهنّ بالمعروف .
٧ وائتَمِروا بينكم بمعروف .

في آداب النساء

١ وقلْ للمؤمنات يَغضُضْن من أبصارهنّ ويحفظنْ فروجهن ولا يُبدين زينتَهن إلا ما ظهر منها وليَضربن بخُمُرهن على جيوبهن .
٢ وَقَرنَ في بيوتكنّ ولا تبرّجْن تبرُّج الجاهلية الأولى .
٣ محصَنات غير مسافحاتٍ ولا متّخذات أخْدان وقلن قولاً معروفاً .
٤ إنِ اتقيْتُنّ فلا تخضعْن بالقوْل فيطمعَ الذي في قلبه مرضٌ وقلن قوْلاً معروفاً .

في الصلح والسلم

١ فاتقوا اللهَ وأصلحوا ذات بينكم

٢ إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أخويكم .

٣ والصلحُ خيرٌ .

٤ وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها .

٥ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان .

الناس بخير ما تباينوا

١ ولو شاءَ ربكَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين . إلا مَن رحمَ ربك ولذلك خلقهم .

٢ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخرياً .

في الحثّ على الصدقة والنهي عما يبطلها

١ مَثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كلّ سُنبُلةٍ مائة حبة .

٢ لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون

٣ يا أيها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتكم بالمن والأذى .

٤ قولٌ معروف ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتبعُها أذىً .

٥ وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم .

٦ وأمَّا السائل فلا تنهر .

في التحية والاستئذان

١ وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها .

٢ رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت

٣ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .

٤ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكم .

٥ فإن استأذنوك لبعض شأنهم فأذنْ لمن شئت منهم .

في آداب المشي

١ واقصِد في مَشيك واغضُضْ من صوتك .

٢ ولا تمش في الأرض مَرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً .

٣ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً .

في التلطف والدعوة والطلب

١ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

٢ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد

٣ هل أتبعك على أن تعلّمني ممّا علمت رشداً .
٤ فقل هل لك إلى أن تزكّى .
٥ إني لكم رسولٌ أمين .
٦ فاتبعني أهدك صراطاً سوياً .

في الشّورى

١ وشاورهم في الأمر .
٢ وأمرهم شورى بينهم .
٣ أفتوني في أمري.

في الشفاعة

١ مَن يَشفع شفاعة حسنةً يكن له نصيبٌ منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفلٌ منها .

في الخطإ والاضطرار

١ وليسَ عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدَت قلوبكم .
٢ فمن اضطرّ غيرباغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه .

في المسئولية عن العمل

١ ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى .
٢ وأنْ ليس للإنسان إلا ماسعى.
٣ كلُّ امرىءٍ بما كسبَ رَهين .
٤ وكلَّ إنسانألزمناه طائرَه في عنقه
٥ لا يضركم مَن ضلّ إذا اهتديتمْ.

في الجهاد

١ وأعِدوا لهم ما استطعتم مِن قوة ومن رباطِ الخيل ترْهِبون به عدوّ الله وعدوّكم .
٢ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ.
٣ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً
٤ ولولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لفسَدَتِ الأرض .

في الأيمان

١ واحفظوا أيمانكم .
٢ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم .
٣ ولاتنقضوا الأيمان بعدتوكيدها.

في الكلام والاستماع

١ ألم ترَ كيف ضربَ الله مثلاً كلمة طيّبةً كشجرةٍ طيّبة أصلها ثابتٌ وفرعها في السماءِ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها .
٢ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار .

٣ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب
٤ وقولوا للناس حسناً .
٥ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً .
٦ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه .
٧ وإذا مروا باللغو مروا كراماً.

في الجدل والمناظرة

١ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم .
٢ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن .

في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات

١ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً .
٢ ولكل وجهة هو موليها .
٣ قل كل يعمل على شاكلته .
٤ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق .
٥ وما منا إلا له مقام معلوم .
٦ وفوق كل ذي علم عليم .
٧ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك .

وبضدها تتميز الأشياء

١ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث .
٢ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم .
٣ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً .
٤ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج .
٥ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم .
٦ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

في الحث على العمل والسعي والتنافس والمهاجرة

١ ولكل درجات مما عملوا .

٢ وفي ذلك فليتنافس المتنافسونَ
٣ ألم تكن أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها ؟؟
٤ فامشوا في مَناكبها وكلوا من رزقهِ .

في الجزاء على العمل

١ ظهرَ الفسادُ في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقَهُم بعض الذي عملوا لعلهُم يرجعون.
٢ إنّ هذا كان لكُم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً .
٣ فمن يعمَلْ مثقال ذرة خيراً يرَه ومن يعمل مثقالَ ذرة شراً يرَه
٤ وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يَرى ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى .

الجزاء من جنس العمل

١ وإن جَنحوا للسَّلم فاجنَح لها
٢ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
٣ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به .
٤ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها .
٥ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتَدى عليكم .

٦ هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان
٧ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.
٨ فاذكروني أذكركم .
٩ وإن عُدتم عُدْنا
١٠ إن الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم .
١١ وأوْفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم .
١٢ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مُصلحون .
١٣ جزاءً وفاقاً

شبيه الشيء منجذبٌ اليه

١ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ،والطيِّباتُ للطيِّبينَ والطيِّبونَ للطيِّباتِ .

في الافساد والبغي والنهي عنهما

١ ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها .
٢ ولا تبغ الفساد في الأرض .
٣ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض.
٤ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

في المفسدين المكابرين

١ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض

قالوا إنما نحن مُصلِحون ألا إنهم هُم المفسدون ولكن لا يَشعرون .
٢ الذين ضلّ سعيُهُم في الحياة الدنيا وهم يَحسَبون أنهم يُحسنون صنعاً
٣ ويَحسَبون أنهم على شيءٍ ألا إنهم هُم الكاذبون .

في غرور الظلمة واستدراجهم

١ يُوحي بعضُهم الى بَعض زُخرُفَ القول غرُوراً .
٢ يَعِدهُم ويُمنّيهم وما يعدُهم الشيطان إلا غُروراً .
٣ بل إنْ يَعِد الظالمونَ بعضُهم بعضاً الا غُروراً .
٤ ولا تحسَبَنّ الله غافلاً عما يعمَلُ الظالمون .
٥ وأُملي لهم إن كَيدي مَتين .
٦ فذَرْهُم في غَمْرتِهِم حتى حين .
٧ فلا تعْجَل عليهم انما نعُدُّ لهم عَداً
٨ سَنستدرجُهم من حيثُ لا يعلمون .
٩ ذَرهم يأكُلوا ويَتمتّعُوا ويُلهِهمُ الأمل فسوف يعلمون .

في سوء عاقبة الظالمين والشماتة بما يصيبهم

١ فغُلِبوا هُنالكَ وانقلبوا صاغِرين
٢ انقَلبَ على عَقبَيهِ خَسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلكَ هو الخُسران المبينُ .
٣ فانظرْ كيف كان عاقبة الظالمين.
٤ فجعَلناهم أحاديثَ ومزّقناهم كلّ مُمزّق .
٥ فأتى اللهُ بُنيانهم مِن القواعِدِ .
٦ فخَرّ عليهم السّقفُ مِنْ فوْقهم وأتاهم العذابُ من حيث لا يَشعُرون .
٧ فأصابهُمْ سيئات ما عملوا وحاق بهمْ ما كانوا به يستهزئون .
٨ فأصبحَ يُقلّب كفّيهِ على ما أنفق فيها .

الاعراض عن الدعوة

١ وإذا تتْلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أُذنيهِ وقراً .
٢ كأنهم حُمُرٌ مُستنفرةٌ فرّت من قسورة .
٣ ثمّ نظر ، ثمّ عبس وبسرَ ، ثمّ أدبر واستكبر .

في التدخل في ما لا يعني والنهي عنه

١ ولا تقفُ ما ليس لكَ به علم
٢ لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبدَ لكم تسؤكم .
٣ عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلّ
٤ فلا تسألنِ ما ليس لك به عِلم
٥ ليس لك من الأمر شيء

في الكرم والاكرام والضيافة

١ ادخلوها بسلام آمنين .
٢ كلوا واشربوا هنيئاً .
٣ فكلوهُ هنيئاً مريئاً .
٤ فكُلي واشربي وقرّي عيناً .
٥ وفاكهةٍ ممّا يتخيّرُون ولحم طيرٍ مما يشتهون .
٦ ويُؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ .

في التعزية وتهوين الخطب

١ ويَخلُقُ ما لا تعلمون .
٢ كل نفس ذائقة الموت
٣ كلُّ مَن عليها فان .
٤ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ
٥ فإنَّ مع العُسْر يُسراً إنّ معَ العسر يُسراً .
٦ ولا تيأسوا من روْح الله .
٧ فلا تَذْهب نفسُك عليهم حسراتٍ .
٨ ولا تحزَن عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يمكُرُون .
٩ ولا يَحزُنكَ قولُهم .
١٠ سيَجعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسراً .

في الكيل والميزان

١ أوفُوا الكيلَ ولا تكُونوا من المُخسرين وزِنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخَسوا الناسَ أشياءَهم ولا تعثَوا في الأرض مفسِدين .
٢ ويلٌ للمُطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوْفونَ وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون .

في النهي عن الرشوة

١ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون .
٢ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم

في مال اليتيم ومتاعه

١ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ .

٢ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حُوباً كبيراً .

٣ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيَصلَوْنَ سعيراً .

٤ فأمّا اليتيم فلا تَقْهَرْ .

في صك الدَّين وإنظار المعسر

١ يا أيها الذين آمنوا إذا تَدايَنْتم بدينٍ إلى أجلٍ مُسمّىً فاكتبوه .

٢ وإن كان ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرةٌ إلى ميسَرةٍ .

في الأحكام والحكام

١ وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل .

٢ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبى .

٣ ولا يَجرِمَنّكم شنآنُ قومٍ على ألاّ تعدِلوا ، أعدِلوا هوَ أقربُ للتقْوى .

٤ ولا تلبِسُوا الحقّ بالباطلِ وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون .

في اتهام الابرياء

١ ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثم يَرْمِ به بريئاً فقد احتَمَلَ بهتاناً وإثماً مُبيناً .

٢ ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكونُ لنا أن نتكلم بهذا سُبحانكَ هذا بُهتانٌ عظيم .

٣ إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسَبونه هيّناً وهو عند الله عظيم .

٤ لكل امرىءٍ منهم ما اكتسبَ من الإثم والذي تولى كِبرَهُ منهم له عذابٌ عظيم .

في المكابرة في الحق والمعاندة

١ ويُجادل الذين كفروا بالباطل ليُدحِضوا به الحق .

٢ وجَحَدوا بها واستيقَنَتها أنفسهم ظلماً وعُلوّاً .

٣ ما ضربوه لك إلا جدلا .
٤ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم .
٥ يجادلونك في الحق بعد ما تبين .
٦ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .
٧ أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون .

في الحق والباطل

١ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .
٢ الآن حصحص الحق .
٣ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .
٤ قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون .
٥ الحق أحق أن يتبع .
٦ فماذا بعد الحق إلا الضلال .
٧ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون .
٨ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

٩ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً .

في أداء الشهادة

١ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .
٢ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه .
٣ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم .
٤ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا .
٥ وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد .
٦ وأنا على ذلكم من الشاهدين .
٧ وما شهدنا إلا بما علمنا .

في الخبر اليقين

١ ما زاغ البصر وما طغى .
٢ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين .
٣ نحن نقص عليك نبأهم بالحق
٤ أحطت بما لم تحط به .
٥ ولا ينبئك مثل خبير .

في الاستنكار والتعجب

١ إني لعملكم من القالين
٢ لقد جئتم شيئاً إداً .
٣ لقد جئت شيئاً إمراً .
٤ لقد جئت شيئاً نكراً .
٥ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين
٦ إن هذا لشيء عجيب

في المحاماة والدفاع عن الأئمة

١ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أمن يكون عليهم وكيلا .
٢ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم
٣ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .
٤ فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

في التحدي وعدم المبالاة

١ فاقض ما أنت قاض .
٢ فإن كان لكم كيد فكيدون .
٣ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون
٤ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

٥ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .

في النجوى والمؤامرة

١ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى .
٢ لا خير في كثير من نجواهم .
٣ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم .

في الظن والشك

١ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً .
٢ وإنهم لفي شك منه مريب .
٣ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب .
٤ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .
٥ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن بعض الظن إثم .

في التبرؤ والتنصل

١ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم اني أرى ما لا ترون .

٢ أنتم بريئون مما أعملُ وأنابريءٌ مما تعملون .
٣ فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم .

في موقف الظلمة والمجرمين أمام العدالة

١ وقِفوهم إنهم مسئولون .
٢ هذا يَومُ الفصل جمعناكم والأوّلين .
٣ مكانَكم أنتم وشرَكاؤكم .
٤ خُذوهُ فغلّوهُ .
٥ مالكم لا تنطِقونَ .
٦ مالكم لا تناصَرون .
٧ لا تختَصِموا لديّ .

في حيرة المجرمين وإشفاقهم عند ظهور الحق

١ فعَميَت عليهمُ الأنباءُ يومئذٍ فهمْ لا يَتساءَلون .
٢ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا يَنطقون .
٣ ووُضِع الكتابفترى المجرمين مُشفِقين مما فيه .

في الافحام والالزام

١ إقرأ كتابكَ كفى بِنفسِكَ اليوم عليكَ حَسيباً .
٢ هذا كتابُنا ينطقُ عليكم بالحق إنـّا كنا نستَنْسِخُ ما كنتم تعملون .
٣ ووجدوا ما عملوا حاضراً.

في اليأس والتيئيس

١ قُضيَ الأمرُ الذيفيه تستفتيان
٢ فنادوْا ولاتَ حينَ مناصٍ .
٣ اصبِروا أو لا تصبرُوا .
٤ ولا تخاطبْني في الذين ظلموا .
٥ لا تعتَذروا اليوْم .

في إمضاء الأمر

١ فإذا عزمْتَ فتوكل على الله .
٢ وكان أمراً مَقضيّاً .
٣ إفعَل ما تؤمرُ .
٤ فافعلوا ما تؤْمرون .

في حال المجرمين وهم يعذبون

١ كلما أرادوا أن يخرُجوا منها أُعيدوا فيها .
٢ لهم فيها زَفيرٌ وشهيقٌ .

٣ يَتجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغه .
٤ إنَّ الذين كَفَروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلما نَضِجَتْ جُلودُهم بدَّلناهم جُلوداً غيرَها ليَذوقوا العذابَ .

في الشيب والكبر والضعف

١ ربِّ إني وَهَنَ العظمُ مني واشتَعلَ الرَّأسُ شَيباً .
٢ وقد بَلغتُ من الكِبرِ عِتيّاً .
٣ ومنْ نُعَمِّرهُ نُنكسه في الخلقِ
٤ ومنكمُ مَنْ يُرَدُّ إلى أرْذلِ العُمُر لكيلا يَعلم بَعْدَ علمٍ شيئاً

جزع الناس ومظاهرهم عند البلاء

١ مُهطِعينَ مُقْنِعي رُؤُسِهم لا يَرْتدُّ إليهم طَرْفهم وأفئدتُهم هواء .
٢ وترى الناسَ سُكارى وما هُم بسُكارى
٣ هل تُحِسُّ منهم مِنْ أحدٍ أو تسمَعُ لهُم رِكزاً
٤ ووُجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرةٌ ترْهَقها قترةٌ أولئكَ همُ الكفَرةُ الفَجَرةُ .
٥ فانطلقوا وهُمْ يَتخافتون .

في صفات الانسان الفطرية

١ إن الإنسانَ لظلومٌ كفّار .
٢ وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدَلا
٣ خُلِقَ الإنسان مِن عَجَلٍ .
٤ فِطرَةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله .
٥ وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً .
٦ إنَّ الإنسانَ ليطغى أن رآه استغنى
٧ إنَّ الإنسان خُلِقَ هلوعاً إذا مسَّه الشرُّ جَزوعاً، وإذا مسَّه الخيرُ مَنوعاً
٨ قُتِلَ الإنسان ما أكفرَه !

في الخوف

١ فأصبح في المدينة خائفاً يترقبُ
٢ فخَرَجَ منها خائفاً يَترقّبُ .
٣ لو اطلعت عليهم لوَلَّيتَ منهم فِراراً ولمُلِئتَ منهم رُعْباً .
٤ ذلك الذي يُخَوِّفُ اللهُ به عبادَه
٥ فأوْجَس منهم خِيفة .
٦ إننا نخافُ أن يَفرُطَ علينا أو أن يطغى
٧ إني أخاف أنْ يكذّبون .
٨ إذ دخلوا على داوُدَ ففَزِعَ منهم .

٩ إنّا منكم وَجِلون .

في التضجر والتحسر وإظهار الضعف

١ لقَدْ لقينامن سَفرناهذا نَصَباً.
٢ يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً .
٣ يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً مَنسيّاً .
٤ هذا منْ عملِ الشيطان إنهعدوٌّ مُضِلٌّ مُبين .
٥ هذا يومٌ عَسِر .
٦ يا ليتها كانت القاضية .
٧ ويضيقُ صدري ولاينطلقُ لساني

في النفس الأمارة بالسوء

١ ما أصابكَ مِن حَسنةٍ فمِنَ اللهِ وما أصابكَ مِن سيئةٍ فمن نفسِك
٢ وما أبرّيءُ نفسي إنّ النفس لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِم ربي.

في الخجل والاستحياء

١ فجاءته إحداهنّ تمشي على استحياءٍ
٢ يَتوارى مِنَ القومِ مِن سوء ما بُشّرَ به .

في النسيان

١ وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكرَه .
٢ فنسِيَ ولم نَجِدْ لهُ عَزماً .
٣ ونَسُوا حظّاً ممّا ذُكّروا به .
٤ ولا تَنْسَوُا الفضلَ بينكم.
٥ واذكر ربكَ إذا نَسيتَ .
٦ سنُقرِئُكَ فلا تنسى .
٧ لا تؤاخِذْني بما نَسيتُ .

في الرؤيا والأحلام

١ نبّئنا بتأويلهِ إنّا نراكَ مِنَ المحسنين .
٢ أفتوني في رُؤيايَ إن كنتم لِلرّؤْيا تعْبُرون .
٣ أضْغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .
٤ أنا أنبئكم بتأويله .
٥ هذا تأويل رُؤيايَ مِن قبلُ قد جعلها رَبي حقاً

الفرح بزوال المكروه

١ وكفى اللهُ المؤمنين القِتالَ .
٢ الحمد لله الذي أذهبَ عنّا الحزَن .
٣ الحمدُ للهِ الذي نجّانا مِن القومْ الظالمين .
٤ فقُطعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمد للهِ ربِّ العالمين .

٥ فوَقعَ الحقُّ وبطلَ ما كانوا يعمَلون .
٦ فانقلبُوا بنِعْمةٍ منَ اللهِ وفضلٍ لم يمْسَسْهم سوء .
٧ فوقّاه الله سيئّاتِ ما مَكروا.

في النعيم والسرور والقصور وما حوت

١ تعرفُ في وجوهِهم نَضرةَ النعيم
٢ إذا رأيتَهُم حسبتَهم لؤلؤاً مَنثوراً
٣ وُجوهٌ يَومئِذٍ مُسْفِرةٌ ضاحِكةٌ مُسْتَبْشِرة .
٤ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ وأكواب مَوضوعة ونمارِقُ مَصْفوفة وزَرابيُّ مَبثوثة .
٥ مُتّكئينَ على فُرشٍ بطائِنُها مِن اسْتَبرَق .
٦ ويُطاف عَليهم بآنيةٍ من فضةٍ وأكواب كانت قَواريراً .
٧ مُتكئِين فيها على الأرائكِ

في الجبال والبحار والسفن والأمواج

١ ومِن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختَلِفٌ ألوانها وغرابيبُ سُودٌ
٢ وقال اركبوا فيها باسم اللهِ مَجْريها ومُرساها .
٣ وهيَ تجري بهم في مَوج كالجبال
٤ أو كظُلماتٍ في بحرٍ لجّيٍّ يَغشاه مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوْقه سَحابٌ ظلماتٌ بعضها فوْقَ بعض إذا أخرج يَدَه لم يَكدْ يَراها .
٥ فغَشيَهم من اليمِّ ما غَشيَهم .
٦ وحال بينهما الموجُ فكان مِنَ المغرَقين .
٧ وله الجوارِ المنْشَآتُ في البحر كالأعلام .

في المطر والبرق والرعد والريح

١ يَكادُ سَنا بَرقهِ يذهب بالأبصار .
٢ هذا عارضٌ ممطرُنا .
٣ ريحٌ فيها عذاب أليم .
٤ وهو الذي يُرسِل الرِّياحَ بُشرىً بينَ يَديْ رحمتِه .

في البساتين والروح والريحان

١ ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُللت قُطوفها تَذْليلا .
٢ فيها فاكِهةٌ والنخل ذاتُ الأكمام

والحبُّ ذو العَصْف والرَّيحان.

٣ في سدرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ
وظلٍّ ممدودٍ، وماءٍ مسكوبٍ
وفاكهةٍ كثيرةٍ، لا مقطوعةٍ
ولا ممنوعةٍ.

في التفكر والنظر والاستدلال على الخالق

١ وما من دابَّةٍ في الأرض ولا طائرٍ
يَطيرُ بجناحيه إلاّ أُمَمٌ أمثالكم.

٢ وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً
وهي تمرُّ مرَّ السَّحابِ صُنْعَ
اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيء.

٣ وهو الذي يَبْدأُ الخلقَ ثمّ يُعيده
وهو أهْوَنُ عليه.

٤ مـــا خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا
كنفسٍ واحدة.

٥ لَخلقُ السمواتِ والأرضِ أكبر
من خلق الناس ولكنَّ أكثر
الناس لا يعلمون.

٦ وما خلقنا السموات والأرضَ
وما بينهما لاعبين.

٧ وفي أنفسكم أفلا تُبصرون.

٨ فلينظر الإنسانُ إلى طعامِه.

٩ فلينظر الإنسانُ ممَّ خُلقَ.

١٠ والله أنبَتَكم من الأرض نباتاً ثم
يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً.

١١ وجعلنا الليـــلَ والنهارَ آيتين
فمحَوْنا آيةَ الليل وجعلنا آيةَ النهار
مُبصِرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم
ولتَعلموا عددَ السِّنينَ والحساب.

١٢ وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا
عليهـــا الماء اهتزّت ورَبَتْ
وأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بهيج.

في العظة والعبرة

١ إنَّ في ذلك لذكرى لمنْ كان له
قلبٌ أو ألقى السَّمـــع وهو
شهيدٌ.

٢ فاعتَبروا يا أُولي الأبْصار.

٣ ذلك ذكرى للذاكرينَ.

٤ لنجعلها لكم تذْكرةً وتَعيهـــا
أُذنٌ واعية.

٥ إن في ذلك لعِبْرَةً لمن يَخشى.

٦ إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار.

٧ وما يذكّر إلا أُولوا الألباب.

٨ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي
الألباب.

في نعم الله وفضله

١ ذلك تخفيفٌ مِن ربّكم ورحمة .
٢ يُريدُ اللهُ بِكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسرَ
٣ وما مِن دابّة في الأرض إلا على الله رزقها .
٤ وإن تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تحصوها
٥ وإنّ ربكَ لذو مَغفرةٍ للناس على ظُلمهم .

ما استأثر الله بعلمه

١ إنّ الله عنده علم الساعة ويُنزّل الغيثَ ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير .
٢ ويسألونك عن الروح قل الرُّوح مِن أمر ربي .

في العمل لوجه الله لا لجزاء الناس

١ إنما نُطعِمُكم لوَجه اللهِ لا نُريد منكم جزاءً ولا شُكوراً .
٢ وما أسألكم عليه مِن أجر إن أجْريَ إلا على رَبّ العالمين .

وصف الدنيا وتحقير متاعها

١ قلْ مَتاعُ الدنيا قليل .
٢ إنما الحياة الدنيا لعِبٌ ولَهْو .
٣ وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور .

في التحذير من النفس والشيطان وغرور الدنيا

١ الشيطانُ يَعِدكم الفقر ويأمركم بالفشاء .
٢ إنّ النفْسَ لأمّارةٌ بالسُّوء .
٣ فلا تغُرّنكم الحياة الدنيا ولا يَغرّنكم بالله الغَرور .

في التسليم بقضائه تعالى وقدَره

١ قُلْ لن يُصيبَنا إلا ما كتب اللهُ لنا هوَ موْلانا .
٢ ولو شاءَ ربك ما فعَلوه
٣ ليقضيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً .
٤ إنّ اللهَ بالغُ أمْرِه .
٥ ألا لهُ الخلقُ والأمرُ .
٦ اللهُ يبْسُط الرّزقَ لمن يشاءُ ويَقدِر .
٧ وربكّ يخلقُ ما يشاءُ ويختار .
٨ للهِ الأمرُ مِن قبلُ ومن بعدُ .

٩ ألا إلى الله تصيرُ الأمور .
١٠ لا يُسأَلُ عمّا يفعلُ .

في الترغيب في التقوى والاحسان

١ مَن جاء بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها .
٢ إن الحسنات يُذْهِبنَ السيئات .
٣ إنّ أكرَمَكم عِندَ الله أتقاكم .
٤ ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمَعون .
٥ لِلذينَ أحسنوا الحسنى وزيادةٌ .

في الاعتماد على الله والتوكل

١ وعلى الله قصدُ السبيل .
٢ وما ذلك على الله بعزيز
٣ حَسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل .
٤ إنما أشكو بَثي وحُزني إلى الله
٥ ليسَ لها من دونِ اللهِ كاشفة .
٦ واللهُ المستعانُ .

في الموت وعدم تخلف الآجال

١ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت .
٢ لكل أجلٍ كِتابٌ .

في التوبة والانابة

١ إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريبٍ .
٢ وليستِ التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تُبتُ الآن .
٣ ومَن يَعملْ سوءا أو يَظلمْ نفسهُ ثم يَستغفر اللهَ يجدِ اللهَ غفوراً رحيماً

في الدعاء والتضرع الى الله تعالى

١ ربَنا لا تؤاخِذنا إن نسينا أوْ أخطأنا .
٢ ربّ هبْ لي مِن لدنكَ ذرّيةً طيّبةً إنكَ سَميعَ الدُّعاء .
٣ ربنا فاغفر لنا ذُنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا معَ الأبرارِ .
٤ ربّ أدْخلني مُدخَل صدقٍ وأخرجني مُخرجَ صدقٍ واجْعل لي من لدُنك سلطاناً نصيراً .
٥ ربنا آتنا من لدُنك رحمة وهيىء لنا مل أمرنا رشداً .
٦ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري .

في فضل القرآن الكريم

١ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مُدّكر .
٢ إن هذا القرآن يَهْدي للتي هي أقوَمُ .
٣ فاقرءُوا ماتَيسر مِنَ القرآن.
٤ وإذا قرىءَ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .

في الانباء والاستنباء

١ عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مُختَلِفونَ .
٢ فأقبَل بعضُهُم على بعض يتساءَلون .
٣ عرّف بعضه وأعرض عن بعض .
٤ مَنْ أنبأكَ هذا .
٥ هل أتاك حديث الجنود .

في الكتب والكتابة والرسالة

١ إذهَب بكتابي هذا فألقِه إليهم .
٢ ولقد وصّلنا لهمُ القول .
٣ فيها كتبٌ قيّمةٌ .
٤ هاؤمُ اقرأوا كتابيَهْ .

في الاقتراب والدنو

١ اقترَبتِ الساعةُ وانشقّ القمرُ .
٢ أليْسَ الصُّبْحُ بقريب ؟؟
٣ أزِفتِ الآزفة .
٤ فكان قاب قوسَيْنِ أو أدنى .
٥ قل عَسى أن يكون قريباً .

في الضعف والعجز

١ فما استَطاعوا مِن قيام وما كانوا مُنتصرينَ .
٢ فما استطاعوا أن يظهرُوه وما استطاعوا له نَقباً .
٣ وما ينبغي لهم وما يستطيعون.
٤ إنكَ لن تستطيع معي صبراً .
٥ وإنّ أوْهَنَ البيوت لبَيْتُ العنكبوت .
٦ ضَعُفَ الطالب والمطلوب.
٧ فما له مِنْ قوّة ولا ناصِرٍ .
٧ وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً .

في البلاء وما يصاب به الناس

١ فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغْن بالأمس .
٢ إن هذا لهُوَ البلاءُ المبين .
٣ فأصبحوا لا يُرى إلا مساكِنهم
٤ ما تَذَرُ مِنْ شيءٍ أتت عليه الا جعلته كالرّميم .

٥ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية .
٦ وأخرجتِ الأرضُ أثقالها .
٧ فجعلهُم كعصفٍ مأكول .

في الاغترار بالمظاهر

١ وإذا رأيتهُم تُعجِبُكَ أجسامُهم وإن يقولوا تسمع لِقولهم كأنهُم خُشُبٌ مُسنَّدة .
٢ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءهُ لم يجدْهُ شيئاً .
٣ يَحْسَبُهم الجاهِلُ أغنياء مِنَ التعفف .
٤ تَحْسَبُهم جميعاً وقلوبُهم شتى .
٥ وتحسَبُهم أيقاظاً وهم رُقودٌ .

في البشرى والتهنئة

١ يا بُشرى هذا غلام .
٢ بُشراكُمُ اليومَ .
٣ بشّرناكَ بالحقِّ فلا تكن مِنَ القانطين .
٤ وبَشّروهُ بغلام عليم .

ما يقال عند الظفر بالحاجة

١ هذا مِن فضل ربّي .
٢ إنّ هذا لهوَ الفوزُ العظيم .
٣ فضلاً مِن الله ونعمة .
٤ ذلك ما كنا نَبغِ .

في الامتنان بالنعم

١ ألم نشرَح لك صدركَ .
٢ ألم يجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدَكَ ضالاً فهدَى ووَجدَكَ عائلاً فأغنى .
٣ اذْكروا نِعمتي التي أنعمتُ عليكم .
٤ كلوا وارْعَوْا أنعامكم .
٥ ولولا أن ثبّتناك لقد كِدتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً .

في التحدث بالنعمة

١ وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً .
٢ ولولا نعمة ربي لكُنتُ من المحْضَرين .
٣ وأمّا بنعمةِ ربّك فحدّث .

التأمين والطمانينة

١ خُذْها ولا تخَفْ .
٢ لا تخَفْ نجوْت منَ القوم الظالمين .

٣ أقبِلْ ولا تخفْ انكَ من الآمنين.
٤ ولكن ليَطمَئِنّ قلبي .
٥ لا تخَفْ إنك أنت الأعلى .
٦ وما أريد ان أشُقّ عليك ستجدُني إن شاء اللهُ من الصالحين .
٧ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادوهُ إليكِ .
٨ لَنْ يصِلوا اليك .
٩ ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْنَ والله معكم .

أمثال مختارة للعرب

إن مِن البيان لَسِحراً [١] ، إن البلاء مُوَكل بالمَنْطق [٢] ، إن الموصّين بَنُو سَهوان [٣] ، إن الشقيّ وافد البرَاجم [٤] ، إن البُغاث بأرضنا يَسْتَنسر [٥] ، إن الجبانَ حتفُه مِن فوقه [٦] ، إن المعافيَ غيرُ مخدوع [٧] ، إن في الشر خياراً ، إن الحديدَ بالحديد يُفلحُ ، إن الشفيق بسوء ظَن مُولَع [٨] ، إن وراء الأكَمةِ ما وراءها ، إن العصا من العُصَيّة [٩] ، إن العَوان لا تُعَلّمُ الخمرة [١٠] ، إن الغنيّ طويلُ الذيل مياس [١١] ، ان الليلَ طويلٌ ، وأنت مُقمر [١٢] ، ان العصا قُرِعَت لذي الحِلم [١٣] ، ان الحبيب الى الإخوان ذو المال ، ان الهزيل اذا شبعَ ماتَ [١٤] ، ان غداً لناظرهِ قريب ، ان أخاكَ مَن آساكَ [١٥] ، انك لا تجني من الشوك العنبَ ، أتتك بحائن رجلاه ، انما أُكلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض ، ان يبغ عليكَ

(١) يضرب في استحسان المنطق (٢) يضرب لمن أسيء اليه. (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به (٤) البراجم : بطن من تميم ، يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً. (٥) يضرب للضعيف يصير قوياً. (٦) يضرب في ان الحذر لا ينجي من القدر. (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع. (٨) يضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً. (٩) يضرب في مشاكلة الفرع للأصل . (١٠) العوان: المرأة النصف ، والخمرة : لبس الخمار. يضرب في استغناء المجرب عن الإرشاد (١١) اي لا يستطيع ذو الغنى ان يكتمه. (١٢) يضرب للأمر بالتصبر في طلب الحاجة . (١٣) يضرب لمن إذا نبه انتبه (١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس . (١٥) يضرب في الحث على مراعاة الإخوان .

قومكَ لا يبغِ عليكَ القمر [١]، إن كنت ريحاً فقد لاقيْتَ إعصاراً [٢]، إن ترد الماء بماء أكيس [٣]، إحدى حُظَيّات لقمان [٤]، أكل عليه الدهر وشَرب [٥]، إنه ليعلَم من أينَ تؤكل الكتِف [٦] آكل لحمي ولا أدعهُ لآكل [٧]، إيّاك وما يُعتذر منه، إذا زَل العالِمُ زَل بزلته عالَم، أنتَ تئِق وأنا مئِق فمتى نتفق [٨]، إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة، إذا حان القضاءُ ضاقَ الفَضاء [٩]، أم الجبان لاتفرح ولا تحزن إذا جاءت السنة جاء معهـــا أعوانُها [١٠] إن حالت القوسُ فسهْمي صائبٌ [١١] ألا من يشتري سهراً بنوم [١٢]، إذا ما القارظ العنزي آبا [١٣] إن كنتَ كذوباً فكن ذكوراً [١٤]. إنما يُحمَل الكلُّ على أهل الفضل [١٥]، إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق [١٦]، إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء، إذا عابَ البزّاز ثوباً فاعلم أنه من حاجته [١٧]، إذا أردت أن تطاع فسلْ مايُستطاع، إن يكن الشغلُ مجهدةً فإن الفراغ مفسدة، إذا قدم الإخاء سمح الثناء، بلغ السيلُ الزُبى [١٨] بعضُ الشر أهون من بعض [١٩] بلغ السكين العظم [٢٠] باقعة من البواقع [٢١]

(١) يضرب للأمر المشهور (٢) يضرب للداهي الشديد يبلى بمن هو أدهى منه وأشد (٣) يضرب للأخذ في الأمور بالاحتياط (٤) يضرب في الشر يصدر عمن عرف به ، وحظيات لقمان: سهامه (وفي القاموس خطأ). (٥) يضرب لمن طال عمره. (٦) يضرب في المجرب المحنك. (٧) يضرب في الرجل ينصر قرينه وإن كان عدوه. (٨) التئق : السريع إلى الشر ، والمئق: السريع الى البكاء يضرب للمختلفين أخلاقاً. (٩) يضرب لمن يخاطب شخصاً وهو يريد غيره تعريضاً.

(١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد والأمراض ، يضرب في تجمع الشدائد.

(١١) حالت القوس: زالت عن استقامتها. يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته

(١٢) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية. (١٣) يضرب في امتداد البعد والغيبة

(١٤) يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه. (١٥) الكل : الثقل.

(١٦) يضرب في القوم يختلفون فيسود فيهم الأشرار (١٧) البزاز: بائع الثياب.

(١٨) الزبى : جمع زبية وهي أعلى الجبل، يضرب لمن جاوز الحد (١٩) يضرب في الشرين يختار أهونهما (٢٠) يضرب لمن جاوز الحد. (٢١) الباقعة: الداهية يقال في الرجل يكون داهياً منكراً.

إبْدأهُم بالصُّراخ يَفِرُّوا[1] ، أبدى الصَّريخ عن الرَّغوة[2] ، بَمِض الجدّب أمراً للهزيل[3] ، بنانُ كفّ ليس فيها ساعد[4] ، بعد البلاء يكون الثَّناء ، أبلغ من قُسّ ، أبخل من مادر ، أبصرُ من زرْقاء اليمامة ، أبصرُ من غراب ، أبقى من الدهر ، أبقى من وحْي في حجر[5] ، أبينُ من فلق الصُّبح ، أبْكر من غُراب ، ترْكُ الذَّنب أيْسر من طلب التَّوبة ، تَجوع الحُرَّة ولا تأكلُ بثدْييْها[6] ، تَسألني برامتين سَلْجمًا[7] ، تَجَشَّأ لقمانُ من غير شبع[8] ، تضربُ في حديد بارد ، تَلدغ العقربُ وتصيء[9] ، تركتهم في حَيْص بَيْص[10] ، تطلبُ أثراً بعد عيْن[11] ، تسمع بالمعيْدي خيرٌ من أن تراه[12] ، اتخذ الليلُ جملاً[13] ، ترى الفتيان كالنخل وما يدْريك ما الدخْل[14] ، التثبتُ نصفُ العفو ، تقطّع أعناق الرجال المطامع ، أتبعْ السيئةَ الحسنةَ تمحها ، اتق شر من أحسنتَ اليه[15] ، تضرَّع إلى الطبيب قبل أن تمرض[16] ، تجري الرِّياحُ بما لا تشتهي السفنُ ، التقديرُ أحدُ الكاسبين ، التدبير نصف المعيشة ، جزاء سنمار ، اسمعُ جعجعةً ولا أرى طحنا ، جوِّع كلبك يتبعك[17] جاوز الحزامُ الطبيين[18] ، جانيك منْ يجني عليك[19] ، جليسُ السوء كالقيْن[20] إن لم يُحرق ثوبك

(١) يضرب في الظالم يتظلم ليسكت عنه (٢) يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره (٣) يضرب فيمن لا يحسن احتمال الغنى بل يطغى فيه (٤) يضرب فيمن له همة ولا قدرة له على بلوغ ما في نفسه (٥) الوحي : الكتابة (٦) أي لا تكون مرضعاً ، يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب (٧) السلجم اللفت ، يضرب لمن يطلب شيئاً في غير موضعه (٨) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك (٩) يضرب لمن يظلم ويتظلم وصاءت العقرب صوتت (١٠) يضرب فيمن وقع فيما لا مخلص له منه (١١) يضرب فيمن ترك الشيء ثم طلبه بعد ذهابه (١٢) يضرب فيمن منظره دون مخبره (١٣) أي أدى واجبه من العمل ليلاً (١٤) يضرب لذي المنظر لا خير فيه (١٥) يضرب في مقابلة الإحسان بالإساءة (١٦) يضرب فيمن يعد ولا يفي (١٧) يضرب فيما ينبغي أن يعامل به اللئيم (١٨) يضرب في تفاقم الأمر (١٩) أي لا تزر وازرة وزر أخرى (٢٠) القين : الحداد .

دَخْنه ، جاءوا على بَكرة أبيهم[١] ، أجودُ من حاتم ،ومن كعب بن مَامة ، أجبنُ من صافر ، ومن نعامة[٢] ،أجهلُ من فرَاشة ، أجمعُ من نملة ، حالَ الجريضُ دون القريض[٣] ، حنّ قِدْح ليس منها[٤]،حسبكَ مِن شرٍ سماعه ، حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق[٥]،حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصم ، الحديث ذو شجون[٦] ، حافظ على الصديق ولو في الحريق ، أحَشَفاً وسوء كيلة[٧]،الحكمة ضالة المؤمن،الحبارى خالة الكرَوان،الحاجة تفتُقُ الحيلة[٨] أحمقُ من هَبَنّقة َومن جُحا،أحلم من الأحْنف ، أحكم من لقمان ، أحذرُ من غراب ، ومن ذِئب ،ومن ظليم[٩] ،أحفظُ من الشّعبي ، خذْ من جذع ما أعطاك[١٠]،خالِف تذْكر ،خَرْقاءَ وجدت صوفاً[١١]،خير المال عينٌ خرّارة في أرض خوّارة[١٢]،أخطبُ من سحبان ، ومن قس ، أخوَنُ من ذِئب، دون ذا وينفُق الحمار[١٣]،أدهى من قيس بن زُهير ،ومن عمرو بن العاص ذهبوا أيدي سبأ[١٤] ، الذئب خالياً أَسدٌ ، ذكرتني الطعن وكنت ناسياً[١٥] ، رَمَتني بدائها وانسلت[١٦] ، رماه الله بثالثة الأثافي[١٧] ، رُب قول أشد من

---

(١) أي جاءوا جميعاً (٢) الصافر من الطيور بغاثها وضعافها(٣) الجريض: الغصة والقريض : الشعر . يضرب في الأمر يتيسر حين لا ينفع (٤) يضرب في الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه (٥) يضرب في ا.قالة السيئة وما يخشى منها (٦) الشجون . الفنون . يضرب فى الحديث يتذكر به غيره (٧)يضرب في الجمع بين خصلتين مكروهتين (٨)يضرب في مناسبة أحد الشيئين للآخر (٩) الظليم : ذكر النعام (١٠) جذع : اسم رجل . يضرب في اغتنام ما يجود به البخيل (١١) الخرقاء: التي لا تحسن العمل، يضرب لمن يفسد عمله بسوء تصرفه (١٢) الخوارة : الأرض التي فيها لين وسهولة (١٣) يضرب في المبالغة في المدح بغير احتياج إليه (١٤) أي تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه كما تفرقت سبأ (١٥) يضرب في تذكر الشيء بغيره (١٦) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه (١٧) الأثافي : جمع أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر ، وهما اثنتان وثالثتهما الحبل ، والمراد بها الداهية العظيمة .

صَوْل [١] ، رُبّ أخٍ لك لم تلِدْه أُمك، رجع بخُفّي حنيْن[٢]، رُبّ رمية من غير رام، الراوية أحدُ الشاتمين[٣] رُبّ كلمة سلبت نِعمةً ، رُبّ مَلوم لا ذَنبَ له، رُبّ زارع لنفسه حاصدٌ سواه أروَى من ضَبٍّ[٤]، ارق من النّسيم ومن رقراق السّراب ومن غِرقيء البيض[٥] ، الزيتُ في العجين لا يضيع[٦] ، زَكاة النعم المعروف ، أزكنُ من إياس ، أزْهى من طاوس [٧] ، سبَق السَّيفُ العَذْل [٨] ، أساء سَمْعاً فأساء إجابةً ، سكتَ ألفاً ونطق خُلفاً[٩] ، سرِق السّارق فانتحر [١٠]، السليمُ لا ينامُ ولا يُنيم [١١] سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشّع ، شرّ الرأيِ الدَّبري[١٢] شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض[١٣] ، شنشنةٌ أعرفها من أخزَم [١٤] ، شرٌّ من الموت مَا يُتمنى معه الموت ، أشأم من البَسوس ، ومن أحمر عاد ، ومن غراب البين[١٥] أشكر من كلب ، صَدقني سنّ بَكره[١٦] ، صادف دَرْءُ السّيل دَرْءاً يَصدعه . صدرك

---

(١) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به (٢) يضرب في الخيبة (٣) هذا كقولنا شتمك من بلغك (٤) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج إلى شرب الماء بفتح فاه للهواء فيكون في ذلك ريه (٥) الغرقيء القشرة الرقيقة الملتزمة ببياض البيضة (٦) يضرب في الإحسان إلى الأقارب (٧) الزهو : العجب (٨) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه الخلف الرديء من القول ١٠ يضرب لمن تنتزع من يده ما ليس له فيجزع عليه (١١) السليم : الملدوغ، يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره ١٢) الدبري ما يسنح بعد فوات الفرصة (١٣ الشخب : ما خرج من الضرع ممتداً من اللبن ، يضرب فيمن يصيب مرة ويخطىء أخرى .

(١٤) الشنشنة : الطبيعة والعادة يضرب في مشابهة الفرع لأصله في الشر .

(١٥) البسوس . هي المرأة التي هاجت بسببها حرب بكر وتغلب ، وأحمر عاد هو أحمر ثمود ، وهو الذي عقر الناقة فحل العذاب بثمود من جزاء عمله .

(١٦) يضرب في الإنسان يقول الحق على غير قصد منه .

(١٧) هذا كمن قال : لا يفل الحديد إلا الحديد .

أوسع لِسرّك . أصدقُ من قطاة[١]، أصعبُ من ردّ الشُّخْب في الضّرع، ضرب أخماساً لأسداس[٢]، أضيَقُ من ظِلّ الرمْح، أضعف من بعوضة، أضبطُ من نملة، أطرقْ كراً، إنّ النعامة في القرى[٣] أطولُ صُحْبة من الفرقَدَين، أطمعُ من أشعب، طبيبٌ يُداوي الناس وهو مريضٌ، طفيليّ ومُقترِح، ظِئْر رَءُوم خيرٌ من أُمّ سَئُوم[٤]، عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرَى[٥]، عند جُهينةَ الخبرُ اليقين[٦]، عرض عليه خَصلتي الضَّبُع[٧] عِش رَجباً ترَ عجباً، أعط القوس باريَها، أعرض ثوب الملبس، العَوْدُ أحمد، عند الامتحان يُكرم المرءُ أو يُهان، أعز من كليب وائل، أعيى من باقـل، أعدى من الظليم، ومن الشَّنْفَرى، ومن السليك، أعق من ذِئبة، أعقدُ من ذنب الضّبّ، وأعجزُ ممّنْ قتل الدخانُ[٨] غدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلوليّة[٩]، غثّك خيرٌ من سَمين غيرك، في الصيف ضيّعت اللبن[١٠] في بيته يُؤتى الحكم، في كل شَجَر نار، واستمجدَ المرْخ والعَفار[١١]، أفرسُ من بسطام، أفتك من عمرو بن كلثوم، قطعت جهيزة قول كل خطيب[١٢]، وقد أنصف القارة من راماها[١٣]، قبل الرّماء تملأ الكنائن[١٤]،

---

(١) لأن صوت القطاة واحد لا يتغير (٢) يضرب فيمن يريد الشيء ويظهر غيره (٣) الكرا : الكروان، يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه (٤) الظئر: الحاضنة والرءوم: العطوف (٥) يضرب في تحمل التعب رجاء الراحة (٦) يضرب في الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم : على الخبير سقطت (٧) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلباً وخيرته بين ان تأكله وأن تمزقه، يضرب فيمن يسوم غيره ما لا خيار فيه من البلاء (٨) يضرب فيمن إذا سألته عن أمر ابهم الجواب (٩) سلول قبيلة ذليلة، يضرب في اجتماع خصلتين من الشر (١٠) يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه (١١) المرح والعفار. شجرتان قويتا النار يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض (١٢) يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها ١٣ القارة : قبيلة من أبرع الناس في المراماة .

(١٤) يضرب في الاستعداد للأمر قبل الشروع فيه .

أقتلوني ومالكاً [١] ، القولُ ما قالت حذامِ ، كان كُراعاً فصار ذراعاً [٢] ، كلامٌ كالعسل ، وفعلٌ كالأسل [٣] ، كل فتاةٍ بأبيها مُعجبةٌ [٤] ، كطالب القرْن جُدِعت أذنه [٥] كمُجير أمّ عامر [٦] كيف أعاودك وهذا أثر فأسك [٧] ، كأنّ على رءوسهم الطير ، كالمستجير من الرَّمْضاءِ بالنار ، لو ذات سوار لطمتني [٨] ، لو خُيِّرْتُ لاخترت ، لو ترك القطا ليلاً لنامَ [٩] ، لعلَّ له عُذراً وأنت تلومُ ، لأمرٍ ما جدَّع قصير أنفه ، لكل مقامٍ مَقالٌ ، لا مخبأ لعطر بعد عروس [١٠] ، لا تعدَمُ الحسناءُ ذاماً [١١] ، لا تهْرِفْ بما لا تعرِفْ [١٢] ، لا ناقتي فيها ولا جملي ، لا في العير ولا في النفير [١٣] لا يفلُّ الحديد إلا الحديد ، لا تأمن الأحمق وبيدهِ سكين [١٤] ، لا تجزَعَنَّ من سُنَّةٍ أنت سرتها ، ما وراءَك يا عِصام ، ما يوم حليمة بسِرٍ [١٥] ، ما أشبه الليلة بالبارحة . مَرْعىً ولا كالسعدان [١٦] ، ما كل بيضاءَ شحْمةٌ ، منك أنفكَ وإنْ كان أجدع [١٧] ، من استرعى الذئب ظلم ، من مأمنه يؤتى

(١) يضرب فيمن يريد بصاحبه المكروه وإن ناله هو منه ضرر (٢) يضرب في الذليل يصبح عزيزاً (٣) الأسل الرماح (٤) يضرب في عجب الرجل رهطه وعشيرته (٥) أصل المثل في النعام ، ويضرب في طلب الأمر يفضي بصاحبه إلى التلف ٦ أم عامر الضبع وقد أكلت من أجارها . يضرب في الذي يجزى على إحسانه بالسوء (٧) يضرب فيمن لا يفي بالعهد (٨) يضرب في الوضيع يقع منه العدوان (٩) يضرب فيمن حمل على مكروه من غير إرادته (١٠) يضرب فيمن لا يدخر عنه نفيس (١١) يضرب في الشيء الحسن لا يخلو من عيب (١٢) يضرب لمن يتعجل في مدح الشيء قبل تمام معرفته (١٣) يضرب في الوضيع ليس فيه شيء من خلال الشرف (١٤) يضرب في عسف الجاهل إذا قدر

(١٥) حليمة بنت مالك غسان ، يضرب للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل

(١٦) السعدان : نبت من أنفع الأعشاب للإبل ، يضرب في الشيء يفضل على أشكاله وأقرانه

(١٧) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره

الحذر ، مواعيدُ عرقوبٍ ، مُكرَهٌ أخوك لا بطل ١ ، أمنعُ من عُقاب الجو نَفسُ عصامٍ سوَّدت عِصاماً٢ نعمُ كلب في بُؤس أهله٣ أندمُ من الكُسَعيّ وافقَ شنٌ طبقة ٤ ، أوردَها سعد وسعْد مشتمل ٥ ، أوفى من السَّموْأل ومن الحارث بن عباد ، هما كفرَسي رهان ، يداك أوكتا وفوكَ نفخ ٦ : اليومَ خمر وغداً أمْر ٧

الفن الرابع في الأوصاف

الوصفُ ٨ عبارة عن بيان الأمرِ باستيعاب أحواله وضُروب نعوته المُمثل له وأصولهُ ثلاثة :

الأوّل : أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عما سواه .

الثاني : أن يكون ذا طلاوة ورونَق .

الثالث : أنْ لا يخرجَ فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ، ويكتفى بما كان مناسباً للحال — وأنواعه كثيرة ، ولكنّها ترجع إلى قسمين : وهما وَصف الأشياءِ ووصف الأشخاص — أمّا الأشياءُ الحرية بالوصفِ فهي كالأمكنة والحوادث ومناظر الطبيعة .

وأمّا وصفُ الأشخاص فيكون بوصف الصورة أو الطبع أو بوصفها معاً ، ولنذكر لك فقراً جارية على ألسنة البلغاء في صفات شتى — ثم نتبعها بمقالات في الوصف نثراً ونظماً .

---

(١) يضرب فيمن يحمل على ما ليس من شأنه (٢) يضرب في سؤدد الرجل نفسه (٣) يضرب في التابع - كالخادم يشغل سادته بمصيبته فيغنم ما قدر عليه من أموالهم (٤) يضرب في تمام المشاكلة والاتفاق (٥) يضرب المقصر في الأمر (٦) يضرب لمن يجني على نفسه (٧) يضرب في تقلب الأيام (٨) أحسن طريقة للاجادة في الوصف أن ترسم أولاً في بدء وصفك نظراً عاماً جامعاً لمجملي الأمر الذي تحاول وصفه ثم تأخذ بإيراد مختلف الأجزاء قسماً فقسماً وذلك إما على تتابع ورود هذا الأجزاء ، او إيثار ما كان يراه الكاتب اشد مناسبة لغايته .

وصف البلدان

بَلدَة ٌ كأنها صورة جَنّة الخُلد ، منقوشة ٌ في عُرض الأرض ، بلدة ٌ كأنَّ محاسِنَ الدُّنيا مجموعة ٌ ومحصورة في نواحيها ، بلدة ٌ تُرابها عَنبر ، وحصباؤُها عقيق ، وهواؤها نسيم ، وماؤها رَحيق ، بلدة ٌ معشوقة السكنى ، رحْبة المَثْوى [١] ، كوكبها يَقظان ، وجوُّها عُريان ، يومها غداة ٌ ، وليلها سَحَر ، بلدة ٌ واسعة الرُّقعة ، طيِّبة البقْعة ، واسطة البلاد وسُرَّتها ، ووجْهُها وغُرَّتها .

وصف القلاع

قلعة ٌ حلـَّقت [٢] بالجوّ تناجي السَّماء بأسرارها ، قلعة ٌ تتوشح بالغُيوم ، وتجتلي النجوم ، قلعة ٌ مُتَنَاهية في الحصانة ، ممتنعة ٌ عن الطلب والطالب ، منصوبة على أضيق المسالك وأوعر المناصب ، لم تزدها الأيام إلا نبُوّ ً [٣] أعطاف ، واستِصْعابَ جوانب وأطراف ، قد ملّ الملوك حصارَها ، ففارقوها عن طماح [٤] منها وشماس [٥] وسئمت الجيوش ظلَّها ، فغادرَتها [٦] بعد قنوط وإياس ، فهي حمى لا يُراع [٧] ومَعقِل ٌ لا يُستَطاع ، كأن الأيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث واللَّيالي ، وعاهدتها على التسليم من القَوارع [٨] .

وصف الدُّور

دارُ قرارٍ تُوسِعُ العينَ قُرَّة ، والنَّفسَ مسرة ً ، كأن بانيها استسلف الجنة ، فعجّلت له دار ٌ تَغارُ منها الدور ، وتتقاصرُ عنها القُصور ، دار ٌ اقترن اليُمن [٩] بيمناها واليسر بيسراها ، الجسوم منها في حَضَر ، والعيون على سفر ، دار ٌ دار السعد نجمها وفار بالحسن سهمها ، يخدمها الدهر ، ويأويها البدر ، ويكنُفُها النَّصر ، هي مرتع النواظر ومتنفس الخواطر أخذت أدوات الجنان ، وضحكت من العبقَري [١٠] الحسان .

---

(١) الإقامة (٢) ارتفعت (٣) بعداً (٤) كبر وفخر (٥) إباء وامتناع (٦) تركتها (٧) لا يفزع ولا يخاف أحداً (٨) الحوادث والنوائب (٩) البركة (١٠) البسط المعجب شكلها .

وصف الديار الخالية

دارٌ لبِسَت البِلى وتعطَّلتْ من الحُلى ، صارتْ من أهلها خالية ، بعد ما كانت بهم حالية ، وقد أنفد البَيْنُ سكانها ، وأقعدَ حيطانَها ، دارٌ شاهدُ اليأس منها ينطق ، وحبلُ الرّجاء فيها يقصر ، كأنّ عمرانها يُطْوى ، وخَرابها يُنشر ، أركانها قيامٌ وقعود ، وحيطانها رُكّع وسجود :

بَكَتْ دارهم من بَعْدهم فتهللت دموعي فأيُّ الجازِعين ألوم
أمُسْتعبراً يَبكي على اللهو والبِلى أم آخر يَبكي شَجوه فيهم ؟

وصف أيام الربيع

يَوْمٌ جلابيب غيُومه رواق[1] وأوْدية نَسيمه رقاق، يومٌ سماؤه فاختيّة ، وأرضه طاوُوسيّة ، يومٌ مُمَسّك السماء ، مُعصفَرُ الهواء ، مُعَنْبرُ الروضَ ، مصنْدَل الماء ، يومٌ تبسّم عنه الربيع ، وتبرّج عنه الرَّوض المَريع ، يومٌ كأنّ سماءه بحِدٌ تتباكى وأرضه عروسٌ تَتَجلى ، يومٌ دَجنُه[2] عاكف ، وقَطرُه واكف[3]

وصف الرياض

رَوْضةٌ رقت حواشيها وتأنقَ واشيها[4] ، روضة كالعُقود المنظمة على البرود المنمنمة ، روضة قد راضتها أكفّ المطر ، ودبجتها أيدي النّدى ، رياضٌ كالعرائس في حَليها وزخارفها ، والقيانِ[5] في وشيها ومطارفها[6] ، باسطة رَرابيّها وأنماطها ، ناشرة برودها ورياطها ، زاهية بحمرائها وصَفرائها ، تائهةٌ بغيدانها وغدرانها ، كأنما احتفلت لوفد ، أو هي من حبيب على وعْد ، روضة قد تضوعت[7] بالأرج[8] الطيّب أرجاؤها ، وتبرجَتْ[9] في ظلل الغَمام صحراؤها ، وتنافحت

---

(١) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض (٢) الغيم (٣) سائل (٤) حائكها وناقشها (٥) جمع قين : المغنية (٦) جمع مطرف رداء من خز مربع فيه أعلام والزرابيّ البسط ، والأنماط الأثواب التي تطرح على الهوادج ، والرياط الأثواب الرقاق (٧) تحركت (٨) النفح : الريح الطيب (٩) تزينت .

بنَوافح المسك أنوارُها، وتعارَضت بغرائب النطق أطيارُها . بُستانٌ أنهارُه محفوفة بالأزهار، وأشجاره مُوقرةٌ بالثمار، اشجارٌ كأن الحورَ اعارتها قدودها وكستها بُرودها، وحلتها عُقودها، شقائقُ كتيجان العقيق على رءُوس الزنوج كأنها أصداغُ المِسْكِ على الوجنات الموردة، كأن الشقيق جام[1] من عقيق أحمر، مُلِئت قرارته بمسك اذفر، الأرض زُمُردة، والأشجار وَشيٌ، والماءُ سيوفٌ، والطيور قيان[2] قد غردت خطباءُ الأطيار على مَنابر الأنوار والأزهار .

وصف طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة قص جَناحها، وضلَّ صَباحها . ليالٍ ليست لها اسحارٌ، وظلمات لا تتخللها أنوار، ليلٌ ثابت الأطناب[3]، بَطيءُ الغوارب طامح الأمواج وافي الذوائب . بات بليلة ساورته[4] فيها الهموم، وسامرته النجوم، واكتَحَل السهاد، وافترش القتاد، واكتَحَل بماء السهر، وتململ على فراش الفكر، قد أقض مهادُه[5] وقلِقَ وساده، همومٌ تفرق بين الجنب والمهاد، وتجمع بين العين والسهاد .

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأفول النجوم

قد اكتهَلَ[6] الظلام، قد نصّفنا عمر الليل واستغرقنا شبابه، قد شاب رأس الليل، كاد ينمُّ النسيم بالسحر، قد انكشف غِطاء الليل وستر الدجى، هَرِم الليل وشمِطت ذَوائبه، قُوضت[7] خيام الليل، وخلع الأفق ثوبَ الدجى، تبسم الفجرُ ضاحكاً من شَرْقه، ونصب أعلامه على منازل أُفقه، اقتنص بازي الضوء غراب الظلام، وفضَّ كافور النور مِن الغَسَق مِسك الختام، طرز قميص الليل بغرَّة الصبح، باحَ الصبح بسره، خلع الليل ثيابه وحدَر[8] الصبح نقابه، بث الصبح طلائعه، تبرقع الليل بغرة الصبح، أطار منادي الصبح غراب الليل،

---

(١) إناء (٢) مغنيات (٣) حبال الخيمة (٤) شغلته وقاومته
(٥) خشن وتترب (٦) صار كهلاً تشبيهاً بالرجل الكهل وهو من جاوز الأربعين سنة (٧) هدمت (٨) أنزل .

عزلت نوافج الليل بجامات الكافور ، وانهزمَ جَيشُ الظلام عن عَسكرِ النور ، مالت الجوزاء [١] للغُروب ، وولّت مواكبُ الكواكب ، وتناثرَت عقودُ النُّجوم ، ووهى نطاق الجوزاءِ ، وانطفأ قِنديل الثريا .

وصف طلوع الشمس وغروبها

بَدَا حاجبُ الشَّمس ، لقت الغَزالة [٢] لُعابَها وضَربَت الضُّحى [٣] أطنابَها ، انتشَرَ جناحُ الضوء ، في أفق الجوّ ، استوى شبابُ النار على رَونق الضُّحى ، بلغت الشمسُ كبِدَ السّماء ، قام قائمُ الهاجرة ورَمت الشمس بجمرات الظهر . اصفرَّت غِلالة [٤] الشمس ، وصارت كأنها لدينارٌ يلمع في قرار الماء ، نفضت تِبراً على الأصيل ، وشدّت رَحْلها للرَّحيل ، جَنَحَت الشمس إلى مغاربها دَلكت [٥] دلوح [٦] واغبرَّ لَوْحُ اللوْح [٧] تصوّبت الشمس للمَغيب ، تَضيّفت للغُروب ، فآذن جنبُها بالوُجوب [٨] شابَ النهار وأقبلَ شَبابُ الليل ، استَتر وجه الشمس بالنِّقاب ، وتوارَتْ بالحِجاب ، وكأنّ هذا الأمرِ منْ مَطلع الفَلَق إلى مجمع الغَسق .

وصف الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعد ، نبَضَ [٩] عِرْقُ البرق ، سحابة ارتجزت [١٠] رُعودُها ، وَذَهبتْ بِبروقها بُرودُها ، نطق لسانُ الرّعد ، وخَفَقَ قلبُ البرق ، فالرعد ذو صخب [١١] والبرق ذو لَهب ، ابتَسم البَرْقُ عن قَهقهةِ الرّعد ، زَأرت أسود الرعد ولمعت سُيوفُ البرْق ، رعدت الغَمائم وَبَرقت ، وانحلتْ عُرى السماء فطبقت ، هدرت رواعِدُها ، وقربت بَاعدها ، وصدقتْ مواعدها .

---

(١) برج في السماء (٢) الشمس (٣) الضحى جمع ضحوة ، مؤنث والضحا تذكر على أنها اسم . (٤) الثوب الرقيق (٥) غربت (٦) السحابة (٧) واللوح اللمح واللمعان ؛ من لاح يلوح لوحاً (٨) وجبت الشمس وجيباً ووجوباً غابت (٩) تحرك (١٠) الرجز ضرب من الشعر ويقول رجز الراجز وارتجز أيضاً (١١) كثير اللغط والجلبة .

وصف مقدّمات المطر

لبست السماءُ سِربالها، وسَحبت السَّحائبُ أذيالها، قد احتجبت السماء في سُرداق الغَيم، لبس الجو مُطرَفه[١] الأدكن[٢]، باحت الرِّيحُ بأسرار النّدى، ضُربت خيمة الغَمام، ابتلّ جناح الهواء واغرَورقت مُقلة السماء، هبّت شمائل الجنائب، لتأليف شمل السحائب، تألفت أشتات الغيوم، السّتور وأسبلت على النجوم.

وصف الثلج والبرد وأيام الشتاء

مد الشتاءُ رواقه، وألقى اوراقه[٣] وحلّ نطاقه، أناخ بَـمَوازله، وأرسى بكلاكله، وكلّح بوجهه، وكشّر عن أنيابه، قد عادت الجبال شِيباً، ولبست من الثلوج ملاءً قشيباً[٤] شابتْ مفارق البُروج بتراكم الثلوج، ألمّ الشيب بهـا، وابيضت لمُمها[٥]؛ بردٌ يقضقض[٦] الأعضاء، وينقضُ الأحشاء، برد يُجمِّدُ الريق في الأشداق والدمـــع في الآماق، يومٌ كأن الأرض شابتْ لهَوْله، يوم فضي الجلباب مسكي النقاب، عبوس قمطرير[٧]، كشر عن ناب الزمهرير وفرش الأرض بالقوارير[٨]، يومٌ أرضه كالقوارير اللامعة، وهواؤه كالزنابير اللاسعة.

وصف المطر والسحاب والماء والغدران

ماءٌ إذا مسته أيدي النسيم[٩]، حكى سلاسل الفضة، غديرٌ ترقرقت[١٠] فيه دموع السحائب، وتواترَت عليه أنفاس الرِّياح الغرائب، انحلّ عِقـد السماء وانهلّ دمع الأنواء[١١] انحل سلك القَطر، عن دُر البحر، سحابةٌ تحدو من الغيوم جمالاً، وتمدّ من الأمطار جبالاً، سحابة ترْسل الأمطار أمواجاً.

---

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) المائل إلى السواد (٣) جمع روق. وهو والرواق بمعنى (٤) جديداً (٥) جمع لمة للشعر الذي يجاوز شحمة الآذان (٦) يكسر ويضعف (٧) شديد مظلم (٨) جمع قارورة وهي الإناء من الزجاج (٩) شابة (١٠) تحركت (١١) جمع نوء: المطر.

والامواجَ أفواجاً . سحابةٌ يَضحك من بكائها الرّوضُ ، وتخضرُّ من سوادها الأرض ، سحابةٌ لا تجف جفونها ، ولا يخف أنينها ، ديمةٌ [1] روّت أديم [2] الثرى [3] ، ونبهت عيون النَّوْر من الكرى [4] ، سحابة ركبت أعناق الرياح وسحّت كأفواه الجراح . مطرٌ كأفواه القرب .

وصف القيظ وشدة الحر

حرٌّ يشبه قلب الصب ، ويُذيب دماغ الضبِّ [5] قوي سلطانُ الحرّ، وبسط بساط الجمر ، أوقدت الشمس نارها ، وأذْكت [6] أُوَارها [7] ، حرٌّ يلفح حرّ الوجه ، هاجرةٌ كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نار الفراق ، هاجرة تحكي نار الهَجر ، وتُذيب قلب الصخر ، حرٌّ تهرب له الحرباء [8] من الشمس ، قد صَهَرَتِ [9] الهاجرة الأبدان ، وركبت الجنادب [10] العيدان ، حر يُنضج الجلود ، ويذيب الجلمود ، أيام كأيام الفرقة امتداداً ، وحر كحرّ الوجه اشتداداً ، هاجرة [11] كالسعير الهاجم ، يجرّ أذيال السمائم [12] .

وصف الشيب

ذوى [13] غصن شبابه ، بدتْ في رأسه طلائع المشيب ، أقمر ليل شبابه ، ظهرتْ غرة القمر ، وأوْمَضَ [14] البرق في ليل الشَّعْر ، رُمي فاحم الفوْد [15] بضدّه ، واشتعل المبيضُّ في مسودّه ، لمع ضوءُ فرعه ، وتفرق شمل جمعه ، علاه غبار وقائع الدهر ، بَينا هو راقدٌ في ليل الشباب ، أيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب ، جاوَز من الشباب مراحل ، وورَد من الشيب مناهل ،

---

(١) المطر بلا رعد (٢) وجه الأرض (٣) التراب ٤ النوم ٥ حيوان بري لا يعيش إلا في الجهات الشديدة الحر ٦ أوقدت ٧ نارها (٨) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألواناً بحر الشمس (٩) أذابت (١٠) الجراد (١١) شدة الحر عند الزوال (١٢) الرياح الحارة (١٣) ذبل (١٤) برق ولمع (١٥) معظم شعر الرأس مما يلي الأذن .

فلّ[١] الدهرُ شبا شبابه، ومحاسن رُوائه، طار غراب شبابه، انتهى شبابُه، وشاب أترابُه، استبدل بالأدهم[٢] الأبلق[٣] وبالغراب العقعق[٤]، استعاض[٥] من الغراب بقادمة النسر، أسفر صبحُ المشيب، علتْهُ أُهْبةُ الكبر، نفض جُبة الصبا، وتولى داعيةَ الحِجا[٦]، الشيب زُبدةٌ مخضتْها الأيام، وفضة محّصتْها التجارب سرى في طريق الرُّشد بمصباح الشيب، الشيبُ خِطام المنيّة، الشيب نذيرُ الآخرة.

وصف آلات الكتابة

الدواة – المداد – الأقلام

الدواةُ من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عَتاد[٧]، وللخاطر زناد، غديرٌ لا يَرِدُ غير الأفهام، ولا يمتح[٨] بغير أرْشية[٩] الأقلام، غديرٌ تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتنشأ سُحب البلاغة من قراره.

مِدادٌ كسواد العين، وسويداء القلب، وجناح الغراب، ولُعاب الليل، وألوان دُهم الخيل، مدادٌ ناسب خافية الغراب، واستعارَ لونه من شَرْخ[١٠] الشباب.

أقلامٌ جمّة المحاسن، بعيدةٌ من المطاعن، أنابيبُ ناسبت رماح الخط في أجناسها، وشاكلتْ الذهب ألوانها، وضاهت الحديدَ في لمعانها، أقلامٌ كأنها الأميال استواءً، والآجال مضاءً، بطيئه الخفى قوية القُوى قلم لا ينبُو[١١] إذا نبتَ الصِّفاح، ولا يُحْجِم[١٢] إذا أحجمت الرِّماح، قلم يسكتُ واقفاً، وينطق ساكتاً.

وصف الخطباء

جَلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة، وشحَذوا بمواعظهم الأذهان الكليلة،

---

(١) هزم (٢) الأسود (٣) الأبيض وأصله للرخام (٤) طائر قدر الحمامة (٥ جعله عوضاً (٦) العقل (٧) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر (٨) لا ينزع (٩) حبال الدلاء (١٠) ريعانه (١١) لا يبعد (١٢) لا يتأخر

ونبهوا القلوبَ من رَقدتها ، ونقلوها عن سوءِ عادتها ، فشفَوْا من داء القسوة ، وغباوة الغفلة وداوَوْا من العيِّ الفاضح ، ونهجوا لنا الطريق الواضح ، خطيبٌ لا تناله حبسة ، ولا ترتهنُه لكنةٌ ، ولا تتمشى في خطابه رُتةٌ[١] ، ولا تتحيفُ[٢] بيانه عجمة ، ولا تعترض لسانه عقدة ، خطيبٌ جواهر نفثاته صحاح ، وعرائس أفكاره صباح ، خطيبٌ تزَيَّنت بِدُرَرِ ألفاظه عقود المُلح ، لا عيب فيه إلا أن لفظه عطل الياقوت والدُّرّ ، خطيبٌ مصقع ينثر لسانُه اللؤلؤ المكنون ، هو الخطيب المصقع الذي أشخصَ بآيات خطبهِ الزاجرةِ عيون القَوم وأبكاها ، هو الخطيب المصقع الذي تتلاعب بالعُقول معانيه ، ويُصاغُ الدُّرُّ من لفظِ فيه ، هو الخطيب الذي تهتزّ له المنابر ، وتنقاد إليه كلمات السِّحر متسابقةً ، آخذاً بعضها برقاب بعض .

وصف العُلماء

بَدْر العلوم اللائح ، وقطرُها الغادي والرائح ، وثبيرها[٣] الذي لا يزحم ، ومنيرها الذي ينجلي به ليلها الأسحم[٤] ، أما فنون الأدب فهو ابن بجدتها[٥] وأخو جُملتها وأبو عذرتها ، ومالك أزمّتها ، تستخرج الجواهر من بُحوره ، وتُحلى لمعات الطروس بقلائد سُطوره ، وتآليفه عقائل أصبحَ الدهر من خطّابها ، له بدائع مائسات[٦] الأعطاف ، بحر البيان الزّاخر ، شيخ المعارف وإمامها ومن في يديه زمامُها ، لديه تنشد ضوالّ الأعراب ، وتُوجَد شوارد اللغة والإعراب ، مالك أعِنّة العلوم وناهجٌ طرقها ، والعارف بترْصيعها وتنْميقِها ، النّاظم لعقودها ، الرّاقم لبُرودها ، المُجيد لإرهافِها[٧] العالِم بجلائها وزَفافها ، مَلكَ رِقّ الكتابة والإنشاء ، وتصرّف في فنون الإبداع كيف شاءَ ، عالمٌ يتفجّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحِكمة من نواحيه ، صاحب المصنفات التي دلت على

---

(١) العجمة (٢) بمعنى تنقص (٣) المثابر المواظب (٤) الأسود
(٥) العالم بها المتقن لها (٦) متبخترات مائلات (٧) لدقتها ولطفها .

وفرة اطلاعه ، وغزارة مادته ، وحُسْن بيانه ، لم يَترك مَعنًى مغلقاً إلا فتح صياصيَه [١] ، ولا مشكلاً إلا أوضحَ مَبانيه .

وصف البُلغاء

فلانٌ يَحوكُ الكلامَ على حسب الأماني، ويخيطُ الألفاظ على قدود المعاني، يَجْتني من الألفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها ، يعبث [٢] بالكلام ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتَغايَرُ في الانثيال [٣] على أنامله بليغٌ نسق [٤] من جواهر كلامه أكاليل دُرّ،ما لمنظومها سِلك بليغٌ تفُكُّ سهام أفكاره الزرَد،ناظم سِلك البلاغة وقائد زمام البراعة ، إذا أوْجز أعجز ، وإذا شاءَ أطال، وأطلق من البلاغة العقال،إذا أذكى سراج الفِكْر ، أضاءَ ظلامَ الأمر ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغيوب .

وصف الشعراء والمنشئين ومحاسن النظم والنثر

مقذِفُ حصى القريض وجماره،ومطلعُ شموسه وأقماره ، نثرُه سِحر البيان ونَظمه قطع الجُمان ، طلعت شمس الأدب من أُفق أشعاره، وتفجرت ينابيعها من خلال آثاره ، شاعرٌ توقدتْ جمراتُ افكاره ، شاعرٌ عرائس افكاره صِباح ، إن نثر فالنّجوم في افلاكها ، او نظمَ فالجواهر في اسلاكها ، اخذت بمجامع القلوب كلمهُ ، إذا كتب انتسب إليه السِّحْر أصحّ انتساب . ونسَق [٥] المعجزات نسق حساب ، وارىَ البدائع بيض الوجوه كريمة الأحساب ، إن نثر رأيت بحراً يزخر ، وإذا نظم ازْرى بنَظم العُقود بالجوهر ، واتى بأحسن من رقم البُرود، إذا كتب مَلأ المهارق[٦] بياضاً ، وارىَ السحر عِياناً ، هو الكاتب

---

(١) جمع صيصة : الحصن المنيع (٢) يلعب (٣) الانصباب (٤) نظم (٥) نظم (٦) جمع مهرق حرير ثوب ابيض يسقى الصمغ منه ويغسل ثم يكتب فيه .

الذي تحسُدُ أرقام الطراز سطورَ قلمه ، ويود التبرُ لو كان مداد كلمه ، هو الكاتب الذي تنقاد إلى يَراعه[١] دقائق المعاني صاغرةً بزمام ، نثرٌ كنثر الورد ، ونظمٌ كنظم العقد ، نثرٌ كالسحر او أدق ، ونظمٌ كالماء او أرق ، نثرٌ كما تفتّح الزهر ، ونظمٌ كما تنفّس السَحَر ، رسالة تضحك عن غرر وزهر ، وقصيدةٌ تنطوي على حبر ودُر ، كلام كما هبَّ نسيم السحر ، على صفحات الزّهر . كتابٌ مطلعه مطلع اهلّة الأعياد ، وموقعه موقع نَيل المراد ، كتابٌ حسبته يطير من يديّ لخفته ، ويلطف عن حِسّي لقلته ، صحائف انطوت المحاسن تحت رِقّ منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على اغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقراطيس تَزُفُّ إلى الأسماع عرائس المرائح ، صحائفُ ألبسها الحِبرُ أثواباً من الحُبَر[٢] ، ودبّجها[٣] صوبُ[٤] الفكر ، لا صوْب المطر .

وصف الأمراء والأشراف

فلانٌ من شَرَف العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم[٥] ، أصلٌ راسخ ، وفرع شامخ[٦] ، ومجد باذخ[٧] ، قد ركّبَ الله دَوْحته[٨] في قرارة المجد وغرس نبعته[٩] في منبت الفضل ، المجد لسان اوْصافه ، والشرف نسب أسلافه . دَوْحةٌ رسب[١٠] عِرقها وبَسَق[١١] فرعها وطاب عُودُها واعتدل عمودها وفيّأت ظلالها ، وتهدّلت[١٢] ثمارها وتفرّعتْ اغصانها ، وبَرد مَقيلُها[١٣] . أمير جيشه الهمَم . دَوْحةُ مجده وريفةُ[١٤] الظلّ وريقة[١٥] ، أمير لا عيبَ في نداه[١٦] إلا انه يستعبد كلّ حُرّ . هو غُرّة الجمال ، وصورة الكمال . عقد

(١) اقلامه (٢) الحبرات التي تلبسها النساء المصريات إذا خرجن (٣) نقشها (٤) المطر (٥) الخالص ٦ المرتفع ٧) العالي (٨) الشجرة العظيمة ٩ الشجر ايضاً (١٠) نبت (١١) ارتفع (١٢) تدلت (١٣) مكانها (١٤) ممتدة متسعة (١٥) مورقة (١٦) عطائه وهذا نوع من انواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم :

ولا عيب في معروفهم غير انه يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وفي الحقيقة ليس بعيب بل نهاية في المدح .

المناصب به نَضيد، أميرٌ عَبِقت من شمائله نَسمات النَّد، وقطرَت من سلسبيل أوصافه مياهُ المجد، جامعُ ما تفرق من شمل الفضائل، ناظم ما انتثر من عِقد المآثر، أنارت به نجوم المعالي وشموسها، له شرف باذخ تُعقد بالنُّجوم ذوائبه، ألقت إليه الرِّياسة مقاليدها[١]، وَمَلَّكته طريفها وتليدها[٢]، أميرٌ تَفَرَّعَ من دَوْحة سناء[٣]، وتحدَّر من سُلالة أكابر، ورُقاة أسرَّة ومنابر، مُرْتضع ثَدْيِ المجد، ومفترش حِجر الفضل، له صدر تضيق به الدَّهْناء[٤]، وتفزع إليه الدَّهماءُ[٥]، له في كلِّ مكرُمة غُرَّة الإصباح، وفي كل فضيلة قادمة الجناح، له صورة تَسْتنطق الأفواه بالتسْبيح، ويترَقرق فيها ماءُ الكرم، وتقرأ فيها صحيفة البِشْر، ينابيع الجود تتفجّر من أنامله، وربيع السماك يَضحك من فواضله، له أخلاقٌ خلقن من الفضل وشِيَمٌ تُشام[٦] منها بوارق المجد، أرِجَ[٧] الزمان بفضله، وعقِم النساء عن الإتيان بمثله، مالُه للعفاة[٨] مباح، وَفَعالُه[٩] في ظلمة الدهر مصباح، مناقب تشدَخ[١٠] في جبينها غُرَّة الصباح، وتتهادى أنباءَها[١١] وُفود الرياح، سألت عن أخباره فكأني حرَّكت المسك فتيقاً، وصبَّحت الروض أنيقاً[١١] هو رائش[١٣] نَبْلهم، ونبْعة[١٤] فضلهم، وواسطة[١٥] عقدهم، له هِمَّة علا جناحها إلى عنان النجم، وامتد صباحها من شرق إلى غرب، همّته أبعد من مناط[١٦] الفرقد، وأعلى من منكِب الجوْزاء[١٧]، موضعه من أهل الفضل موْضع الواسطة من العقد، وليلة التمِّ من الشهر، بل ليلة القدرِ إلى مطلع الفجر، هطلت عليَّ سحائب عنايته، ورفرفت حولي أجنحة رعايته، وقد

(١) مفاتيحها (٢) حديثها وقديمها (٣) مجد ورفعة (٤) الفلاة الواسعة (٥) جماعة الناس (٦) تنظر (٧) فاحت منه رائحة طيبة (٨) الطالبون للعطاء (٩) بفتح الفاء: كرمه (١٠) تفلق (١١) أخبارها (١٢) معجبا (١٣) السهم ذو الريش (١٤) الشجرة (١٥) ما تكون وسط العقد وهي أحسنه (١٦) محل علاقته (١٧) برج في السماء.

استظهرت على جَوْر الأيام بعدله، واستترْتُ من دهري بظله، قد غمرتْني نِعَمُه حتى استنفدَتْ شُكْر لساني ويدي، وتتابعتْ نِعمه تتابعُ القَطر على القَفر، وترادفت مِنَنُه ترادُف اليسر إلى ذوي الفقر، له أياد قد عمَّت الآفاق، وطوَّقت الأعناق أياد قد حبستْ عليه الشكر، واستعبدَت له الحرّ. مِننٌ توالت توالي القَطْر، واتسعت سعة البرّ والبحر، وأثقلت كاهل الحُرّ.

وصف القلم

القَلمُ أحدُ اللسانين، وهو المخاطِب للغُيوب، بسرائر القلوب، على لغاتٍ مختلفةٍ من معانٍ معقولة، بحروف معلومة، متباينات الصور مختلفات الجهات، لِقاحُها التفكر، ونِتاجها التَّدْبير، تخرسُ منفردات، وتنطِق مُزدوجات بلا أصوات مسموعة، ولا ألسُن محدودة، ولا حركات ظاهرة. خلا قلم حرَّف باريه قَطَّته، ليتعلَّق المداد به، وأرْهفَ جانبيه ليرُدَّ ما انتشر عنه إليه، وشقَّ رأسه ليحتبِس المداد عليه، فهُنالِك استمدّ القلمُ بشَقِّه، ونشَر في القرطاس بخطه حروفاً أحكمَها التفكر وأولى الأسماع بها الكلامُ الذي سَداه العقل، وألحمه اللسان ونهسَتْه اللهوات، وقطعته الأسنان، ولفظتْه الشِّفاه، ووعتْه الأسماعُ عن أنحاء شتّى من صفات وأسماء. قال البُحتري:

طعانٌ بأطْراف القوافي كأنه طعانٌ بأطْراف القنا المتكسِّر

وقال ابن المقفَّع: «القلم بريد القلب: يُخبرُ بالخبر، ويَنظر بلا نظر».

وقال أبو دُلَف: «القلم صَائغُ الكلام يفرغ ما يجمعُه العلم».

وقال الجاحظ: «الدواة منْهَل، والقلم ماتح، والكِتاب عطَن».

وقال سهل بن هارون: «القلم أنف الضمير، إذا رعف أعلَنَ وأبان آثاره».

وقال عمرو بن مَسعدة: «الأقلام مطايا الفِطَن».

وقال المأمون: «لله درّ القلم كيف يَحوك وَشْي المملكة»

وقال جالينوس : « القلم طبيب المنْطق » .

وقال أحمد بن عبدالله : « القلم رَاقدٌ في الأفئدة مُسْتيقظ في الأفواه » .

وقيل : « عُقول الرجال تحت أقْلامها » .

وقال آخر : « القلم أصمّ يَسْمع النَّجْوى . وأخرسُ يفصح بالدّعوى . وجاهل يعْلَم الفَحْوى » .

وقال أحمد بن يوسف : « عبرات الأقلام في خدود كتبها أحسن من عبرات الغواني في صُحون خدودها » .

وقال أيضاً : « القلمُ لسان البَصر يُناجيه بما استتر عن الأسماع ؛ إذا نَسَج حُلله ، وأودعَها حِكَمه » .

وقال العتابي : « الأقلام مطايا الأذهان » .

وقال عبد الحميد : « القلمُ شجرةٌ ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لُؤلُؤه الحكمة » .

وقيل : « بِريّ القلم تروى القلوب الظَّمِئة » .

وقال ابن أبي دؤاد : « القلم سفير العقل ، ورسولُه الأنبلُ ، ولسانه الأطول ، وترجمانه الأفضل » .

وقال أيضاً : « القلم الدنيا والآخرة » .

وقال آخر : « بنَوْءِ القلم تصوّب الحكمة » .

قال ابن مَيثَم : « من جلالة شأن القلم أنه لم يكتب لله تعالى كتاب قط إلا به » .

وقالوا : « القلم قَسيمُ الحكمة » .

وقال يحيى بن خالد البرمكي : « الخط صورة روحها البيان ، ويدها السُّرعه وقدمُها التَّسْوية ، وجوارحها معرفة الفصول » .

ووصف أحمد بن إسماعيل خطّاً حسناً فقال : « لو كان نباتاً لكان زَهْراً ؛ ولو كان مَعدناً لكان تِبراً ، أو مَذاقاً لكان حُلواً ، أو شراباً لكان صفواً » .

وقال إقليدس : « الخطُّ هندسة روحانيّة ، وإن ظهرت بآلةٍ جسمانية » أخذه النظّام فقال : « الخط أصلٌ في الرّوح وإن ظهر بالجسد » .

وقال بعض الملوك اليونانية : « أمرُ الدّين والدّنيا تحت شيئين: قلم وسيف، والسّيفُ تحت القلم » .

وقال أفلاطون : « الخطُّ عِقالُ العقل » .

وقال أرسطاليس: « القلمُ العِلّة الفاعلة والمِداد العلّة الهيُولانيّة، والخط العِلّةُ الصُّورية ، والبلاغة العِلة السّامية » .

سُئل بعض الكُتّاب عن الخط : متى يستحق أن يوصَفَ بالجودة؟ فقال : « إذا اعتدلت أقسامُه ، وطالت ألفُه ولامُه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صُعوده حُدوره، وتفتّحت عُيونه، ولم تُشبه راءَه نُونه ، وأشرق قرطاسه، وأظلمت أنفاسُه ، ولم تختلف أجناسُه ، وأسْرَع إلى العيون تصَوُّره ، وإلى العقُول ثمرُه ، وقُدّرت فُصولُه ، واندَمجت وُصولُه ، وتناسَبَ رقيقُه وجليله ، وخرج عن نمطِ الورّاقين ، وبَعُد عن تصنّع المحبّرين ، وقام لكاتبه مقام النّسْبة والحِلية » .

وقالوا ، « القلم أحدُ اللّسانين ، والعمُّ أحد الأبوين ، والتّثبُّت أحد العفوين ، والمطلُ أحد المنعَين ، وقلّة العيال أحد اليَسارين ، والقناعة أحد الرّزقين ، والوعيد أحد الضّربين ، والإصلاح أحد الكَسبَين ، والرّواية أحد الهاجيين ، والهجر أحد الفِراقين ، واليأسُ أحد النُّجحين ، والمزاح أحد السّبابين » .

وقال آخر : « مَساقُ الدّنيا بسين وقافٍ فيقال سق » يريد السيف والقلم.

وقال آخر : « القلم لِسانُ اليد » .

حدثني يحيى البحتري قال ، حدثنا أبي عن ابن الترجمان — وكان الواثقُ أنفذهُ إلى ملك الرُّوم بهدايا — قال: وافقت لهم عيداً، فرأيتُهم قد علّقوا على باب بيعتهم كتباً بالعربية منشورة ، فسألتُ عنها: فقيل: هذه كُتب المأمون

بخط أحمد بن أبي خالد الأحول ، استَحسنوا صوره وتقديره فجملوه هكذا .
فحدّثتُ أنا بهذا الحديث أبا عُبيد الله محمد بن داود بن الجرّاح فقال : هذا حق، قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المُعتمد فقال : ما رأيتُ للعرب شيئاً أحسنَ من هذا الشكلُ ، ولستُ أحسِدُهم على شيء حسدي إياهم عليه ، والطّاغية لا يقرأ العربي ، وإنما راقَه اعتداله وهندستُه وحُسْنُ مَوقعه ومراتبه .

وقال هشام بن الملك الأعرابي : انظر ، كم على هذا الميل من عدد الأميال، وكان الأعرابي لا يحسنُ أن يقرأ فمضى ونظر ثم عاد فقال: رأيتُ كرأس المحجن متّصلاً بحلقة صغيرة ، تتبعه ثلاثة كأطباء الكلبة ، تفضي إلى هنة كأنها رأس قطاة بلا منقار. ففهم بوصفه أنها خمسة .

حدثني يعقوبُ بن بيان الكاتب قال: قال بعضُ الكُتّاب « القلمُ الرّديءُ كالولد العاقّ » .

وقالوا : « رَداءَةُ الخط إحدى الزّمانتين، كما أن حسنَه إحدى البَلاغتين»
حدثني طلحة بن عبدالله قال :

اعتذر رجل إلى محمد بن عبدالله بن طاهر من شيء بلغه عنه ، فرأى خطه قبيحاً ، فوقع في رقعته : «أردنا قَبولَ عُذرك ، فاقتَطعنا عنه ما قابلنا من قبح خطّك ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركةُ يدك ، او ما علمت أنّ حسن الخطّ يُناضل عن صاحبه بوضوح الحُجّة ، ويُمكّن له دَرك البغية » ؟

وكان ابو هَفّان عبد الله بن أحمد المهزمي من أقبح النّاس خطاً ، وكان يَبتدىء الخطّ من رأس الوَرَقة ويعوّج سطوره حتى يبقى آخر سطر في الورقة كلمةٌ واحدةٌ فرثاه يحيى بن عليّ فقال في مَرثيّته :

مَع خطّ كأنّه أرجُل البط أو الخطّ في ذوي الفتيان

قالوا : « رَداءة الخط زَمانة الأديب » .

نظر عبدالله بن طاهر إلى خطّ بعض كُتّابه فلم يرضه ، فقال : « نحّوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط ، ولا يُؤمن أن يُعدي غيره » .

أنشدني العزي الحسن بن علي في قبح الخط :

جزعت من قُبح خطي وفيه وضعي وحطّي
رجعتُ من بعد حذقي إلى تعلّم خطّي

حدثنا أبو العباس الرّبعي قال حدثنا الطلحي قال حدثني أحمد بن إبراهيم قال : دخل على الرّشيد أعرابي فأنشده أرجوزة – وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسنَ الناس خطاً ، وأسرعهم يداً – فقال الرشيد للأعرابي : صف هذا ، فقال له : ما رأيتُ أطيش من قلمه ، ولا أثبت من حلمه ، ثم قال :

له قلمٌ بُؤسي ونعمي كلاهما سحابته في الحالتين درور
يناجيك عمّا في ضميرك لحظُه ويفتح باب النّجح وهو عسير

فقال الرّشيد : « قد وَجب لك يا أعرابي عليه حقٌّ ، وهو يقضيك إياه ، وحق علينا فيه نحن نقوم به ، ادفعوا إليه دِيَةُ الحر » فقال له : « على عبدك دية العبد » .

جاء يوماً عبد الله بن المعتز في المسجد الجامع إلى أبي العباس أحمد بن يحيى ليسلم عليه فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابنُ المعتزّ قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمنَ حوله :

لكفّي ثأرٌ عند رجلي لأنها أثارتْ قتيلاً ما لأعظمه جبرُ

فعجب الناس من سرعة بديهته .

وأهدى رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه :

قد وجّهت إليك أعزّك الله بمفاتح العلوم ، بادِ جمالُها ، تام كمالها ، فهي كما قال الشاعر :

ليس فيها ما يقالُ له كملت لو أن ذا كَمُلا

كلّ جزءٍ من محاسنها كائنٌ من حسنه مَثلا

وقال أحمد بن إسماعيل :

وإذا نَمْنَمتْ بَنانك خطّاً مُعرباً عن إصابة وسَداد

عجب النّاس من بياض مَعانٍ يُجتنى من سواد ذاك المداد

حدثنا أحمد بن يزيد المهلّبي قال حدثني أبو هفّان ، قال سألت ورّاقاً عن حاله فقال :

« عَيشي أضيقُ من محبرةٍ ، وجِسْمي أدقُّ من مِسطرةٍ ، وجاهي أرقُّ من الزجاج ، ووَجهي عند النّاس أشدّ سواداً من الحبر ، وحظي أحقرُ من شقّ القلم ، وبَدَني أضعف من قصبة ، وطعامي أمرّ من العَفْص ، وسوءُ الحال ألزمُ لي من الصبغ » فقلت له : عبّرتَ عن بلاء ببلاء [1] .

وسُئِل ورّاقٌ عن حاله فقال :

وإذا كنت بالليل لا أكتُب وطول النهار أنا ألعبُ

فطَوْراً يُبطلني مأكلٌ وطوراً يبطلني مشربُ

فإن دام هذا على ما أرى فبيتي أولُ ما يخربُ

وصف الكتاب

الكتابُ نعمَ الأنيسُ في ساعة الوَحدة ، ونعمْ المعرَفةُ في دار الغُرْبة ، ونعم القرين والدّخيل ، ونعم الزّائر والنزيل ، ووِعاءٌ مُلِيءَ علماً وظرفاً ، وإناء مُلِيءَ مزْحاً وجدّاً ، وحبّذا بستان يحمل في خرج ، وروض يقلب في حِجْر ، هل سمعت بشجرة تؤتي أكلها كل حين بألوان مختلفة وطعوم متباينة ؟ هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يَتْوى [2] وثمر لا يفنى ، ومن لك بجليس

(١) ومثله قول قائلهم :

تباً لرزق نازل من شق هذي القصبه

تباً له ، تباً له ما أتعبه ، ما أتعبه

(٢) يتوى : يهلك .

يفيد الشيء، وخلافه، والجنس وضدّه، يَنطقُ عن الموْتى ويُترجم عن الأحياء، إن غَضبتْ لم يَغضب وإن عَربدتْ لم يَصخب[١]، أكتَمُ من الأرض وأنَمُّ من الرّيح وأهوى من الهوى، وأخدعُ من المُنى، وأمتع من الضحى، وأنطق من سحبان وائل، وأعيى من باقِل[٢] هل سمعت بمعلم تحَلّى بخلال كثيرة وجمع أوصافاً عديدةً عربيٌّ فارسيٌّ يونانيٌّ هنديٌّ سِنديٌّ روميٌّ، إن وَعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمعَ وإن ضَرَب أوجع، يُفيدُك ولا يستفيدُ منك، ويزيدك ولا يستزيد منك. إن جدَّ فعبرة، وإن مزَح فنُزهة. قبرُ الأسرار ومخزَن الوَدائع، قيد العلوم وينبوعُ الحكم، ومعدن المكارم ومؤنسٌ لا ينام — يفيدك علم الأولين، ويُخبرك عن كثير من أخبار المتأخّرين — هل سمعت في الأولين أو بلغك أن أحداً من السّالفين جمعَ هذه الأوصاف مع قلة مؤنته؟ وخفة محمله، لا يرْزؤك[٣] شيئاً من دُنياك، نعم المدّخر لعُدّة[٤]، والمشتغل والحرفة، جليس لا يطريك[٥] ورفيق لا يَملكَ، يطيعك في الليل طاعته في النهار، ويطيعك في السّفر طاعته في الحضَر، إن أطلت النّظر إليه أطال إمتاعك[٦] وشحذَ[٧] طباعك، وبسط لسانك وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، إنْ ألِفته خلد على الأيام ذكرك، وإن دَرَسْتَه رفع في الخلق قدْرك، وإن نَعَتّه نوه عندهم باسْمك، يُقْعِد العبيد في مقاعد السّادات، ويُجْلس السوقة في مجالس الملوك، فأكرم به من صاحب، وأعْزز به من موافق.

---

(١) لم يصوت (٢ رجل من إياد يضرب به المثل في العي، ومن عيه أنه اشترى ظبياً فحمله على عاتقه، فسئل عن ثمنه، فحل عنه يديه ففتح أصابعه وأشار بها، وأخرج لسانه، يريد أنه بأحد عشر درهماً، ولم يلهم أن يخبر عن سعره بلسانه، فصار عيه مثلاً. (٣) لا ينقصك (٤) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر من سلاح وغيره (٥) لا يمدحك (٦) انتفاعك (٧) أحدّها وأقواها.

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطي

المتوفى سنة ٩١١ هـ

أتى عارض في ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة ، وكانت فيه ظُلُماتٌ متكاثِفة وبُروق خاطفة ورياح عاصفة ، فقويَتْ أهويتُها ، واشتدَّ هبوبهـا فتدافعت لها أعِنةٌ مُطلقات ، وارتفعتْ لها صواعقُ مُصعِقات ، فرجَفتْ لها الجُدران واصطفَقَت ، وتلاقتْ على بُعدهـا واعتنقت ، وثارَ بين السَّماء والأرض عجاج فقيل لعلّ هذه على هذه أطبقت ، وتحسب أنَّ جهنم قد سالَ منها وادٍ وعدا منها عادٍ ، وزاد عصف الرِّياح إلى أن انطفأت مصابيح النُّجوم ، ومُزِّق أديمُ السَّماء ومُحيَ ما فوقه من الرّقوم ، لا عاصِمَ من الخطف للأبصار ، ولا مَلجأ من الخطب إلا معاقـل الاستِغفار ، وفرّ الناس نساءً ورِجالاً ، ونفروا من دورهم خفافاً وثِقالاً ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سَبيلاً ، فاعتَصموا بالمساجد الجامعـة ، وأذْعنوا للنّازلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عانية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية ، يَنظرون مِن طرفٍ خفيٍّ ، ويتوقعون أيَّ خطبٍ جلي ،قد انقطعت من الحياة عُلـقهم وعميَتْ عن النَّجاة طرُقهم ، ووقعت الفِكرةُ فيما هُم عليه قادِمون ، وقاموا إلى صلاتهم ووَدُّوا أن لو كانوا من الذين هم عليهـا دائمون ، إلى أنْ أذن الله في الرُّكود وأسعَف الهاجدينَ بالهجود .

وأصبحَ كلٌّ يسلمُ على رَفيقه ، ويُهنِّئه بسلامة طريقه ، ويرى أنـه قـد بُعِثَ بعدَ النفخة ، وأفاقَ بعدَ الصَّيحة والصَّرْخة ، وأنَّ الله قـد ردَّ له الكرَّة وأدبَهُ بعد أن كاد يأخُذُه على غِرة ؛ ووردَتْ الأخبار بأن كسرَت المراكبُ في البحار ، والأشجار في القفـار ، وأتلِف خلقٌ كثير من السُّفـار ، ومنهم من فرَّ فلم ينفعه الفرار .

وصف العِلم لبديع الزّمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

العِلم شيءٌ بَعيد المرام ، لا يُصادُ بالسّهام ، ولا يُقسمُ بالأزلام[١] ، ولا يُرى في المنام ، ولا يُضبَط باللجام ، ولا يُكتَبُ للئام ، ولا يُورثُ عن الآباء والأعمام.

وزَرْعٌ لا يزكو[٢] إلا مَتى صادف من الحزم ثرّى طيّباً ، ومن التَّوْفيق مطراً صَيِّباً ، ومن الطبع جوّاً صافياً ، ومن الجهد رَوْحاً[٣] دائماً ، ومن الصبر سُقياً نافِعاً .

وغَرَضٌ لا يُصاب إلا بافتراش المَـدَر[٤] ، واستِناد الحَجَر ، ورَدّ الضجَر ، ورُكوب الخطر ، وإدمان السّهر ، واصطِحاب السَّفَر ، وكثرة النّظر ، وإعمال الفِكر .

وصف رجل لخَصْمِهِ

كان أحمدُ بنُ يوسُف[٥] مُتَصرِّفاً عن غَسّان بن عُباد ، وجرتْ بينهما هَنات[٦] بحضرة المأمون ، ثم قال المأمون يوماً لخاصة أصحابه : « أخبروني عن غسان بن

(١) الأزلام : جمع زلم — بفتح الزاي أو ضمها مع فتح اللام — وهي سهام لا نصل لها ولا ريش. كان العرب إذا ارادوا القمار احضروا جزوراً فنحروها وقسموا لحمها إلى ثمانية وعشرين قسما ، ثم اتوا بعشرة ازلام ، فرسموا على واحد منها خطاً ، وعلى الثاني خطين ، وعلى الثالث ثلاثة ، وهكذا إلى السابع ، فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلى ، وتبقى ثلاثة غفلاً لا يرسم عليها شيء ، ثم يضعون الجميع في خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلماً باسم واحد من المقامرين ، فإن كان مرسوماً له عليه شيء اخذ من اقسام اللحم بقدره ، وإن كان غفلاً غرم ثمن الجزور. والمقصود من هذه العبارة ان العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة ، كما ينال اللحم المقسوم . (٢) يزكو : ينمو ويطيب . (٣) الروح — بفتح فسكون — نسيم الريح. (٤) المدر : قطع الطين اليابس ، وافترش المدر : نام عليه .

(٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون ، وكان بارعاً في الرسائل ، ويكنى ، أبا جعفر.

(٦) الهنات : جمع هنة ، وقد تجمع على هنوات ، والمراد : أمور .

عباد ، فإني أريده لأمر جسيم ، وكان قد عزم على تقليده السِّنْد . فتكلم كلّ بما عنده في مدحه ، فقال أحمدُ بن يوسف : هو يا أمير المؤمنين رجلٌ محاسنه أكثرُ من مساويه ، لا يتطرق ١ إلى أمرٍ إلا تقدّم فيه ، ومهما تخوّف عليه فإنه لن يأتي أمراً يعتذرُ منه ، لأنه قسّم أيامه بين أفعال الفضل ، فجعل لكلّ خلق نوبة ٢ إذا نظرتَ في أمره لم تدر أيّ حالاته أعجب : أما هداه إليه عقله ؟ أمْ ما اكتسبه بأدبه ؟ فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه . قال : لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كفى ثمناً لما أسديتَ أنّي   نصحتكَ في الصّديقِ وفي عدائي
وإني حين تندُبني لأمر   يكون هواك أغلبُ من هوائي ٣

وصف أبي دُلف لعبدالله بن طاهر

دخل أبو دُلف ٤ على المأمون بعد الرّضا عنه ، فسأله عن عبدالله بن طاهر ٥ فقال : خلفته يا امير المؤمنين أمينَ غيب ، نصيحَ جيب ٦ ، أسداً عاتياً قائماً على براثنه ، يسعد به وليّك ، ويشقى به عدوّك ، رحْب الفِناء لأهل طاعتك ،

(١) تطرق إلى الأمر : ابتغى إليه طريقاً (٢) النوبة : الفرصة والدولة والمرة ، جمعها نوب كغرف (٣) يريد هواي ، ومده للضرورة (٤) أبو دلف - كعمر - هو القاسم بن عيسى البكري من قواد المأمون ثم المعتصم ، وكان جواداً شجاعاً ، وفيه يقول الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف   بين باديه ومحتضره
فإذا ولى ابو دلف   ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٦ هـ . (٥) هو عبدالله بن طاهر بن الحسن ، من كبار ولاة المأمون ولي مصر مدة سنتين تقريباً . قال صاحب كتاب ادب الخواص : إن البطيخ العبد لاوي الموجود بالديار المصرية منسوب إليه ، اهـ .

(٦) يقال : هو ناصح الجيب ، أي القلب والصدر .

ذا بأسٍ شديد لمن زاغ عن قصد محجّتك ، وقد فقّهه الحزم ، وأيقظه العزم ، فقام في نحْر الأمور على ساق التشمير ، يبرمها بأيْدِه [1] وكيده ، ويفُلها بجدّه وجِدّه ، وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرْداس :

أكرُّ على الكتيبة لا أبالي أحتْفي كان فيها ام سواها

فقال قائل : ما أفصحه على جبليّته ! فقال المأمون : إن بالجبل [2] قوماً أمجاداً [3] كراماً أنجاداً [4] ، وإنهم لَيُوَفّون السيف حظه يوم النزال ، والكلام حقه يوم المقال .

وصف أعرابي لرجل

وصف أعرابي رجلا فقال :

إن سألَ ألحف ، وإن سُئل سوّف ، وإذا وعد أخلف ، وإذا صَنَع أتلف ، وإذا همّ بالفعل الجميل توقف ، ينظر بنظر الحسود ، ويُعْرِض إعراض الحقود ، بينما هو خِلٌ ودود ، إذ هو خَلٌ وَدُود ، فناؤه شاسع [5] ، وضيفه جائع ، وشرّه شائع ، وسرّه ذائع ، ولونه فاقع [6] ، وجفنه دامع ،

(١) الأيد:القوة (٢ الجبل: بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وبلاد الديلم (٣) الأمجاد ــ جمع ماجد او مجيد ، كأشهاد في شاهد وشهيد ــ والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمح ٤) الأنجاد ــ جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها ــ وهو الشديد البأس ، ومن كلام علي : اما بنو هاشم فأنجاد أمجاد .

(٥) فِناء البيت: الساحة امامه ، وجمعه افنية والشاسع : البعيد ، والجملة كناية عن أنه بخيل ، لأن من عادة البخيل عندهم ان يبني خباءه بعيداً عن الحي حتى لا يقصد ، قالت الفارعة :

ولا يحل إذا ما حل منتشياً يخشى الرزية بين الماء والبادي

(٦) الفاقع : الشديد الصفرة ، وربما اكد به الأبيض .

وديارِه بَلاقِع ، رديء المَنْظر ، سَيىء المَخْبَر ، يَبْخَل إذا أيسر ، ويَهلَع[1] إذا أعسر ، ويكذِب إذا أخْبر ، إن عاهَد غَدَر ، وإن خاصَم فجَر ، وإنْ خُوطِبَ نَفَر .

وصف الإمام العادل

كتب عُمرُ بنُ عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لمّا وَلي الخِلافة إلى الحسن ابن أبي الحسن البصري ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب إليه الحَسَنُ :

اعلم يا أمير المؤمنين أنّ الله جعلَ الإمام العادِل قوام كلّ مائل ، وقصد كلّ جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقُوّة كل ضعيف ، ونصفة كلّ مظلوم ، ومفزعَ كلّ ملهوف . والإمام العادلُ يا أمير المؤمنين كالرّاعي الشّفيق على إبله ، الرّفيق الذي يرْتادُ لها أطيب المراعي ، ويزودُها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السّباع ، ويكنُفُها من أذى الحر والقرّ ، والإمام العادل يا امير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويُعلمهم كباراً ، يكتسبُ لهم في حياته ويدّخِرُ لهم بعد مماته ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأم الشّفيقة ، البرّة الرّفيقة بولدها، حملته كرهاً ، ووَضعته كَرْهاً ، وربّته طِفلاً، تسهرُ بسهره ، وتسكُن بِسكونه ، تُرضِعهُ تارةً ، وتَفْطمه أُخرى ، وتفرَح بعافيته ، وتغْتَمُّ بشكايته ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، وصيُّ اليتامى ، وخازنُ المساكين ، يُرَبي صغيرَهم ويُمَون كبيرَهم ، والإمام العادل يا أميرَ المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح ، تصلُح الجوانح بصلاحه ، وتفسدُ بفساده ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائمُ بين الله وبين عباده ، يَسمع كلام الله

(١) الهلع : أشد الجزع .

ويُسْمِعَهُمْ ، وينظرُ إلى الله ويُريهم ، وينقادُ إلى الله ويَقودُهم — فلا تكن يا أميرَ المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتَمَنَهُ سيّده ، واستحفظه مالَه وعياله، فبَدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقرَ أهلَه وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحُدودَ لِيَزْجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟! وأنّ الله أنزل القِصاص حياةً لعبادِه ، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموْت وما بعده ، وقلّة أشياعك عِنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعدهُ من الفزَع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أنّ لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوَاؤك ، ويفارِقُكَ أحبّاؤك ، يُسْلِمونكَ في قعره فريداً وحيداً، فتزوّد له ما يصحبُك ، يَوْمَ يفرُّ المرء من أخيه ، وأمّه وأبيهِ وصاحبتهِ وبنيه — واذكر يا أمير المؤمنين ، إذا بُعثِرَ ما في القبورِ ، وحُصّل ما في الصدُور ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكِتابُ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها — فالآنَ يا امير المؤمنين وانت في مهل قبل حُلول الأجل ، وانقطاعِ الأمل — لا تحكم يا امير المؤمنين في عبادِ الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظّالمين ، ولا تُسلط المستكبرين على المستَضْعَفين ، فإنهم لا يرْقبون في مُؤمن إلاّ ولا ذِمّة ، فتبوءَ بأوْزارك وأوْزارِ مع أوْزارِك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالِكَ ، ولا يغُرّنّك الذين يتنعّمون بما فيه بُؤْسُك ، ويأكلون الطّيبات في دُنياهم بإذهابِ طيّباتِكَ في آخرتك ، ولا تنظر إلى قُدْرَتك اليوم ، ولكن انظر إلى قُدْرَتك غداً ، وأنت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرْسلين ، وقد عَنَتِ الوُجوه للحي القيُّوم . إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغهُ أُولوا النُّهى من قبلي فلم آلُكَ

شفقةً ونصحاً ، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له في ذلك مِنَ العافية والصحة .

وصف عمرو بن العاص مصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

مصر تُرْبةٌ غبْراء ، وشجرةٌ خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر [١] ، يخُطّ وسطها نهر ميمون الغدَوات ، مُبارك الروحات ، يجري بالزيادة والنّقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان تظهرُ به عيُون الأرض ويَنابيعها ، حتى إذا أصلح عجاجه ، وتعظّمت أمواجه ، لم يكن وُصول أهل القُرى إلى بعض إلا في خِفاف القوارب [٢] وصِغار المراكب ، فإذا تكاملت زيادته نكص [٣] على عقِبيه كأوّل ما بدأ في شدّته ، وطما [٤] في حِدّته ، فعند ذلك يخرجُ القوم ليحرُثوا بُطون أوْديته وروابيه فيبذرون الحبّ ، ويرْجون الثّمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاهُ من فوقه النّدى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدُرُّ حلابهُ ، ويغني ذبابه – فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء ، إذا هي عنبرةٌ سوداء ، فإذا هي زبرجدةٌ خضراء ، فتبارك الله الفعال لما يشاء .

وصف حرب لأبي منصور النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

عندما دارت رَحا الحرب ، صمَتَتِ الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السُيوف على منابر الرّقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصّعاب ، وتلاصقت القنا والقَنابل [٥] ، وتعانقت الصّوارم [٦] والمناصل ، وبلغت القلوب الحناجر وأدْركت السيوفُ المناحر ، وضاقَ المجال ، وتحكّمت الآجال ، فلا ترى

---

(١) أي عشر ليال ، لأن عادة العرب السير في الليل. (٢) السفن الصغيرة.
(٣) رجع (٦) ارتفع (٥) القنا : الرماح ، والقنابل : جمع قنبل ما بين الخمسين فصاعداً من الخيل (٦) السيوف القاطعة ، وكذا المناصل .

إلا رؤوساً تندر ! ودماءً تهدر ، وأعضاءً تتطاير وتتناثر ، وأجساماً تتزايل وتتمايل حتى ثملت الرماحُ من الدماء ، فتعثرت في النحور ، وتكسرت في الصدور ، فرجعوا الأعداء من جوانبهم ، وتمكنوا من فض مواكبهم .

وصف المطر شعراً لأبي الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ
مع مقدمة لعمر بن علي المطوعي في وصف ذلك المطر نثراً

حكى عمرُ بن علي المطوعي قال: رأى الأمير السيدُ أبو الفضل عبد الرحمن ابنُ احمد أدام الله عزّه أيام مُقامه بجُوَين [٢] ان يطالع قرية من قرى ضياعه [٣] تُدعى « بجاب » على سبيل التنزه والتفرج ، فكنت في جُملة من استصحبه إليها من أصحابه ، واتفق ان وصلنا والسماء مُصحية [٤] ، والجو صاف ، لم يطرز ثوبه بعلم الغمام [٥] والأفق فيروزج لم يعبق به كافور السحاب [٦] فوقع الاختيار على ظل شجرة باسقة الفروع [٧] ، مُتسعة الأوراق والغصون ، قد سترت ما حواليها من الأرض طولاً وعرضاً ، فنزلنا تحتها مُستظلين بسماوة أفنانها [٨] مُستترين من وهج الشمس بستارة أغصانها [٩] ، وأخذنا نتجاذب أذيال المذاكرة [١٠] ، ونتسالب اهداب المناشدة والمحاورة [١١] ، فما شعرنا بالسماء إلا وقد أرعدت

---

(١) تسقط (٢) كورة بخراسان ، وبلدة بسرخس من بلاد فارس (٣) يطالع قرية ، يطالع صلنها ، والضياع : جمع ضيعة ، وهي العقار والأرض المغلة . (٤) لا غيم فيها (٥) عبارة عن خلو الجو من السحاب (٦) اي لونه مثل الفيروزج وهو الزرقة ، ولم يعبق به : لم يلصق به ، والكافور : طيب يستخرج من شجر كبير ، ولون هذا الطيب يصير ابيض بعد عملية تعمل فيه . والمعنى : انه لا يرى شيء من السحاب في الأفق (٧) طويلتها (٨) الأفنان الغصون ، وسماوتها : يعني اوراقها العريضة المتلاحمة تلاحماً يجعلها تشبه السقوف (٩) وهج الشمس : شدة حرها وتوقدها (١٠) عبارة عن تذاكرهم (١١) عبارة عن تناشدهم الأشعار وتحاور بعضهم مع بعض تحاوراً ادبياً .

وأبرَقت[١] وأظلمت بعدما أشرَقت، ثم جادت بمطر كأفواهِ القِرَب، فأجادت[٢] وحكت أنامل الأجواد، بل أوفت عليها وزادت[٣]، حتى كاد غيثها يَعود عيثاً[٤] وَهم وبلها أن يستحيل ويلا[٥] فصبرنا على أذاها وقلنا سحابةُ صيف عن قليل تقشع[٦] فإذا نحنُ قد أمطرتنا بَردَ الثغور، لكنها من ثغور العَذاب[٧] لا منَ الثغور العِذاب[٨]، فأيقنا بالبلاء، وسلمنا لأسبابِ القضاء[٩]، فما مرت ساعةٌ منالنهار، حتى سمعنا خرير الأنهار[١٠] ورأينا السيل قد بَلغ الزبى[١١] والماء قد غمرَ القيعان والربا[١٢] فبادرنا إلى حصن القرية، لائذينَ من السيل بأفنيتها[١٣]، وعائذينَ

(١) يقال : رعدت وبرقت . أي جاء بالرعد والبرق، وأرعدت وأبرقت يعني تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق (٢) جادت : تكرمت ، وأجادت : أحسنت. (٣) حكت : شابهت، وأنامل الأجواد : المقصود أيدي الكرام، ومحاكاتها الأيدي الكريم يعني مشابهتها لأيديهم في السخاء ، وأوفت وزادت بمعنى واحد .
(٤) الغيث : المطر ، والعيث : الإفساد . (٥) الوبل المطر العظيم القطرات ، والويل : الشر . (٦) أي لا تمكث إلا قليلاً وتذهب . (٧) البرد – بفتحات – قطرات المطر المتجمدة تنزل على الأرض كالحب في شكل الثلج أو الجليد . تشبه به اسنان الغواني وثناياها عند افترار الثغور ، والثغر : الفم ، وثغور العذاب : فتحاته . (٨) من الثغور العذبة الريق . (٩) وخضعنا لحكم المقادير. (١٠) يعني جرى الماء بشدة ، فصار يسمع له صوت كصوت مياه الأنهار . (١١) السيل : الماء العظيم الذي يتجمع من المطر ، ويسيل بشدة . والزبى – جمع زبية – وهي الأرض المرتفعة ارتفاعاً عظيماً بحيث لا يعلوها الماء عادة ، أو حفرة تحفر فيها ليصاد فيها الأسد . (١٢) الربا – جمع ربوة – الأرض المرتفعة ارتفاعاً، والقيعان – جمع قاع – وهو الأرض السهلة المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والآكام .
(١٣) فبادرنا : أسرعنا ، والحصن : الموضع الحصين المنيع، الذي لا يوصل إلى جوفه، ولائذين: محتمين متحصنين، والأفنية – جمع فناء – وهو المتسع أمام الدار.

منَ القَطر بأبنيَتها [١] وأثوابُنا قد صَنْدلَ كافورَها ماء الوبل [٢] ، وغلف طرازُها طينُ الوَحْل [٣] ، ونحنُ نحمد الله تعالى على سلامة الأبدان ، وإنْ فقدْنـا بياضَ الأكام والأرْدان [٤] ، ونشكره على سلامة الانفس والارواح ، شكر التاجر على بَقاء رأس المال ، إذا فُجِعَ بالأرْباح [٥] فبتنا تلك الليلة تحتَ سماء تَكِفُ ولا تكُفُ [٦] ، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوّام [٧] ، وأربع سجام [٨] فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام [٩] ، وصُرف بوالي الصحوعاملُ الغمام [١٠] ، رأينا صواب الرأي أنْ نوسعَ الإقامةَ بها رَفضاً [١١] ونتخذَ الارْتحال عنا فرضاً ، فما زلنا نَطوي الصحاري أرْضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقرّ ركضاً [١٢] ، فلما نفضنا غبار ذلك المسير [١٣] ، الذي جعلنا في ربقة الأسير [١٤] ، وأفضَيْنا إلى ساحة التيسير [١٥] بعد ما أُصِبْنا بالأمر العسير ، وتذاكرنا

---

(١) عائذين : ملتجئين ، والقطر : ما نزل من ماء المطر ، والأبنية : المباني .
(٢) صندل : استعمله متعدياً بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضارباً إلى السواد ، والكافور والوبل تقدم معناهما . (٣) غلف الشيء : جعل له غلافاً أي حجاباً وستراً ، والطراز : رسم الثوب ، والمعنى : أن رسم الثوب ستره الطين المتناثر من الوحل (٣) الأردان . أصول الأكام . (٥) أي أوجع بعدم الأرباح وفقد المكاسب . (٦) تكف : تقطر ، ولا تكف : لا ينقطع مطرها . (٧) هوام – جمع هام – من همى يهمى بمعنى سال . (٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيراً . (٩) أي الصبح الشبيه بالسيف ، والظلام الشبيه بالغمد . (١٠) الوالي : العامل او الحاكم ، والمعنى أزال الصحو الغمام . (١١) اي ان نرفض الإقامة بها رفضاً باتاً . (١٢) وافينا : اتينا والمستقر : السكن ، وركضاً : يعني عدواً ، وجرياً على الأقدام . (١٣) يعني لما أزلنا وسخ هذا السير بمعنى استرحنا (١٤) الربقة : عروة تجعل في حبل مع عرى غيرها ، ويربط في هذا الحبل (ويسمى الربق) أولاد الضأن والمعز والبقر (١٥) أفضينا : وصلنا . والساحة : رحبة واسعة بين الدور ، والتيسير : بمعنى اليسر والتسهيل .

ما لقينا من التعب والمشقة ، في قطع ذلك الطريق وطيّ تلك الشقة [١] أخذَ الأمير السيد أطال الله بقاءه القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالاً :

دَهَمَتْنا السماءُ غَداةَ السَّحاب بغيثٍ على أُفقِهِ مُسْبِلِ [٢]
فجاءَ برَعْدٍ لهُ رَنَّةٌ [٣] كرنةِ ثكلى ولَم تثكل [٤]
وثنى بوبْلٍ عدا طَوْرَهُ [٥] فعادَ وَبالاً على المُمحلِ [٦]
وأشرَفَ أصحابنا مِنْ أذاهُ على خَطَرٍ هائل مُعضلِ [٧]
فمنْ لائذٍ بفناءِ الجِدارِ [٨] وآدٍ إلى نَفَقٍ مُهمَلِ [٩]
ومن مُسْتَجيرٍ يُنادي الغريقَ هناكَ ومن صارخٍ معولِ [١٠]
وجادَتْ علينا سماءُ السقوف بدمع من الوَجدِ لَمْ يُهمَلِ [١١]

(١) وطيّ تلك الشُّقة أي قطع تلك المسافة (٢) الغداة: أول النهار، يعني دهمتنا السماء بمطر في أول النهار الذي كان فيه غيم . والغيث: المطر ، والمسبل : الهاطل، يعني دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذي كان السحاب مخيماً عليه .
(٣) له رنة : أي دوي وصوت هائل (٤) الثكلى : التي فقدت ولدها ، ولم تثكل : يعني لم يفقدها الله ولدها ، والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها ، مع أن الله لم يهلكه ، فهي تصوت على غيابه ، ولم ينقطع أملها من وجوده
(٥) الوبل : تقدم تفسيره وهو المطر الشديد ، وعدا طوره : تجاوز حده .
(٦) فصار ثقيلاً وخيماً على المكان الممحل الجدب المنقطع عنه المطر .
(٧) أشرف على كذا : قرب منه . والمعضل : الذي لا دواء له .
(٨ و ٩) فمن متحصن بالأراضي المجاورة للجدران ومن لاجىء إلى سرب في الأرض لم يتعهده أحد (١٠) ينادي الغريق : أي يدعو الناس ويقول الغريق لينقذوه ، والمعول : الرافع صوته بالبكاء . (١١)همل الدمع : سال، والمعنى : أنها جادت بدمع لم يكن السبب في إسباله لا الغرام ولا الوجد .

كأنّ حراماً لها أن ترَى يَبيساً من الأرض لم يَبلل ١
وأقبلَ سيلٌ له رَوْعةٌ ٢ فأدبَرَ كلٌّ عن المُقبل ٣
يُقلعُ ما شاء من دَوْحة ٤ وما يَلقَ منْ صخرة يَحمل ٥
فمِنْ عامرٍ رَدّهُ غامراً ٦ ومنْ مُعلم عاد كالمَجْهل ٧
كفانا بَليتَهُ ربّنا فقد وجب الشكر للمفضل ٨
فقل للسماء ارْعُدي وابرُقي ٩ فإنا رَجعنا إلى المنزل

وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ

لما صدأت مرآةُ الجَنان ١٠ قصدتُ لجلائها بعض الجنان ١١ فدخلتُ إليها، وما كدْتُ أن أقدمَ عليها، فإذا هي جنةٌ عاليةٌ ١٢ قطوفها دانيةٌ ١٣، وطلحها مَنضودٌ ١٤ ، وظلها مَمدودٌ ١٥، وأعلام أشجارها مرفوعةٌ وفاكهتها كثيرةٌ

(١) كأن حراماً لها ، اي كأن السماء محرم عليها ان ترى ارضاً يابسة لم تبل بالماء . (٢) الروعة : الفزعة (٣) كل واحد يولي ويهرب ممن يقابله .
(٤) يقتلع كل ما يريد من الشجر العظيم . (٥) يحمل كل ما يلقاه من الصخور الضخام (٦) رده غامراً صيره خراباً . (٧ من معلوم صار كالمجهول.
(٨) كفانا الله شره ، فوجب الشكر له لأفضاله علينا . (٩) إيت بالرعد والبرق . (١٠) الجنان : القلب، وصدئت مرآته علامة على الوسخ، والمعنى: لما كل القلب ، ومل العمل . (١١) لجلائها . أي إزالة الوسخ الذي علاها ، والجنان ـ جمع جنة ـ وهي الحديقة ذات النخل والشجر . ١٢) أي مرتفعة (١٣) عناقيدها متدلية قريبة من الجاني . (٤) الطلح : الاشجار العظام ، ومنضود يعني متراكم بعضه فوق بعض . (١٥) أي متسع . (١٦) أي أغصانها مرتفعة .

لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ [١] ، تجوسُ المياهُ خلال ديارها [٢] وتُشرِق بآفاقها أنوارُ نوّارها [٣] ، نزهة النواظر [٤] ، وشَرَكُ الخواطر [٥] بها أشجارٌ لا تحصى [٦] ، وثمار لا تُعَدُّ ولا تُستَقصى [٧] .

وصف البيان لأمير المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

البيان تَرْجُمان القلوب وصيقل العقول [٨] ، ومُجْلي الشبهة [٩] ، وموجب الحُجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرّق بينَ الشك واليقين ، وخير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ، ليسرع إلى الفهم تَلقيه ، أو موجزاً ليَخِف على اللفظ تعاطيه .

ووصف أيضاً المكارم

لن تَكسبَ أعزك اللهّ المحامد ، وتستوجب الشرف ، إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تُنالُ بغير مؤونة لاشترك فيها السفل [١] والأحرار ، وتَساهَمَها الوضعاء [١١] من ذوي الأخطار ، ولكن الله تعالى خصّ الكرماء الذين جعلهم أهلها ، فخفف عليهم حملها وسوّغهم فضلها وحظرها [١٢] على السفلة لصغر أقدارهم عنها ، وبُعد طباعهم منها ، ونفورها عنهم ، واقْشِعرارها منهم .

ووصف أيضاً القرآن الكريم

فضلُ القرآن على سائر الكلام معروفٌ غير مجهول ، وظاهرٌ غير خفي يشهد

---

(١) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع عنه . (٢) اي تتردد بين بيوتها . (٣) النوّار : الزهر . (٤) تتنزه فيها العيون . (٥) تصطاد الخواطر وتسبي العقول . (٦) لا يمكن الإتيان على عددها . (٧) لا يتأتى إدراك آخرها . (٨) جلاؤها . (٩) كاشفها . (١) السفل : جمع سفلة ، وهم طغام الناس وغوغاؤهم . (١١) جمع وضيع : هو الساقط . (١٢) منعها .

بذلك عجزُ المتعاطين، ووَهْن [1] المتكلفين، وهو المبلّغُ الذي لا يمل، والجديدُ الذي لا يخْلَق [2] والحق الصادع، والنور الساطع، والماحي لظلم الضلال، ولسان الصدق النافي للكذب ، ومفتاح الخير ، ودليلُ الجنة ، إن أوْجَز كان كافياً وإن أكثرَ كان مُذكراً ، وإن أمرَ فناصحاً ، وإن حَكم فعادلاً، وإن أخبر فصادقاً، سِراجٌ تستضيء به القلوب ، وبحر العلوم ، ودِيوان الحكم ، وجوهر الكَلِم .

وصف البلاغة لفحول البلغاء

(١) قال الجوهري : أحسنُ الكلام نظاماً ما ثقبته يدُ الفكرة ، ونظمته الفطنة ووُصل جوهر معانيه في سُمُوط [3] ألفاظه ، فاحتملته نُحُورُ الرواة .

(٢) وقال العطَّار : أطيبُ الكلام ما عُجِنَ عنبرُ ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نَسيم نشقه [4] وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

(٣) وقال الصائغ : خير الكلام ما أحْمَيْتَه بكِيرِ الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر وخلّصته من خبَث الإطناب ، فبرَزَ بُروزَ الإبريز ، في معنىً وَجيز [5] .

(٤) وقال السيرفي : خير الكلام ما نقدته عين البَصيرة ، وجلته يَد الرَّوية ووزَنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظرٌ يزَيفه [6] ؛ ولا سَماع يُبهرجه [7] .

---

(١) ضعف . (٢) لا يبلى . (٣) السمط : الخيط الذي ينظم فيه .
(٤) النشق : الاستنشاق ، العبق : لصوق الطيب بالشيء ، وتغلف الرجل بالطيب ، تدهن به ، والسراة : الأشراف . (٥) الكير : زق ينفخ فيه الحداد ، والمشاعل : جمع مشعل وهو القنديل وهو موضع شعل النار أي إلهابها . (٦) زيف الدراهم : اي انها زائفة اي مغشوشة . (٧) وبهرجها: أبطلها .

(٥) وقال الحدّاد : أحسنُ الكلام ما نصبتَ عليه منفَخَة القريحة، وأشعلتَ عليه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الأفحام ورقّقته بفطيس الأفهام [١] .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أحكمتَ نجر معناه بقَدُّوم التقدير، ونَشرته بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارضة [٢] لسقف اللسان .

(٧) وقال الحائك : احسنُ الكلام ما اتصلت لُحمة ألفاظه ، بسَدَى معانيه مفوفاً منيراً ، موَشى محبراً [٣] .

(٨) وقال الجمّال : البليغ من أخذ بخطام [٤] كلامه ، فأناخه في مبرَك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقالاً ، والإجادة له مجالاً ، فلم [٥] يندّ عن الآذان ولم يشذ عن الذهان .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان : صِفْ لي عُمر بن الخطاب فقال : كان عالماً برعيتهِ ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبرِ قبولاً للعذر ، سهلَ الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغريب .

---

(١) الفطيس كسكين المطرقة العظيمة (٢) العارضة ، الخشبة العليا التي يدور فيها الباب وعوارض البيت خشب سقفه. (٣) المفوف: الرقيق من الثياب أو الذي فيه خطوط بيض . والمنير : المنسوج على نيرين أي المضاف النسج . والموشى : المنقوش، والمحبر : المحسن . (٤) الخطام: كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به . وجمعه : خطم (٥) ند : هرب .

وصف علي بن أبي طالب

قال مُعاوية لِضرار الصدّائي : يا ضرار صف لي عليّاً قال : اعفني يا أميرَ المؤمنين . قال لتصفنه ، قال : أما إذْ لا بُد من وصفه فكان والله – بَعيدَ المدى [١] شديد القوَى ، يقول فصلاً ، ويحكم عَدلاً ، يتفجر العلمُ من جوانبه وتَنطقُ الحكمةُ من نواحيه ، يَستوحشُ من الدنيا وزَهرتها ، ويَستأنسُ بالليل ووحشته ، وكان - والله – غزيرَ العبرة ، طويلَ الفكرة ، يُقلب كفه ، ويُخاطبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدِنا يُجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقُربه منا ، لا نكادُ نُكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهلَ الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمعُ القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سُفيان

قال عُتبة بن أبي سفيان : إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء ، وأعذبُ من الماء ، مرّق من أفواههم مرُوق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ، إنْ فسرت بغيرها عُطلت [٢] ، وإن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها لكنة إذا سُمعتْ ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت [٣] .

---

(١) المدى : الغاية .

(٢) التعطيل : ترك الشيء ضياعاً .

(٣) هذا النوع من الكلام يسمى السهل الممتنع .

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ : الكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً وَظرْفٌ حشي ظُرْفاً ، وبستان يحملُ في رُدْن [١] ورَوضة تقلّب في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجمُ كلام الأحياء ، ولا أعلمُ جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهرَ كفاية ، وأقل جناية ، ولا أقل إملالاً وإبراماً ، ولا أقل خلافاً وإجراماً ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعدَ من عَضِيهة [٢] ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقل صلفاً [٣] وتكلفاً ولا أبعدَ من مراء ، ولا أترك لشغب ، ولا ازهدَ في جدال ، ولا أكفّ عن قتال - من كتاب ، ولا أعلمُ قريناً أحسنَ مواتاة [٤] ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحصرَ معونة ، ولا أقل مؤونة ، ولا شجرة أطول عمراً ولا أجمع امراً ، ولا اطيبَ ثمرةً ، ولا أقرب مُجتنى ، ولا أسرع إدراكاً في كل أوان ، ولا أوجد في غير إبان - من كتاب ، ولا أعلمُ نتاجاً في حداثة سنهِ ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وُجوده يجمعُ من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأخبار اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، ومن المذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والأمثال السائرة والأمم البائدة [٥] ما يجمعُ الكتاب .

وقيل لبعض العلماء : ما بلغَ من سرورك بكتبك ؟

فقال : هي إنْ خلوت لذتي ، وإن اهتممتُ سلوتي ، وإنْ قلت: إنّ زَهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ، ويمتعان بحسنها الألحاظ ، فإن بستان

---

(١) الردن : الكم ، وجمعه أردان (٢) العضيهة : البهتان والنميمة
(٣) الصلف : تمدح المرء بما ليس عنده (٤) المواتاة : حسن المطاوعة والموافقة وأصله بالهمزة وفي الحديث : خير النساء المواتية لزوجها. (٥) القديمة الهالكة.

« الكتب » يجلو العقل ، ويَشحذُ الذّهنَ ، ويُحيي القلب ، ويُقوّي القريحة ، ويُعين الطبيعة ، ويبعثُ نتائجَ العقول ، ويستثير دفائن القلوب ، ويُمتِعُ في الخلوة ، ويؤنس في الوحشة ، ويضحك بنوادره ، ويَسُرُّ بغرائبه ، ويُفيد ولا يستفيد ، ويُعطي ولا يأخذ ، وتَصِل لذّته إلى القلب من غير سآمة تُدْرِكك ، ولا مَشقّة تعرض لك .

وصف التاريخ لابن الأثير

التاريخ : مَعاد[1] معنوي ، يُعيد الأعصار وقد سَلفت ، ويَنْشُر أهلها ، وقد ذهبت آثارُهم وعفت[2] ، وبه يستفيدُ عُقول التجارِب مَن كان غِرّاً ، ويلقى مَن قبله من الأمم وهلُمّ جرّاً . فهم لديه أحياء ، وقد تضمّنتهم بُطونُ القبور ، وعنه غُيَّبٌ وقد جعلتهم الأخبار في عِداد الحضور ، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب ونُسيت الأحساب ، ولم يعلم الإنسان أنّ أصله من تراب ، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وعَمِيَ[3] على الأواخر حال قدمائها ، ولم يحَطْ علماً بما تداولته الأرض من حوادث سمائها ، ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب مِنْ كُتبِ الله المنزلة ، فمنها ما أتى بأخباره المُجْمَلة ، ومنها ما أتى بأخباره المُفَصَّلة ، وقد ورد في التوراة مُفرداً في سِفر من أسفارها ، وتضمّن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومُدَد أعمارها .

وقد كانت العرب على جهلها بالقَلم وخَطّه ، والكِتاب وضَبطه ، تصْرِفُ إلى التواريخ جُلّ دواعيها ، وتجعل له أوّل حظٍّ من مساعيها ، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها ، وتَعْتاضُ برقم صُدورها ، عن رقم سُطورها ، كل

---

(١) معاد : يقصد أنه كاليوم الآخر . (٢) عفا الشيء : هلك .
(٣) عمي عليه الأمر : التبس وكذلك عمي عنه .

ذلك عناية منها ، أخبار أوائلها ، وأيام فضائلها ، وهل الإنسان إلا ما أسسه ذكره وبناه ؟ وهل البقاء لصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه !؟

وصف الرّجل الكامل

كتب الحسن [١] بن سهل إلى محمد [٢] بن سماعة القاضي يصف له الرّجل الكامل :

أما بعد : فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذي عفة ونزاهة ، طعمة [٣] قد هذّبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين [٤] في رأيه ولا بمطعون في حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلّد مهمّاً من الأمور أجزأ [٥] فيه ، له سن مع أدب ولسان ، وتقعده الرزانة ، ويسكنه الحلم قد فرّ [٦] عن ذكاء [٧] وفطنة ، وعضّ على قارحة [٨] من الكمال ، تكفيه اللحظة وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام في أمورهم فحمد فيها له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ! وفهم الفقهاء وجواب الحكماء . لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق [٩] قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم شاهده .

---

(١) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفي سنة ٢٣٦ هـ. (٢) من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة توفي سنة ٢٢٣ ، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحواس . (٣) الطعمة بالضم طريق الكسب وبالكسر هيئة الأكل والسير فيه . (٤) الظنين : المتهم . (٥) أجزأ : أغنى . (٦) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها . (٧) الذكاء تمام السن واكتماله أو حدة الذهن . (٨) الفرس القارح الذي استكمل القوة باكتمال العمر ونظيره في الإبل البازل ، والسن التي تنبت له عند قروحه تسمى قارحاً وقارحة والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال . (٩) يستعبد .

مُضطلعاً [١] بما استنهض، مستقلاً [٢] بما حُمّل، وقد آثرْتُكَ بطلَبه وحبَوتك بارْتيادِه [٣]، ثقةً بفضل اختيارك، ومعرفةً بحسنِ تأتّيك [٤].

وصف قناة السويس

للمرحوم أحمد شوقي بك مخاطباً ابنَيه يوم أنْ عبرَ قناة السويس ميمماً الأندلس حينما نفَتْه الأحكام العرفية إبّانَ الحرب العالميّة [الأولى]

يا بَنيّ القناة لقومكما فيها حياة، ذِكرى إسماعيل وريّاه [٥]. وعَلْيا مفاخِر دنْياه، دولة الشرق المرجاة، وسلطانُه الواسعُ الجاه، طريقُ التّجارة، والوسيلة والمنارة، ومَشْرَع [٦] الحضارة

تعبُرانها اليومَ على مُزجاة [٧] كأنها فلكُ النّجاة، خرجت بنا بَينَ طوفان الحوادث، وطغْيان الكوارث، تفارق برّاً مغتَصبه مُضَريّ [٨] الغضْبة. قد أخذَ الأُهْبةَ، واسْتَجمَعَ كالأسد للوثْبة، وتلاقي بحراً جُنّتْ جواريه، ونزت [٩] بالشّر نوازيه، وتمثّلَت بكل سبيل عواديه. مملوءاً بفعتات الماء، مُترعاً بفجاءات السماء من نون [١٠] ينشب الدوارع، أو طير [١١] يقذفُ البيض مصارعَ، فقلت: سيري، عوّذْتكَ بوَديعة [١٢] التابوت، وبصاحب [١٣]

---

(١) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه إذا كان قديراً عليه (٢) استقل بالحمل نهض. ٣ والارتياد: مطلب ٤ تأتى للأمر: ترفق و تاه من وجهه.

(٥) الريا — الرائحة الطيبة. (٦) المشرع: المورد. (٧) زجاه وأزجاه: ساقه وسيره (٨) مضر فخذ من أفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهذا مأخوذ من قول بشار:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

(٩) النزو: الوثب، والنازية: حدة الرجل الوثاب إلى الشر وجمعها نواز.

(١٠) النون الحوت والمراد الغواصة (١١) يريد بالطير الطائرات وبالبيض ما يلقى منها من مهلكات القذائف. (١٢) هو موسى كليم الله. (١٣) هو نبي الله يونس

الحوت ، وبالحيّ الذي لا يمـــوتُ ، واسْري يا ابنة اليمّ ، زمامُكِ الروح [١] ، ورُبّانك [٢] نوح ، فكم عليك من منكوب ومجروح .

إن للنفي لرَوعة ، وإن للنأي للوعة ، وقد جرتْ أحكامُ القضاء ، بأن نعبرَ هذا الماء ، حين الشرُّ مُضطرم ، واليأس محتدم ، والعدوّ مُنْتقم ، والخصم محتكم . وحين الشامت جذْلان مبْتسِم ، يَهْزأ بالدمع ، وإن لم ينسجم [٣] ، نفانا حُكامٌ عُجم ، أعوان العدوان والظلم ، خلَفنـاهُم يفرحُون بذهب اللجم ، ويمرَحون في أرسانٍ يُسَمّونها الحكم ، ضربونا بسيفٍ لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه ، أو يضعوه ، سامحهم في حقوق الأفراد ، وسامحوه في حقوق البلاد ، وما ذَنْبُ السيف إذا لم يستَحي الجلاّد ؟!

ماذا تهمِسانِ ؟ كأني أسمعكما تقولان : أيّ شيء بدا له على هذه الضاحية [٤] وماذا شَجا خياله من هذه الناحية ؟ أي حسن او طيب للملح يتصبب في كثيب ماء عكر في رمل كدر ؟؟.

قناة حَمِئة [٥] ، كأنها قناة صَدِئة ، بل كأنها وعِبْرَيْها [٦] رمال بعضها متماسك وبعضها منهال ، وكأن راكب البحر مُصحِر [٧] وكأن صاحب البَرّ مُبحر . روَيدَكما : ليس الكتاب بزينة جـــلده ، وليس السيف بحلية غمده . تلك التنائف [٨] ، من تاريخكم صحائف ، وهذه القفار ، كتبٌ منه وأسفار ، وهـذا المجاز هو حقيقة السيادة ، ووثيقة الشقاء أو السعادة ، خيط الرقبة ، من اغتصبه اختصّ بالغلبة ، ووقفَ للأعقـاب عقبـة ، ولو سكتتْ لنطقت العِبر ، وأينَ العيان وأينَ الخبر ؟

---

(١) جبريل . (٢) الربان رئيس الملاحين وجمعه ربابين . (٣) انسجم الدمع— سال . (٤) الضاحية البادية وكل أرض بارزة للشمس . (٥) الحمئة : التي فيها الحمأة اي الطين الأسود المنتن ، والقناة الأولى الترعة والقناة الثانية الرمح . (٦) عبر النهر شاطئه . (٧) أصحر سار في الصحراء . (٨) التنائف جمع تنوفة وهي المفازة .

انظرا : تريا العِبرين عبرة الأيام ، حصون وخيام ، جنود قعود وقيام ، جيش غيرنا فرسانه وقوّاده ، ونحن بُعْرانه [١] وعلينا أزواده [٢] ، ديك على غير جداره ، خلا له الجو فصاح ، وكلبٌ في غير داره انفرد وراءَ الدار بالنُّباح .

القَناة وما أدراكما ما القناة ، حظّ البلاد الأغبر من التِقاءِ الابيض والاحمر ، بَيْدَ أنها أحلام الأوَل ، وأماني الممالك والدّوَل ، الفراعنة حاولوها ، والبَطالسة زاولوها [٣] ، والقياصرة تناولوها ، والعرب لأمر ما تجاهلوها [٤] ، إلى أن جرى القَدَر لغايته ، وأتى «إسماعيل» بآيته ، فانفتح البرزخ بعنايته ، والتقى البحران تحت رايته في جمع من التّيجان لم يشهده إكليله [٥] ، قد كان يُتَوّج فيه لو شهدته جيوشه وأساطيله ، وما إسماعيل إلا قيْصرٌ لو أنه وفق ، والإسكندر لو لم يُخفق . ترك لكم عزّ الغد و كنز الابد ، والمنجم الاحد ، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد .

ماذا على الرّمال ، من لمحات جلال وجمال؟ ارجعا القهقَرى بالخيال إلى العَصْر الخال واعرضا في حداثتها الأجيال ، تريا على هذا المكان وُجوهاً تتمثل وركاباً تتنقل ، وتريا النُّبُوّة تتهلل ، والآيات تتنزل ، وتريا الملك يترَجّل ، حتى كأنكما بالزمان الاول . فها هنا وضعَ للنبوّة المهد ، وابتدأ بها العهد ، فأقبل صاحب المقام ، ومحطم الاصنام ، وبناء البيت الحرام ، خليل ذي الجلال والإكرام [٦] .

هاجر إلى مصر أكرم من هاجر ، ثم انقلب منها بأم العرب هاجر [٧] ، ومن هذه الثنيّات طلع يوسف في القيد ، وهو للسياره صيد ، يسير من كَبَدٍ إلى كَبَدٍ ، قلبٌ جرحته الإخوة ، وجنبٌ قرّحته النسوة ، فيالك «يوسف» من

(١) البعران جمع بعير كأبعر (٢) الازواد جمع زاد وهو الطعام (٣) زاول الشيء : حاوله . (٤) يروى أن هارون الرشيد فكر في أن يصل البحرين بقناة وانه استشار يحيى بن خالد البرمكي في ذلك فقال له : يا امير المؤمنين «إن خرق السويس خرق في الإسلام » فعدل عن رأيه . (٥) الإكليل : التاج (٦) هو خليل الله إبراهيم . (٧) هي جارية مصرية اهداها فرعون إلى السيدة زوج سيدنا إبراهيم فوهبتها له فاستولدها إسماعيل جد العرب المستعربة .

أُسوة [١] ، عِزٌّ بعد هَون ، وذلة بعد المنزِلِ الدّون ، وشئون أقدار وشجُون ، وسُهول حياة وحزُون ، وسجوفُ القُصور بعد السجون إلى سجود الشمس لك والقمر والكواكب الاُخر

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَويلهُ [٢] ، وطلبه قتيله ، وزيّن له الفرار خليله [٣] ، فحوته هذه الرّمال ، فإذا الامن سبيله ، واليُمْن دليله ، والسلامة زاملته [٤] والسّلم زميله ، ولو أطلعه الله على غيبه ، لمَسّ النبوّة بين يديه وَجيبه إلى أن رُفع له المنار ، واكتحل بالنور واقتبس من النار ، وقيل له : كُنْ من الاحرار الاحبار ، وارجع فسلّط الحقّ على فرعون الجبار ، فكان عليه السلام أوّل من اقتحم على الفرد جبروته وهتك على المستبد طاغوتــه [٥] ، وخطم [٦] المتأله [٧] وحطم عظمُوته ، ماءُ الحق على لطفه ، ظفِر بنار الباطل على عُنفه ، ظهر العدل على الحيف وكسرت العَصا السيف .

وعلى هذه الارض مَشت السماء [٨] الطاهرة ، والنيّرة الزّاهرة ، والآية المتظاهرة أم الكلمة [٩] وطريدة الظلمة ، سرحوا في عِرضها فأخرجوها من ارضها فضربت في طول الارض وعرضها ، يوسف حاديها ، وجبريل هاديها ، والقدس ناديها ، والطهارة أرجاء واديها ، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وجناح الرحمة والإصباح من الظلمة ، حتى هبطت به اكرم الاديم [١٠] فنشأ بين الحكيم والعليم وترعرع حيث ترعرع بالامس الكليم

(١) الاسوة : القدوة ، وما يتأسى به الحزين اي يتعزى . (٢) زال زويله : فزع وحذر . (٣) يشير إلى ما كان من أمر موسى حين وجد قبطياً وإسرائيلياً يقتتلان فاستنصره الإسرائيلي على القبطي فوكزه وكرة كانت القاضية فلما اصبح وجد الإسرائيلي نفسه قاتل قبطياً آخر فاستغاثه فقال موسى إنك لغوي مبين. ثم هم بنصرته على القبطي فظن أنه يريده بالأذى فصاح الإسرائيلي يا موسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالامس فذاع امره ولم يلبث ان جاءه رجل وقال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها إلى بلاد مدين . (٤) الزاملة : ما يحمل عليه من الإبل وغيرها . (٥) الطاغوت : الشيطان وكل رأس ضلال . (٦) خطمه : قهره او ضرب انفه . (٧) اراد بالمتأله المتكبر غير ان معناها اللغوي المتنسك المتعبد . (٨) يريد السيدة مريم . (٩) الكلمة سيدنا عيسى . (٢٠) الاديم : وجه الارض .

فيالك من دار لعبتْ على عرَصاتها الاقـدار ، ناوَيت [١] موسى القريب ، وآويت عيسى الغريب ، نَبوت [٢] بالنبي ، وحَبَوْت الامنَ عيسى وهو صبي ، عُذرك لا تنضى [٣] إليه المطي ، فإنما اغضبت القبطي لابنك القبطي .

ثم انظرا تريا إبلا صِعاباً ، وخيلاً عراباً [٤] ، وتريا الرُّعاة [٥] انقضوا على الوادي ذئاباً ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبدوا بالملك فيها آونة .

وتريا الوحوش الضارية والجوارح الكاسرة ، يقودهـا شرّ الاكاسرة [٦] ، مَلأت هذه الفجاج [٧] ، وكأنها حرجات [٨] السّاج ، او حركات الامواج ، ثم تدفقت تكتسح الدّيار ، باغية السّيف طاغيةَ النار ، تدك الهياكل والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل .

وتريا الإسكندر الكريم ، قد لَمع كالصارم من هذا الضريم [٩] ، يحمل الحملات النّجائب ، ويفتح بالكتب والكتائب .

وتريا ابن العاص والصّحابة ، مرّوا من هذه الارجاء مرّ السحابة ، يفتحون للحقّ ويفتكون بالرّق ، حتى أخلوا القُصور من القياصرة ، واراحوا مصر الصابرة من صلف الجبابرة .

وتريا صلاح الدين يَخفى كالبدر ويبدو ، ويروح كالغيث ويَغدو ، بعوثٌ بلا عدد ، ومددٌ إثر مدد ، وذخائر وعدد ، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قد ركب طيشه ، واركب الغرر جيشه . وتريا إبراهيم بن عليّ مشهور الجراز ، موفور الجهاز ، ملك سورية وضبط الحجاز . وتريا إسماعيل بعث

(١) ناوأه ونواه : عاداه . (٢) نبا به المكان : لم يوافقه . (٣) أنضى المطية : هزلها . (٤) العراب من الخيل والإبل العربية . (٥) هم العمالقة الذين ملكوا مصر مدة من الدهر (٦) قمبيز . (٧) الفجاج : الطرق الواسعة . (٨) الحرجة : الشجرة الملتفة والساج شجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً له ورق عريض جداً . (٩) الضريم : الرمل .

الحشرين ، وحشد الحافرين ، وقرّب المسافة للمسافرين ، غيّر وجه السفر ، فقيل : بلغ غاية الظفر ، وقيل وقع الحافِرُ فيما حفر .

ثمّ انظر اليوم تريا القناة في يد القوم إن أمنوا ركزوها، وإن خافوا هزوها.

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً :

هو حسَنُ القميص ، جيّد الفُصوص، وثيق القصب ، نقيُّ العصب ، يُبصر بأذُنيه ، ويتبوّع بيديه ، ويُداخل برجليه ، كأنه موج في لُجّة ، أو سيل في حدُور يناهب المشي قبل أن يبعث ، ويلحق الأرانب في الصّعوداء ، ويجاوز جواري الظّباء في الاستواء ، ويسبق في الحدور جري الماء ، إن عُطِفَ جار ، وإن أرسِلَ طار ، وإن كُلّفَ السير أمعنَ وسار ، وإن حبس صَفَنَ ، وإن استوقف قطن ، وإن رعى أنن ، فهو كما قال تأبّط شرّاً :

ويسبق وفدَ الريح من حيث تنتحي بمنخرَق من شدّة المتدارك

وصف العصا

لقي الحجّاج أعرابياً فقال . من أين قبلت؟ قال من البادية. قال: ما بيدك؟ قال عصاً أركزها لصلاتي ، وأُعدُّها لعُداتي ، وأسوق بها دابّتي وأقوى بها على سفري ، وأعتمد عليها في مشيي ، ليتّسع بها خطوي، وأعبر بها النهر فتؤمنني وألقي عليها كساء فيسترني من الحرّ ، ويقيني من القرّ ، وتدني ما بعد مني، وهي محمل سُفرتي وعلاقة إداوتي (١) ومِشجَب ثيابي ، أعتمد بها عند الضراب وأقرع بها الأبواب ، وأتقي بها عقور الكلاب ، تنوب عن الرُّمح في الطعان ، وعن الحربة عند مُنازلة الأقران ورثتها عن أبي ، وأُورثها بعدي ابني ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أُخرى ، كثيرة لا تحصى

(١) إداوة : وعاء ماء يتطهر به .

وصف كرة القدم لمؤلف الكتاب

قاتل الله الكرة : ما أعجب أمرها ، وما أدقّ سرّها ، قد جمعت الأضداد واسترقّت النجباء و لأوغاد ، فهي كبيرة الحجم ، مُفوّفة الجسم ،لكنها خفيفة الوزن، سريعة الوثْب، وهي ناعمة اللّمْس، مليحة الرقص، لكنهاتأبى الوخْز ولا تطيق اللكز ، وهي تفِرُّ من المداعة والملاعبة ، ولكنها لا تملّ من ضرب ولا تكل من دحرجة ، وهي محبوبة مألوفة ، تنقل على الأيدي والأحضان ، لكنها تطرد بالأرجل والعصيّ ، فهي عزيزة ذليلة، حقيرة جليلة ، تُشبه القنابل في صورها ، والدُّفوف في أصواتها ، والطير في امتطاء الهواء،واختراق الفضاء .

وصف جيوش لابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ ه

وصار فلان في جيوش،عليهم أردية السيوف و قمصة الحديد،وكأن رماحهم قرون الوعول [١] ، وكأنّ أدراعهم زبد السيول على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد بالنقع سُرادِقها،قد نُشرت فيوجوهها غرر [٢] كأنها صحائف الرق [٣] وأمسكها تحجيل [٤] كأنها أسورة اللجيْن وقرطت عذراً [٥] كأنها الشنوف تتلقّف الأعداء أوائلها،ولم تنهض أواخرها،قد صب عليهم وقار الصبر وهبّت معهم ريح النصر .

وصف الحسد للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ه

الحسد — أبقاك الله — داء ينْهك الجسد،علاجه عسيرٌ وصاحبه ضَجر،وهو باب غامض [٦] وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء،ولذلك قال النبي ﷺ « دَبّ [٧] إليكم دَاءُ الأمم من قبلكم : الحسد والبَغْضاءُ » .

الحسد عقيد [٨] الكفر ، وحليف الباطل [٩] وضدّ الحق ، منه تتولد العداوةُ،

---

(١) جمع وعل وهو تيس الجبل . (تيس الشاة الجبلية) وقرونه طويلة .
(٢) جمع غرة وهي بياض في جبهةالفرس. (٣)الرق جلد رقيق أبيض يكتب فيه
(٤)التحجيل بياض قوائم الفرس (٥)اي ألبست عذراً وهو ما على خد الفرس من اللجام . (٦) اي مسلك خفي يعسر الخروج منه . (٧ سرى فيكم .
(٨) أي معاهده ومحالفه . (٩) ملازمه .

وهو سبب كلّ قطيعة[١] ومُفرق كلّ جماعة ، وقاطع كل رحم مِنَ الأقرباء[٢] ، ومُحدثٌ للتفرق بين القُرناء[٣] ، ومُلقّح الشّرّ بين الحلفاء[٤]

ووصف أيضاً افضل الكلام – وقال :

أفضل الكلام ما كان قليله يُغني عن كثيره ، ومعناهُ ظاهراً في لفظه ، وكأن الله قد ألبَسَه من ثياب الجلالة ، وغشّاه[٥] من نور الحكمة ، على حسب نيّة صاحبه وتقوى قائله ـ فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه[٦] مُنزّهاً عن الاختلال ، مَصوناً عن الكلف صنع في القلوب صنيع الغَيث[٧] في التربة الكريمة ، ومتى فُصّلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، ومنحَها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عُقول الجهلة .

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُريد ، سألت أبا حاتم عن « أبي نواس » فقال : إن جدّ أحسن وإن هزل ظرف ، وإن وصف بالغ ، يُلقي الكلام على عواهنه لا يُبالي مِنْ أينَ أخَذَه ؛ قلت : « فبَشار بن بُرْد » ؟ قال : نظار عوّاص مطيلٌ مجيد يصفُ ما لم يره كأنّه رآه على أن في شعره خلَلا كثيراً ؛ قلت : « فمروانُ بن أبي حفْصة » ؟ قال : شاعر راضٍ عن نفسه يستحسن كلّ ما جاء منه معجبٌ به ، لا يرى أنّ من سبقه يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة .

قلت : « فمسلم بن الوليد » ؟ قال : خليج صافٍ يَنزع من بحر كدر ، كالزند يوري تارةً ويصلدِ أخرى ؛ قلت : « فأبو العتاهية » ؟ قال : غثاء جَمٌّ ، واقتدار سهلٌ وشعرٌ كخرز الزّجاج ، وربما أشبه الياقوت والزّبرجد ؛ قلت :

---

(١) انفصال . (٢) كل قرابة واتصال . (٣) المناظر . (٤) مولد الشر بين المتحالفين . (٥) كساه . (٦) أي من إجبار الفكر . (٧) المطر .

«فعباس بن الأحنف» قال : يُلقي دلوهُ في الدلاء فيغترفُ الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه ، قلت : «فسلم الخاسر» قال : مُقِـلٌ مداح ، شعره ديباج وعهن ، يُمَوِّه الرديء حتى يشبه الجيد ، قلت «فأبو الشيص» قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نَسَفصت ففيها المستعذب والمستبشع قلت « فعلي بن جبَلة » قال : بحّاث عن الكلام الفَخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينالُ مرتبة القُدماء ، ويجل عن منزلة النظراء قلت « فأبو تمام » قال : سيل كثير الغثاء ، غزير الغثار ، جم النط ف ، فإذا صفا فهو السّلاف بالماء الزلال ، قلت : « فعبد الصمد بن المعذل » ؟ قال : خرّاج ولاّج ، يعتسف تارة ويهتدي أخرى ، قلت « فعلي بن الجهْم » قال كلام رصين ومسلكٌ وعر ، عقله أغلبُ على شعره من طبعه ، قلت « فبكر بن النطاح » قال : تشبّه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط بين القريتين

وصف ابن الأثير المتوفى سنة ٧٥٩ هـ أبا تمام والبُحتري والمتنبي

قال : لقد وقفت من الشعر في كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقفُ على ساحله ، وكيف يُحصى قول لم تُحص أسماء قائليه ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممّن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتّباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداعُ المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل اللطيف فمتى وجدتُ ذلك فكل مكان خيّمتْ فهو بابل ، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمام ، والبحتري والمتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعُزّاهُ ومَناتُه) الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومُستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماء أما أبو تمام : فإنه ربُّ معانٍ وصيقل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مُبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مُدافع عن مقام الإغراب ، الذي برز فيه على الأضراب

ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقير ، فمن حفظ شعر الرَّجل وكشف عن غامضه ، وراض فكرَه برائضه أطاعته أعِنّة الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت «حَذامِ»؛ فخذ مني في ذلك قولَ حكيم وتعلَّم (ففوقَ كلَّ ذي عِلم عَليم) .

وأمّا البُحتريّ : فإنه أحسنَ في سبك اللفظ على المعنى ، ولقد حاز طرفي الرّقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون في شظَف نجدٍ ، إذ يتشبّث بريف العِراق ، وسُئِل المُتنبي عنه وعن أبي تمّام وعن نفسه فقـال : أنا وأبو تمّام حكيمان ، والشاعر البُحتري ، ولعمري إنه أنصفَ في حكمه ، وأعرب بقولهَ هذا عن متانة علمه ، فإن البُحتُري أتى في شعرِه بالمعنى المقدود من الصَّخرة الصَّماء ، في اللفظ المصُوغ من سُلافة الماء ، فأدرك بذلك بُعْدَ المرام ، مع قُربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا انه أتى في معانيه بالنوادر الغالية ، ورقي في ديباجة لفظه إلى الدَّرجة العالية . وأما المتنبّي فإنه أراد أن يسلك مسلك ابي تمّام ، فقصُرَت عنه خطاه ، ولم يعطه الشّعر من قياده ما أعطاهُ ولكنّه حُظِيَ في شعره بالحكم والأمثال . واختص بالإبداع في وصف مواقفِ القِتال. وأنا أقول قولاً لستُ فيه مُتأثماً، ولا منه مُتَلَثِّماً ، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نِصالها ، وأشجعَ من أبطالها. وقامت أقواله للسّامع مقام أفعالها، حتى يظنّ أن الفريقين قد تقابلا، والسِّلاحين قد تواصلا، فطريقه في ذلك تَضِلّ بسالِكه ، وتقوم بعذر تاركه ،ولا شكّ أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصفُ لسانه ، ما أدّاه إليه عِيانه ، ومع هذا فإني رأيت النّاس عادلين عن سُنن التوسُّط فإمّا مفرّط في وصفهِ وإمّا مُفْرِط . على أنه إذا كان انفرد بطريق صار أبا عذره ، ولقد صدق في قوله من ابيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رُؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتِموا
ولا تبالِ بشعر بعـد شاعِره قد أفسِدَ القول حتى أُحمِدَ الصَّمم

وصف المفضّل الضبي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مروره ببعض أحياء العرب

رَوَى المفضل الضبي قال : نزل علينا بنو ثعلبة في بعض السنين وكنتُ مشغوفاً بسماع أخبار العرَب وجمعها ؛ فأخذت أجولُ بين خيامهم ، وأتحسس من أحوالهم وإذا أنا بامرأة واقفة في فِناء خبائها آخِذة بيد غلام قلما رأيتُ مثله في حسنه وجماله وهي تعاتبهُ بلسان رطب ، وكلام عَذْب ، يَسترقهُ السمع ويترشفهُ القلب ؛ فكان أكثر ما أسمعهُ منها بني – وأي بني ، وهو يَتبسم في وجهها وقد غلب عليه الحياء والخجل كأنه من ربات الحِجال فلا يَحيرُ جواباً ؛ ولا يبدي خطاباً ؛ فاستحسنتُ ما رأيتُ ، واستحليت ما سمعتُ ، فدنوتُ فسلمت فرد عَليّ السلام ،ووقفتُ أنظر إلى المرأة والغلام ، فقالت لي : يا حضري ،ماحاجتك ؟ قلت : الاستكثارُ مما أسمعُ ، والاستمتاع بما أرى ، فابتسمت وقالت يا هذا إن شئت سُقْتُ إليك ما هو أحسنُ مما رأيتَ ،فقلت هات حفظك الله ، قالت ولد هذا الغلام فكان ثالث أبويه فرُبّيَ بيننا كأنه شبلٌ ، وكنتُ أقيه بَرد الشتاء وحر الهجير ، حتى إذا ما تمت لهُ خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فرَواه ، ورغب في مُفاخرة قومه ، وطلب مآثر آبائه وأجداده فلما اشتد عظمه وكمُل خلقه ، حملتهُ على عِتاقِ الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومَشى الخيلاء بين بيوتات الحي ، وأصغى إلى اصوات ذَوي الحاجات ، فأخذ في قِرى الضيف وإطعام الطعام ، وأنا عليه وجلة أحرسه من العيون ان تصيبه ، ومن الألسن ان تعيبه ، إلى أن نزلنا في بعض الأيام منهلاً من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم وشاء الله تعالى ان أصابت الغلام وعكة شغلتهُ عن الخروج ، حتى إذا امعن القوم ولم يبق في الحي غيره ، ونحن آمنون وادعون ، فوربك ما هو إلا أن أدبرَ الليل وأقبل الصبح حتى طلعت علينا طلائع العدو وغرر الجياد ثوّاراً لا زواراً ، فما كان إلا هنيهة حتى أحرزوا

الأموال ، وهو يسألني ما الخبر ؟ وأنا أستره عنه إشفاقاً عليه وضناً به ، حتى إذا علت الأصوات وبُرّزت المخدرات ، رمى دِثاره وثار كما يثور الضرغام إذا أُغضِبَ ، فأمر بإسراج فرسه ، ولبس دِرعَ حربه ، وأخذ رمحه بيده ، وركب حتى لحق حُماة القوم وأنا انظر إليه فطعن أدناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدَهم فقتله ، فانصرفت إليه وُجوه الفرسان ، فرأوا غلاماً صغيراً ، لا مدَد وراءه ، فحملوا عليه ، فأسرع يَؤُمُّ البيوت ، حتى إذا خلفهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزّق ومرق كما يمرق السهم من الرمية ، وناداهم خَلّوا عن المال فوالله لا رَجعتُ إلا بــه ، أو لأهلكن دونه ، فتداعت إليه الأقران ، وتمايلت نحوهُ الفرسان ، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة ، ومالوا عليه بالأعنة ، فوثب عليهم وهو يزأرُ كالأسد ، وجعل لا يحملُ على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا هزمها ، حتى لم يبقَ من القوم إلا مَن نجا به فرسه ، ففاز بالأموال وأقبلَ بها ، فكبر القومُ عند رؤيته ، وفرحوا فرحاً عظيماً بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أصبح صباحاً وأحسنَ رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته ينشد في وُجوه فتيات الحي هذه الأبيات :

تأملنَ فعلي هـل رأيتن مثله ... إذا حشرجَت نفس الكميّ عن الكربِ
وضاقت عليه الأرضُ حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمةِ والقلبِ
ألم أعطِ كلا حقه ونصيبته ... من السمهري اللدنِ والصارم العضْبِ
أنا ابن أبي هند بن قيس بن خالد ... سليل المعالي والمكارم والسيْبِ
أبى لي أن أعطي الظلامة مُرْهفٌ ... وطرفٌ قويّ الظهر والجوف والجنْبِ
وعزم صحيحٌ لو ضربت بحده ... شماريخَ رضوى لانحططن إلى التربِ
وعرْضٌ نقيٌ أتقي أن أعيبه ... وبيت شريف في ذُرا ثعلب الغلبِ
فإن لم أُقاتل دونكن وأحتمي ... لكن وأحميكن بالطعن والضرب

وأبذل نفساً دونكنّ عزيزة علىّ لأطراف القناء وظُبى القضبِ
فلم تصدق اللاتي مَشين إلى أبي يهنئنــه بالفارس البَطل النّدبِ

وصف نهج البلاغة للامام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ ﻫ

أوفى لي حكم القدَر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة) صدفةً بلا تعمد، أصبته على تغير حال، وتبلبل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلةً، فتصفحتُ بعضَ صفحاته، وتأملت جملًا من عباراته من مواضعَ مختلفات، ومواضيع متفرقات، وكان يخيل لي في كل مقام أن حروباً شبّت، وغارات شنت، وأن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة [١]، وللريب دعارة [٢]، وأن جحافلَ الخطابة، وكتائب الذرابة، في عقودِ النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج [٣] والقويم الأملج [٤]، وتمتلج [٥] المهج بروائع الحجج، وتفل دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس [٦]، فما أنا إلا والحق منتصر، والباطل منكسر، ومَرْجُ الشك في خمود، وهرْجُ الريب في ركود، وأن مدبر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب؛ بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغيُّر المشاهد، وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواح عالية، في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية تُوحي إليها رشادها، وتقوم منها منآدها، وتنفر بها عن مداحض المزالّ إلى جواد الفضل والكمال، وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة، وأرواح في أشباح النمور، ومخالب النسور، وقد تحفزت للوثاب، ثم انقضّتْ للاختلاب فخلبتْ القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرْماها،

(١) العرامة: الشراسة. (٢) الدعارة: سوء الخلق. (٣) الصفيح: السيف، والأبلج: اللامع البياض. (٤) الرمل الأملج: الأسمر (٥) تمتلج: تمتص. (٦) الخوانس: خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء.

واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحياناً كنت أشهد ان عقلاً نورانياً لا يشبه حَلقاً جسدانياً فُصِل عن الموكب الإلهيّ ، واتصل بالرُّوح الإنسانيّ ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الاجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأني أسمع خطيبَ الحكمة ، يُنادي بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الامة ، يُعَرِّفهم مواقعَ الصواب ، ويُبصّرهم بمواضع الارتياب ، ويُحذّرهم مَزالق الاضطراب ، ويُرشدُهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويُشرف بهم على حسن المصير .

وصف حفلة للمرحوم المُويلحي المتوفى سنة ١٩٣٠ م

لو كان لليالي لسانٌ يَنطق بالفَخار ، وجنانٌ يجري بنظم الأشعار ، لأنشدت ليلةُ الحفلة (الخديوية) قصيدةً تسجل لها في ديوان العصور والدهور ، ما لم تَبلغْه ليلة قبلها في تكامل الفرح والسرور ، ولو كان الدهر يُفْصِحُ لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه ، لانبأنا بأنه ادّخرَها غُرّة لجبينه ، ودُرّة لتاجه .

لا زالت أيام الجناب العالى ولياليه مُشرقةً بالسعد والهناء ، مُتألقة تألق البُدور في أُفق السماء .

ووصف أيضاً متحفاً من مقامة له

قال عيسى بن هشام : زَايَلنا الاهرام وخلّيناها ، تندُبُ من شادَها وتَنعي مَنْ بناها ، وملنا إلى دار التُّحَف ومستودع الآثار ، لمشاهدة ما حفِظته لنا من صُنوف الطرَف وعيون الاخبار ، وما أخرَجته الايام من عالمَ الخفاء إلى عالم الظهور ، بعد أن كان سِرّاً مكتوماً في خواطر العصور والدهور ، وما صانته بطون القُبور من الفناء والدثور ، وحَمته احشاء الرُّموس من العفاء والدّروس ، وما أخبَته

أرحام المعابد والهياكل من بقايا الماضين وخبايا الاوائل ، وما انكشفتْ عنه سُجوفُ الاحقاب وديعةَ الاسلاف للأعقاب ، من مكنون الدفائن ومكنوز الخزائن ، وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع البدْع الانيق ، وغرائب الصنع العَتيق ، بَليَتْ في اصطحابها بطونُ الايام والليالي ، وانحنَت في احتضانها ظهورُ العُصور الخوالي ، وانقلبت البحار وهاداً ، واصْبَحَت الوِهاد اطواداً ، وغدَتِ الأغوارُ أنجاداً ، وأضحى العمارُ خراباً والخرابُ عماراً ، والغِمارُ سراباً ، والسَّراب غماراً ، وتمدْيَنَتْ بَواد ، وتَبَدَّتْ مدائن [1] ، وبادتْ مواطن وقامت مَواطن [2] ، ومضت دوَل ، وذهبت أُوَلٌ إثْرَ أُوَل ، وبدَت أحوالٌ وحالت ، وظهرت أعمالٌ وزالت ، وهي كما ترَكها أهلُها ، مَصونٌ وضْعُها ، محفوظٌ شكلها ، خبَرٌ صادق ، ولسانٌ ناطق تُخبر بالعِبَر ، وتحدّث عمّنْ غَبَر :

مضتْ غبراتُ العيشِ وهي غَوابر على الدهر مكتوبٌ عليها حبائسُ

وصف الفونغراف «الحاكي» للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ

مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقْتَطِف الألفاظ اقتطافاً ، ويختطِف الصوت اختطافاً ، مطبَعة الأصوات ، ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية ، نَقْلَ كلام عمر رضي الله عنه إلى سارية [3] أشدُّ من الصّدى في إعادة الصوت على أصلِه ، كأنه الحروف على يد الطّابع ، والوتَر عن يد الضارب ، والقصبُ على فم القاصِب ، يحفظ الكلام ولا يُبيدُه ، ومتى استَعدته منه يُعيده ، من غير أن يُبقي لفظاً في صدره ، أو يكتُم شيئاً من أمره ، كأنما حِفْظ الوَديعة في نفسه طبيعة ، فلو تقدّم له الوجودُ في مرتبة الزمن لما احتجنا في الأخبار إلى عَنْعنة [4] ، ولا في الدعاوي إلى بَيِّنَة ، بل كان يُسْمِعنا كلام السيد

---

(١) البادية : الصحراء . (٢) مواطن الأولى - جمع موطن - أي مكان الإنسان ومقره ؛ ومواطن الثانية : مشاهد الحرب . (٣) ابن زنيم الذي ناداه عمر رضي الله عنه على المنبر . (٤) مراده الأخبار عن النبي ﷺ التي تروى عن فلان عن فلان .

المسيح في المهد، وصوت عاذر(١) من اللحد، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم، وأنشدوه كلمتهم، فرأينا غرائب اليونان وبدائع الرومان؛ وربما سمعنا خطب سحبان، وشعر سيدنا حسان بذلك اللسان، وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من الزمان. لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم، ويستخلصه في لحظة معيداً لقوله، ناقلاً لصوته ولفظه :

لقد وجدتُ مكانَ القول ذا سَعَةٍ　　فإن وجدتَ لساناً قائلاً فَقُلِ

نديم ليس فيه هفوة النديم، وسمير لا ينسب إليك تقصير، تسكته وتستعيده تذمه وتستجيده وتنقصه وتستزيده، وهو في كل هذه الأحوال راض بما يقال، لا يكل من تحديث، ولا يمل من حديث، نمام ينم لك كما ينم عليك، وينقل لغيرك كما ينقل إليك، فهو المصور لكل فن، المتكلم بكل لغة، المتحدث عن كل إنسان، المؤرخ لكل زمان، الشاعر الناثر، المغني العازف لا تعجزه العبارة، ولا يجهده الأداء، ولا يضره اختلاف شكل، ولا تباين أصل، بل تعهدت شدة حفظه للبشرية من اللغات، إلى حفظ أصوات العجماوات إلى اصطكاك الجمادات.

ووصف أيضاً نظارة ويشكر من أهداها

وردَ الكتابُ المطرزُ بحلى الكرم، المحلى بجميل النعم، واستلمتُ الهدية فسلمتْ يدٌ أهدتها، وحفظتْ السجايا التي محاسن الأعمال هدتها، ودامت رحابٌ لمثل هذه الحسنات فيها مجال، وللمحسنات بهاء وجمال، وللآمال محطّ رحال، وللمقاصد كعبة إقبال، وطابت نفس تعالى الله أن تماثلها نفسٌ عصام فإنها نسخت آية الكَرّ والإقدام، بآية الجود والإكرام، وفعلت في القلوب بالعطاء والنوال، ما قصرت عنه الرماح الطوال؛ وتأملتها فأرتني ما لا

(١) هو الذي أحياه عيسى عليه السلام.

عينٌ رأتْ ، وأظهرتْ من محاسن المناظر ما أعمرت وقرّبت كلَّ منظور بعيد، وتلت « فكشفنا عنك غِطاءَك فبصرُك اليوم حديد»،وَصفا وقتي بصفائها ، فلم أشْتَه شيئاً إلا جمعتْ بينه وبيني ، وصحّ علينا قولُ القائل : « رأيت بعينها ورأت بعيني » ثم سَرّحت نظري في الأطلال والرُّسوم ، حتى نظرتُ نظرة في النجوم فلم تخف عني شجراً ولا مدراً ، ولا نجماً ولا قمراً :

يَزيد وجهُها حُسْناً إذا ما زِدْتَه نظرا

ببهاء يخيَّل لي أنها صيغَتْ من ضياء ، فلا عَيْب فيها غير أني نظرتُ بها في سماء فضلك الباهر ، وأُفق شَرَفك الظاهر ، فلم ينْكَشف لي بها لجُودك آخر ، لا زال كَرَمُك بعيداً حدُّه على كلّ ناظر وباصر ، وفضلُ مناهلك غاية تقْصدها الأوائل والأواخر .

وصف سان استفانو بالأسكندرية المؤلف الكتاب

كتابي والقلمُ في البنان ، يُسَطِّرُ ما يمليه الجنان ، على محاسن ذلك المكان المشهور بـ سان استفانو . هناك ترى البحر كالمرآة تمثلتْ فيها السماء ، فكأنما الماءُ سماء ، والسماء ماء ، وتخال الشاطىء مَرْتعاً للظبيات الآنِسات ، أو سوق جمال تُباع فيه القلوبُ على الغانيات .

هُناك الشبيبة واللعِب ، والزَّهْوُ والطرَب ،وقد اعتلّ الصَّبا ،وصحَّ الصِّبا ، حُورٌ وولِدان يمرحون بنشاط الشباب ، ويتهادَون بنشوَة الدَّلال والإعجاب ، فمن « غادات » روائح وعاديات ، قُدودُهُن الرِّماح الطاعنات ، ولحاظهنّ القاتلات المُخْتبيات .

ومن « وِلدان » يلعبون بالكرة والصَّوْلجان ، فالكرة قلبُ الحبيب المتيّم ، والصَّوْلجان الذي يدفعُها شوق العاشق المغرم ، هُناك نغَمات الأوتار تدعو إلى اغْتِنام الأوطار ، تهدي الارتياح إلى الأرواح ، وتبْدِل الأفراح من الأتراح

هُناك الكؤوسُ على قُطْب الخلاعة تدُور ، فهي برشفاتها الثغور ، وبنورها البدُور تَشرُق من الجنان وتَغرُبُ في أفواه الندمان ، فيعلو الوجوه الشَّفق ، فتبارك المبدعُ فيما خلق .

هناك فريقٌ من أهل الهوى ، حُلفاء الأسى والجوى ، يَختلسون النَّظرات وتحتها سهام صائبات ، تقصدُ قلوبهم ولا راحمَ لهم ، ينادون مَن يُحبون فلا يُجابون ، ويتذللون لعزّ الجمال على أنهم لا يُحابون ، يتمنّون الرّضا بعد الهجْر ، وحلوَ اللقاء بعد الصبر ، وفريقٌ آخر قد وافاهم السعد فنالوا الأماني ، تعلوَ وُجوههم نضرةُ النعيم بما نالوه من إشارة او تسليم ، يتبادلون التحيّات بالحواجب ، ويُشدّقون على القلوب ، يضعون الأيدي فوق الترائب ، حتى إذا الليلُ سجا ، وسترَهم رداء من الدُّجى ، يَتلاقون إلى جانب اليمّ ، ويَتهامسون والفمُ قريب من الفم ، ترَاهم على الأرائكُ جَنباً بجنب ، وعُنقاً على كتف ، مبتعدين عن العيُون هنا وهنا ، وقد بلغوا الآرابَ والمُنى ، يَجْتَنون الثمرَ من السَّمر ، ويَلثمون الرّاحَ بالراح ، ولا يَزالون في مسرّة وهَناء وأنس وصفاء ، حتى يُنادي منا ي الموائد بحيّ على شهيّ الطعام ، وهلمُّوا إلى رائق المدام ، فيجلسون مثنى وثلاث ورُباع محفوفين بيانع الأزهار ، مستَضيئين بأزهى الأنوار ، والغلمان عن يَمينهم وشمالهم قائمون بحوائجهم ، وهم في لباسهم كأقمار ، وفي خِفّتهم كلمح الأبصار ، فيأكلونَ ويشربون ، ويضحكون ويَلعبون بين نغمة بالحديث الرّخيم ، ونشوة بالمدام القديم ، حتى إذا أخذَتْ كل حاسة حظّها ، وتلجلجتْ الألسنة فلا تَفهم لفظَها ، هنالك تراهم كسرْب الظباء رائح وغاد ، هذه مائلة وهذا مُتهادٍ ، إلى أن يتمشّى النوْم في الجفون ، فتذبل العيون فينصرفون إلى المنام ، ويحلمون بلذيذ الأحلام ، بعدَ أن يتعاهدوا على الأوبة ويحسنوا الختام بالتوبة .

وصف الشمس

الشمس كوكبٌ مضيء بذاته ، وهي اعظم الكواكب المرئية لنا مَنظراً ،

وأسطعُها ضَوءاً ، وأغزرها حرارةً ، وأجزلُها نفعاً للأرض التي نسكنها ، ولكثير من أخواتها ، سيارات الشمس وبناتها .

والشمس كرةٌ متأجّجةٌ ناراً ، حرارتها أشد من حرارة ايّ ساعورٍ [١] أرضيّ ويَبلغ ثقلها ثلثمائة وزنٍ من ثقلِ الأرض ، وهي أكبر منه جِرماً بلثمائة الف والف الف مرّةٍ .

وتَدور الشمس على محورِها من الغرب إلى الشرق مرةً واحدةً في نحو خمسة وعشرين يوماً. وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل وهي مع كلّ هذا العِظَم الهائل لا تعدّ في النجوم الكبرى ، بل إن أكثر ما نشاهد من النجوم الثابتة شموسٌ أكبر من الشمس بألوف الألوف ، والشمس بسياراتها تابعٌ من توابع أحَدها .

وسَطح الشمس مَهبّ عواصف وزوابعَ نيرانيةٍ شديدةٍ ، تثير في جَوّها أشوظة [٢] هائلةٌ تندلع [٣] ألسنتها المتأجّجة عن محيط كرتها أميالاً ، وقد وصف بعض العلماء لهباًارتفع من سطحهاالأوّل وَهلةً نحو اربعين الف ميل في الفَضاءِ ، ثم ازدادَ بريقاً [٤] ثم ارتفعَ بعدَ نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائة الف ميل ، ثم جعل يَضئُل ويضعف ، فلم تمض ساعتان حتى اضمحلّ اضمحلالاً ، غير أن ما وصَفَه هذا العالم ليس إلا من قبيل النّوادر ، ولكن ارتفاعَ اللهب نحو مائة الف ميل ليس بغير العادي وكثيراً ما تبلغ سرعة اللهب مائة ميل في الثانية ، وأكثر مادة الشمس من عنصر المُحْذي (الإيدروجين) المتقد .

وبرصد الشمس مراراً بالمرقب المغشى بالسواد شوهدَ في صفحة قرصها نكتٌ سودٌ ، وكلف يشوّه محياها ، كأنما هي كرةٌ سوداء الباطن غلفَت

---

(١) الساعور : النار نفسها او موقدها . (٢) الشواظ: اللهب.
(٣) اندلع اللسان خرج من الفم . (٤) تلألؤاً .

بسطح ساطع من الصعادات يتخلله نقبٌ يظهرُ تحتها السوادُ ، ولا تزال حقيقة هذه البقع موضوعَ البحث والتعليل عند الفلكيين ، ومن تنقل هذه النكت عرفت دورتها على محورها .

وللشمس سيارات أو أبناء انفصلت منها منذُ أزمانٍ سحيقة ، عُلمَ منها إلى الآن نحوُ ثمانية ، هي على ترتيب الأقرب منها فالأقرب ،عطارد ، فالزهرة ، فالارض ، فالمريخ ، فالمشتري ، فزُحل ، فأُرانوس ، فنبتُون ولم تعلم كل شؤون هذه السيارات حق العلم ، وإنما ألمّ العلماءُ بمعرفة موادها وكثافتها وأبعادها .

ولكن أمرَ الحياة فيها لم يزل مبهماً مستغلقاً – اللهمّ إلا في الارض وقمرها .

أما مقدارُ النعم التي سخّرها اللهُ لنا بوجود الشمس فمما لا يحصيه العد ، فهي مبعثُ حياتنا وحياة الحيوان الذي يعيشُ معنا ، ومصدرُ نورنا ونارنا وحرّنا وبردنا ، وهي التي تحيلُ مياه البحار بخاراً ، وتُقلها في الجو غيوماً ، وتنزلها على الارض أمطاراً ، حيثُ تجري جداولَ وأنهاراً ، فتروي زرعنا ، وتنمي غراسنا وتثيرَ الرياح ، وتطلعُ الانواء ، وتزجي[1] السفُنَ والبواخرَ في عباب الماء وتدفعُ القطرات الحديدية ، وتديرُ الآلات البخارية ، وتنيرُ المصابيحَ الدخانية والزيتية إذ ليس الفحمُ الحجري والزيت الارضي إلا حرارة نارها المدخرة منذُ قديم الدهور ، لينتفعَ بها أحياء هذه العصور ، وما النهار المبصرُ ، والليلُ المظلم إلا آيتان من آيات الله المسخرة لما بتسخير هذا المخلوق العجيب ، فمي النهار نسعى في مناكب الارض لابتغاء رزقنا ، وتدبير معاشنا ، وتنظيم شؤون حياتنا ونسبح بحمد ربنا ونعتبرُ بآثار من سبقنا ، وفي الليل نسكن لإراحة أبداننا ، واستجمام[2] قوانا ، واستيفاء حظنا من النوم الذي به نستديمُ صحتنا ، ونستعيضُ ما فقدناه بأعمالنا ، وننظر في ملكوت السموات وما خلقَ الله من شيء في حركات الكواكب وانتقالها ، وبديع صُورها وألوانها ،

(١) تسير . (٢) استجماع .

فتعنو وجوهنا ، ويتضاءل كبرياؤنا ، أمام قدرة خالقنا العظيم ، فسبحانه من إله حكيم .

وما الألوان التي نراها في نور الأزهار، وريش الاطيار،ونفائس المصنوعات إلا أثر وقوع أضوائها على هذه المرئيّات وانعكاسها [١] على أبصارنا ؛ فإنّ نور الشّمس الأبيض مؤلّف من سبعة ألوان أصلية [٢] تنشأ منها كلُّ الالوان الفرعية وهي : الاحمر ، والبُرتقاليّ ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضر ، والنّيلجيّ ، والبنفسجيّ . فمن الاجسام ما لا يمتص شيئاً من هذه الألوان ؛ بل يعكسها كلّها على العين ، فيبدو أبيض ناصعاً كزهرة الياسمين ، ومنها ما يمتصُّ بعضها ويعكس باقيها ، فيتلوّن بلوْن ما يعكس منها ، فإذا أبصرتَ ورقةَ الشجر خضراءَ عرفت أنها اختزنت من ضَوْء الشمس ستة ألوان ، وردت إلى عينيك سابعها وهو الأخضر لأن فيما ادخرَتْه نفعاً لها ، وليسَ بها إلى ما لفظته افتقار ،ومنها ما يرد لونين أو أكثر،فيبدو لونه مزيجاً بين هذه الالوان السبعة ، وهذهالالوانُ من عجائب صنع الله في الارض لتمييز بعضها من بعض، فقد يتماثلُ الشيئان شكلاً،وحجماً وصلابةً ، وليناً،وشماً،ثم لا يتباينان إلا من حيثُ اللونُ فيكون اللون آيةَ تباينهما ، وأكثر ما يكون ذلك في الازهار .

وتنوعُ الالون هو السّرُّ في جمال المرئيات من مشاهد الطبيعة وبدائع الصناعة وإن أعظم المصوّرينَ وأمهرَ النقاشين لم يبرزوا على غيرهم ، ويدلوا على ذكائهم ونبوغهم إلا ببراعتهم محاكاة ألوان الطبيعة المؤتلفة وأشكالها المتجانسة ، وإنما يتم لهم ذلك إذا عرَفوا كيف يمزجون من الأصباغ ما يستخدمون به ألوان النور خيرَ استخدام ، ويَنتفعونَ به أحسنَ انتفاع،وقد سخر علماءالطب تباينَ

(١) نعكس مضارع عكس كما في الاساس .

(٢) أمكن إرجاع هذه الالون في الصناعة إلى ثلاثة .

الألوان في كشف النقاب عن حقائق الجراثيم ، فإنّ منها ما لا يتّضح للعين في المجهر إلا إذا أُلقي عليه صبغٌ خاصٌ يؤثّرُ فيه فيُصبغُ به

ولأمواج الشمس الضوئيّة سرعةٌ معلومة تسيرُ بها ، فإذا انخفضت هذه السُرعة عما هي عليه لم تعد العينُ قادرة على رؤيتها ، لأنها تستحيل إلى مظهرٍ آخر غير مظهر الضوء والحرارة ، وليس يُنكَر ما للضوءِ والحرارة معاً من الأثرِ الحسن في تنقية المساكن مما يَقطُنها من الجراثيم القتّالة ، والعفن المضني ، ولذلك قيل إنّ الدّار التي تدخُلها أشعة الشمسِ لا يدخُلها الطبيبُ .

وصف القمر

القمرُ أجملُ الكواكب صورةً ، وأبينُها منظراً ، وأسهلها رصداً ، وأكبرُها في رأى العين بعد الشمس جرْماً ، وهو سيّارٌ كرويٌ أصغر من الأرض بنحو تسع وأربعين مرّة ، انفصل منها زَمَن التكوين وصار تابعاً لها ، طائفاً حولها ، مُستمدّاً نوره من الشمس مثلها دائراً حول الشمس معها ، غير أنّ طواف الأرض بقمرها حولها يتمّ في سنةٍ شمسيّةٍ ، وطواف القمر حول الأرض يتمّ في شهر قمريٍ : أي مُدّة تسع وعشرين يوماً ونصف يوم تقريباً ، ومع أنه خاضعٌ لنظام الأرض لا يقلّ بُعدُه عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتيْ ألف ميل .

والذي يسترعي أنظارنا كما استرعى أنظار مَنْ قبلنا اختلافُ أشكاله وتعدُّد مطالعه ، ممّا جعله مَبعث تخيُّل القُدَماء ، ومثار تفكر الحكماء ، ومَقصداً لعبادة الجُهلاءِ ، فتراه يلوحُ ليلة أوّل الشهر إثر غروب الشمس ضئيلاً مُقوّساً ، لا يلبثُ أن يغرُب ويغيب في شفَق الشمس ، ثم يَهِلّ في الليلة الثالثة أبيَنَ صُورة وأبقى زمناً لازدياد تأخّره في الغروب عن الشمس ، ولا يزال نورُه في تزايد ، ومَطالعُه في تقدُّم نحو المشرق حتى يطلع من المشرق في الليلة الرابعة عشرة عند غروب الشمس بدراً كاملاً ، بهيّ الطلعةِ باهرَ الأنوار ؛ فتبارك اللهُ أحسنُ

الخالقين .

ولكنّ الكمالَ لله وحدَهُ ، فإن مُنتهى الزّيادة مُبتدأ النقص ، ففي الليلة الخامسةَ عشرة يتأخر طلوعهُ من المشرق ، وينقُصُ من حافةِ نورِه التي كانت موضع هلاله الأول زيقٌ لا يُشْعرُ به إلا في الليالي التالية ، ولا تزال مطالعهُ في تقهقر ونوره في تناقُص حتى قرْبِ آخر الشهر فيشْرِق قبيلَ الفجر هلالاً ضئيلاً يكادُ يكونُ مقلوبَ الهلال الأول ، وفي الليلة الأخيرة يكونُ عند الصباحِ في الأفق الشرقيّ مُظلماً لا يُرى منه شيء ، وهو ليلة المحاقِ أو السّرار ويظل بَعضَ النهار كذلك ثم يتولدُ هلاله الجديد ، ولكنه لا يظهرُ إلا بعد أن يغيب قرْص الشمس فيلوح هلاله ، ثم يختفي كما قدمنا .

وعِلةُ ذلك : أن نورَ القمر كنور الأرض مُستفاد من الشمس ، وهو لا يُقابل الأرض إلا بوجهٍ واحد لا يَتغيَّر ، وهذا الوجه بالنسبة إلى حركتهِ مع الأرض حول الشمس لا يقابلُ الشمس مقابلةً تامةً إلا في وضع واحد ومرّة واحدة هي الليلة الرابعة عشرة ، فيغشاه نورها ، ويَصير بدراً ، أما بقية الليالي التي قبلها والتي بعدها فينحرفُ قليلاً او كثيراً عنها ، حتى يصير كله ظلاماً ليلةَ المحاق ، فيُطوى خَبَره ويكون الوجه الآخر الذي لا يرى لنا بدراً كاملاً ، ثم يتولدُ هلاله خَلقاً جديداً

وكذلك شأنُ الأرض في استمداد نورها أو ما نسَميه نوراً ، ولو كان في القمر سكان ، لكانت الكره الأرضية في رأي أعينهم أكبر كوكب في السماء ، ولشاهدوها أكبر من الجِرْمِ الذي نُشاهِد القمر عليه أضعافاً مضاعفة ولكانت عندهم أرْوَع جمالاً وأبدع من قمرهم في نظرنا تَشَكلاً ، فبدَورانها على نَفسها يرونها كلها جزءاً فجزءاً ، وتظهر قارّاتها ومحيطاتها واضحة عليها في وقت الصحو ، ومُظَللاً بعضها بالغمامِ في وقت الدّجْن ، وتبدو أهلّتها وبُدورها ضَخْمة باهرة ، ولكنْ لا يراها إلا سكان النّصْفِ المقابل لنا ، أو الذين يريدون التفرج برؤيتها من أهل النصف الثاني .

ولقُرب القمر مناوخلوّ جوّه من الهواء سهُل رصده علينا،فنرى في صفحته عند الشروق ليلة التمام كثيراً من المَحْو[1] يجعلُ صورتَه أشبه بوجهِ إنسان ذي أنف وفمٍ وحاجبين وعينين إحداهما مُغْمَضيَة ،ولا يزالُ كذلك حتى يتعدّى خطّ زوال مكان الناظر. فإذا مال إلى المغرب انحرفت هذه الصورة حتى يصير عاليها سافلها. وليس هذا المَحْو إلا ظلامَ بطون الأودية والسهول البعيدة الغَوْر وظلال الجبال والهضاب الشاهقة الطول شهوقاً يكاد يمنع استدارته ، أمّا قِمَمُ الجبال وسطوحُها المقابلة للشمس فتُرى لامعة ساطعة فتبين سلاسل الجبال طرائقَ مضيئة وقِمَمُها نقطاً لامعة وفوهات جبال ناره الشديدة السّعة، البعيدة الغَور التي تعَد بعشرات الألوف ، كأنها حلقاتٌ وسطها نقط سود .

وقد ظنّ القدماء في علّة المَحْو ظنوناً ، بعضها صادفَ الحقيقة ، وبعضها جانَبَها حتى ظهر غاليليو ، واخترع سنة ١٦٠٦ ، مَرْقَباً يُقرّب الأشباحَ ثلاثين مسافة فأثبت وجود الجبال والأودية فيه ، وزاد عليه غـــيره في تحسين المراقب المكبّرة حتى صبح القمر يُرَى كأنه على بُعد أربعينَ ميلاً منّا ، على أن هذا القرب لا يجعلنا نرى الأشباحَ الصغيرة التي من نوع الحيوان لنتحقق أن للقمر سكاناً كما للأرض أو لا ؛ ولكن قد أصبح من المرجّح إن لم يكن من المحقق أنه خالٍ منَ الماء ومن السحاب والضباب الناشئين منه ومن النبات ،إذ لو كان به شيءٌ منها لتغير شكله من حال إلى حال ، ويُشَكُّ أن له هواءً ،وإن كان له هواءٌ فلعله لا يزيد على قممَ جباله ولا شك أن الماء والهواء هما ينبوعا الحياة، وتجردُه منهما ، وخمود جبال ناره ، ويُبْس جرمه يجعل برده شديداً جـداً في الليل ، وحرّه عظيماً جداً في النهار على فَرْط طولهما البالـغ فيه خمسة عشر يوماً ، مما يجعل الحياة فيه متعسّرة بل مستحيلة ، اللهم إلا أن تكون حيـاة غير حياتنا .

---

(١) المحو : السواد في القمر

ويرجّحون أنّ القمرَ كان في أزمان سحيقةٍ على طبيعةٍ تقرُبُ من طبيعة أمّه الأرض ، فكان آهلاً بالحيوانِ والنباتِ ، إلا أن صِغَرَ جسمه جعله يسبق الأرض في اليُبْسِ والبرودة فتقبّض وبرَد وانتهت دُنياه ، وأصبح كإسفنجةٍ مُشعثة ذاتِ شعبٍ ونخاريب [1] تكوينُها مِنْ جِنسِ تكوين الأرض .

ولقد خلق الله القمر مُسخراً لأهل الأرض خاصة ، فهو بعكسِ نور الشمس عليهم هِداية لهم في ظلمات البرّ والبحر ، ولقد قضى الإنسان عُصوراً ودُهوراً وليس له مصباحٌ في جُنح الظلام غيرَه ، ولا يزالُ كذلك لأهل البَدْو وقبائلِ الهمج . وهو باختِلاف أشكاله تقويم فِطريٌّ لهم ، فبإهلاله يُعرَفُ أولُ الشهر وبالترْبيع الأول يعرفُ رُبعُهُ ، وببدْره [2] يعرفُ نِصفُه ، وبالتربيع الأخير يعرفُ ثلاثةُ أرباعه ، وبمحاقِه تعرفُ نهايتهِ .

وإذا مَرّن الإنسانُ على النظر في تقدير ضَوْئِهِ ، وأوقات مطالعه ، عرَفَ الشهر يوماً يوماً ، والليلَ ساعةً ساعةً ، قال تعالى : « يَسألونكَ عَنِ الأهلّة قُلْ هي مواقيت للناس والحجّ » .

وباتحاد جذبه مع جذْب الشمس للأرض ينشأ المدُّ والجزْرُ ، وفائدتهما في تسهيل الملاحةِ لا تنكر ، فكم موانيء ومرافيء لولاهما لَسُدّت برواسبِ الأنهار والسيول

ولِضوء القمر في إنضاج الثمار والبقول أثر أيما أثر حتى إن بعضها لا ينمو ويزهُو لونه إلا في لياليه البيض .

الفن الخامس في المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

---

(١) جمع : نخروب وهي الثقوب التي تكون في مثل بيوت الزنانير والنحل.

(٢) مصدر بدر البدر يبدر بدراً . وبالمصدر سمي هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق في ليلة التمام عند غروبها .

أدبيّة ومدارُها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرُّواة ، ووقائع شتى تُعْزى إلى أحد الأدباء؛ والمقصود منها غالباً جمعُ دُرَر وغُرَر البيان، وشوارد اللغة ونوادر الكلام، منظوم ومنثور، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة، والرّقائق الأدبية ، كالرَّسائــل المُبتكَرة ، والخُطب المُحبَّرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية[1] ولنذكرْ منتخبات مِنْ مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريري [2] المتوفى سنة ٦١٥ هـ المقامة التاسعة الإسكندرانية :

أخبر الحارث بن همّام قال : طحا بي[3] مَرَحُ[4] الشباب، وهوى الاكتساب[5] إلى أن جُبتُ[6] ما بين فرغانة [7] وغانة [8] أخوضُ الغمارَ[9] لأجني الثمار، واقتحمَ الأخطار [10] لكي أُدركَ الاوْطار[11] . وكنتُ لقفتُ من أفواه العلماء وثقفت[12] من وصايا الحكماء ، أنه يلزمُ الاديبَ الاريبَ [13] إذا دخلَ البلد الغريب ، أن يستميل قاضيه [14] ويَستخلص مَراضيه [15] ليشهد ظهره عند الخصام ويأمن في الغُرْبة جوْر الحكام. فاتخذتُ هذا الادبَ[16] إماماً[17] وجعلته لمصالحي زِماماً، فما دخلتُ مدينة ، ولا ولجت [18] عرينة [19] إلا وامتزجتُ بحاكمها امتزاج الماء

(١) اعلم ان المقامات تعرف بالمكان الذي تجري فيه فيقال المقامة الحلبية أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب او الموصل، وربما نسبت إلى المروي عنه. ويستحب في راوي المقامة أن يمثل رجلاً ظريف النفس كثير الاسفار حسن الراوية متفرغاً افنون الادب جاداً في طلب غرره كاداً ذهنه في تحصيل درره كالحارث ابن همام في المقامات الحريرية وعيسى بن هشام في المقامات البديعية، ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذاني وبعده الحريري واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وإن لم يبلغوا شأوهما . (٢) تقدم أنه توفي سنة ٦١٥ هـ (٣) ذهب بي (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥ أي محبة اكتساب المال (٦ قطعت. (٧) بلد بأقصى بلاد المشرق (٨) بلد بأقصى المغرب ٩ بالكسر جمع غمرة الكثير من الماء والمراد هنا الامور الصعبة (١٠) أي ادخل في القحمة بالضم وهي الشدة والاخطار الامور العظيمة (١١) الحجاب (١٢ أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه ويترضاه ويطلب ميله إليه (١٥) يطلب خالص رضاه (١٦) أي هذا الامر الظريف المستحسن (١٧) قدوة أي أعمل بمقتضاه (١٨) دخلت ١٩) مأوى الاسد .

بالراح، وتقوّيت بعنايته تقوّي الاجساد بالارواح، فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية، في عشيّة عريّة [١] وقد أحضر مال الصدقات، ليفُضّه [٢] على ذوي الفاقات [٣] إذ دخل شيخ عِفْرية [٤] تعتِلُه [٥] امرأة مُصْبِية [٦]، فقالت. أيّد [٧] الله القاضي، وأدام به التراضي [٨]، إني امرأة من أكرم جُرثومة [٩]، وأطهر أرومة [١٠]، وأشرف خؤولة وعمومة، مِيْسَمي [١١] الصّون [١٢]، وشيمتي [١٣] الهون [١٤]، وخُلُقي نِعم العون [١٥]، وبيني وبين جارَتي بَوْن [١٦] وكان أبي إذا خطبني بُناة [١٧] المجد وأرباب الجدّ، سكّتهم [١٨] وبكّتهم [١٩] وعاف وصْلتهم [٢٠] وصِلتهم [٢١] واحتجّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلفه أن لا يُصاهر [٢٢] غير ذي حرفة [٢٣] فقيّض القدر [٢٤] لنَصَبي ووصبي [٢٥] أن حضر هذا الخُدَعة [٢٦] نادي أبي [٢٧] فأقسم بين رهطه [٢٨] أنه وفْق شرطه، وادّعى أنه طالما نظم دُرّة، فباعها ببدرة [٢٩] فاغترّ بي بزخرفة مِحاله، وزوّجنيه قبل اختبار حاله، فلمّا استخرجني من كِناسي [٣٠] ورحلني عن أُناسي، ونقلني إلى كَسْره [٣١] وحصّلني تحت أسره، وجدتُه قُعدة جُثمة [٣٢] وألفيتُه ضُجَعة نُومة [٣٣]

---

(١) اي شديدة البرد او ذات ريح باردة (٢) يفرقه (٣) اي الفقراء المحتاجين (٤) اي خبيث شديد الدهاء (٥) تجره بعنف وجفاء (٦) اي ذات صبيان (٧) قواه ونطره (٨) أراد التراضي بين الخصوم بحيث يرضي بحكمه الغالب والمغلوب (٩) اي اصل (١٠) الأرومة بالفتح اصل الشجرة ثم استعير لأصل الحسب (١١) علامتي وأصل الميسم الآلة التي يكوي بها ويعلم (١٢) الحفظ والعفاف (١٣) خلقي وعادتي (١٤) الرفق (١٥) اي الرفيق الظهير (١٦) اي فرق وتفاوت في الفضل (١٧) بالضم جمع بان (١٨) اي قال لهم كلاماً لا يجدون له جواباً (١٩) ألزمهم الحجة (٢٠) اي كره قربها (٢١) عطاهم (٢٢) اي يزوج ابنته (٢٣) صناعته (٢٤) يعني قدر الله تعالى (٢٥) لتعبي ومرضي (٢٦) الكثير الخداع (٢٧) مجلس أبي (٢٨) قومه وعشيرته (٢٩) البدرة عشرة آلاف درهم (٣٠) اي منزلي واصله بيت الظبي او بقر الوحش (٣١) بفتح الكاف وكسرها اي جانب بيته (٣٢) كثير القعود كثير الجثوم اي يلازم الموضع الذي يقعد فيه (٣٣) الضجعة والنومة اصله العاجز الذي لا يتصرف والمعنى أنه عاطل عن العمل كسول

وكنتُ برياش وزيٍّ وأثاث ١ وريّ ٢ فما برح يَبيعه في سوق الهضم٣ ، ويُتلف ثمنه في الخضم والقضم ٤ إلى ان مزّق مالي بأسره ٥ ، وأنفق مالي في عسره ، فلمّا أنساني طعم الراحة ، وغادر بيتي أنقى من الراحة ٦ قلت له : يا هذا إنه لا مخبأ بعد بوس ٧ ، ولا عطرَ بعد عروس ٨ فانهضْ للاكتساب بصناعتك ، واجْتنِ ٩ ثمرة براعتك ١٠ فزعم أن صناعته قد رُميتْ بالكساد ١١ لما ظهر في الارض من الفساد ، ولي منه سُلالة ١٢ كالخلالة١٣ وكلانا ما ينال منه شبعة١٤ ولا ترقأ١٥ له من الطوى١٦ دَمعة ، وقد قدْته١٧ إليك وأحضرته لديك ، لتَعْجُمَ ١٨ عودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله – فأقبل القاضي عليه ، وقال له : قد وَعيت١٩ قصص عِرْسك ، فبرهِن الآن عن نفسك ، وإلا كشفتُ عن لبسك٢٠ ، وأمرتُ بحبسك فأطرق اطراق الافعُوان ٢١ ثم شمّر للحرب العَوان ٢٢ وقال :

اسمع حديثي فإنــــه عجبُ يُضحكُ من شرحه ويُنتحبُ٢٣
أنا أمرؤٌ ليس في خصائصه ٢٤ عَيبٌ ولا في فخـاره ريبُ
سُروج داري التي ولدْتُ بهـا ، والاصل غسّانُ ٢٥ حين أنتسبُ

(١) رياش : مال ولباس فاخر ، زي : هيئة حسنة ، أثاث : متاع البيت . (٢) حسن حال وكثرة نعمة وهو بكسر الراء وفي الاصل اسم من روى (٣) المراد يبيعه بأقل من القيمة (٤) الاكل بأطراف الاسنان وقيل الخضم أكل بأطراف الاسنان والقضم بمقدمها وقيل الخضم اكل الرطب والقضم اكل اليابس تريد انه يصرف ثمنه في أنواع الاكل واللذات (٥) اي فرق الذي لي بأجمعه (٦) بطن الكف لنقائه من الشعر (٧) اي فقر (٨) مثل قالته امرأة من بني عازة مات عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل أبخر وأمرها ان تتعطر فقالته (٩) اي الجنى ، جمع الثمرة (١٠) اي فضلك على اقرانك (١١) هو خمود السوق وقلة البيع ضد النفاق بالفتح (١٢) يعني ولداً (١٣) ما يتخلل به (١٤) قدر ما يشبع به مرة (١٥) اي لا تسكن (١٦) الجوع (١٧) اتيت به (١٨) لتقضي وتختبر (١٩) فهمت وحفظت ما قصته زوجك (٢٠) أظهر أشكالك وتعمية أمرك (٢١) ذكر الافاعي او العظيم منها (٢٢) الحرب التي قبلها وهي تكون حرب أشد من الاولى (٢٣) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢٤) خصاله وطباعه (٢٥) اسم ماء نزل عليه قوم من الازد فنسبوا إليه ، منهم بنو جفنة ورهط الملوك وقيل غسان قبيلة .

وشغلِيَ الدرسُ، والتبحرُ في العلم طلابي وحبذا الطلبُ
ورأس مالي سحرُ الكلام ١ الذي منه يصاغ القريضُ ٢ والخطبُ
أغوصُ في لُجّة البيان فأختار اللآلىء منها ٣ وأنتخبُ
وأجتني ٤ اليانع ٥ الجنيَّ ٦ من القول وغيريَ للعود يحتطبُ
وآخذ اللفظ فضةً فإذا ما صغته ٧ قيل إنه ذهبُ
وكنت من قبل أمتري نشباً ٨ بالأدب المقتنَى وأحتلبُ
ويمتطي ٩ أخمصي ١٠ لحرمته مراتباً ليس فوقها رُتبُ
وطالما زُفّتِ الصِّلات إلى ربعي ١١ فلم أرضَ كلَّ من يَهِبُ ١٢
فاليوم من يَعلقُ الرجاءُ به أكسدُ شيء في سوقه الادبُ ١٣
لا عرضُ أبنائه يُصان ولا يُرْقب ١٤ فيهم إلٌّ ١٥ ولا نسبُ
كأنهم في عِراصهم ١٦ جِيَفٌ، يبعد من نتْنها ويجتنبُ
فحار لُبّي ١٧ لما منيت به ١٨ من الليالي وصرْفها ١٩ عجبُ
وضاق ذرعي ٢٠ لضيق ذات يدي وساورتني ٢١ الهموم والكربُ
وقادني دهري المُليمُ ٢٢ إلى سلوك ما يستشينه ٢٣ الحسبُ ٢٤

(١) هو ما لطف مأخذه ورق (٢) الشعر (٣) أي أتعمق في بليغ المعاني وانتقي منه الملح (٤) أقتطف (٥) الزاهي (٦) الطري من الثمر الذي جني حديثاً (٧) سبكته (٨) أي اكتسب مالاً (٩) أي يركب (١٠) ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض (١١) أي حملت الجوائز والهدايا إلى منزلي (١٢) أي لم أرض ان أكون تحت منة كل أحد بل لم أقبل إلا من العظماء (١٣) اي أن ما يتعلق به الأمل ويرجى منه النوال لا يستعمل الادب والمعارف حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده (١٤) يحفظ (١٥) بكسر الهمزة وتشديد اللام – العهد والقرابة والجوار (١٦) جمع عرصة وهي فناء الدار أي كأنهم في مواضعهم (١٧) تحير عقلي (١٨) بليت به (١٩) تقلبها (٢٠) انقبض قلبي (٢١) انتابتني وغلبتني (٢٢) الذي يأتي بما يلام عليه (٢٣) يستبشعه (٢٤) ما يعد من مفاخر الآباء او الدين وقيل الكرم

فبعتُ حتى لم يبق لي لَبَدٌ[١] ولا بتاتٌ[٢] إليه أنقلبُ
وادّنتُ[٣] حتى أثقلتُ سالفتي[٤] بحمل دَينٍ من دونه العطبُ
ثم طويت الحشا على سَغَبٍ[٥] خمساً[٦] فلما أمضّني[٧] السغَبُ
لم أرَ إلاّ جهازها عرضاً[٨] أجولُ في بيعه وأضطرب
فَجُلْتُ فيه والنفس كارهةٌ والعين عَبرى[٩] والقلب مكتئبٌ[١٠]
وما تجاوزت[١١] إذ عَبِثْتُ[١٢] به حدّ التراضي[١٣] فيحدث الغضبُ
فإن يكن غاظها توهُّمُها أن بناني بالظلم تكتسبُ
أو أنني إذْ عزمت خطبتها زخرفتُ قولي لينجح الأرب[١٤]
فو الذي سارت الرفاقُ[١٥] إلى كعبته تستحثها[١٦] النُّجُبُ[١٧]
ما المكر بالمُحْصَنات[١٨] من خُلُقي ولا شعاري[١٩] التمويه[٢٠] والكذبُ
ولا يدي مُذْ نشأتُ نِيط بها[٢١] إلا مواضي اليَراع[٢٢] والكتب
بل فكرتي تنظم القلائدَ[٢٣] لا كفي وشعري المنظوم لا السُّخُب[٢٤]

(١ يقال ما له سبد ولا لبد أي لا شعر ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشي ، وأراد الحريري أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة (٢) الزاد ومتاع البيت (٣) تداينت (٤) صفحة العنق وقيل مقدمه (٥) جوع (٦) خمس ليال (٧) أحرقني (٨ حطام الدنيا ، وهو المال قل او كثر (٩) دامعة باكية (١٠) حزين (١١) تعديت (١٢) فعلت به ما لا يليق فعله (١٣) أي حد الرضا (١٤) الحاجة (١٥) جمع رفقة ، وهو جمع رفيق (١٦) تستعجلها (١٧) جمع نجيبة ، وهي الكريمة من الإبل (١٨) جمع محصنة ، النساء العفائف (١٩) تخلقي (٢٠) تزين الكلام وأصله أن يطلى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما او الفضة بالذهب (٢١ علق بها (٢٢) جمع يراعة وهي القصبة الجوفاء والمراد بها الأقلام (٢٣) جمع قلادة أصله ماتقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار (٢٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شيء يجعل في أعناق الاطفال .

فهذه الحِرْفة المشارُ إلى ما كنتُ أحوي بها وأجْتَلِبُ
فأذَنْ لشرحي كما أذنْتَ لها ولا تُراقب[١] واحكم بما يجبُ

قال : فلما أحكمَ ما شاده[٢] ، وأكمل إنشاده ، عَطَفَ القاضي إلى الفتاة ، بعد أن شغف[٣] بالأبيات ، وقال : أما أنه قد ثبت عند جميع الحكام ، ووُلاة الأحكام انقِراضُ[٤] جيل الكِرام[٥] وميلُ الايام إلى اللئام ، وإني لإخال[٦] بعلكِ[٧] صدوقاً في الكلام بَرِيّاً من الملام — وها هو قد اعترف لكِ بالقرض ، وصرح عن المحض[٨] ، وبَيّنَ مِصْداقَ النظم ، وتبيّن أنه معروقُ العظم[٩] ، وإعْنَاتُ المعذر ملأمة[١٠] ، وحبس المعسر[١١] مأْلمة[١٢] ، وكتمانُ الفقر زَهادة ، وانتظار الفرج بالصّبر عبادة فارْجعي إلى خدرك[١٤] ، واعذُري أبا عُذْرِك[١٤] ، ونهْنهي من غَرْبكِ[١٥] ، وسلمي بقضاء ربك — ثم إنه فرض لهما في الصّدَقات حِصّة ، وناولهما من دارهما قبضة[١٦] ، وقال لهما : تعلّلا[١٧] بهذه العلالة[١٨] ، وتنديّا بهذه البلالة[١٩] ، وصبراً على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتي بالفتح

(١) أي لا تنظر إلى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق (٢) أي أتقن ما قاله وأنشأه من شاد البناء إذا طلاه بالشيد وهو الجص (٣) ويروى بالعين المهملة من شعف الحب فؤاده اي علاه وشمله — وبالغين المعجمة أي فتن وبلغ حبها شغافه ، وهو غلاف القلب (٤) انقطاع وفناء (٥) اي جماعة الكرم ، والجيل اهل زمان واحد (٦) بكسر الهمزة اي لا اظني (٧) زوجك (٨) الخالص (٩) كناية عن الهزال يقال عظم معروق إذا اخذ ما عليه من اللحم (١٠) الإعنات : الحمل على المشقة الشديدة والمعذر البالغ في العذر او هو الذي يأتي بما يعذر به ويطلق على المحقق العذر ، وعلى الذي بان عذره والملأمة اللؤم (١١) العاجز عن قضاء الدين (١٢) إيلام (١٣) بيتك وسترك (١٤) أبو عذر المرأة اول زوج لها (١٥) اي كفي وازجري نفسك عن الحدة (١٦) هي مايتناوله الإنسان بأطراف اصابعه (١٧) تشاغلا وتلاهيا (١٨) ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن (١٩) قدر ما يبل به الشيء واسم للبقية أيضاً .

أو أمْرٍ من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الإسار [١] ، وهِزّة الموسر بعد الإعسار .

قال الراوي : وكنت عرفت أنه أبو زيـد ، ساعة بزَغَتْ شمسُه ، ونزعت [٢] عرسُه وكدتُ أفصح عن افتنانه [٣] ، وأفنان أفنانه [٤] ثم أشفقت [٥] من عثُور [٦] الماضي على بُهتانه [٧] ، وتزويق [٨] لسانه ، فلا يرى عند عرفانه [٩] أن يُرشحه [١٠] لإحسانه ، فأحْجَمْتُ [١١] عن القول إحجامَ المرتاب [١٢] ، وطويت ذكره كطيّ السّجل للكتاب [١٣] ، إلا أني قلت بعد ما فَصَل [١٤] ووصل إلى ما وصل ؛ لو أن لنا مَنْ يَنْطلق في أثره لأتانا بفَصّ خبره [١٥] ، وما يُنشر من حَبَرِه [١٦] فأتبعه [١٧] القاضي أحد أُمَنائه ، وأمره بالتَّجَسُّس [١٨] عن أنبائه[١٩]، فما لَبِثَ أن رجع مُتدهْدهاً [٢٠] ، وقهقَر مُقَهقِهاً [٢١] ، فقال له القاضي :

(١) القيد الذي يشد به الأسير (٢) خبثت والنزع الذر بالقبيح والإفسادبين الناس ومعناه خاصمته عرسه (٣) يقال افتن لرجل في حديثه إذا جاء بالأفانين وهى الاساليب والمراد هنا تصرفه في الفنون والمعارف (٤) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن (٥) خفت (٦) اطلاع (٧) كذبه (٨) التزويق التحسين ، والتزويق مأخوذمن الزاووق ، وهو الزئبق (٩) معرفته (١٠)الترشيح ،والتربية ، والتأهيل من ترشيح الظبية ولدها ، لأنها إذا بلغ ولدهـا السعي سمت به حتى عرقا فتقوى؛ ويأتي بمعنى التقوية ايضاً (١١) تأخرت (١٢) الشاك ١٣)السجل: الصحيفة فيها الكتابة ـ أي كما تطوي الصحيفة الكتابة (١٤) ذهب (١٥) بحقيقة حاله (١٦) الحبر أردية يمانية موشاة جمع حبرة ، هي : ما تلبسه المرأة المصرية ، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر في الحسن (١٧) اي أرسل وراءه من يتبعه (١٨) اي بالبحث سراً بحيث لا يشعر (١٩) أخباره (٢٠) التدهده : الإسراع من دهدهت الحجر إذا دحرجته وتبدل الهاء الأخيرة ياء فيقال تدهدي تدهدياً (٢١) القهقرى المشي إلى الوراء ، والقهقهة الضحك بصوت مرتفع .

مهيَم [١] يا أبا مريم [٢] ؟ فقال له: لقد عاينْت عجباً، وسمعت ما أنشأ لي طرَباً، فقال له: ماذا رأيت؟ وما الذي وعيْتَ؟ قال: لم يزل الشيخ مُذ خرج يُصفّق بيَدَيه، ويخالف بين رجليه [٣]، ويُغرِّد بملء شدقيه؛ ويقول:

كدْتُ أصلى [٤] ببليّه من وَقاح [٥] شمّريّه [٦]
وأزورَ السّجْن لولا حاكمُ الإسكندريه

فضَحِكَ القاضي حتى هوتْ [٧]، دُنيَّته [٨]، وذوت [٩] سكينتهُ [١٠]، فلما فاء [١١] إلى الوقار، وعقّبَ الاستغفار بالاستغفار، قال: اللهم بحُرْمة عبادك المقرَّبين حرِّم حبسي على المتأدبين، ثم قال لذلك الأمين: عَليّ [١٢] به، فانطلق مُجِدّاً في مطلبه، ثم عاد بعد لأيه [١٣] مخبراً بنأيه [١٤]، فقال له القاضي: أما إنه لو حضر لكُفيَ الحذر [١٥]، ثم لأوْليتُهُ ما هو به أولى، ولأريته أنَّ الآخرة خيرٌ له من الأولى؛ قال الحارث بن همام: فلما رأيت صَغْوَ [١٦] القاضي إليه، وفوت ثمرة التنبيه عليه غشيتني [١٧] ندامة الفرزدق [١٨] حين أبان

---

(١) اي ما الخبر، وهي كلمة لأهل اليمن، معناها، ما خبرك وما شأنك (٢) يقال لعون القاضي أبو مريم (٣) اي يرقص (٤) احترق (٥) الوقاح قليلة الحياء بينة القحة والوقاحة وحافر وقاح صلب (٦) الشمري الماضي في الأمور الجاد فيما يحاول (٧) وقعت (٨) بتشديد النون والباء جميعاً قلنسوة يلبسها القضاة كأنها منسوبة إلى لدن (٩) ذبلت وفترت . (١٠) وقاره (١١) رجع (١٢) اي ائت به وأحضره (١٣) اللأي كالسعي الإبطاء والاحتباس (١٤) اي ببعده (١٥) ما يحتار منه ويخاف (١٦) ميله (١٧) أتتني وحضرتني (١٨) هو همام بن غالب التميمي الشاعر

النَّوار ١ والكُسَعي ٢ لمّا استبان النهار .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ ﻫ

حدثنا عيسى بن هشام، قال كان بِشر بن عَوانة العَبْديّ صُعلوكاً، فأغار على ركب فيهم امرأةٌ جميلة فتزوج بها، وقال: ما رأيت كاليوم، فقالت:

أعْجَبَ بِشراً حَوَرٌ في عَيني   وساعِــدٌ أبيضُ كاللُّجيْنِ
ودونــه مَسرَحُ طرف العيْنِ   خَمصانةٌ تَرْفُـل في حجليْنِ
أحسنُ منْ يمْشي على رجليْنِ   لو ضَمَّ بِشرٌ بينهـا وبَيني
أدام هجري وأطـــال بَيني   ولو يقيس زَيْنَهـــا بِزَيْـني
لأسْفَرَ الصُّبح لذي عينينِ

قال بشر: ويحَكِ من عَنيتِ؟ فقالت: بنت عمك فاطمة، فقال: أهيَ مِنَ الحسن بحيث وصفْت؟ فقالت: وأزْيدَ وأكثر، فأنشأ يقول:

---

(١) النوار على وزن سحاب اسم زوجة الفرزدق، وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ومن شعره في ذلك قوله:

ندمت ندامة الكسعي لما   غدت مني مطلقة نـــوار
وكانت جنتي فخرجت منها   كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أني ملكت يدي وأمري   لكن علي للقـــدر الخيار

(٢) الكسعي هو عامر بن الحارث نسبة إلى كسع – بضم الكاف وفتح السين – حي من بني ثعلبة كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلاً فنفذت في الرمية ووقع السهم في حجر فقدح منه الشرر فظن أن السهم اخطأ الرمية، فرمى ثانياً وثالثاً إلى آخر الأسهم وكانت خمساً، وهو يظن خطأها فعمد إلى قوسه فكسرها، ثم بات فلما أصبح تبين ان اسهمه كلها أصابت فندم ندماً شديداً فضربت العرب المثل به في الندامة .

وَيحكِ يا ذات الثنايا البيض ما خِلْتِني منك بمُستعيض
فالآنَ إذْ لوّحت بالتعريض خلَوْت جوّاً فاصفِري وبيضي
لا ضُمّ جفناي على تغميض ما لم أشلْ عرْضي من الحضيض
فقالت كم خاطبٍ في أمرها ألحّا وهي إليك ابنة عمّ لحّا

ثم أرسل الى عمّه يخطُب ابنته ، ومنعه العمّ أمنيَّته ، فآلى ألاّ يرعى على أحد منهم إن لم يُزوّجه ابنته ، ثم كَثُرَت مضرّاته فيهمْ واتصلت معرّاته إليهم ، فاجتمع رجال الحي إلى عمّه ، وقالوا : كُفّ عنّا مجنونك ، فقال : لا تُلبسوني عاراً وأمهلوني حتى أهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أنت وذاك ، ثم أرسل إليه عمّه : إني آليتُ أن لا أزوّجَ ابنتي هذه إلا ممّن يَسوق إليها ألف ناقة مَهراً ، ولا أرضاها إلا من نُوق خُزاعة .

وكان غرضُ العم أن يَسلك بِشر الطّريق بينه وبين خُزاعة فيفترسهُ الأسد؛لأن العرب قد كانت تحامتْ عن ذلك الطّريق،وكان فيه أسدٌ يُسمّى « داذاً » وحيّة تُدعى « شُجاعاً » يقول فيهما قائلهم :

أفتكْ من «داذٍ»ومن «شُجاعٍ» إن يَكُ داذٌ سيّدَ السّباعِ
فإنها سيّدةُ الأفاعي

ثم إنّ بِشراً سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقيَ الأسد ، وقمص مُهْرُه فنزل وعقَرَه ، ثم اخترط سيفه إلى الأسد واعترضه وقطّعه ، ثم كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمه :

أفاطمُ لو شهدْت ببطن خَبتٍ وقد لاقى الهزْبرُ أخاك بِشرا
إذاً لرأيتِ ليْثاً أمّ ليثاً هزَبراً أغلباً لاقى هزبرا
تبهنَس حينَ أحجمَ عنه مُهري مُحاذرةً ، فقُلتُ : عقُرْتَ مُهرا

أنِلْ قَدَميّ ظَهرَ الارض إني ... رأيتُ الارض أثبتَ منكَ ظَهرا
وقلتُ له وقد أبدى نِصالاً ... مُحَدّدة ووجهاً مكفهرّا
يُكفكِفُ غيلةً إحدى يديه ... ويَبسُطُ للوُثوب عَليَّ أُخرى
يُدِلُّ بمِخلبٍ وبحدّ ناب ... وباللحظات تحسبهنَّ جمرا
وفي يُمناي ماضي الحد أبقى ... بمضربه قِراع الموت أُثرا
ألم يَبلغْك ما فعلتْ ظُباه ... بكاظمةٍ غداة لَقيتُ عَمرا
وقلبي مثلُ قلبك ليس يخشى ... مُصاوَلةً، فكيف يخاف ذُعرا
وأنتَ ترومُ للأشبال قوتاً ... وأطلُب لابنة الأعمام مَهرا
ففيمَ تَسوم مِثلي أن يُولي ... ويجعل في يديك النّفس قسرا
نصحتك فالتمِسْ يا ليثُ غيري ... طعاماً إنَّ لحمي كان مُرّا
فلما ظنَّ أنَّ الغشّ نُصحي ... وخالفني كأني قلت هُجرا
مَشى ومشيت من أسدَين راما ... مَراماً كان إذ طَلَباهُ وَعرا
هَززْتُ له الحُسام فخلتُ أني ... سللت به لدى الظّلماء فجرا
وجُدْت له بجائشةٍ أرَتْه ... بأنْ كذبَته ما مَنّته غدْرا
وأطلقت المُهنّد من يميني ... فقدّ له من الأضلاع عشْرا
فخَرّ مجندلاً بدَمٍ كأني ... هدمتُ به بناءً مُشمَخِرّا
وقلت له: يَعِزُّ عَليّ أني ... قتلت مُناسبي جَلَداً وفخرا
ولكنْ رُمتَ شيئاً لم يَرُمه ... سواك فلم أطقْ يا ليثُ صبرا
تُحاوِل أن تعلّمني فِرارا ... لعَمرُ أبيك قد حاولتَ نُكرا
فلا تجزَعْ فقد لاقيت حُرّاً ... يحاذرُ أن يُعاب فمُتَّ حُرّا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم، على ما مَنعه تزْويجها، وخشي أن تغتاله الحية، فقام في أثره وبلغه، وقد ملكَته سَوْرة الحية.

فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده في فم الحية وحكّم سيفه فيها وقال :

بِشْرٌ إلى المجد بعيدٌ همُّه لمّا رآه بالعراءِ عمّه
قد ثكلتْهُ نفسُه وأمُّه جاشتْ به جائشةٌ تهمه
قام إلى ابنٍ للفلا يؤمُّه فغاب فيه يده وكمُّه
ونفسه نفسي وسمّي سمُّه

فلما قتل الحيّة قال عمه : إني عرّضتك طمعاً في أمرٍ قد ثنى الله عناني عنه ، فارجعْ لأزوّجك ابنتي

فلما رجع جعل بشرٌ يملأ فمه فخراً حتى طلع أمرد كشقّ القمر على فرسه مدججاً في سلاحه . فقال بشرٌ : إني أسمع حسّ صيدٍ وخرج فإذا بغلام على قيدٍ ، فقال: ثكلتك أمك يا بشرٌ إن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخراً ، أنت في أمان إنْ سلّمت عمك ، فقال بشرٌ : مَنْ أنت ؟ لا أمّ لك ؟ قال : اليوم الأسود والموت الأحمر . فقال بشرٌ : ثكلتك من سلحتك . فقال : يا بشر ومن سلحتك ، وكرّ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشر منه ، وأمكن الغلام عشرين طعنة في كُلْية بشر ، كلما مسّه شبا السّنان حماه عن بدنه إبقاءً عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى ؟ أليس لو اردت لأطعمتك أنياب الرُّمح ؟ ثم ألقى رمحه ، واستلّ سيفه فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشرٌ من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلّم عمك و ذهبْ في أمانٍ ، قال : نعم ، ولكن على شريطة أن تقول لي من أنت ؟ فقال : أنا ابن المرأة التي دلّتك على ابنة عمك ؛ فقال بشر :

تلك العصا من هذه العُصية وهل تلد الحيّةُ إلا الحيّة

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حصاناً ، ثم زوّج ابنةَ عمه لابنه

الفن السادس في الروايات

الرواية عبارة عن ذكر قولٍ او فعل حدثا ، أو أمكن حدوثهما .

وخواصها أربعة : الإيضاح ، والإيجاز ، والإمكان ، والتلطُّف .

فالإيضاح : يكون بتقديم فرش للحديث ، وتوطئةٍ للخبر ، يُقرِّب مأخذَ الرواية ، وبمُراعاة الترتيب الطَّبيعي في إيراد ظروف الخبر ما لم يكن للرّاوي غرضٌ لتجاوُز هذا النظام؛ وبالعُدول عن كثرة الاستطرادات في إنشاء الحديث لأن ذلك يصرفُ العقلَ عن سياق لرواية ويذهبُ برَونقها .

والإيجاز : حذفُ فصول حَشْو الكلام مع انتقاءِ أخصِّ الظروف وأنسبها للغاية ، ولا بأس بالإطناب إذا ما دعا إليه مُقتضى الحال .

والإمكان : ترشيح الرواية للقبول في ذهن السامع .

والتلطُّف : في الرواية أن يَبلغ الكاتبُ كُنْهَ القلوب ، ويأخذَ بمجامع اللبِّ بأن ينتقل فيها من حال إلى حال لأن النفس قد جبلتْ على محبة التحوُّل وطُبعت على إيثار التنقل .

والرواية ثلاثة أجزاء : صدرُها ، وعِقدتها ، وختامُها . فالصدر ، التوطئة للواقع بحيث يقف السامع على أسماء الأشخاص وطباعهم ، وعلى مكان الواقع وسوابق العمل .

والعِقدةُ : هي الجزء الذي على مِحْوره تدور الرواية؛ وهو المجال الأوسع الذي تتقابلُ فيه الأشخاص وتشتبك الأحوال وتضطرم في النفس لواعجُ الشّوق للوقوف على عاقبة الأمر ، فتنتقل من الرجاءِ إلى الخوف ومن الفرح إلى الحزن .

والختام : الجزء الأخير من الرواية الذي به تفُكّ الإرْبة وتحُل رِباق الحديث ، فتنال النفوس بذلك مَرامَها وتفوزُ بوَطرها؛ وسمتُه أن يكون مُجانباً مُرتبطاً مع ما قبله ارتباطاً محكماً وافياً بالمراد بحيث ترضى به النفوس ، وترتاح إليه القلوب .

وشواهد الرواية كثيرة لا نُطيل بذكرها ؛ أفردَها الأدباءُ بالتآليف العديدة ، ولنذكر هاهنا بعض مُلح لا يستغني عنها المقام .

ليلى الأخيلية مع الحجاج

روى بعضهم أنه بينما كان الحجّاج في مجلس ومعه عنبسة بن سعيد ، إذ دخل الحاجب فقال : امرأةٌ بالباب ، فقال له الحجاج : أدخِلها ، فدخلت فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنَه قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدتْ بين يديه فنظرتُ فإذا امرأة قد أسنّت ، حسنة الخَلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي ليلى الأخيليّة ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلى ما أتى بك ؟ فقالت : إخلافُ النجوم وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدّة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرّفد . فقال لها صفي لنا الفجاج ، فقالت : الفجاج مُغبرة ، والأرض مقشعرّة ، والمبركُ معتل ، وذا العيال مختلّ ، والهالك للقلّ والناس مسنتون ، رحمةَ الله يرجون ، وأصابتنا سنون مجحفة مُبلطة ، لم تدع لنا هُبَعاً ولا رُبَعاً ، ولا عافطة ولا نافطة ، أذهبت الأموال ، ومزّقت الرجال وأهلكت العيال ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولاً ، قال هات ؛ فأنشأت تقول :

أحجّاجُ لا يفللْ سلاحُك إنما الـ ... ـمنايا بكف الله حيث يُراها
أحجّاج لا تعط العُصاة منامهم ... ولا الله يُعطي للعُصاة مُناها
إذا هبط الحجّاج أرضاً مريضة ... تتبّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الدّاء العُضال الذي بها ... غلامٌ إذا هزّ القناةَ سقاها
سقاها فروّاها بشرْب سجاله ... دماء رجالٍ حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رِز كتيبةٍ ... أعدّ لها قبل النزول قِراها
أعدّ لها مَصقولةً فارسيةً ... بأيدي رجال يحلبون صراها
فما ولد الأبكار والعون مثله ... ببحرٍ ولا أرضٍ يجف ثراها

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ، ما أصاب صِفتي شاعرٌ منذ دخلت العراق غيرها ؛ ثم التفت إلى عَنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حسبُك . قالت : إني قد

قلت أكثر من هذا . قال : حسبُك ، ويحَكَ حسبُك . ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان ، فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، قال فأمرَ بإحضار الحجّام فالتفتت إليه فقالت : ثَكِلَتْكَ أمك ، أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرَك أن تقطع لساني بالصلة ، فبعث إليه يستثبتُه ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال : أرددها، فلما دخلت عليه قالت : كاد (وأمانةِ الله) يقطع مِقولي ؛ ثم أنشأت تقول

حجاج أنت الذي ما فوقه أحدٌ إلا الخليفةُ والمستغفر الصمد
حجاج انتَ شهابُ الحرب إن لقحت وأنت للناس نورٌ في الدجى يَقدُ

ثم أقبل الحجاج على جُلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إنا لم نرَ قطّ أفصحَ لساناً، ولا أحسن محاورة ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أرصنَ شعراً منها. فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبِّها. ثم التفتَ إليها فقال : انشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم ايها الأمير ، هو الذي يقول:

وهل تَبكيني ليلى إذا متّ قبلها وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو اصاب الموتُ ليلى بكيتُها وجاد لها دمعٌ من العين سافحُ
وأُغبَطُ من ليلى بما لا أناله بلى كل ما قرّت به العينُ طائحُ
ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت عليّ ودوني جَنْدَلٌ وصفائح
لسلّمتُ تسليم البشاشة أو زَقا إليها صدًى من جانب القبر صائح

ثم قال : سلي يا ليلى تُعطيْ قالت : أعطِ فمثلُك أعطى فأحسن. قال لكِ عشرون ، قالت : زِدْ، فمثلك زاد فأجمل، قال لك اربعون. قالت زِدْ فمثلُك زاد فأكمل . قال لك ثمانون ، قالت زد ، فمثلك زاد فتمم . قال مائة واعلمي انها غنم، قالت: معاذ الله ايها الأمير ، انتَ أجْوَدُ جوداً، وأمجد مجداً، وأروى زنداً من ان تجعلها غنما ، قال . فما هي ويحك يا ليلى ؟ قالت مائةٌ من الإبل

برُعاتها. فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت يدفع إليّ النابغة الجعدي. قال: قد فعلت . وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك ، فاتبعتْهُ إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مُسلم بخراسان فاتبعتْهُ على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة بقومَس ويقال بحلوان .

بنات الشاعر المقتول

كان لشاعر عدوٌ: فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدُوّه، فعلم الشاعر أن عدُوّه قاتله لا محالة؛فقال له :يا هذا انا أعلم ان المنيّة قدحضرت ولكن سألتك الله إذا انت قتلتني ان امضِ إلى داري ، وقِف بالباب وقل : « ألا ايها البنتان إن أباكما » فقال : سمعاً وطاعة ،ثم إنه قتله ، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ، ووقف بالباب وقال : « ألا ايها البنتان إن اباكما » وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل « ألا ايها البنتان إن أباكما » أجابتاه بفمٍ واحد «قتيلٌ خُذَا بالثأر ممن أتاكما» ثم تعلقتا بالرجل، ورفعتاه إلى الحاكم فاستقررَه فأقرّ بقتله فقتله .

المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم

قال عبدالله بن المبارك : خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نَبيه عليه الصلاة والسلام ، فبينما انا في بعض الطريق إذ انا بسوادٍ ، فتميزت ذاك فإذا هي عجوزٌ عليها درعٌ من صُوف وخمارٌ من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت : « سلام قولاً من رب رحيم » فقلت لها يرحمك الله ما تصنعينَ في هذا المكان ؟ قالت: « ومن يُضلل اللهُ فلا هادي لهُ » فعلمتُ أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تُريدين ؟ قالت . « سُبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» فعلمت أنها قد قضت حجتها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها أنتِ مُنذ كم في هذا الموضع ؟ قالت: « ثلاث ليال سَويّاً» فقلت ما أرى معك طعاماً تأكلين ، قالت: «هو يُطعمُني ويسقين»

فقلت: فبأيّ شيء تتوضئين؟ قالت: «فإن لم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّباً».
فقلت لها إن معي طعاماً: فهل لك في الأكل؟ قالت: «ثم أتمّوا الصّيام إلى الليل» فقلت ليس هذا شهر رمضان، قالت: «ومَن تَطوَّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم»، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السّفر. قالت: «وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون» فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلّمك؟ قالت: «ما يلفظُ من قول إلا لديهِ رقيبٌ عتيد» فقلت: فمن أي الناس أنت؟قالت: «ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ إن السّمع والبصر والفؤاد كل أُولئكَ كان عنه مسئولا» فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حِلٍّ. قالت: «لا تثْريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم» فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ فقالت: «وما تفعلوا من خير يَعلمْه الله» قال فأنَخْتُ ناقتي قالت: «قـل للمؤمنين يَغضّوا من أبصارهم» فغضضت بصري عنها، وقلت لها آركبي. فلما أرادت أن تركب نفرَت الناقة، فمَزقت ثيابها فقالت: «وما أصابكم من مصيبة فبِما كسبت أيديكم» فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: «ففهّمناها سليمان» فعقلتُ الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت، «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كُنّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون» قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع وأصيح. فقالت: «واقصدْ في مَشيك واغضض من صوتك». فجعلت أمشي روَيداً رويداً وأتَرنّم بالشّعْر: فقالت: «فاقرءوا ما تيسر من القرآن» فقلت لها: لقد أُتيت خيراً كثيراً قالت: «وما يذكّر إلا أُولوا الألباب» فلما مشيتُ بها قليلا قلت: ألَكِ زوجٌ؟ قالت: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسوءْكم». فسكتُّ ولم أُكلّمْها حتى أدركت بها القافلة. فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: «المال والبنونَ زينة الحيـاةِ الدّنيا» فعلمتُ أن لها أولاداً. فقلتُ: وما شأنهم في الحجّ؟ قالت: وعلامات وبالنّجم يهتدون» فعلمت أنهم أدلاءُ الركب. فقصدت بها القِباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لكِ فيها؟ قالت «واتخَذَ الله إبراهيم خليلا»،«وكلّم الله موسى تكليما»،«يا يَحيى خُذ الكتاب بقوّةٍ»، فناديت: يا إبراهيم، يا موسى

يا يحيى . فإذا انا بشُبّان كأنـّهم الأقمار قد قبلوا ، فلمّا استقرّ بهـم الجلوس ، قالت : «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظُر ايها أزكى طعاماً فليأتِكم برزق منه» ، فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدّموه بين يديّ ، وقالت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيام الخالية » فقلت : الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها . فقالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لم تتكلم إلاّ بالقرآن ، مخافة أن تزِلّ فيسخط عليها الرحمن ، فسُبحان القادر على ما يشاء فقلت : « ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

مروان بن الحكم — وعبدالله بن الزُّبير

روى عُقيل بن خالد عن ابن شهاب أنّ مروان بن الحكَم وعبدالله بن الزُّبير اجتمعا ذات يوم في حُجرة عائشة (والحِجابُ بينهما وبينها) يُحدّثانِها ويسألانِها ، فجرى الحديث بين مرْوان وابن الزبير ساعة ؛ وعائشة تسمعُ .

فقال مروان :

فمن يَشا الرحمن يَخفِضْ بقدرِه وليس لِمن لم يرفع الله رافعُ

فقال ابن الزّبير :

ففوّض إلى الله الأمورَ إذا اعترت وبالله ، لا بالأقربين ، أُدافــعُ

فقال مرْوان :

ودَاوِ ضمير القلب بالبرّ والتُّقى فلا يستوي قلبان قاسٍ وخاشعُ

فقال ابن الزّبير :

ولا يستَوي عبدان هذا مُكذّب عُتلٌ لأرحــام العَشيرة قاطعُ

فقال مرْوان :

وعبدٌ يُجافي جَنبهُ عن فِراشه يَبيتُ يناجي ربه وهو راكعُ

فقال ابن الزُّبير :

ولِلخير أهلٌ يُعرفون بهَدْيِهم إذا اجتَمعت عند الخُطوب المجامعُ

فقال مروان :

وللشرّ أهلٌ يُعرفون بشكلهم تُشيرُ إليهم بالفجور الأصابعُ

فسكت ابن الزُّبير ولم يُجب ، فقالت عائشة . يا عبد الله مالك لم تُجبْ صاحبك ؟ فوالله مـــا سمعتُ تجاولاً في نحو ما تجاوَلتُما فيه أعجب إليّ مِن تجاوُلكما ، فقال ابن الزُّبير : إني خِفتُ عَوار القول فكففتُ .

عُبيدُ بن الأبرص – وامرؤ القيس

قيل إنّ عُبيدَ بن الأبرص لقي امرأ القيس يوماً فقال له : كيف معرفتك بالأوابد ؟ قال : ما أحببت . فقال :

ما حبّةٌ ميتَةٌ قامتْ بميتتها دَرداء ما أنبتَت ناباً وأضراساً

فقال امرؤُ القيس :

تلـك الشعيرة تُسقى في سنابلهـــا
قد أخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عُبيد :

ما السُّودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهُنّ الناسُ تمساسا

فقال امرؤُ القيس :

تلك السّحاب إذا الرّحمنُ أنشأها رَوّى بهنّ مُحول الأرض أيباسا

فقال عُبيد :

ما مرتجاتٌ على هول مَراكبُها يقْطَعن بعد المدى سيراً وأمراساً

فقال امرؤ القيس :

تلك النُّجومُ إذا حانت مطالعها شبّهتها في سواد الليل أقباساً

فقال عبيد :

ما القاطعاتُ لأرضٍ لا أنيسَ بها   تأتي سِراعاً وما يرجِعن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرياحُ إذا هبّت عواصِفُها   كفى بأذيالها للتُّرب كنّاسا

فقال عبيد :

ما الفاجعاتُ جهاراً في علانيةٍ   أشدّ من فيلقٍ ملمومةٍ باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقينَ من أحدٍ   يأخذن حمقى وما يبقين أكياسا

فقال عبيد :

ما السّابقاتُ سِراعَ الطّيرِ في مَهَلٍ   لا يشتكين ولو طال المدى بَاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجيادُ عليها القوم مُذ نُتِجتْ   كانوا لهنّ غداة الرّوع أحلاسا

فقال عبيد

ما القاطعات لأرض الجوّ في طَلَقٍ   قبل الصباح وما يسرين قرطاسا

فقال أمرؤ القيس

تلك الأماني يتركن الفتى ملكاً   دون السماء ولم تَرفع له راساً

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ   ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النّاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أرسلها   رب البرية بين الناس مِقياسا

أبو تراب - والشريف العباسي

اجتمعَ يوماً ابو تراب هبةُ الله بن السريجي ، والشريف العباسي وكانا شاعرين

فقال أبو تراب :

أسلوت حبَّ بدورَ أمْ تتجلّد وسهرت ليلك أم جفونكَ ترقدُ

فأجاب الشريف بديهاً :

لا بلْ هُمُ ألِفوا القطيعة مثلَما ألِفوا نزولهم بها فتبعّدوا

فقال أبو تراب :

فإلامَ تصبرُ والفؤاد متيّمٌ ولظى اشتياقِكَ في الحشى يتوقّد

فأجاب الشريف :

ما دامَ لي جلد فلستُ بجازعٍ إذْ كان صبري في العواقب يُحمدُ

فقال أبو تراب

أحسنتَ : كِتمان الهوى مُستحسنٌ لو كان ماءُ العين مما يجمدُ

فأجاب الشريف :

إنْ كان جفني فاضِحي بدُموعه أظهرت للجُلساء أني أرمَدُ

فقال أبو تراب :

فهبِ الدموعَ إذا جرت موّهتها فيقال لِمْ أنفاسُه تتصعدُ

فأجاب الشريف :

أمشي وأُسرعُ كي يظنوا أنها من ذلك المشي السّريع تولد

فقال ابو تراب :

هذا يجوز ومثله مُستعملٌ لكنّ وجهك بالمحبة يَشهدُ

فأجاب الشريف

إن كان وجهي شاهداً بهوًى فما يُدرى إلى مَن بالمحبّةِ أقصِدُ

فقال ابو تراب

إخضعْ وذلّ لمن تحبّ فليسَ في حُكمِ الهوى أنفٌ يشالُ ويعقد

فأجاب الشريف :

ذا لا يكونُ مع الحبيب وإنما مع ساقط متحيّل يتعمّدُ

المأمونُ والمرأة المتظلمةُ

جلس المأمونُ يوماً للمظالم فكان آخر من تقدّم إليه ، وقد همّ بالقيام امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثيابُ رثّةٌ فوقفتْ بين يديه فقالت . (السّلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فنظر المأمونُ إلى يحيى [١] بن أكثمَ فقال لها يحيى : وعليكِ السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتكِ ، فقالت :

يا خيرَ مُنتَصفٍ يُهدى له الرّشد ويا إماماً به قد أشرقَ البلدُ
نشكو إليكَ عميدَ القوم أرملةٌ عدا عليها فلم يترك لها سَبَد [٢]
وابتزّ مني ضياعي مَنعَتِها ظلْماً وفرّق مني الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفعَ رأسهُ إليها وهو يقول :

في دونِ ما قلتِ زال الصبر والجلَدُ عني وأقرح مني القلب والكبدُ
هذا أوان صلاةِ العصرِ فانصرفي وأحضري الخصْم في اليوم الذي أعِدُ
والمجلس السبت إن يُقضَ الجلوس لنا نُنْصفكِ منه وإلا المجلس الأحدُ [٣]

فلما كان يوم الأحد جلسَ فكان أول مَن تقدم إليه تلك المرأه فقالت : (السّلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فقال : وعليكِ السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقفُ على رأسك يا امير المؤمنين ، وأومأتْ إلى العباس ابنه فقال : يا احمد بن أبي خالد خُذ بيده فأجْلِسه معها مجلسَ الخصوم ، فجعل كلامُها يعلو كلام العبّاس . فقال لها احمد بن أبي خالد : يا أمةَ اللهِ إنّكِ بين يَدي امير المؤمنين وإنك تكلّمينَ الأمير فاخفضي من صوتكِ . فقال المأمون :

(٢) يحيى بن أكثم قاضي قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة أكثم ابن صيفي توفي سنة ٢٤٢ (٢) أصل السبد : القليل منُ الشعر . ويقال ما له سبد ولا لبد اي لا قليل ولا كثير (٣) قوله : وإلا المجلس . أسقط منه فاء الجواب للضرورة .

دعها يا أحمدُ ، فإن الحقَّ أنطقَها وأخرسهُ. ثم قضى لها بردِّ ضيعتها إليها، وأمرَ بالكِتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوفّر لها ضيعتها، ويُحسن معونتها وأمر لها بنفقة.

عمر بن الخطاب – والهُرمُزان

لمّا أُتيَ بالهُرْمُزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا امير المؤمنين هذا زعيم العجم وصاحبُ رئيسهم. فقال له عمر: أعْرضُ عليك الإسلام نصحاً لك في عاجِلك وآجلك. قال: يا امير المؤمنين إنما أعتقِدُ ما أنا عليه. ولا أرغَب في الإسلام فدعا له عمر بالسيف فلما همّ بقتله قال يا امير المؤمنين شَرْبةٌ من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له بشَرْبَة من ماء. فلمّا أخذها قال أأنا آمِنٌ حتى أشربها؟ قال : نعم فرميَ بها وقال : الوفاءُ يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال صدَقتَ لك التـوَقف عنك والنظر في أمرك . ارْفعوا عنه السّيف. فلما رُفع عنه قال: الآن يا امير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسوله وما جاء به حقٌ من عنده . فقال عمر : أسلمتَ خير إسلام فما أخّركَ؟ قال : كرِهْت أن تظُن أني اسلمت جزعاً من السّيف. فقال عمر: إن لأهل فارسَ عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من المُلك . ثم امر به أن يُبرّ ويُكرَم ، وكان بعدُ يشاورُه في توجيه الجيوش لأهل فارس .

إبراهيم بن المهدي – وابن بختيشوع

قال العُتْبي : تنازع إبراهيمُ بن المهدي وابنُ بَختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن ابي دُؤاد في مجلس الحُكم في عقار بناحية السواد، فأرْبى [1] عليه إبراهيم وأغْلظ له [2] فأغضب ذلك ابنَ ابي دُؤاد فقال :

يا إبراهيم إذا نازَعْت في مجلس الحُكم امرءاً فلا أعْلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد ، وليكن قصدُك أَمَماً [3] وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلا ، ووَفّ مجالس الخليفة حُقوقها من التعظيم والتوقير والاستكانة والتوجّـه

(١) أربى عليه : زاد . (٢) احفظه : اغضبه ، والحفيظة : الحمية والغضب
(٣) الأمم : البين من الأمر والوسط

إلى الواجب، فإن ذلك أشبه بك، وأشكل بمذهبك في مَحتدِك[١]، وعظيم خَطرك ولا تعجلنّ فرُبّ عجلة تهبُ رَيثاً[٢]، والله يَعصِمُك من خطل القول والعمل، ويُتمّ نعمته عليك كما أتمها على أبويكَ من قبل إن ربك حكيمٌ عليم.

فقال إبراهيم: أصلحكَ الله، أمرت بسداد، وحَضَضت على رشاد، ولستُ عائداً لما يَثلم[٣] مُروءتي عندك، ويُسقِطُني من عينيك، ويُخرِجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهأنذا معتذرٌ إليك من هذه البادرةِ اعتذارَ مُقِرّ بذنبه مُعترف بجُرْمه، ولا يزال الغضبُ يَستفِزُّني[٤] ببوادره، فيرُدُّني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلتُ حقي في هذا العقار لابن بَختَيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأرْش[٥] الجناية عليه «ولم يَتلف مالٌ أفاد مَوْعظة»، وحَسْبُنا الله ونِعم الوكيل.

الأحنف بن قيس ـ وقيس بن عاصم

قيل للأحنَف بن قيس: مِمّن تعلّمت الحِلم؟ قال: مِن قيس بن عاصم المِنقَري، رَأيتُه قاعداً بفِناء داره مُحتَبياً[٦] بحمائل سَيفه يُحدّث قومه حتى أُتيَ برجل مَكتوف، ورجل مقتول، فقيل له هذا ابنُ أخيك قتَلَ ابنَك، فوالله ما حَلّ حُبوته ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن اخي أسأت إلى رَحِمك، ورميتَ نفسكَ بسهمِك، وقتلتَ ابن عمّك، ثم قال لابن له آخر: قُمْ يا بُنيّ فحُلّ كِتاف ابن عمك ووارِ أخاك، وسُقْ إلى أمّه مائة ناقة دِيَةَ ابنها، فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرُؤٌ لا يَطبي حَسبي دَنَسٌ يهَجّنُه ولا أفَنُ[٧]

---

(١) المحتد، الأصل (٢) الريث: الإبطاء والمقدار (٣) ثلم الإناء: كسره من حرفه (٤) استخفه وأزعجه (٥) الأرش: الدية وما يعطى تعويضاً (٦) احتبى: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها، والاسم من ذلك الحبوة (٧) طباه: دعاه واستهواه. والأفن ضعف الرأي وفعله كفرح.

من مِنْهَرٍ في بيت مَكْرُمَة والغُصْنُ يَنْبُتُ حوله الغُصنُ
خطباءُ حين يقول قائلُهم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسنُ ١
لا يَفْطِنونَ لعيب جارهم وهُم لحِفظ جِواره فطنُ ٢

معن بن زائدة – وجاره بين يدي المهدي

قال سعيد بن مسلم: نَذَرَ المهدي دم رجل من اهل الكوفة ، كان يَسعى في فساد سُلطانه ، وجعل لمن دلّ عليه او جاء به مائة الف درهم . فأقام الرجل حيناً مُتوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السّلام ٣ ، فكان ظاهراً كغائب خائفاً مُترقباً. فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصُرَ به رجل من اهل الكوفه فعرفهُ فأهوى إلى مجامع ٤ ثوبه وقال : هذا بُغْيَة امير المؤمنين فأمكن الرجلُ من قِياده ، ونظر إلى الموت امامه. فبينما هو على تلك الحال، إذْ سَمِعَ وَقْعَ حوافر الخيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال: يا ابا الوليد أجِرْني اجارك الله فوقف وقال للرجل الذي تعلّق به ، وما شأنك ؟ قال : بغية امير المؤمنين الذي نذر دمَه ، واعطى لمن دلّ عليه مائة ألف درهم. فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحمِل اخانا . فصاح الرجلُ يا معشرَ الناس يحالُ بيني وبين من طلبهُ امير المؤمنين ! قال معن : اذهب فأخبرهُ أنـه عندي . فانطلق إلى باب امير المؤمنين فأخبرَ الحاجب فدخل إلى المهدي فأخبرَه فأمر بحبس الرجل ، ووجّه إلى معنَ مَنْ يحضُر به ، فأتته رُسل امير المؤمنين وقد لبس ثيابهُ وقُرِّبت إليه دابته فدعا اهل بيته ومواليه وقال : لا يُخلَصُنّ إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف ٥ ، ثم ركِب ودخل حتى سلّم على المهدي ، فلم يَرُد عليه وقال : يا معنَ أتجيرُ علي ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونَعَمْ ايضاً ؟

١) رجل لسن وألسن فصيح ، ويجمع ألسن على لسن كأحمر وحمر (٢) فطن : جمع فطن . كجون : جمع جون ، وهذا جمع نادر ٣) مدينة السلام : هي بغداد ، اوقسم منها (٤) مجامع الثوب : ما احاط بالجيب ويقال لها تلابيب (٥) طرفت العين : تحركت .

واشتدّ غضبُه ، فقال مَعن : يا امير المؤمنين قتلتُ في طاعَتِكم باليَمَنِ في يوم واحدة خمسةَ عشر ألفاً ، ولي ايام كثيرة قد تقدّم فيها بَلائي وحسن غَنائي ، فما رأيتموني أهلاً ان تهبوا لي رجلاً واحداً استجارَ بي ؟ فأطرق المهديّ طويلاً ثم رفع رأسَه وقد سُرِّيَ [١] عنه فقال قد أجَرْنا من اجَرْتَ ، قال معن : فإن رأى اميرُ المؤمنين ان يَصِله فيكون قد أحياه وأغناه ، فعلَ ، قال : قد امرنا له بخمسة آلاف ، قال : يا امير المؤمنين إنّ صِلات الخلفاء على قدر جِنايات الرعيّة ، وإنّ ذنبَ الرجل عظيم ، فأجْزِل الصّلة ، قال : قد أمرنا له بمائة الف ، قال : فتَعَجّلها يا امير المؤمنين بأفضل الدُعاء ، ثم انصَرَف ولحَقهُ المال ، فدعا الرجلَ وقال له : خُذْ صلتك والحق بأهلك وإيّاك ومُخالفة خلفاء الله تعالى .

معن بن زائدة والأسْود

رَوى مَروان بن ابي حَفصة عن مَعنِ بن زائدة انه قال : لما جدّ المنْصور في طلبي ، وجعل لمن يحملني إليه مالاً ، اضطُرِرْتُ لِشدة الطّلب ان تعرّضت للشّمس حتى لوّحَتْ [٢] وجهي ، وخفّفتُ عارِضَيّ [٣] ، ولبِستُ جُبّة صوف ، وركِبت جَملاً ، وخرجت مُتوجهاً إلى البادية لأقيم بها ، فلمّا خرجت من باب حَرْب ، وهو أحد ابواب بغداد ، تبِعني أسود متقلدٌ سيفاً ، حتى إذا غِبت عن الحرس قبض على خِطام الجملَ فأناخه وقبض على يدي ، فقلت له : ما بِكَ ؟ فقال : أنت [٤] طِلبة امير المؤمنين ، فقلت : ومن انا حتى أُطلب ؟ فقال : انت مَعْن بن زائدة ، فقلت له : يا هذا ، اتّق الله عزّ وجل ، وأين انا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فإني والله لأعرَف بك منك ، فلما رأيت منه الجدّ قلت له : هذا عِقد جوهر ، قد حمَلته معي بأضعاف ما جعَله المنصور لمن يجيئه بي فخُذْه ولا تكن سبباً

(١) سرى عنه الهم : انكشف ، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور .
(٢) لوحه العطش والسفر : غيره ولوحت وجهه الشمس : غير لونه (٣) العارضان جانبا الوجه ، وما يكون عليهما من اللحية (٤) الطلبة : الحاجة وما يطلب .

لِسفكَ دمي ، قال : هاته فأخرجتُه إليه ، فنظر إليه ساعة وقال صدَقت في قيمته ، ولست قابله منك حتى أسألكَ عن شيء فإن صدقتني أطلقتك، فقلت : قل ، قال : إنّ الناسَ قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قطُّ؟ قلت : لا ، قال : فنصفَه ؟ فقلت : لا ، قال : فثُلُثَه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر، فاستحييت وقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، قال : ما ذاك بعظيم ؛ أنا والله راجل [١] ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته ألوفُ دنانيرَ ،وقد وَهبته لك ووهبتُكَ لنفسِك ولجودِك المأثور بين الناس ، ولتَعلم أنّ في هذه الدنيا من هو أجودُ منك فلا تعجبك نفسُكَ ولتَحقر بعد هذا كل جودٍ فعلتَه ولا تتوقف عن مَكرمة ، فقلت : يا هذا قد والله فضَحتَني ولسَفكُ دمي عَليّ أهوَن مما فعلتَ ، فخُذ ما دفعتُه لك فإني غنيٌّ عنه ، فضحك وقال : أردْت أن تكذّبني في مقالي هذا ، والله لا آخذُه ولا آخُذُ لمعروفٍ ثمناً أبدا ، ومضى لسبيله . فوالله لقد طلبته بعد أن أمِنتُ ،وبذلتُ لمن يجيء به ما يشاء،فما عرفت له خبراً،وكأنّ الأرض ابتلعته .

معاوية والأعرابية

خرج معاوية مُتَنزّهاً،فمرّ بحِواءٍ [٢] ضَخْم ، فقصد قصْد بيت منه ، فإذا بفِنائه امرأة بَرْزة [٣]،فقال لها:هل من غَدَاء ؟ قالت : نَعَمْ حاضر ، قال : وما غَداؤك؟ قالت خُبْزٌ خمير ، وماء نَمير، وحيْسٌ [٤] فطير ، ولبن هَجير [٥] ، فثنى وَرِكه ونزَلَ ، فلمّا تغدّى قال هل لك من حاجة ؟ فذكرت حاجة أهل الحواء ، قال : هات حاجتك في خاصّة نفسك ، قالت : يا أمير المؤمنين إني أكره أن تنزلَ وادياً [٦] فيرِفّ أوّلُه ويَقِفّ آخرُه [٧] .

(١) الراجل : غير الراكب (٢) الحواء ككتاب : جماعة البيوت المتدانية
(٣) البرزة من النساء : الكهلة الجليلة تبرز للقوم وتحدثهم مع العفة .
(٤) الحيس : تمر يخلط بسمن ولبن ممخوض (٥) الهجير : الخاثر من اللبن .
(٦) رف النبات : اهتز (٧) قف النبات . يبس .

الأحنف بين يدي معاوية

وَفدَ الأحنفُ بن قيس على مُعاوية مع أهل العِراق، فخرج الآذِنُ فقال: إن أمير المؤمنين يَعزِم عليكم أن لا يتكلم أحدٌ إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عَزْمة أمير المؤمنين لأخبرْته أن دافّة دفت [١]، ونازلة نزلت، ونابتة نبتت، كلّهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه، فقال معاوية: حَسْبُكَ يا أبا بحْر فقد كفَيْت الشاهد والغائب.

الأحنف بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قَيس التّميمي على عمر بن الخطاب في أهل البصرة، وأهل الكوفة، فتكلّموا عنده في أنفسهم وما يَنوب كلّ واحدٍ منهم، وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ الخيرِ بيد الله، وقد أتتك وفودُ أهل العراق وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازلَ الأمم الخالية، والملوك الجبابرة، ومنازلَ كسرى وقيصر وبَني الأصفر [٢]، فهم من المياه العذبةِ والجنان المختلفة في مثل حُوَلاء السّلى [٣] وحدَقة [٤] البعير، تأتيهم ثمارُهم غضّة [٥] لم تخضُر، وإنا أنزلنا أرضاً طرَفٌ في فَلاة، وطرَفٌ في مِلح أجاج جانب منها مَنابت القصب وجانبٌ سَبْخة نَشّاشة [٦] لا يجِفُّ ثراها ولا يَنبُت مرعاها، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذبُ الماء من فرسخَين، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرنّق [٧] لولدها ترْنيق العَنز، تخافُ عليه العدوّ والسّبُع فإلا ترْفع خَسيستنا، وتنْعَش [٨]

---

(١) يقال: دفت دافة اي أتت فئة مهاجرة (٢) بنو الأصفر عندالعرب: هم الروم (٣) السلى غلاف رقيق يكون فيه المولود، والحولاء جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد وهذا يكنون به عن الخصب وكثرة الماء والخضرة (٤) قال في اللسان وفي حديث الأحنف نزلوا في مثل حدقة البعير أي نزلوا في خصب وشبهه بحدقة البعير لأنها ريا من الماء (٥) غضة: طرية (٦) ارض سبخة نشاشة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها (٧) رنق الماء صفا (٨) نعشه: رفعه كأنعشه، والركيسة الضعيفة.

رَكيستنا وتجْبُرُ فاقتنا، وتزِدْ في عيالناعيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتُصغّر درهمنا، وتكبّر قفيزَنا[١]، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء، وإلا هلكنا، فقال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد! ثم كتب إلى أبي موسى الأشعريّ أن يحتفِر لهم نهراً.

أُسيّد بن عَنقاء - وعميلة الفزاري

كان أُسيد بن عَنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه، وأشدّهم عارضة ولساناً، وطال عمره، ونكبته دهره، واختلّت حاله، فخرج عَشية يَتبقّل[٢] لأهله، فمرّ به عُميلة الفزاري، فسلّم عليه وقال: يا عمّ ما أصارك إلى ما أرى؟ قال: بُخْل مثلك بماله، وصَوْن وجهي عن أموال الناس، فقال: لئن بقيتُ إلى غدٍ لأُغيّرنّ ما أرى من حالك، فرجع ابن عَنقاء إلى أهله، فأخبرَها بما قال له عُميلة، فقالت له: لقد غرّك كلام غُلامٍ، جنح ظلام[٣] فكأنما ألقمتْ فاه حجراً، فبات متململاً بين رجاءٍ ويأس، فلما كان السحر سمع رُغاءَ الإبل وثغاء الشاة وصهيل الخيل ولجبَ الأموال[٤]، فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا عُميلة، ساق إليك مالَه، فخرج ابن عَنقاء له، فقسَم عُميلةُ ماله شطرين، وساهمه[٥] عليه، فأنشأ ابن عنقاء يقول:

رآني على ما بي عُميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي أسرّ كما جَهرْ
دعاني فآساني ولو ضنّ لم يُلَم ... على حين لا بدْوٌ يُرجّى ولا حَضَر
فقلتُ له خيراً وأثنيتَ فعلَه ... وأوفاك ما أُبليت من ذمٍّ أو شكر
ولمّا رأى المجدَ استُعيرَت ثيابه ... تردّى رِداءً سابغ الذيل واتزر[٦]
غلام رمَاه الله بالخير مُقبلاً ... له سيمياءُ لا تشقّ على البصر[٧]
إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ... ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاءَ لانتصر[٨]

---

(١) القفيز: مكيال (٢) تبقل: خرج يطلب البقل (٣) جنح الليل او الظلام الطائفة منه (٤) اللجب: الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمه: قارعه أي ضرب القرعة (٦) تزر من الإزار — قلبت الهمزة تاء الافتعال — (٧) السيما والسيماء، والسيميا والسيمياء: العلامة يقول يفرح به من يراه للطف محياه (٨) العوراء، الكلمة القبيحة، وقرب من هذا البيت قوله:

يصم عن الفحشاء حتى كأنه ... إذا ذكرت في مجلس القوم غائب

الفضل وجعفر ابنا يحيى البرمكي

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي [١] : كانت أمُّ جعفر بن يحيى تزورُ أمي. وكانت لبيبة من النساء ، حازمةً فصيحةً بَرْزة ، يعجبُني أنْ أجدَها عند أمي فأستكثرُ من حديثها ، فقلت لها يوماً: يا أُمّ جعفر : إن بعض الناس يفضّل جعفراً على الفضل ، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر ، فأخبريني ، فقالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل، فقلت : إن أكثر الناس على خلاف هذا ، فقالت : ها أنا ذَه أُحدثك واقض أنتَ . وذلك الذي أردت منها ، فقالت : كانا يوماً يلعبان في داري ، فدخل أبوهما فدعا بالغداء وأحضرهما ، فطعما معه ، ثم آنسهما بحديثه ، ثم قال لهما : أتلعبان بالشطْرنج ؟ فقال جعفر وكان أجرأهما : نعم ! قال : فهل لاعبتَ أخاك بها ؟ قال جعفر : لا. قال : فالعبا بها بين يديّ لأرى لِمن الغَلَب؟ فقال جعفر: نعم! وكان الفضل أبصَرَ منه بها ، فجيء بالشّطرنج فصُفّت بينهما ، وأقبلَ عليها جعفر ، وأعرضَ عنها الفضل . فقال له أبوه : مالكَ لا تلاعبُ أخاك ؟ فقال : لا أُحبُّ ذلك . فقال جعفر : إنه يرى أنه أعلمُ بها منّي ، فيأنَف من ملاعبتي ، وأنا أُلاعبه مُخاطرة . فقال الفضل : لا أفعلُ . فقال أبوه لاعبْهُ وأنا معَك . فقال جعفر : رَضيتُ، وأبى الفضلُ، واستعفى أباه ، فأعفاه ، ثم قالت لي قد حدّثتك فاقضِ ، فقلت: قد قضيتُ بالفضل للفضل على أخيه ، فقالت: لو عَلمْتُ أنك لا تحْسِن القضاءَ لما حكّمتك، أفلا ترى ان جعفراً قد سقَط اربع سقطات تنزه الفضلُ عنهنّ ؟

فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج، وكان أبوه صاحب جدّ.
وسقط في التزام مُلاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغلبَه والتعرُّض لغَضَبه .
وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرْص على مال أخيه .
و لرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه لاعِبه وأنا معَك، فقال أخو دلا ،.

---

١) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة .

وقال هو نعم ؟ فناصب صفـّاً فيه ابوه وأخوه؟ فقلت : أحسنتِ ،والله وإنكِ لأقضى من الشعْبي ، ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خَفي مِثلُ هذا على جعفر ؟ وقد فطِن له اخوه ،فقالت :لولا العَزْمة لما خبرتُك إن أباهما لما خرج، قلت للفضل «خالية به» :ما منعَكَ من إدخال السرور على ابيك بملاعبةِ أخيك؟ فقــال : أمران ، احدهما : لو أني لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثاني قولُ أبي لاعِبْه وأنا معك؛فما يسرُّني ان يكون ابي معي على اخي ، ثم خلوت بجعفر ، فقلت له : يسأل ابوك عن اللعب بالشطرَنج فيصمُت اخوك وتعترف ، وابوك صاحب جدّ ؟ فقال: إني سمعت ابي يقول نِعْمَ لَهْوُ البال المكدود[1]،وقد علِم ما نلقاه من كدّ التعلم والتأدب ولم آمَنْ أن يكون بلغه أنـّا نلعبُ بها ، ولا ان يُبادر فيُنكر، فبادرتُ بالإقرار إشفاقاً على نفسي وعليه ،إن كان توبيخٌ فديته من المواجهة به . فقلت له يا بنيّ، فلم تقول ألاعبه مُخاطرة! كأنك تقامر اخاك وتستكثرُ ماله ،فقال: كلا . ولكنه يستحسنُ الدواةَ التي وهبها لي امير المؤمنين فعرَضتها عليه فأبى قبولها، وطمعتُ ان يُلاعبني فأخاطرهُ عليها،وهو يَغلبني فتطيب نفسه بأخذها ، فقلت لها : يا أُماه ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفراً دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر ، مُحلاّة بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظر إليها فوهبها له فقلت: إيهِ . فقالت : ثم قلت لجعفر : هبكَ اعتذرْتَ بما سمعت . فما عذرُك من الرضا بمناصبة ابيك حين قال لاعِبه وأنا معك ! فقلت أنت : نعم ، وقال هو : لا ؟ فقال : عرفتُ أنه غالبي، ولو قتَرَ لعبه لتغالبت له ، مع مالـّه من الشرف والسرور بتحيُّز أبيه إليه . قال محمد بن عبد الرحمن : فقلت : بَخٍ بَخٍ [2]هذه والله السيادة !ثم قلت لها : يا أُماه — أكان منهما مَن بلغ الحُـلم ؟ فقالت : يا بني ، أين يُذهَب

---

(١) كده : أجهده وأتعبه .

(٢) يقال : بخ بخ — وبخ بخ : إعجاباً بالشيء وإظهاراً للسرور به

بك ! أخبرُك عن صبيين يلعبان،فتقول : « أكان منهما من بلغ الحُلم »؟! لقد كنا ننهى الصبيَّ إذا بلغ العشْر ، وحضر من يُستَحى منه ، أن يَبتسم .

براعة الرشيد في الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يُضاحك المأمون فقال: اللهم زدْهُ من الخيرات ، وابسُط له من البركات ، حتى يكونَ في كل يومٍ من أيامه مرْبياً على أمسِه ، مقصِّراً عن غده .

فقال له الرشيد يا سهل، مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه،ومن الحديث أفصحَه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول .

فقال سهل: يا امير المومنين ما ظننتُ ان احداً تمدَّمني إلى هذا المعنى. قال بل أعشى همْدان حيث يقول :

رأيتُك أمسِ خير بني لؤَيّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنتَ غداً تزيد الخيرَ ضِعفاً كذاك تزيدُ سادةُ عبد شمسِ

الواثق وابن أبي دُؤاد

قال ابو العيناء: دخل ابنُ أبي دُؤاد على الواثق فقال له : ما زال اليوم قومٌ في ثلبك ونقصِك . فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم،والذي تولى كِبره منهم له عذابٌ عظيم،والله وليُّ جزائه ، وعقابُ أمير المؤمنين من ورائه،وما ذَلَّ يا أمير المؤمنين مَن كنتَ ناصرَه،ولا ضاع من كنت حافِظه ، فماذا قلت لهم يا امير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبدالله :

وسعى إليَّ بعَيبِ «عزّة» معشرٌ جعل الإلهُ خدُودهُن نِعالَها

المنصور والربيع بن يونس [1]

قال سعيد بن مُسلم بن قتيْبة دعا المنصور بالربيع فقال : َسلني مـا تريد ؟ فقد سكتْ حتى نطقت [2] وخففْتَ حتى ثقلت ، وأقللتَ حتى أكثرْتَ . فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أرْهَبُ بخلك ، ولا أستقصِرُ عمرَك ، ولا أستصغرُ فضلك ، ولا أغتنمُ مالكَ ، وإن يوميّ بفَضْلك عليّ أحسن من أمسي ، وغدُك في تأميلي أحسنُ من يومي ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سَبقني في ذلك احد .

قال : صدقت . علمي بهذا منك أحَلـّك هذا المحل ، فسَلني ما شئت !

قال : أسألك أن تقرّب عبدَك « الفضل » وتُؤْثرَه وتحبه

قال : يا ربيع ، إن الحبّ ليس بمالٍ يوهب ، ولا رُتبة تُبذل، وإنما تؤكده الأسباب .

قال : فاجعل لي طريقاً إليه بالتفضل عليه .

قال : صدقت وقد وصلتُه بألف الف درهم ، ولما أصِلْ بهذا احداً غير عومتي لتعلم ما له عندي ، فيكون منه ما يستدعي به محبتي . وكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟.

قال : لأنها مِفتاح كل خيرٍ ، ومغلاقُ كل شرّ ، تستتر بهـا عندك عُيوبه وتصير حسناتٍ دنوبه . قال : صدقت ، وأتيتبما أردت .

الأعرابي السائل

وقفَ أعرابي يسألُ ، فعبثَ به فتى ، وقال : مِمّنْ انت ؟

فقال الأعرابي : من بني عامر بن صعْصعة قال من أيهم ؟.

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور، توفي سنة ١٧٠ هـ .

(٢) يقول : إنك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك ، فقام السكوت مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعده .

قال : إن كنت أردتَ عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدارُ من المعرفة،ليس مقامي بمقام مجادلة ولا مُفاخرة ، وأنا اقول : فإن لم أكن من هاماتهم [1] فلست من أعجازِهم .

فقال الفتى : ما رويت عن فضيلتِك إلا النقص في حسَبِك .

فامتعض[2] الأعرابي لذلك ، فجعل الفتى يعتذرُ ، ويخلط الهزْلَ والدُّعابة[3] باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابي : يا هذا ! إنك منذ اليوم أدبتني بمزحك ، وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف من جهلك بكلامك ما كان السكوتُ يستره من أمرك ، ويحَكَ ، إن الجاهل إن مزَح أسخط وإن اعتذر أفرط ، وإن حدَّث أسقط[4] ،وإن قدَّرَ تسلط، وإنْ عزمَ على أمرٍ تورَّط[5] ، وإن جلس مجلس الوقار تبَسَّط[6] ، أعوذ منك ومن حالٍ اضطرَّتني إلى احتمال مثلك .

معاوية والأحنف بن قيس

لما عزَم معاوية على البيعة ليزيد ، كتب إلى زياد أن يوجّه إليه بوفد أهل العراق فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة ،فتكلّمتْ الخطباء في يزيد والأحنفُ ابن قيس ساكتٌ ، فلما فرغوا ؛ قال : قل يا أبا بحر فإن العيون إليك أشرعُ[7] منها إلى غيرك ، فقام الأحنف فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ﷺ ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين،إنك أعلَمُنا بيزيد في ليلهِ ونهاره ، وإعلانه وإسراره،فإن

---

(١) الهامات : الرءوس (٢) امتعض : تألم (٣) الدعابة اللعب والمزاح (٤) أسقط : أخطأ (٥) تورط في الأمر : وقع وارتبك (٦) تبسط : اكثر من القول وجانب الاحتشام (٧) أشرع : ارفع واكثر نظراً .

كنتَ تعلمُه لله رضاً ، فلا نُشاورْ فيه احداً ، ولا نُقِم له الخطباءَ والشعراء ، وإن كنتَ تعلم بُعدَه من الله ، فلا تُزوّدْه من الدنيا وترْحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يوم يفِرُّ المرء من اخيه ، وأمِّه وأبيــه ، وصاحِبَتِه وبنيــه . فكأنه أفرغ على معاوية ذَنوب [1] ماءٍ بارد .

فقال له : أقعد يا أبا بحر ، فإنَّ خيرةَ الله تجري ، وقصاءه يمضي ، وأحكامه تَنفُذُ ، ولا مُعقّبَ لحُكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، وإن « يزيد » فتى بَلوْناه ولم نجدْ في قريش فتىً هو أجدر بأن يُجتمع عليه منه .

فقــال : يا امير المؤمنين . أنت تحْكي عن شاهد ، ونحن نتكــلم عن غائب وإذا أراد الله شيئاً كان .

الحجاج ورسول المهلّب

يُروى أن المهلبَ [3] لما فرَغ من امْرِ عبد ربّه الحرُوري [4] ، دعا بِشر بن [5] مالك . فأنفذَه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال . ما اسمُك ؟ قال : بِشر بن مالك ، فقال الحجاج : بشارةٌ ومُلك ، كيف خلّفتَ المُهلب ؟ قال خلّفته وقد أمِنَ ما خاف ، وأدْرك ما طلب ، قال : كيف كانت حالكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البُداءة لهم ، والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبة للمتقين ، فما حال الجُند ؟ قال : وسِعَتهم الحق وأغناهم النفل [6] ، وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل

---

(١) الذنوب : الدلو الملأى ، جمعه أذنبة وذنائب (٢) اي لا راد لقضائه (٣) هو المهلب بن ابي صفرة الأزدي . كان شجاعاً مهيباً وقائداً من اكبر قواد الجيوش في الدولة الأموية ، وهو الذي شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفي ٨٣ (٤) الحروري نسبة إلى حروراء على غير القياس وهي بلدة بقرب الكوفة ، والحرورية : فرقة من الخوارج كالأزارقة (٥) كذا في زهر الآداب ، وفي تاريخ ابن خلكان ان اسم الرسول مالك بن بشير (٦) النفل : الغنيمة وجمعه أنفال .

بهم قتال الصعلوك، فلهم منه برّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رُعاة البيات حتى يأمنوا، وحُماة السرح[١] حتى يردُّوه، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال وأنت أيضاً، فإني أرى لك لساناً وعبارة، قال: هم كالحلقة المفرغة[٢] لا يُدرى أين طرفاها، قال: ويحكَ! أكنتَ أعددتَ لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، فقال الحجاج لجلسائه هذا - والله - الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع.

حديث معاوية وليلى[٣] الأخيلية

قال بعضُ الرُّواه. بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شُرَطه ائتني به وإياك أن تروعه. فأتاه فقال: أجب امير المؤمنين، فقال إياه أردتُ، فلما دنا الراكبُ حدَرَ لثامه، فإذا ليلى الأخيلية. فأنشأت تقول:

مُعاوِيَ لم أكد آتيك تهوي ... برَحْلي نحو ساحتِك الرِّكابُ
تجوبُ الأرض نحوَك ما تأنى ... إذا ما الأكْم قنّعها السَّراب[٤]
وكنت المرتجى وبك استعاذت ... لتنعشها إذا بَخِلَ السَّحابُ

فقال: ما حاجتُكِ؟ قالت: ليس مِثلي يطلبُ إلى مثلك حاجة، فتخير أنت اعلى عَيْناً، فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال: أخبريني عن مُضر، قالت فاخِرْ بمضر، وحارِبْ بقيس، وكاثِر بتميم، وناظِرْ بأسد[٥].

فقال: ويحكِ يا ليلى؟ أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين

---

(١) السرح: الماشية في المرعى (٢) الحلقة المفرغة: المصبوبة قطعة واحدة؛ وهذه الجملة مثل: لا امرأة عربية (٣) ليلى الأخيلية: أشعر امرأة عربية بعد الخنساء (٤) الأكم: واحده أكمة — وسكنت الكاف للوزن — تقول: إن ركابها تجول في الأرض قاصدة معاوية، ولا تتأبى عند اشتداد الحر اذ تتغطى الآكام بالسراب (٥) مضر: اصل لقيس وتميم وأسد. تقول. ان مضر ذات مجد عظيم وقيس أهل البسالة والإقدام وتميم ذوو الكثرة والعدد واسد اهل الحجة واللدد.

ليس كلُّ الناس يقولُ حقاً،الناس شَجَرة بغي يحْسُدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ، كان يا أمير المؤمنين : سبْط البنان ، حَديد اللسان ، شجى الأقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزَر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أبعُدْ عن الحق فيه :

بعيدَ المدى لا يبلُغُ القَرْم غورَه ألدُّ مَلدٌ يغلِب الحق باطله [1]

فقال معاوية : ويحكِ يا ليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجراً. فقالت من ساعتها مرتجلة :

مَعاذ النُّهى قد كان واللهِ توبةٌ جواداً على العلاّت جمّاً نوافلُه [2]
أغرّ خفَاجيّاً يرى البخل سُبّةً تحالف كفاه النّدى وأناملُهْ
عفيفاً بعيد الهم صُلباً قناتُه جميلاً مُحيّاه قليلاً غوائلُهْ [3]
وكان إذا ما الضيفُ أرغى بعيرُه لديه أتاهُ نيلُه وفواضلُهْ
وقد علِم الجدْبُ الذي كان سارياً على الضيفِ والجيرانِ أنك قاتلُهْ
وأنك رَحْب الباع يا توبَ بالقرى إذا ما لئيم القَوْمِ ضاقتْ منازلُهْ
يبيتُ قريرَ العين من كان جاره ويُضحي بخير ضيفه ومُنازله

فقال لها معاوية وَيحَكِ يا ليلى! لقد جُزْتِ بتوبة قدره ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، والله لو رأيْتَه وخبرته لعلمْتَ أني مُقصّرة في نعته ، لا أبلغ كُنْهَ ما هو له أهلٌ ، فقال لها معاوية : في أي سِن كان توبة ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أتته المنايا حين تمّ تمامه وأقصَرَ عنه كل قِرن يُناضلُهْ
وصار كلَيْثِ الغاب يحمي عَرينه فترضى به أشبالُه وحلائلُهْ

---

(١) القرم السيد ، والألد : الشديد الخصومة ، والملد مبالغة في الألد تقول: لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق .

(٢) على العلات : اي على كل حال . والنوافل العطايا .

(٣) الغوائل : الدواهي : وفلان قليل الغوائل . اي ليس فيه ما يعيبه العشير .

عطوفٌ حليمٌ حين يُطلب حلمه وسُمٌّ زُعافٌ لا تصاب مقاتلهْ

فأمر لها بجائزة ، وقال : أيّ ! ما قلتِ فيه أشعر .

قالت : يا امير المؤمنين، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خِصال الخير أكثرَ ولقد أجدْتُ حيث أقول :

جزّى اللهُ خيراً والجزاءُ بكفه فتىً من عقيل ساد غيرَ مكلف
فتىً كانت الدُّنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفكَّ جمَّ التصرُّف
ينال عليّات الأمور بهَوْنةٍ إذا هي أعيَت كلَّ خِرقٍ مُسوَّف[1]

الحارث[2] بن عوف المري ومصاهرته أوس[3] بن حارثة الطائي

يرْوى أن الحارثَ بن عوف المُرّي قال يوماً لخارجة بن سنان المرّي . أتراني أخطب إلى أحد فيردّني ؟ قال : نعم ، قال : ومن ذاك؟ قال: أوْسُ بن حارثة بن لأم الطائي . فقال الحارث لغلامه ارْحلْ بنا . ففعل . فركبا حتى أتيا أوساً فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، قال وبك. قال: ما جاء بك ! قال : جئتك خاطباً، قال: لستَ[4] هناك، فانصرف ولم يُكلمه . ودخل أوسٌ على امرأتِه مُغضَباً — وكانت من بني عبْسٍ[5] — فقالت : مَنْ

(١) الهونة : التؤدة والخرق ، الفتى الحسن الكريم السجايا والمسوف : من يصنع ما شاء لا يرده أحد .

(٢) هو أحد عظماء ذبيان ومرة : بطن من ذبيان. والحارث أحد السيدين اللذان سعيا في الصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التي دامت نحو اربعين سنة وقد احتملا في مالها خاصة غرامة تلك الحرب .

(٣) هو سيد طيء في زمانه ، وفيه يقول الشاعر :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي فيمن قضاها
فما وطيء الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٤) اي لست كفؤاً (٥) عبس وذبيان أبناء عم .

الرجل الذي وقف عليك فلم يُطِل ولم تكلمه ؟ قال ذاك سيد العرب الحارث ابن عوف المرّي ، قالت فما لك لا تستنزله ؟ قال : إنه استحمق [١]، قالت : وكيف ؟ قال : جاءني خاطباً ، قالت : أفتريد ان تُزَوِّج بناتك ؟ قال : نعم ، قالت فإذا لم تُزوِّجْ سيد العرب ، فمن ؟ قال : قد كان ذلك ، قالت : فتداركْ ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : تلحقُه فتردّه ؟ قال : وكيف وقد فرطَ مني ما فرط إليه ؟ قالت ، تقول له : إنك لقيتَني مُقتضباً [٢] بأمر لم يتقدّم مني فيه قول ، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت ! فإنه سيَفعلُ ، فركب في أثرهما ، قال خارجة بن سنان : فوالله إني لأسيرُ إذ حانت مني التفاتة ، فرأيته فأقبلت على الحارث وما يُكلمُني غمّاً ، فقلت له : هذا أوسُ بن حارثة في أثرنا قال وما نصنعُ به ؟ امْضِ ، فلما رآنا لا نقف عليه ، صاحَ ، يا حارثُ أربع [٣] على ساعة ، فوقفنا له ، فكلمنا بذلك الكلام ، فرَجعَ مسروراً .

فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ، ادْعي لي فلانة - لأكبر بناته فأتته ، فقال : يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيدٌ من سادات العرب ، قد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت ان أُزوِّجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولِمَه ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي رَدّة [٤] وفي خلقي بعض العُهدة [٥] ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمنُ ان يرى مني ما يكره فيُطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله عليك ادْعي لي فلانة ، لابنته الوسطى ، فدعتها ثم قال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خَرقاء [٦] وليست بيدي صناعة ، ولا آمنُ ان يرى

(١) استحمق ، فعل فعل الحمقى (٢) الاقتضاب ، المفاجأة (٣) ربع عليه : وقف او مال اليه (٤) يقال في وجهه ردة ، أي قبح مع شيء من الجمال (٥) العهدة ، الضعف (٦) الخرقاء ، التي لا تحسن صنعة .

مني ما يكره فيُطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلمُ ، وليس بابن عمي فيرعى حقي ولا جارك في بلدك فيستحييك ، قال : قومي بارك الله عليك ، ادْعي لي « بَهْيسة » – يعني الصغرى – فأتى بها ، فقال لها كما قال لهما ، فقالت : أنت وذاك ، فقال لها : قد عرضت ذلك على أُختيكِ فأبتاه ، فقالت – ولم يذكر لها مقالتيهما : لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع [١] يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ، فقال : بارك الله عليك .

قال خارجة ، ثم خرج الينا فقال : قد زوجتك يا حارث « بَهيسة » بنت أوْس قال : قبلت ، ثم أمر أمَّها ان تهيّئها ، وتصلح من شأنها ، ثم أمر ببيت فضُرِب [٢] له ، وأنزله إياه ، فلما هُيّئت بعث بها اليه ، فلم يلبث عندها لاهُنَيهة [٣] ثم خرج إلي ، فقلت : بنيت بأهلك ؟ قال : لا والله ، فإني لما دَنوْت منها قالت : مَهْ أعِندَ ابي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون ، قال خارجة : ثم ارتحلنا بها فسِرْنا ما شاء الله ثم انتحى بها ناحية ، ولم يلبث ان عاد إلي ، فقلت : أبَنَيت بأهلك ؟ قال : لا والله فقد قالت أكما يُفعل بالأمة الجلبة [٤] ؟ والسبية الأخيذة [٥] ؟ لا والله حتى ينحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يُعمل لمثلي ، قلت : والله إني لأرى همة وعقلاً ، وارجو ان تكون المرأة مُنجِبة إن شاء الله ، فرحلنا حتى قدمنا وأحضَرَ الإبل والغنم ، ثم خلا بها ولم يَلبث أن خرج فقلت : أبنيت بأهلك ؟ قال : لا – قد قلت لها احضرنا من المال ما قد تريدين ، فقالت : والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا اراه فيك . قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغُ للنساء والعرب يقتلُ بعضها بعضاً ؟ – وذلك في أيام حرب عبس وذبيان – قلت : فماذا تريدين ؟ قالت : اخرج الى هؤلاء القوم

---

(١) امرأة صناع ، حاذقة في الصناعة (٢) ضرب : أقيم ، وبني له بيت
(٣) الهنيهة : الزمن اليسير (٤) الجليبة ، المجلوبة
(٥) الأخيذة ، المأخوذة .

فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك ، قال خارجـة ، فقلت : والله إني لأرى همة وعقلاً ، قال : ماخرج بنا فخرجنا حتى أتينـا القوم فمشينا فيما بينهم بالصُّلح ، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذكر [١]

ولو كان النساء – كمثل هذي – لفُضّلَت النساء على الرجالِ

سَودة بنت عمارة ومعاوية

قال عامر الشعبي : وفدتْ سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمَدانية على معاوية ابن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها: كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين، قال لها أنت القائلة لأخيك:

شمّر لفعـل أبيك يا بن عمارة   يوم الطـّعـانِ ومُلتقى الأقرانِ
وانصر علياً والحسينَ ورهطَه   واقصد لهند [٢] وابنهـا بهوان
إنـّ الإمام أخا النبيّ محمـد   عَلمُ الهدى ومنارةُ الإيمـانِ
فـَقُدِ الجيوشَ وسِر أمام لوائه   قُدُماً بأبيض صارم وسنانِ

قالت يا امير المؤمنين مات الرأس وبُتر الذنب ، فدَع عنك تذكارَ ما قد نُسي ، قال : هيهات ، ليس مثل مقام أخيك نسي ، قالت : صدقت ، والله يا امير المؤمنين ، ما كان اخي خفي المقام، ذليل المكان،ولكن كما قالت الخنساء:

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به   كأنـه علـَمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسألك يا امير المؤمنين إعفائي مما استعفيته ، قـال : فعلت ، فقولي حاجتك ، قالت :

---

(١) وقد خلد زهير هذا الذكر الجميل في معلقته اذ يقول من ابيات كثيرة :

يميناً لنعم السيدان وجدتمـا   على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدمـا   تمانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(٢) هند : هي أم معاوية .

يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأمورهم مُقَلَّد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدمُ علينا من ينهض بعزّك ، ويَبسُط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السُّنبُل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ١ ويسألنا الجليلة ، هذا ابن أرطاة ، قَدِم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة ، لكان فينا عِزّاً ومنعة ، فإما عزلته فشكرناك ، وإمّا لا فعرفناك ، فقال معاوية : أإياي تُهددين بقومك ؟ والله لقد هَمَمت أن أردّك اليه على قَتَب أشرس ٢ فيُنفِذ حكمه فيك ، فسكتت ، ثم قالت :

صلى الإله على روح تَضَمَّنَه قبرٌ فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك؟ قالت : عليّ بن أبي طالب ،قال : ما أرى عليك منه أثراً ، قالت : بلى ، أتيته يوماً في رجل ولاّه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يُصلي فانفتل ٣ عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه الى السماء وقال : اللهم اني لم آمرهم بظلم خَلقِك ،ولا ترك حقك ،ثم أخرج من جيبه قطعةً من جِراب ،فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم « قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيلَ والميزان ولا تَبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعثَوْا في الأرض مُفسدين، بَقيّة الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ » إذا أتاك كتابي هذا فاحتفِظْ بما في يَدَيك حتى يأتي من يَقبِضهُ منك والسلام فعز له يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها ،فقالت : أليَ خاصة أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذنٌ

(١) سامه الأمر : كلفه إياه . تقول : يجشمنا دنايا الأمور .
(٢) القتب : الرحل الصغير ، والأشرس : الخشن الغليظ .
(٣) انفتل ، انصرف .

الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلاً فشاملاً ، وإلا يسعني ما يسعُ قومي ، قال : هيهات ، لمّظكم [١] ابن أبي طالب الجرأة ، وغرّكم قوله :

فلوْ كنت بواباً على باب جنّةٍ لقلت لهَمْدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديتُ همْدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحةُ الباب

كالهنْدُواني لم تفلل مضاربه وجهٌ جميل وقلب غير وجّاب

اكتبوا لها بحاجتها .

أم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أبي حُذافة . حبس مروان وهو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها ، فأتته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت جُشَمَة المذحجيّة فكلمته في الغلام ، فأغلظ مروان لها ، فخرجت الى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال مرحباً بابنة جشمة ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتك تشتميننا وتحضّين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبَني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يَسْفَهُون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وان أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت ، قال : صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قولك :

عَزَبَ الرُّقاد فمقلتي لا ترقُد والليل يُصدر بالهموم ويُوردُ

يا آل مذْحج لا مُقام فشَمّروا إن العدوّ لآل أحمد يقصدُ

هذا عليّ كالهلال تحُفّه وسط السماء من الكواكب أسعُدُ

خيرُ الخلائفِ وابن عم محمد إن يهدكُم بالنور منه تهتَدوا

ما زال مُذ شهد الحروب مُظفّراً والنصر دون لوائه ما يفقدُ

---

(١) لمظه الشيء : منحه اياه .

قالت. كان ذلك يا أمير المؤمنين — وأرجو أن تكون لنا خلفاً. فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة .

إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعرَف هاديــاً مَهْديا
فاذهب عليكَ صلاة ربك ما دعت فوقَ الغُصون حمامةٌ قُمْريّا
قد كنت بعدُ محمد خَلَفــاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفيا
واليومَ لا خلفٌ يُؤَمل بعدهُ هيهات نأمــلُ بعدهُ إنْسيّا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان فطن ، وقول صدق ، ولئن تحقق ما ظنننــا فحظّك الأوفر، والله ما ورثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض مقالتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً. ومن المؤمنين حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله ما مِثلك مدح بباطل ولا اعتُذِر إليه بكَذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا

شكراً لربي الذي أعانني على طبع الجزء الأول ويليه الجزء الثاني
وأوله : « الفن السابع في التاريخ »